جوستين غاردر

مايا

رواية



ترجمة: ياسين الحاج صالح






مايا

* مايا (رواية)
* جوستين غاردر
* الطبعة الأولى عام 2001
كمية الطبع 1000 نسخة

* دار الكلمة للنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ـ ص.ب: 2229
هاتف ، فاكس : 2126326

* موافقة وزارة الإعلام على الطباعة:
رقم 60684 تاريخ 15 - 7 - 2001

Alkalemah for publishing and Distribution
Baramikah - Damascus - Syria
P. O. Box : 2229, Telephone/Fax: 2126326

جوستين غاردر



رواية

ترجمة: ياسين الحاج صالح



تمهيد

لن أنسى ما حييتُ صباحاً رطباً عاصفاً من صباحات كانون الثاني 1998، الصباح الذي حط فيه فرانك في تاڤوني، الجزيرة الفيجية الصغيرة. كان الرعد قد زمجر طوال الليل السابق، وقبل الإفطار، كان أصحاب منتجع ماراڤوبلانتيشن ريزورت منهمكين في محاولة إصلاح الأضرار التي أصابت قسم الكهرباء. ولمّا كان مخزن الطعام المجمد بكامله مُعرّضاً للخطر، فقد تطوّعتُ للذهاب بسيارتي إلى (ماتئي) لاصطحاب بعض الضيوف الجدد المتوقع وصولهم إلى جزيرة «تعاقب الأيام»(*) على متن الطائرة القادمة، ذلك الصباح، من (نادي). كان كلٌّ من (أنجيلا) و (جوشن كيس) عظيم الامتنان لعرضي باصطحاب الضيوف، وأشار جوشن إلى أنه في وسع المرء دائماً أن يعتمد على الإنكليزي في الأزمات.

لحظتُ النرويجي الرصين حالما دخل اللاندروفر. كان في نحو الأربعين، متوسط الطول، أشقر مثل معظم الاسكندنافيين، بَيْدَ أن عينيه كانتا بُنّيتين، وسيماءه توحي بالاكتئاب. عرّف عن نفسه باسم فرانك أندرسون، وأذكر أني داعبتُ في خاطري احتمال كونه واحداً من تلك السلالة النادرة التي يشعر أفرادها طوال حياتهم أنهم مُثقلون بالأسى، أسى نقص البهجة وضآلة فُرص البقاء في وجودنا. ولم يتبدّد ذلك الافتراض حين علمتُ، في ذلك المساء ذاته،

(*) تقع على خط الطول 180 درجة، أول مكان تشرق عليه الشمس. م.

أن الرجل عالِم أحياءٍ تطوّري. فبالنسبة للأشخاص المهيئين للمزاج القاتم، ليس علم الأحياء التطوري ذاك العلم الذي يرفع المعنويات.

في المنزل هنا في كرويدن، وعلى مكتبي ثمة بطاقة بريدية مدعوكة مُرسلةٌ من برشلونة بتاريخ 26 أيار 1992. تمثّل الصورة قلعة رملية غير مكتملة البناء، يُفترض أنها كاتدرائية (غودي) المسماة لاساغرادا فاميليا. وقد كُتب على ظهرها:

فرانك الغالي

أنا قادمة إلى أوسلو يوم الأربعاء. لكنني لن أكون بمفردي، سيكون كل شيء مختلفاً هذه المرة. يجب أن تُعِدَّ نفسك لأمرٍ ما. لا تحادثني بالهاتف! أريد أن أحس بجسدك قبل أن تُقْحِم الكلمات نفسها بيننا. أتَذْكر الإكسير السحري؟ سنتذوق قريباً جداً بضع قطرات منه. أشعر أحياناً بخوف شديد. أمَا من خطوةٍ نخطوها معاً لنتصالح مع المرور الوجيز للحياة؟

فيراكَ أنت.

ذاتَ عصرٍ، بينما كنّا نجلس منحنيين على كأسين من البيرة في بار ماراثو، أراني فرانك البطاقة البريدية بكاتدرائيتها ذات الأبراج الشاهقة. كنت أروي له كيف فقدتُ شيلا قبل بضع سنوات خَلَتْ، وكان قد مضى وقت طويل على جلوسه هناك قبل أن يفتح محفظته ويُخْرِج منها بطاقة بريدية مطوية. بسطَ البطاقة ووضعها على الطاولة أمامنا. كانت عبارات التحية مكتوبة بالإسبانية، لكن النرويجي ترجمها كلمة كلمة. بدا كما لو أنه بحاجة إلى مساعدتي لاستيعاب ما ترجمه هو بالذات.

سألته: «من هي ڤيرا؟ أهي زوجتك؟».

أومأ برأسه أن نعم.

«التقينا في إسبانيا في نهاية الثمانينيات. بعد أشهر قليلة كنا نعيش معاً في أوسلو».

«لكن حياتكما المشتركة لم تَدُم؟».

هز رأسه، وبعد قليل، أضاف: «بعد عشر سنوات عادت إلى برشلونة. جرى ذلك في الخريف الماضي».

تدخلتُ بالقول: «ڤيرا ليس اسماً إسبانياً مألوفاً، أو اسماً كاتالانياً على وجه الخصوص».

قال: «إنه اسم بلدة صغيرة في الأندلس. حُمِلَ بڤيرا هناك حسب قول عائلتها».

حدّقتُ بالبطاقة البريدية أمامي.

«وكانت تذهب إلى برشلونة لزيارة عائلتها؟».

هزّ رأسه ثانية: «كانت قد قضت هناك بضعة أسابيع للدفاع عن أطروحتها لشهادة الدكتوراه».

«حقاً؟».

«عن هجرة الإنسان من أفريقيا. ڤيرا عالمة إحاثة».

«من جلبت معها إلى أوسلو؟» استفهمتُ.

ثبّت نظره على كأسه.

«سونيا»، هذا كل ما قاله.

«سونيا؟».

«ابنتنا سونيا».

«كان لك ابنةٌ إذن؟».

أشار إلى البطاقة البريدية: «هكذا عرفتُ أن ڤيرا حامل».

«وليدتُك أنت؟».

لمحتُ خلجةً تعبر جسده.

«نعم، وليدتي أنا».

استنتجتُ أن أمورهما ساءت عند نقطة ما من مسارها، وكنت أحاول النفاذ إلى حقيقة ما حصل. لم تزل أمامي بضع كلمات لفهم ما استغلق عليّ: «وهذا «الإكسير السحري» الذي كان عليك أن تتذوق بضع قطرات منه؟ يبدو أنه مُغوٍ شديد الإغواء».

تردد برهة. ثم أزاح فكرة الغواية كلها جانباً بابتسامة تكاد تكون حييّة.

قال: «لا، هو شيء شديد الحماقة. إنه واحد من استيهامات ڤيرا».

لم أصدّقه. خمّنتُ أنه واحد من استيهامات فرانك وڤيرا.

أومأتُ للنادل طالباً البيرة مرة أخرى. كان فرانك لم يكد يلمس كأسه.

«تابِع الكلام»، قلتُ.

«جَمَعَنا ذات العطش المتطرّف للحياة. أو قد يكون عليّ أن أسميه «توقاً حارقاً للأبدية». لست أدري إن كنتَ تفهم ما أعنيه بذلك؟».

كم أفهم ذلك! شعرت بقلبي يخفق بقوة في صدري، فرأيت أن من المستحسن أن أهدأ قليلاً. اكتفيتُ برفع إحدى راحتيّ مشيراً إلى أن لا حاجة لشرح ما يعنيه بتوقٍ حارقٍ للأبدية. أطاع ما دلّتْ عليه إيماءتي. من الواضح أن تلك لم تكن أول مرّة يحاول فيها فرانك شَرحَ ما يعنيه بتلك العبارة المحددة.

«لم أصادف أبداً تلك الحاجة العنيدة عند امرأة. كانت ڤيرا شخصاً دافئاً وعملياً. لكنها أيضاً عاشت كثيراً في عالمها هي، أو فيما يجب أن أسميه عالم علم الإحاثة. كانت واحداً من أولئك الذين يميلون نحو العمودي أكثر مما نحو الأفقي».

«حقاً؟».

«لم تكن لِتُعنى بِهَرَج الحياة ومَرَجِها، أو بما تراه في المرآة خاصة. كانت جميلة، بل جميلة جداً في الواقع. لكنني لم أرَها البتة تنظر في مجلة أزياء أو زينة».

لبث في جلسته يبلل إصبعهُ بالبيرة.

«حكَتْ لي مرة عن أحلام يقظة جامحة كانت تراودها أيام صباها عن جرعة سحرية تمنحها حياة مخلّدة إن هي شربت نصفها. سيكون لديها عندئذ وقت لا حدّ له للبحث عن رجل تعطيه النصف الآخر. وهكذا كانت على يقين بأنها ستجد الرجل المناسب يوماً. إن لم يحدث ذلك في الأسبوع التالي، فسيحدث خلال مئة أو ألف عام».

أشرتُ إلى البطاقة مجدداً: «وها قد عثرت على إكسير الحياة؟».

ابتسم ابتسامة تسليم.

«حين وصلتْ عائدة من برشلونة في بداية صيف 1992 أعلنت بجدية أنه كان علينا الحصول على بضع قطرات من الشراب السحري الذي حلمتْ به في صغرها. كانت تشير إلى الطفل الذي سيأتينا. الآن، ها هو مقدار صغير من كل منا قد بدأ يعيش حياته هو. ربما ينجب هذا الجنين نسْلهُ هو فيما سيأتي من دهور».

«الذّرّية تعني؟».

«نعم، ذاك ما كانت تفكر به. في الواقع تحدّر كل كائن بشري على الكوكب من أنثى وحيدة عاشت في أفريقيا قبل مئات الألوف من السنين».

تناول رشفة من بيرته ولبث صامتاً لوهلة. حاولتُ أن أُخْرِجه من صمته مرة أخرى.

رجوته: «هلّا تابعت من فضلك».

ألقى نظرة نافذة في عينيّ، كما لو كان يقدّر ما إذا كنت رجلاً جديراً بالثقة.

«حين جاءَت إلى أوسلو تلك المرّة، أكّدت لي أنها ما كانت لتتردد في مشاركتي لها إكسيرها السحري لو أنها حصلت عليه. لم أنل أي أكسير سحري بالطبع، بيد أن تلك اللحظة بقيت لحظة عظيمة بالنسبة لي. لمحتُ شيئاً نبيلاً في تجاسرها على القيام باختيارٍ لن يمكن إلغاؤه أبداً».

أومأت برأسي مؤيداً، وقلتُ: «يندر أن تَعِدَ بوفاء أبدي هذه الأيام. يبقى الناس معاً طالما الأمور تسير سيراً حسنا. لكن ثمة أوقات عصيبة أيضاً. في أوقات كهذه، يتبعثر الناس ويمشي كل في سبيله».

صار الآن أكثر حماسةً.

«أظن أني قادر على تذكر ما قالته حرفياً: «بالنسبة لي ثمة رجل واحد وأرض واحدة. أشعر بالأمر بهذه القوة لأني أعيش مرة واحدة فقط»».

قلتُ متفهماً: «هذا اعتراف قوي بالحب، لكن ماذا حدث بعد ذلك؟».

كان مقتضباً جداً في كلامه. أبلغني، بعد أن أفرغ كأسه، أنهما فقدا سونيا حين كانت في الرابعة والنصف، ولم يستطيعا بعد ذلك المضيّ في العيش معاً؛ إذ كان هناك كثيرٌ من الأسى تحت سقف واحد حسب قوله. ثم اكتفى بالجلوس حيث هو مُركّزاً بصرهُ على بستان النخيل.

لم يُثَر الموضوع مجدداً، رغم محاولتين حذرتين من جانبي لبعث حياة جديدة فيه. كذلك انقطعتْ محادثتنا حين طفر علجوم(*) ضخم إلى الأرضية المرتفعه حيث كنا نجلس. كان هناك صوت «توب!» وإذا بالعلجوم ذاته يجثم تحت الطاولة بين أقدامنا.

قال: «علجوم قصب».

«علجوم قصب؟!».

«أو بوفو مارينُس. جُلبت العلاجيم من هاواي عام 1936 لمكافحة ازدياد عدد الحشرات في مزارع قصب السكر، وقد تكاثرتْ هنا».

(*) العلجوم نوع من الضفادع.

أشار نحو بستان النخيل حيث رأينا أربعة أو خمسة علاجيم أخرى. بعد ذلك بدقائق كان في وسعي عدُّ عشرة أو اثني عشر منها في العشب الندي. كنتُ قضيتُ أياماً في الجزيرة ولم أر أبداً عدداً كهذا دفعةً واحدة. بدا كأن فرانك يجتذب العلاجيم اجتذاباً، وقبل مضيٍّ وقت طويل، كان ثمة ما يزيد على عشرين عيّنة منها في مجال رؤيتنا. ملأني مشهد هذه العلاجيم بالإشمئزاز.

أشعلتُ سيكارة؛ وقلت: «لا أزال أفكر بالإكسير الذي ذكرتَ. ما كان كل امرء ليجسر على لمسه. أظن أن معظم الناس ما كانوا ليقربوه».

ثم أوقفتُ قداحتي منتصبة على الطاولة، وهمست: «إنها قداحة سحرية. إن أشعلتَها الآن، ستعيش إلى الأبد».

نظر في عينيَّ دون بصيص من ابتسامة. كان كأنما حدقتاه تتوهجان.

قلت مشدداً: «لكن فكِّر بِتَرَوٍّ، هذه فرصتك الوحيدة، وقرارك لن يكون قابلاً للتراجع عنه أبداً».

نحّى تحذيري جانباً وقال: «سيّان». لكن حتى عندئذٍ لم أكن واثقاً أي السبيلين سيختار.

سألتُ بجدية: «أتريد لنفسك مدى عادياً من العمر؟ أم ترجو البقاء هنا على الأرض الأبدية كلها؟».

ببطءٍ لكن بإصرارٍ، التقط فرانك القداحة وأشعلها. أثار تصرفه إعجابي. كنتُ قد قضيت قرابة أسبوع في تلك الجزيرة الفيجية، لكني الآن فقط لم أعد أشعر بالوحدة. قلتُ مُعلِّقاً: «ليس ثمة كثيرون من شاكلتنا».

عندئذ، وللمرة الأولى، افترّ فمه عن ابتسامة عريضة. اعتقد أنه كان مغتبطاً للقائنا بقدر ما كنت أنا.

«لا، ليسو كُثراً بالتأكيد»، قال مُسلِّماً. أرفق كلماته هذه بنصف نهوض عن كرسيه، ومدّ يده لي من فوق كأسَي البيرة.

كنا مثل عضوين في نادٍ واحدٍ حصري العضوية. لم نكن، فرانك وأنا، مُنشغلي البال إطلاقاً بفكرة الحياة الأبدية. كل ما هنالك أننا كنا مرتاعين من الفكرة المعاكسة.

دنا وقت العشاء، فألححتُ إلى أننا قد نختم تضامننا المُستجدٌ بجرعة من الشراب. ولـمّا اقترحت شراب الجن الصافي، أومأ فرانك برأسه مستحسناً.

استمرت العلاجيم تتكاثر في بستان النخيل، وشعرتُ من جديد بموجة من النفور المشمئز. اعترفتُ لفرانك أني لاأزال غير معتاد على وجود الوزغات (أبو بريص) في غرفتي.

جاء الجن، وبينما شرع طاقم النُّدُلِ في تجهيز طاولات العشاء، واصلنا نحن تناول أنخاب الملائكة في السماوات. شربنا أيضاً على شرف تلك العُصبة الضئيلة التي لما تُفْلِح بعدُ في التغلّب على جسدها لحياة الملائكة الدائمة. مشيراً إلى العلاجيم في البستان، قال فرانك إن اللياقة المشتركة تقتضي أن نرفع كأسينا لها أيضاً.

«إنها أخواتنا في الدم رغم كل شيء. قرابتنا أوثق بهن منها بالملائكة».

هكذا هو فرانك. قد يكون رأسه بين النجوم في الأعالي، لكنه يبقى ثابت القدمين على الأرض. كان قد اعترف لي في اليوم السابق بأنه لم يستمتع بالطيران في الطائرة الخفيفة التي جاءت به من نادي إلى ماتئي. ألمحَ إلى عواصف قوية هبّت أثناء الرحلة، وإلى قلقه الشخصي من عدم وجود ربان مساعد في تلك الطائرة. أثناء الشرب، حدثني أنه سيذهب في نهاية نيسان إلى مؤتمر في جامعة سلمنكا، المدينة القديمة؛ وأن دعوةً إلى المؤتمر وصلته في اليوم السابق تؤكد أن ڤيرا أيضاً قد سجلت اسمها للمشاركة فيه. المشكلة أنه لا يدري إن كانت تعلم أنهما سيلتقيان في سلمنكا.

هنا غامرت بالقول: «لكنك تأمل اللقاء بها؛ أنت تأمل أنها ستكون هناك؟».

لم يُجِبْ عن سؤالي.

في ذلك المساء رُتِّبت كل الطاولات في مطعم ماراڤو بحيث تشكل مائدة واحدة. اقترحتُ أنا تلك الفكرة لأن عدداً كبيراً من الضيوف كانوا فُرادى. ألقيتُ، لحظة دخول آنا وخوسيه، أوّل القادمين إلى العشاء، نظرة أخيرة على البطاقة البريدية بأبراجها الثمانية التي تطاول عنان السماء، ثم أعدتها إلى فرانك.

اندفع يقول: «احتفظ بها أنت! أنا أعرف كل كلمة فيها على أي حال».

لم أستطع تجاهل ما في صوته من مرارة خَفِيَّة، وحاولت تغيير رأيه، لكنه لم يتزحزح. بدا كأنه قد وصل إلى قرار هام.

قال: «إن احتفظتُ بها أنا، سأمزقها عاجلاً أم آجلاً. لذلك الأفضل أن تُعنى بها أنت من أجلي. ومن يدري، ربما نلتقي ثانية يوماً ما».

مع ذلك، كنت عازماً على إعادة البطاقة إليه قبل أن يغادر جزيرة تعاقب الأيام. لكن صباح مغادرة فرانك حدث في ماراڤو ما أنساني عزمي.

أمّا أن ألتقي بالنرويجي فعلاً بعد عام مما سبق، فهي واحدة من تلك المصادفات العجيبة التي تعطي الحياة طعماً، وتنمي دورياً الأمل المكنون بوجود قوىً خفيةً تبسط رعايتها على حياتنا، وتسحب، بين الفينة والأخرى، خيوط أقدارنا.

قضت المصادفة الآن، أن أجد أمامي لا بطاقة بريدية قديمة فحسب، بل، واعتباراً من اليوم، رسالةً طويلة كتبها فرانك إلى ڤيرا بعد أن التقاها في ذلك النيسان. وإني لأعتبر انتهاء هذه الوثيقة النادرة إليَّ انتصاراً شخصياً لي، انتصاراً كان غير وارِدٍ، لولا أني، بضربة حظ، صادفتُ فرانك في مدريد بعد ستة أشهر من لقائه بڤيرا. حتى أننا التقينا به في هوتيل پالِس، الفندق الذي كان قد كَتَبَ فيه إلى ڤيرا. حدث ذلك في تشرين الثاني 1998.

بإصراري على تقديم هذه الرسالة الطويلة كاملة، كنت، بين حين وآخر، أُغْرَى بإضافة تعليقاتي الشخصية على تقرير فرانك. لكنني آثرت نسخ الرسالة بتمامها قبل إضافة مُلحقي الضخم إليها.

أنا مسرور بالطبع لوجود هذه الرسالة ـ السِّفر ـ أمامي، حتى لو كان السبب الوحيد لذلك هو أنها مَكَّنتني من دراسة العبارات الاثنتين والخمسين للمانيفِستو «البيان». اسمحوا لي أن أكتفي بتبديد ما قد يخطر على بالكم من أني اعتزمت اختلاس رسالة شخصية. ليس هذا واقع الحال إطلاقاً. بيد أن هذا شأن آخر سأعود إليه في الملحق.

خلال بضعة شهور سندخل القرن الحادي والعشرين. أعتقد أن الزمن يجري سريعاً. أظن الزمن يجري أسرع وأسرع.

عرفتُ مذ كنت فتىً يافعاً، وليس هذا ببعيد جداً في الماضي، أني سأبلغ تمام السابعة والستين قبل أن أستطيع رؤية الألفية التالية. فتنتني هذه الفكرة دائماً بقدر ما روّعتني. حكمت الأقدار أن أودّع شيلا في هذا القرن. كانت في التاسعة والخمسين فقط حين ماتت.

ربما سأعود إلى جزيرة «تعاقب الأيام» من أجل الألفية. أقلّب في فكري الآن وضع الرسالة إلى ڤيرا في كبسولة زمنية تبقى مختومة ألفاً من السنين. يخامرني الشك في الحاجة إلى إعلانها للملأ قبل ذلك، ويَصحُّ الأمر ذاته على المانيفِستو. ومع ذلك تكفي ألف سنة لمحو معظم آثار الفانين المعاصرين، تكفي أيضاً لتصير قصة آنا ماريا مايا، في أحسن الأحوال، أسطورة من الماضي البعيد.

بالضبط عندما يطرق ما أريد قوله مسامع الآخرين، سيكون قد فقد أهميته بالنسبة لحياتي. ما يهم هو أن يقال ما أريده في وقت من الأوقات، وليس من الضروري حتى أن أكون أنا قائله. ربما لهذا السبب بدأت أقلّب في

خاطري قضية الكبسولة الزمنية. فخلال ألف من السنين قد يصبح العالم مكاناً أقل جَلَبَةً.

بعد إعادة قراءة الرسالة إلى ڤيرا، شعرت أني صرتُ مستعداً، على الأقل، لإخلاء ملابس شيلا من المنزل. حان وقت القيام بذلك. غداً صباحاً سيأتي أناسٌ من جيش الإنقاذ(*)، وقد وعدوني بأخذ كل شيء، بل إنهم سيأخذون حتى الأمتعة القديمة التي لن يكسبوا من بيعها شيئاً. أشعر كأني أهدم عش سنونو قديم لم تأوِ إليه الطيور منذ سنين عديدة.

سأستقر أرملاً عما قريب. إنها لحياة أيضاً. لم أعد أجفل حين تقع عيني على الصورة الملونة لشيلا.

قد يبدو الأمر متناقضاً. غير أني حتى الآن، وبعد كل انغماسي المديد في الماضي في الآونة الأخيرة، لن أُحجم عن ابتلاع إكسير ڤيرا السحري. سأتناوله دون أن يطرف لي جفن، حتى لو لم أكن متأكداً من العثور على شخص آخر أعطيه النصف الآخر. أزف الوقت بالنسبة لشيلا على أية حال. كان كل ما وَسِعها فعله في السنة الأخيرة هو تناول العلاج الكيميائي.

خطّطتُ منذ الآن لما أفعله غداً. فقد دعوتُ (كريس بات) للعشاء. كريس هو المسؤول الأول عن مكتبتنا الجديدة في كرويدن، وأنا واحد من المواظبين على ارتياد هذه المكتبة. وأحسب أنه لشرف عظيم للبلدة أن تحظى بمكتبة حديثة يزيدها وجود المصاعد كمالاً. كريس شخص مقدام. لا أعتقد أنه كان ليشعل القداحة في البار في ماراڤو، أو ليشعر بالاشمئزاز من كل تلك العلاجيم.

عقدت العزم على أن أسأل كريس إن كان يحسب أن مقدمة كتابٍ ما

(*) تنظيم ديني مسيحي، يحاكي في رُتبه وشاراته جيشاً، ويشتهر بما يقدمه من مساعدات للفقراء (م).

تُكتب قبل إنجاز العمل الرئيسي أم بعده. لديّ شخصياً نظرية ترى أن المقدمة تُكتب دائماً تقريباً بعد الفراغ من تأليف الكتاب. ينسجم هذا التصور مع شيء آخر لاحظته، وخاصة بعد قراءة رسالة فرانك.

فقد انقضت عدة مئات من ملايين السنين منذ أن حَبَت البرمائيات الأولى على الأرض إلى اللحظة التي استطاع فيها كائن حي على هذا الكوكب وصف تلك الواقعة. الآن فقط نحن قادرون على كتابة مقدمة تاريخ نشوء الكائنات البشرية، أي بعد انقضاء زمن مديد على انتهاء ذلك التاريخ. وهكذا فإن جوهر شيء ما يعضُّ ذيل ذلك الشيء. ربما يصحُّ ذلك على كل العمليات الإبداعية. ربما ينطبق على التأليف الموسيقي مثلاً. يخُيَّل لي أن آخر شيء يُدوَّن من سمفونية ما هو افتتاحيتها. سأسأل كريس عن أفكاره حول هذا الأمر. صحيح أنه شخص ذرب اللسان لكنه حكيم أيضاً. أشكُّ أن يشير كريس ولو إلى مسرحية غنائية هزلية واحدة أَمْكَنَ، مجرّد إمكان، كتابة فاتحتها قبل إنجاز الباقي منها. إن خلاصة أي حبكة درامية لا ترى النور إلّا بعد أن تكف تلك الخلاصة عن امتلاك أي مغزى مفيد. وهل تمكّنت زمجرة الرعد يوماً من تحذيرنا من البرق؟

لا علم لي إن كان لدى (كريس باث) ما يعدو معرفة عارضة بعلم الفلك، ومع ذلك سأسأله رأيه بالخلاصة الوجيزة التالية لتاريخ هذا الكون:

لم يُسمع هدير الانفجار الكبير إلا بعد خمسة عشر مليار عام من الانفجار.

إليكم فيما يلي الرسالة إلى ڤيرا كاملة.

كرويدن، حزيران 1999

جون شبوك

الرسالة إلى ڤيرا



ڤيرا العزيزة

أسبوعان مرّا على لقائنا الأخير، وقد تشعرين - بسبب وقائع ذلك المساء الأخير - أن الوقت قد حان لوصول رسالة مني. ما انتظرتُ إلا لأُلملم الأطراف المتباعدة للأمر كله.

لبثتُ في سلمنكا بعد المؤتمر لأني كنت مقتنعاً كل الاقتناع أنهما هما من رأيتُ تحت جسر نهر التورمز. حسبتِ أني أمزح، حسبتِ أني كنتُ أَحْبكُ حكاية تسلّيك إلى أن نعود إلى الفندق. لكنهما آنا وخوسيه من رأيت، ولم يكن لي أن أبرح المدينة قبل أن أقضي يوماً أو يومين محاولاً العثور عليهما. صادفتهما في الصباح التالي في بلازا مايور. لكن عليّ ألّا أستبق الحوادث. لقد عقدتُ العزم على إعلامك بكل شيء وفقاً للتعاقب الزمني. فاسمحي لي الآن أن أُبدي أسباب قيامي بالكتابة إليك اليوم.

بعد أسبوع ونصف من لقائنا، أي أوّل البارحة، التقيتُ خوسيه في متحف ألبرادو هنا في مدريد. بدا كما لو كان يبحث عني بين العدد الهائل من صالات المعارض في المدينة. التقينا ثانية هذا الصباح. كنت جالساً في متنزّه رتيرو بارك، أُمَحِّصُ، بكل عناية، كل ما كان قد أخبرني به حتى تلك اللحظة، لكن بعض النُّتَف ظلّت، مع ذلك، في غير مكانها المناسب. فجأة وقف أمامي، كما لو أن شخصاً ما قد أخبره عن مكان مسيري اليومي. مكثنا هناك عدة ساعات قبل أن أرافقه عبر المتنزّه إلى محطة أتوشا. على حين غرة، دسّ في يديّ رزمة من الصور الفوتوغرافية، واستدار راكضاً للّحاق بقِطاره. لمّا عدتُ إلى الفندق، اكتشفتُ شيئاً مكتوباً على ظهر كل صورة من الصور. إنه المانيفِستو، ڤيرا! كنت أُمسك رزمة ورق اللعب الكاملة بين يديّ.

منعني ما أخبرني به خوسيه في رِتيرو بارك، من دون أن أذكر ما أعطانيه حين اختفى، من انتزاع نفسي من المدينة قبل أن أرسل لك القصة كاملة. إنها

الثانية عصراً الآن، ولن يتاح لي وقت طويل للنوم هذه الليلة. سأطلب إرسال قهوة ونزرٍ من الطعام إلى غرفتي، لكن خلا ذلك، لن يحرفني شيء عن التزامي الوحيد بإرسال هذه الرسالة لك قبل أن أجهز حقائبي وأغادر إلى إشبيلية صباح الجمعة.

يقلقني احتمال أنك قد ترجئين تخصيص وقت للإنترنت، وثمة أيضاً ما يغريني بأن أقدم لك هذا التقرير مُجزّءاً. لكن رأيي استقر على أن تستلميه دفعة واحدة، الكل أو لا شيء. خطر لي أن أبعث لك إشعاراً بالبريد الالكتروني يبلغك بوصول مادة أطول في وقت ما غداً. بيد أني لم أعد واثقاً من وجود رغبة لديك بتلقي أيّ شيء مني. مهما يكن من أمر، يتوجب عليّ أن أبذل بعض الجهد لجعلك تُصدِّقين هذه القصة التي لم أكتبها بعد.

إنما في فيجي وقَعتُ أسير شبكة العنكبوت هذه، لكنني لا أذكر الآن كم استطعتُ إخبارك منها. فقد اجتمعنا أياماً قليلة فقط في سلمنكا، وشعرنا، نحن الاثنين، أنه أَلْيَق بنا الحفاظ على مسافةٍ تفصل واحدنا عن الأخر. لكن عندما أفكر أني لحت ذيْنك الاثنين العجيبين في فيجي، أتذكر أن كل شيء قد تدفق تدفقاً. لا أذكر ما سنحت لي الفرصة لإخبارك به وما لم تسنح، لأنك داومتِ على مقاطعتي بضحكات مجلجلة. حسبتِ أني لفّقتُ ذلك كله أوّلاً بأوّل كنوع من تسلية مسائية قصدتُ منها الاحتفاظ بك قرب النهر.

من الطبيعي أن تتساءلي كيف يمكن لآنا وخوسيه أن يعنيا لك، أو لنا نحن الاثنين، شيئاً. قد ينبغي عليّ أن أذكّرك ببطاقة تحية أرسلتِها لي يوماً من برشلونة. كتبتِ: «أما من خطوة نخطوها معاً لنتصالح مع وَجازة الحياة؟» الآن أطرحُ هذا السؤال مجدداً، وللإجابة عليه لا بُدّ لي من أن أتكلم أولاً عن آنا وخوسيه. ولكي تفهمي المدى الكامل لرسالتي، يجب أن ترجعي معي إلى الماضي البعيد، ربما وصولاً إلى الحقبة الديفونية حين بدأت أوائل البرمائيات بالظهور. إنما هناك أظن هذه القصة تبدأ.

مهما يكن ما حصل بيننا، فسوف أطلب منك أن تُسْدي لي معروفاً. أمّا الآن فيكفي أن تجلسي مرتاحة وتقرئي، اقرئي فحسب!

يرى كثيراً من يرى أخيراً

كانت تافوني، الجزيرة الفيجية، هي المرحلة الأخيرة من رحلتي العلمية التي استمرت شهرين في جزر المحيط الهادي. تمثلت مهمتي في استقصاء الآثار الناجمة عن إدخال حيوانات ونباتات جديدة على التوازن البيئي في تلك الجزر. وهذا الإدخال يشمل الحيوانات المتخفية في السفن كالجرذان والفئران والحشرات والعظاءات. لكنه يغطي أيضاً الإدخال المتعمّد، إلى هذه الدرجة أو تلك، لبعض الأنواع مثل الأبوسوم والنّمس اللذين أُدخلا لكبح تكاثر الحيوانات الأخرى، وخاصة الحشرات الضارة المرافقة لأشكال الزراعة الجديدة. وثمة مجموعة ثالثة تتكون من حيوانات أليفة توحّشت كالقطط والماعز والخنازير، ولا ننسى، الإدخال الطائش لحيوانات القنص أو الطرائد التي تمثلها عواشب مثل الأرنب وغزال الرّو. أما النباتات الوافدة، سواء كانت زينية أم نافعة، فإن قائمة أنواعها، في كل جزيرة، على درجة من الطول والتنوع بحيث لا أجد فائدة في إيراد أسمائها.

يمثل الجزء الجنوبي من المحيط الهادي الموطن الحلم لهذا النوع من الدراسات. فقبل وقت ليس بالبعيد، كان لكل من هذه الجزر المعزولة توازنها البيئي البدائي الخاص، المكوّن من حياة حيوانية ونباتية محلّية ثرية التنوع. أما اليوم، ففي أوقيانيا أعلى نسبة عالمية من الحيوانات المهددة بالانقراض، سواء بالقياس إلى حجم المنطقة أم إلى عدد سكانها. لكن هذه الحال لم تنتج عن مجرد إدخال أنواع جديدة. ففي أماكن عديدة ساهم قطع الغابات ومشاريع الاستزراع الرعناء في تآكلٍ مميتٍ للتربةِ، الأمر الذي دمّر في النهاية المَواطِن البيئية التقليدية.

قبل قرن واحد فحسب، لم يكن للعديد من الجزر التي زرتها أي تماسّ مع الثقافة الأوروبية. لكن بعد ذلك جاءت الموجة الأخيرة الأكبر من الاستعمار الأوروبي. ومن الطبيعي أن لكل جزيرة، لكل مستوطنة جديدة، ولكل فرد من الأوروبيين يطلّ على يابسة لاتزال تستكشف، قصته الخاصة. على أي حال، تبعت العواقب البيئية ذات المنوال الاستعماري المُحبِط: فحيوانات السفن كالجرذان والفئران والحشرات كانت، عملياً، عدوى بيئية وصلت تلقائياً برفقة السفن الأولى. ولتعديل الآثار المخرّبة لهذه المخلوقات، أُدخِلتْ أنواع حيوانية جديدة. فقد جُلبت القطط للحد من الجرذان، والعلاجيم لكبح جماح حشرات معينة، خاصة في مزارع قصب السكر. وسرعان ما صارت هذه الأنواع مصدراً أكبر للبلاء مما كانت الجرذان والحشرات. وهكذا لا بد من إدخال مفترسٍ جديد. في النهاية ينقلب هذا الحيوان المفترس إلى كارثة بيئية، ليس على أنواع عديدة من الطيور فحسب، بل على الكثير من الزواحف الأهلية الفريدة. وهكذا يلزم مفترس أكبر. وهكذا، ڤيرا، وهكذا. أما في أيامنا هذه، فنحن نمحض ثقتنا نوليها للسموم والڤيروسات وعوامل التعقيم من هذا النوع أو ذاك؛ إنها حرب كيميائية أو بيولوجية مهما انتحلت من اسم آخر. بيد أنه ليس من السهل رصف سلسلة غذائية جديدة كاملة، هذا إن كان الأمر ممكناً أصلاً. وبالمقابل، من اليسير بدرجة مرعبة تدمير توازن بيئي أنفقت الطبيعة ملايين السنين لإبداعه. لكن تهوّر العالم لم يعد يعرف حدوداً قومية. أُفَكّر بالحمق المتغطرس للدهاء، ذلك النوع من براعة مُطمّشة العينين كانت محدودة النمو في أوساط السكان الأصليين، الماوري والميلانيزيين، قبل أن يبدؤوا التلمذة في مدرسة الرجل الأبيض. أُفكّر بحُمق الربح والجشع. الآن نستخدم أسماء تجميلية مثل «العولمة» و«اتفاقيات التجارة». والانطباع الذي يتولد عن هذه الأسماء هو أن الطعام لم يعد شيئاً يؤكل، بل هو سلعة تجارية. وبينما اعتاد الناس على تلبية حاجاتهم من تربة الأرض، تُنْتَج اليوم جبال أكبر وأكبر من مواد مصنعة عديمة النفع لا يستطيع شراءها إلا الموسرون. لم نعد نعيش من اليد إلى الفم. مضى زمن الفردوس وانقضى.

بصرف النظر عن ذلك، أنتِ على أتم دراية باهتمامي المقيم بالزواحف. إن افتتاناً صبيانياً بالحياة على هذا الكوكب في الماضي السحيق هو الذي جعل مني عالم أحياء. بدأ ذلك قبل أن تصبح الديناصورات، فجأة، موضة شائعة. أردت أن أكتشف لماذا بادت هذه الزواحف عالية التخصص فجأة. استغرقت أيضاً في أسئلة لم تكفّ يوماً عن شغل بالي: ما الذي كان سيحصل لو لم تنقرض الديناصورات؟ ما الذي كان سيحصل للثدييات الصغيرة، الشبيهة بالزبّابة(*)، التي تحدّرنا، أنتِ وأنا، منها؟ والسؤال الحاسم أكثر من غيره: ما الذي كان سيحصل للديناصورات ذاتها لو لم تنقرض؟

سنحتْ لي فُرَصٌ وفيرة في أوقيانيا لدراسة العديد من أنواع الزواحف ذات الأصل الموغل في القدم. مثّل لي شيئاً هاماً حيوان الطواطَرة، السحيق المنشأ، الذي يعيش في بضع جزر صغيرة معزولة حول نيوزيلندة. سأعترف، مجازفاً باستفزازكِ قليلاً، أن شعوراً لا يوصف بالعجب قد ملأني حين رأيت واحداً من أقدم الزواحف الحية على الأرض يتكاثر في بقايا الغابات القديمة لغوندوانا(**). تعيش هذه الزواحف البدائية في جحور تحفرها في الأرض، وغالباً ما تشاركها فيها طيور القُلمار. تنمو الطواطرة إلى ما يقارب 70 سنتمتراً طولاً، وبحرارة مُثلى لجسدها تبلغ 9 درجات مئوية، ويمكنها أن تعمّر أزْيَدَ من قرنٍ. عندما ترينها ليلاً، تشعرين كأنك عدت إلى الحقبة الجوراسية أيام كانت لوراسيا(***) تنفصم عن غوندوانا، وحين كانت الديناصورات الجسيمة قد بدأت بالتطور. إنما في تلك البرهة غدت خطميّات الرأس(****) متمايزة عن رُتَب

(*) الزبابة Shrew: حيوان فقاري ثديي صغير بحجم الفأر من آكلات الحشرات. ولا توجد أي صلة بينه وبين حشرة الذبابة. وسيرد ذكره كثيراً في هذا النص على أنه يمثل الأصل الذي انحدرنا منه أو الذي كنا وإياه من أصل واحد.

(**) غوندوانا: يابسة افتراضية قديمة تتكون من أمريكا الجنوبية والجزيرة العربية وأفريقيا وأستراليا والهند سبقت توزعها الراهن. م.

(***) آسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية. م.

(****) خطميات الرأس: رتبة من الزواحف الشبيهة بالعظاءات، منقرضة الآن، باستثناء الطواطرة. م

العظاءات الأخرى بكونها صنفاً صغيراً من الزواحف، لكنه صنف عنيد الاستمرار. الممثل الوحيد الباقي لخطميات الرأس، الطواطرة، ظل دونما تغير يذكر نحو مئتي مليون عام.

صعقني ذلك صعقاً يا ڤيرا. فوجود الطواطرة ليس أقل إثارة للذهول من اكتشاف طائر قبل تاريخي ما في هذه الجزر المعزولة. بالمناسبة، حدث اكتشافٌ كهذا في 22 كانون الأوّل عام 1938 على مسافة من الشاطئ الشرقي لجنوبي أفريقيا. فقد أَسَرَ قارب صيد سمكة مفصصة الزعانف في شباكه، السمكة التي تُسمّى كوئلكنث. كان صنف الأسماك مفصصة الزعانف هذا، الصنف الذي لعب دوراً حاسماً في التطور، لأنك أنت وأنا وكل ثديي آخر على الأرض ننحدر منه، كان حتى عيد الميلاد 1938 موجوداً فقط في شكل مستحاثي، وكان يُفترض أنه بادَ منذ قرابة مئة مليون عام. يستحق كل من الكوئلكنث والطواطرة اسم «مستحاثة حية»، وقد ينبغي عليّ أن أضيفَ عبارة «حتى الآن». إذْ لم تنقضِ سنوات كثيرة بعدُ منذ تم نشر الطواطرة في أرجاء نيوزيلاندة.

لم أجد قط في استخدام وصفٍ قدّمه زميل من زملائي لأحد أنواع الحيوانات شيئاً حافزاً للهمة. فقد انصب اهتمامي دائماً على تطوّر الأنواع، وفي هذا المجال يتّكل المرء على البقايا المستحاثية إلى حد بعيد لا على تقارير الزملاء. ولا ريب في أن أكثر مستحاثات القرن المنقضي إثارةً هو الاكتشاف القريب العهد للديناصورات ذوات الريش. قدّم هذا السبق العلمي برهاناً قاطعاً على أن الطيور قد تحدرت من الديناصورات. بل قد يمكنك القول إن الطيور ديناصورات!

لأقول، رغم ذلك، إني غير مهتم بالعظام القديمة والمستحاثات. لكني أفضل، عند تناول الأنواع الحية، أن أقوم بدراساتي الميدانية الخاصة قبل الإفادة من دراسات الآخرين العينية والانغماس في تحليل أكثر منهجية. وبقدر ما يخص الأمر الطواطرة ـ فضلاً عن عدد من الأنواع الأهلية الأخرى عريقة

الأصل ـ فإن الموطن البيئي ذاته هو الذي ظل سليماً بشكل مدهش عبر ملايين السنين. آاا نعم، لن أنكر أنه مرّت عليّ لحظات شعرت فيها كأني داروين آخر زمن، وأنا أطير من جزيرة إلى أخرى فوق حيود البحر المرجانية الخضراء والفيروزية واللازوردية.

في فيجي انصب اهتمامي بشكل خاص على دراسة الإغوانة(*) العرفاء النادرة التي تعيش، فقط، في اثنتين من الجزر هناك، ولم يتم وصفها حتى عام 1979 (من قبل جون غيبونز). ثمة نوعان من الإغوانة في فيجي، وهذا شيء مرموق بحد ذاته، نظراً لكونهما غير موجودين في أي مكان من آسيا عدا فيجي، و ـ بقدر ما يخص الأمر هذين النوعين ـ في تونغا أيضاً. كان الافتراض الغالب سابقاً هو أن الإغوانات، بطريقة إعجازية ما، عبرت المحيط على بقايا نباتية طافية، قادمة من أمريكا الجنوبية! هذا وارد بالطبع، لأن القدرة على الانتقال من قارة إلى أخرى، على جذوع شجر البلزا وما شابهها قد لا يقتصر على الرئيسات(**). على كل حال أشار الأستاذ بيتر نيويل من جامعة جنوب المحيط الهادي إلى أنه قد يكون لإغوانات فيجي تاريخ جيولوجي أقدم بكثير مما اعتُقِدَ سابقاً. يكتب نيويل: «تميل اكتشافات حديثة لمستحاثات جزئية للتماسيح ـ التي تستطيع سباحة آلاف الكيلومترات ـ تميل إلى الإيحاء بأن الإغوانات كانت هنا قبل وقت أطول بكثير مما افتُرِض أصلاً. يُعتقد الآن أنها من بقايا يابسة غوندوانا الباقية منذ أيام كانت فيجي ـ ومعها بلدان مثل نيوزيلندة وأستراليا والهند ـ جزءاً من صفيحة قارية واحدة تشظّت لاحقاً إلى قطع عديدةٍ». تعيش الإغوانات أيضاً في مدغشقر، التي كانت بدورها، قبل أكثر من 150 مليون عام، جزءاً من غوندوانا

بيد أني لن أُضجرك الآن بدراساتي. ستتاح لك فُرَصٌ طيّبةٌ للاطلاع على

(*) الإغوانة: عظاءة أمريكية استوائية عاشبة ضخمة. المورد.

(**) الرئيسات: رتبة من الثدييات العليا تشمل الإنسان وأنواعاً من القِرَدَة. م

هذه الدراسات حين تُنشر في تقرير خاص في وقتٍ ما عند مستدار الألفية. وهذا، طبعاً، فقط إن كنت مهتمة بها؛ عديني بذلك.

كنت في طريقي إلى الوطن عائداً من أوكلاند على متن طائرة تابعة للخطوط الجوية النيوزلندية التي تقدم خدماتها المريحة مرتين أسبوعياً عن طريق نادي وهونولولو إلى لوس أنجلس، فضلاً عن رحلة ربط تصل إلى فرانكفورت. لم يكن ثمة أحد ينتظرني في الوطن - صدقاً لا أحد - لذلك قررت التوقف بضعة أيام في فيجي لهضم انطباعاتي كلها أولاً بينما أنا لا أزال ضمن الأرخبيل الاستوائي، ثم أيضاً لأتعافى وأمدد ساقيّ قليلاً قبل الرحلة الطويلة إلى الوطن. سبق لي أن قضيت أسبوعاً في فيجي حين وصلتُ إلى أوقيانيا في بداية تشرين الثاني، غير أني لم أتمكن من زيارة جوهرة مملكة الجزيرة تلك. ما أقصده هو تاڤوني التي تسمى عادةً «الجزيرة الجنة في فيجي» بفضل خصوبتها التي لا تُضاهى وانعزالها النسبي عن العالم الخارجي.

كانت جميع مقاعد الطائرة المسافرة من نادي إلى تاڤوني محجوزة ذلك الصباح، وبسبب ذلك انتقلت أمتعتي في تلك الطائرة، بينما انحشرنا أنا وأربعة ركاب آخرون في شيء يسمونه «طائرة علبة الكبريت». أؤكد لك أن هذا الاسم موفق كل التوفيق. كان علينا بالفعل أن نحبو إلى داخل ذلك الشيء ذي المقاعد الستة. بادر إلى الترحيب بنا الربان الذي أعلن بمرح أنه، لسوء الحظ، لن يكون ثمة مرطبات في المرحلة القادمة، وطلب منا ألّا نتجول دونما لزوم في الممشى المركزي. أفلح الرجل في استثارة مزاج لطيف بين ركابه بتحويل الخطر بالذات إلى ظُرفٍ وسخرية. ولكي يكتمل الأمر، كان نصفا أصبعين من اليد التي حيّانا بها مفقودين. لم يكن بمقدور أحدٍ منا التفكير في الطعام، لأنه ما أن أقلعت الطائرة حتى تقاذفتها عواصف عنيفة، بينما كان المحرك يدور مسعوراً ليرتفع بنا فوق القمة المخيفة لجبل توما نثيڤي في جزيرة ڤيتي ليڤو.

لا بد أن الرجل ربان متقاعد انتقل إلى فيجي لا لسبب إلا لأنه رفض توديع عصا القيادة ومقياس الارتفاع البائدين. غير أنه كان شخصاً لطيفاً حقاً.

جلستُ هناك وركبتاي ملتصقتان بظهر كرسيه. وكان يداوم على الالتفات إلينا بابتسامته العريضة ليسأل من أي بلد قَدِمَ كل منا، أو لِيُبين على الخريطة أين صرنا كلما سألناه عن ذلك، أو لِيُرينا بحماسة حيوداً مرجانية ودلافين وأسماكاً طائرة في البحر تحتنا. كان يتكلم كأنما في سباق مع نفسه.

جلستُ في مكاني والذعر يملأ قلبي كما يُحتمل أنكِ قد خمّنتِ. أنا معتاد جداً على الطائرات الخفيفة. وعملياً لم أقُمْ خلال الأسابيع السابقة إلا بالتقافز من جزيرة إلى أخرى على متن طائرات خفيفة. بيد أن عليَّ أن أعترف أني شعرت بالتوتر في طائرةٍ بربانٍ واحد. لك كل الحق في أن تعتبري هذا الخوف لا عقلانياً، نوعاً من المزاجية الفردية. نعم، أكاد أسمعكِ تقولين هذه الكلمات بالذات.

ستقولين إن للسيارة أيضاً سائقاً واحداً، وإن الناس يموتون على الطرق أكثر مما يموتون في الجو. قد يكون ذلك صحيحاً، وإن يكن من الصعب صرف النفس عن قلقٍ مفاجئ، خاصة على ارتفاع خمسة آلاف قدم وتحت رحمة ربان في أواخر ستيناته. إنّ إصابته بإغماءةٍ ليست بالأمر المستبعد تماماً في تلك الحرارة الاستوائية. فبكل بساطة شيء كهذا يحدث، إنه شيء إنساني.

لم أكن، بعد كل ذلك التسفار، قلقاً من احتمال حدوث خلل تقني. العكس هو الصحيح. كنت خائفاً من خلل عضوي. كنت في مجلسي ذاك أحضن إحساساً قلقاً بكوني مجرد فانٍ، أحد الفقاريات المكتنزة لحماً وقد رُبط إلى مقعد طائرة، وكنت أشعر أن هذا الأمر ينطبق بالدرجة ذاتها على الرجل الجالس بكل جسارة أمام عصا القيادة، الرجل الذي يكبرني بثلاثين سنة. كان نبض قلبي، وهو يذكّر بنبض عدّاء في نهاية سباقٍ ماراثوني، هو العَرَض الذي لا يمكن دحضه لهذا التوجس. وإذا كان يخفق مئتي مرة في الدقيقة، فما حال قلب الربان؛ هذا دون ذكر مستوى الكولسترول لديه وحالة شرايينه الإكليلية. لا أعرف هذا الشخص الأنيس أدنى معرفة، ولم أعاينه طبياً قط، ولا أنا طمأنت نفسي بمعرفة ما تناوله من طعام هذا الصباح. وما كان أشد خذلاناً من كل ذلك هو جهلي التام بالذات الوجودية الباطنة للربان المسن. لعله يؤمن بالحياة

الأبدية، وهذا الإيمان مجازفة ينبغي وقاية من يعملون في سلكه منها؛ أعني الربابنة الذين يطيرون دون وجود ربان مساعد وبرفقتهم ركاب مدفوعو الأجر. (لايمكن أن يكون هناك كثيرون منهم على أية حال). وقد يكون تعرّض لخداع امرأة مؤخراً. وربما يجلس في مكانه وهو على علم، وأيِّ علم، بأنه في وقت لاحق من ذلك الصباح، سيضطر إلى الاعتراف باختلاس مبلغ كبير من المال. لم أجد أي متعة في مشاهدة جبل توما نثيفي أو الدلافين أو الحيود المرجانية. كانت جميعاً سحيقة العمق تحتي، أنا الجليس الذي لا يستطيع أن يخرج أو يهرب. افتقدت حينها زجاجة شراب الجن، وما كنت لأحس بأدنى خجل من رفعها إلى شفتي لو أنها كانت معي. شاء حظي أيضاً أن كانت زجاجتي المهدئة تلك في الحقيبة التي نقلتها الطائرة النظامية.

لا شأن لهذا بـ «الخوف من الطيران»، ڤيرا؛ وآمل أيضاً أنك أدركت أن ما وصفته، حتى الآن، ليس لغوَ مسافر عن سفره. كل ما أحاول التعبير عنه هو إدراكي أنا للحياة. بمعنى ما، يرافقني هذا الإدراك دائماً، لكنه لايبرز إلى السطح عادة إلا في حالتين: لحظة أصحو من النوم صباحاً، وفي المناسبات القليلة التي أسكر فيها. يقولون:«in vino veritas»(*)، ومن جانبي أصادق على فكرة أن الثمل قد يُولِّد حالة عقلية أكثر عرياً، أقل تكلفاً، وفي العمق، أصدق من الوعي اليومي المبتذل والمشوش؛ هذا على الأقل فيما يخص القضايا الكبيرة حقاً. وإنما هذه القضايا هي التي نتحدث عنها الآن. وها قد تمكنتُ من نفاذٍ أسرع وأيسر وأكثر مباشرة إلى طبقة النفس ذاتها بتفويض مسؤولية استمرار وجودي، أو لاوجودي، إلى ربانٍ متقاعد في علبة كبريت طائرة مصدوعة الزجاج ومتداعية الأدوات. الفارق الوحيد هو أن ملكاتي كانت هنا أشد يقظة مما في الحالتين الأخريين اللتين ذكرتُ؛ فلا أنا نصف نائم، ولا وصلاتي العصبية مخدّرة بالكحول.

كانت هذه أوّل مرة في حياتي أُقلع في طائرة يقودها ربان واحد انتهت

(*) يبدو أن معنى هذه العبارة اللاتينية هو: الحقيقة في الخمرة. م

صلاحيته، وفي يده الممسكة بعصا القيادة ثلاثة أصابع كاملة ونصفا إصبعين؛ بينما كنت، حتى اليوم، أصحو على يوم جديد، يوم لم يندر أن شققت طريقي فيه بالخمرة نحو حالة عقلية أصدق وأنبل، وفي الواقع، أصحى. ثمة بعض الجدوى، إذن، من تعمُّقي قليلاً فيما فكرت وشعرت، بين الغيوم في الأعالي، أثناء تلك الدقائق الخمس والسبعين بين نادي وتاڤوني. في مكانه هذا الكلام أيضاً لأني سأصف، بعد قليل، لقائي بآنا وخوسيه، وبالطبع غوردون. ربما لم أذكر غوردون حتى الآن، لكن محادثاتي العديدة معه أضفتْ لون الحياة على إقامتي في الجزيرة.

ثمة شيء تجنَّبت دائماً ذكره لك، وإن أكن أظن أني لامسته في مناسبة أو مناسبتين. الشيء الذي أشير إليه هو تجربة طفلية باكرة عشتها في منزل أهلي قرب أوسلو. لا بد أني كنت في السابعة أو الثامنة حينها. لكن الواقعة وقعت قطعاً قبل عيد ميلادي الثامن، لأن أسرتنا انتقلت، قبله، إلى إقامةٍ في مدريد دامت أربعة أعوام. أذكر أني كنت أجري على درب في الغابة، وجيوبي مليئة بحبات من البندق أردتُ أن أريها لأمي فور وصولي إلى البيت. فجأة لمحت خِشْفاً(*) صغيراً متمدداً على السجاد الخريفي الذي صنعته أوراق الأشجار المتساقطة على أرضية الغابة الرطبة. ما برحت تلك الأوراق محفورة في عقلي لأن بعضاً منها كان، على ما أذكر، متناثراً على الخشف المستلقي ذاته. ظننت الخشف نائماً، وأعتقد ـ وإن أكن غير متأكد من ذلك الآن ـ أني تسللت نحو الحيوان إما لِأمسِّد جسده أو لإزاحة تلك الأوراق الصفراء والحمراء عنه. لكن الخشف لم يكن نائماً؛ كان ميتاً.

الخشف الميت، أو بالأحرى حقيقة أني أنا من اكتشف الخشف الذي كان ميتاً، أثارت لدي شعوراً قوياً بالخزي، شعوراً لم أستطع قط إخبار أمي أو أبي، أو حتى جدتي أو جدي به. إذا أمكن للخشف الصغير أن يرتمي بلا حياة في الغابة، فما الذي يمنع أن يأتي دوري وأسقط قربه ميتاً. هذا الهجس الخفي،

(*) الخشف: ولد الظبية الصغير.

الذي يُوقى منه طبعاً معظم الأطفال، رغم أنه واضح بذاته، رافقني بكثافة محسوسة طوال عمري. نما لدي دائماً حدسٌ قوي إزاء أشياء من نوع العناية بالمراعي الطبيعية والطب النفسي المعنيّ بالأزمات، لأن الصمت الذي فرضته على نفسي بخصوص هذه التجربة قد حوّل تلك الحادثة إلى رضٍّ نفسي مقيم. لو أني جريت باكياً نحو أمي في البيت لظفرتُ بالتأكيد بما أحتاج إليه من عون لتجاوز تلك التجربة المؤلمة. لكنني لم أستطع قط البوح بها؛ لقد كانت تجربة مهينة جداً بحيث لم أكشف عنها لأي مخلوق كان. بلمعة برقٍ باهرة، أرتني تلك الواقعة أني أنا أيضاً كائن حي من لحم ودم، مجرد حيوان آخر له قسطه من الزمن على هذه الأرض، لكنه يوماً ما سيكف عن الوجود.

لربما كان لمواجهة الخشف الميت تلك تأثير حاسم في تشكيل اهتمامي بالطبيعة. على الأقل، أثّرت رؤياي تلك في أرض الغابة المورقة في اتجاه دراساتي التخصصية. لقد شعرتُ دوماً بالانجذاب نحو آمادِ الزمنِ الفسيحة. وهكذا، ومذ كنت طفلاً فضولياً في الثانية عشرة، عرفت كل شيء عن الانفجار الكبير وعن أبعاد الكون الهائلة. دفعني جانب من تكويني نحو إدراكٍ متنامٍ لحقيقة أن عالم الأحياء الذي أقطنه يقارب خمسة مليارات عام سِنّاً، وأن عمر الكون أكبر منه بثلاث مرات أو أربع.

تُمِضُّني فكرة فنائي التام يوماً ما، فكرة أني هنا هذه المرة فقط، وأني لن أعود أبداً؛ تُمِضُّني وتبدو لي وحشية. ربما لذلك حاولت، على الدوام، أن ألتمس عزاءً ضئيلاً من وضع نفسي وحياتي الوجيزة ضمن سياقٍ أوسع. روضتُ نفسي على فكرة أني مجرد جزء ضئيل من مغامرة الحضارة العظمى، مجرد كسرة عابرة من شيء أعظم مني وأقوى. هكذا حاولت توسيع هويتي الذاتية، ذاتي أنا، ودائماً على حساب تلك الذاتِ الصغيرة، الذات التي قد تلقى، في أي لحظة، مصير الخشف نفسه، ذاك الأَظْلف الذي بقي مدفوناً في مكان ما من ما تحت شعوري، ذاك الذي لن يقف على قدميه يوماً، الذي لن يبدي حراكاً. عشت تلك التجربة، وأعيشها كل يوم، ومع ذلك لا أستطيع القول إني حققت أي تقدّم محرّر لايزال يروعني كل صباح أني أنا الوحيد

الذي هو أنا، وأني هنا الآن فقط؛ الآن فقط أنتِ وأنا حَمَلة وعي الكون لذاته.

قد تتكشف نظرة المرء إلى حياته من منظور الأبدية عن كونها مأثرة أخلاقية وعقلية جديرة بالاحترام، بيد أنها، مع ذلك، لا تأتي براحة البال. ما من مصالحة تلقائية يثمر عنها إدراك أني - وأنا رئيسي واعٍ ووحشي - قادر على الإحاطة بماضي الكون كله في ذاكرتي، بدءاً من الانفجار الكبير وصولاً إلى بيل كلينتون ومونيكا لوينسكي، إن شئنا ذِكْرَ مجرد اثنين من أشهر رئيسيات زمننا. كلا، ما من سكينة تُنال بمعانقة أمداءٍ زمنيةٍ أعظم. العكس هو الصحيح! هذا العناق يجعل السيّئ أسوأ. وربما كان خيراً لي لو أني لجأت إلى معالج عقلي يستأصل ذلك الحيوان الميت من ما تحت شعوري المتورم، لكني أظن الآن أن أوان ذلك قد فات.

الآن، وبعد أن قلت ما قلت، يمكنني العودة إلى قُمرة الطائرة المكتظّة حيث لم يكن الصفاء العابر لذلك الصباح هو وحده ما يدغدغ خلاياي العصبية، ويُدْخل في روعي أني فقاريٌ مفرط العقلانية كُتِب عليه، مزاجياً، أن يواجه حقيقة أن شهوراً معدودة بقيت من حياته. كلا، إنها خمسٌ وسبعون دقيقة فحسب من تفحّصٍ مكثف لهذه الهواجس. وها إن الحالة الآن أكثر هشاشةً، إذ قد تُقتصر على مجرد ثوانٍ معدودات تسبق بلوغ حياتي نقطة النهاية. غافلاً، التفتَ الرئيسيُّ الماسك بزمام القيادة وبسط خريطة كبيرة دسّها في حضن رئيسيٍّ أسترالي أنثى كانت تجلس عن يميني، اسمها لورا. لم أحب انحطاط الملاحة الجوية هذا إلى مستوى متدهور يشارف الفسق. يجب ألّا يُفْهم مما أحاول قوله أني اعتبرت شركائي في السفر صحبة سيئة، بالعكس تماماً؛ أحببت كل واحد منهم، وكان يمكن أن أضع رأسي في حضن أي واحد منهم ولو بحثاً عن سلوى أو حماية. شعرت أني أشبه بعظاءة بائسة، بمخلوق جفول كان عليه أن يبقى على الأرض. هذه القناعة ارتبطت بحقيقة أن حفيد عظاءة متعجرفاً، سئماً، عجوزاً، هو من كان يقود الطائرة. بما أنك تقرئين الآن هذه السطور، ولما كنت قد التقيتني في سلمنكا، تعرفين أن الطائرة قد هبطت على الأرض بسلام. ما يميز تلك الرحلة هو أنها أثارت لدي شعوراً حاداً بأني

مجرد فقاري سريع العطب في ظهيرة حياته، شعوراً أثبتَ أنهُ منيعٌ على الزوال فيما تلا من أيام.

ماتئي هو اسم مطار تاڤوني، ويبدو أنه صمم خصيصاً لطائرات علب الكبريت. كان المدّرج شريطاً عشبياً ضيقاً ضمن ممرٍ محفوف بأشجار جوز الهند تعصف به الرياح. بل إن مبنى المطار ذاته، بمقعديه المدهونين بالأزرق وكشكه الضئيل، بدا أشبه بموقف باص. كان أمامي ساعة من الوقت أقتلها قبل أن تصل أمتعتي مع الرحلة النظامية. ولحظة وصلت الطائرة النظامية والأمتعة، وصلتْ أيضاً السيارة القادمة من منتجع ماراڤو بلانتيشن ريزورت، المنتجع الذي يُنتظر أن أقيم فيه ثلاثة أيام.

لن أحيد عن قراري في قص كل شيء عليك حسب الترتيب الزمني. فإذا حاولتُ، ببضع لمسات بسيطة، رسم صورة لـ«جزيرة الجنة»، فليس ذلك لمجرد الثرثرة. كل ما أحاول فعله هو وضع آنا وخوسيه في الوسط الذي ارتبطا به، في ذاكرتي أنا على الأقل، بعُرىً لا تنفصم.

لربما كان يجدر تسمية «جزيرة الجنة» اسماً أنسب هو «الفردوس الأخير». لكان لهذا الاسم فائدة عملية تتمثل في سهولة تغيير كلمة «الأخير last» إلى كلمة «المفقود lost» خلال بضعة العقود الآتية من الزمن. وأستطيع أن أؤكد لك أن كثيراً من زوار الجزيرة لن يلحظوا أدنى تغيير.

ثمة افتتان غريب لدى جنسنا نحن بـ «الأخير last» و«الضائع lost». إذ إن بهجة أجيال المستقبل باكتساب خبرة من الخبرات لا تُقارن برؤية شيء ما على وشك أن يتبدد ويضيع. من يرى أخيراً هو الذي يتمتع بما يراه. والأمر يشبه تماماً ما ينشب من سجالٍ بين الأقارب حول من سمع الكلمة الأخيرة للمتوفى.

الآن، حيث يزداد العالم صِغَراً بالتدريج، وتُطوِّر الصناعة السياحية منافذ نادرة للسوّاح، أتنبأ بمستقبلٍ باهرٍ لسياحة البائد: «شاهدوا بحيرة بايكال الميتة»،

«تمتعوا بآخر السنوات في جزر المالديف قبل أن تغمرها مياه البحر»؛ أو «في مقدورك أن تكون آخر من يرى نمراً حياً!». ستتكاثر الأمثلة بقدر ما يقل عدد الفراديس التي لا يعوق تقلُّصها وتخريبها السياحة، بل العكس تماماً.

عديدة هي أسباب بقاء تاڤوني محظوظة، حتى الآن، في مواجهتها مع العالم الغربي، أكثر من جزر أخرى زرتها . فللتضاريس الوعرة لهذه الجزيرة البركانية فضل كبير في الحد من عدد الزّوار ومن مشاريع الاستزراع الصناعي على حد سواء. كذلك تَلجمُ شواطئُها - ذات الحمم البركانية السوداء - السياحةَ؛ هذا بالرغم من أن الزاوية الشمالية الشرقية من الجزيرة تفخر فعلاً بشواطئ من رمل مرجاني أبيض لم تدركها يد التخريب بعد. لكن المشكلة هنا هي كثرة هطول الأمطار. كان هذا المزيج من تربة بركانية خصيبة ومن منحدرات حادة هو بالضبط ما شجع، في أواسط القرن التاسع عشر، المستوطنين الأوروبيين على تأسيس عدد من مشاريع الاستزراع. في البداية كان القطن عالي الجودة هو السلعة الرئيسية، لكن حين تدهورت أسعار القطن تدهوراً حاداً، بدأت مزارع قصب السكر في جنوب الجزيرة تحظى ببعض الأهمية. واليوم تشكل أشجار جوز الهند الصناعة الرئيسية، إضافة إلى سياحة متنامية. أعني بكلمة السياحة ما يسمى السياحة البيئية، إذ ما من شيء آخر يمكن القيام به هنا عدا التمتع بالخضرة الخصيبة؛ فلا مراكز تسوّق، ولا حياة ليلية أو مستلزمات فندقية حديثة رباعية الطوابق، ولا ربطاً تلفزيونياً للجزيرة بالعالم. وفوق كل ذلك ثمة نقص في الطاقة الكهربائية.

ساعد العاملان الأخيران خاصة في الحفاظ على بقاء تقليد حكائي قوي. يحل الظلام في الجزيرة عند السادسة مساءً، وعندئذ تدين السيادة للكلمة المحكية. فلربما كان أحدهم في رحلة صيد في البحر، وربما مر آخر بتجربة فريدة في أعماق الغابة، وربما صادف ثالثٌ، قرب أحد الأنهار، أمريكياً ضلَّ طريقه؛ ولدى كل من هؤلاء ما يحكيه. بقي على قيد الحياة أيضاً تراث عريق من الأساطير والملاحم، فليس في تاڤوني من مصدر للتسلية غير ما يصنعه المرء بنفسه. إلى هنا يأتي الغطاسون والغواصون من شتى أنحاء العالم ليروا الشُّعَب

المرجانية والحياة البحرية في ألوان مشكالية مبهجة. علاوة على ذلك، لاتزال الجزيرة تفخر بأعجب وأغرب ما في العالم من الطير، وسلالات نادرة من الخفافيش، ونزهات في الغابات والأدغال؛ وبالطبع أيضاً السباحة على الشواطئ وفي مساقط المياه التي تثير النشوة.

يفوق عدد أنواع الطيور في تاڤوني المئة، وبعضها كاليمام الشهير برتقالي الصدر تنفرد به هذه الجزيرة. الشيء الهام هنا هو أن النمس الهندي لم يُجْلب إلى الجزيرة قط. لكن كبح تكاثر الحشرات في المزارع اقتضى إدخال طيور العقعق والعلاجيم. احتل العقعق موطنه البيئي الطبيعي، بينما دفعت العلاجيم الضفادع الأهلية نحو أعماق الغابة، لكن الحياة الطيْرية الفريدة في تاڤوني بقيت سليمة بشكل مذهل. يصح هذا الأمر ذاته على الخفافيش، بما فيها خفاش الفاكهة العملاق، الذي يبلغ طول جناحيه طائراً خمسة أقدام، والذي يُسمى أيضاً الثعلب الطائر أو «بيكا». ويعتبر البيكا المسلوق طعاماً فاخراً في نظر قدامى السكان هنا.

هناك أكثر من ألف نوع مدروس من النباتات في تاڤوني، ومن بينها ثمة عدد لابأس به أهليّ المنشأ. في الساحل تكثر مستنقعات المنغروف الاستوائي وأشجار جوز الهند؛ بينما يتشكل الحزام الداخلي للجزيرة من الغابات السرخسية المَطِيرة الباذخة، بأشجارها المحلية التي لا تحصى عدداً. وهناك اليوم تشكيلة واسعة من النباتات الاستوائية مثل السحلبية والخبازى. أما زهرة ڤيجي القومية، التاجيموشيا، فهي نوع نباتي لا ينبت إلّا هنا وفي جزيرة ڤانوا ليفو المجاورة.

كما هو معتاد في هذا الجزء من العالم، تُظْهِر الحياة الحيوانية البحرية تنوعاً بالغ الثراء. لاحاجة إلى الغوص لتجدي وفرة هائلة من الأسماك والرخويات والإسفنجيات وقنديل البحر والمرجان. يصعب تجنب أوصاف مثل «مشكال حقيقي» و«كل ألوان قوس قزح» عند الحديث عن الحياة البحرية في جنوب المحيط الهادي. وحول تاڤوني بالذات، شعرتُ أن عدداً من أمثلة تلك الحياة أشد فتنة في خلقه من المعتاد.

إذا نظرنا شطر الفقاريات البرية الأهلية في الجزيرة، نجد ممثلين عن كل صفوفها، وإن يكن بأمثلة قليلة من كل صنف، باستثناء الطيور المتميزة بالكثرة والتنوع. قبل استيراد العلاجيم من هاواي عام 1936، كان أحسن ما يمثل البرمائيات هو الضفادع. أما الزواحف، وفيما عدا الإغوانة، فلا نجد منها إلا أنواعاً قليلة من الوزغة والأفاعي. على كل حال، أشهر الزواحف اليوم هو وزغة المنازل اللطيفة التي تسمى علمياً هيمي داكتيلس فرناتس، رغم أنها لم تدخل المسرح الفيجي قبل سبعينيات القرن العشرين. والخفاش هو الثديي الأهلي الوحيد الذي تفخر به الجزيرة، وهو يتمتع، تعويضاً عن وحدته، بنظام بيئي خارق خاص به ناجم عن تكيفه عالي التمايز. ومنذ ثلاثة آلاف وخمسمئة عام جلب أوائل المستوطنين من البشر الجرذ البولينيزي معهم، ومن المحتمل أنه أُدخل إلى الجزيرة كمصدر للغذاء.

إن الفقاريات الأهلية في تاڤوني هي الأسماك، الضفادع، العظاءات، الطيور، الخفافيش، وأهالي فيجي الذين يبلغ عددهم حالياً اثني عشر ألف نسمة. وهكذا فإن الجزيرة تعرض صورة شفافة وقوية التمثيل عن تطور الفقاريات. ليس من الصعب، إن نحن ألقينا نظرة راجعة إلى الماضي، أن نرى كيف تطورت فقاريات هذا الكوكب عبر مراحل محددة: من الأسماك إلى البرمائيات، ومن البرمائيات إلى الزواحف، وأخيراً من الزواحف إلى الطيور والخفافيش والفيجيين.

هل تفكّرتِ يوماً في درجة «ابتذال» تشريح الجسم الإنساني من الناحية التطورية الصرف؟ وبعبارة أخرى، كم نحن البشر فقاريات أثرية من جوانب عدة؟ ربما تعجبت يوماً من قوة الشبه بين الهيكل البشري وهيكل العظاءة أو السلمندر. إن خطر ذلك ببالك، فستلاحظين أيضاً أن الفيَلَةِ والجِمال، بالمقابل، ثمرتان عجيبتان تماماً سقطتا بعيداً عن جذع الشجرة؛ هذا إذا ما اعتبرنا جذع الشجرة هو القالب البدئي للعمود الفقري وعظم الترقوة والأطراف الأربعة ذات الأصابع الخمسة. إن الطريق السريع الحقيقي الذي يصل بين الحياة البائسة في الحقبة الديڤونية وبين وصول الإنسان فاتحاً إلى القمر يزدحم ببرمائيات شبيهة

بالسلمندر، بزواحف شبيهة بالثدييات، وفي الطور النهائي، بالرئيسات. كان ثمة بالتأكيد شبكة خلّابة من المخارج والمنزلقات أيضاً على جانبي هذا الطريق.

أكاد أسمع احتجاجاتكِ الآن، أكاد أسمعك تصرخين بأعلى صوت أني صرت متمركزاً حول الإنسان. إن أولى سمات التطور هي طابعه غير الخطي وغير المُتَعمَّد. ولا مُتعمّداً، إن التطور يذكّر بدغل أو بشكل رأس القرنبيط أكثر مما بخطوط أو جذوع. أي حقٍ لي في اعتبار نوع أو نوعين، ضمن صف كامل من الحيوانات، أصدق تمثيلاً من غيرها؟ لكن ليس هذا ما أقول؛ كل ما أريده هو الإشارة إلى أني أحسُّ، بطريقة ما، بقرابة أكبر مع عظاءة من العظاءات من قرابتي مع ثديي مثل خفاش الفاكهة أو الحوت الأزرق. لم أتحدّر من خفاشٍ ولا من حوتٍ أزرق، ولا حتى من زرافةٍ أو من قردٍ شبيهٍ بالإنسان إن شئت؛ إنما أنا النسل المباشر لسمكة مفصصة الزغانف، لأحد البرمائيات، ثم لواحد من الزواحف الشبيهة بالثدييات.

مكّنني التوزع التصنيفي الشحيح للفقاريات في الجزيرة من اعتبارها جدولاً كبيراً واحداً لتطور الحياة على الأرض. وجدت نفسي هناك في صالة عرض داروينية. ولا ينحصر تفكيري هنا في الأطراف الأربعة للضفدع أو للعظاءة، للخفافيش أو لأهالي فيجي، وهم يشتركون جميعاً في هيكل خماسي الأصابع، هيكلٍ تستحق فيه سيقانُ وأصابع أقدام الفيجيين الطويلة التقديرَ بدرجة لا تقل عن نظيراتها لدى العظاءة.

أقول لا ينحصر تفكيري فيما ذكرتُ، فقد يضاف، فيما يخص الفيجيين، أن مصدر اللحم الوحيد في غذائهم، عدا الجرذان والخفافيش، هو لحومهم هم. كان أكل لحوم البشر ممارسة واسعة الانتشار حتى نهاية القرن التاسع عشر، هذا إن غضضنا النظر عن الجندي الياباني الوحيد الذي استهلكه الفيجي وليم لاماسالاتو في وقت حديث حداثة نهاية الحرب العالمية الثانية. كان لهذه الممارسة تأثير غير ضئيل على قدرة الجزيرة الحفاظ على غاباتها المطيرة ورئتيها. ليس ما أفكر به هنا هو الحد من التكاثر السكاني بفضل ما قد نسميه الاستهلاك المتبادل، بقدر ما هو أن أكل لحوم البشر لعب دور وقاية بيئية ضد

غزوات الرجل الأبيض. لقد أبحر كل من إيبل تسمان 1643 وجيمس كوك 1774 بمحاذاة فيجي، لكن شائعات عن مخاطر هذه الجزر «آكلة لحوم البشر» منعتهما من المجازفة بالرسوّ. وبعد التمرد على متن السفينة باونتي 1789، أبحر الكابتن بلاي وضباطه بمحاذاة عدد من الجزر في قارب مكشوف. ورغم الجوع والإعياء لم يجرؤوا على سرقة جوزة هند واحدة. في أوائل القرن التاسع عشر وصل أوائل الأوروبيين إلى مملكة الجزيرة. ثمة حكايات متداولة عن مبشرين لقوا ترحيباً ودّياً ثم تحولوا إلى ألوان طعام محلية حقيقية. هذا الوصف في محله لأنه بعد أن تم تناول الطعام، أُعلن بطريقة مراسمية أن المقبّلات كانت أثداء نسائية، وأن الطبق الرئيسي هو أفخاذ إنسانية، أما عُقبة الطعام فهي أدمغة بشرية؛ وقد أُعدَّت لهذه الأخيرة شوكة رباعية الأسنان سهلة الاستعمال. واحد من المبشرين، يثير السخرية أن اسمه القس المحترم بيكر «خبّاز» - شُوِي هو ذاته، وحوِّل إلى طعام عام 1867. وهكذا جُلبَ المدفع والقذائف والبارود، والتاريخ الاستعماري هو بقية القصة. كان أول ما فعله الأوروبيون في فيجي هو اقتلاع أشجار الصندل الثمينة. وفيما بعد استوردوا ستين ألف عامل زراعي من الهند، الأمر الذي يفسر كون أكثر من نصف سكان الجزيرة اليوم من الهنود. جلب هذا التدفق البشري معه سلسلة من الأوبئة والأمراض؛ الكوليرا أولاً، وقد خلّفت وراءها بعض الجزر خالية من الناس؛ ثم الحصبة عام 1890، وقد مات بها ثُلث سكان فيجي.

تطوف في خاطري، من وراء ذلك كله، مفارقة مثيرة للتفكير: إن سبب بقاء التوازن البيئي سليماً نسبياً في بعض الجزر الفيجية هو أن الرجل الأبيض لم يجسر على الرسوّ فيها خوفاً من آكلة لحوم البشر. أسميها مفارقة رغم أني أشعر بقدرٍ من التعاطف مع مجتمع فضّل، في أوقات المحْل، استهلاك بعض أفراده بالذات على التسابق إلى قتل كل الأنواع الحية الأخرى. أنا أسلم بضرورة النظر إلى أكل لحوم البشر باعتباره انتهاكاً لما نسميه «الحقوق الطبيعية»، بيد أن الطيش البيئي للعالم الغربي هو أيضاً انتهاك معادل للمسؤولية الطبيعية. ثمة تاريخ لمصطلح «الحقوق الطبيعية» يتجاوز الألفي عام، وكل ما أريد التساؤل عنه

هو: متى سنكون على استعداد لاستخدام مصطلح «المسؤوليات الطبيعية».

بما أني قد لامست موضوع الألفي عام، فاسمحي لي، في النهاية، أن أشير إلى مفارقة مدهشة أخرى مرتبطة «بجزيرة الجنة في فيجي». قضى القدر أن تقع الجزيرة تماماً على الخط الدولي لتعاقب الأيام، فقد صادف أنها تتوضع بالضبط على خط الطول 180 درجة انطلاقاً من المرقب الملكي في غرينتش. هذا يعني، بأدق معنى للكلام، أن نصف الجزيرة يعيش هذا اليوم بينما يعيش نصفها الآخر في الأمس. والعكس صحيح بالطبع: يعيش نصفها في اليوم، ونصفها الآخر في الغد. أسمّي هذا قَدَراً لأن تافوني ستكون أول مكان مسكون في العالم يرى الألفية الثالثة. لن تتجاوز فيجي هذه المناسبة دون أن تُلحَظ.

لم أكن الوحيد الذي نقلته اللاندروفر، فقد انضم إليّ ضيفان آخران يقصدان الوجهة نفسها. تبادلنا بضع كلمات في المطار خلال انتظار أمتعتنا المحمولة على الطائرة النظامية. أحد الضيفين هو لورا التي كانت قد كشفت عن حماس كبير للطيران بمعابثتها ربّاننا المسن، وقتَ كنت أنا أُقلِّب، لوحةً فلوحةً ألبوم العائلة الأرضية، بدءاً من الانقسام الخلوي الأوّل في الحقبة ما قبل الكامبرية الباكرة وصولاً إلى القسط الزمني المخصص لي على هذه الأرض.

كانت لورا، وهي من أديلايدي، امرأة حلوة في أواخر عشرينياتها. وببشرتها الذهبية البنية وضفائرها الطويلة السوداء، كانت تذكّر بامرأة شابة من سكان أمريكا الأصليين أكثر مما تذكر بامرأة بيضاء. أما أهم ما يميزها فهو أن إحدى عينيها خضراء والأخرى بنية. لربما وُجِدت لمسة صغيرة من البني في العين الخضراء، وخُيَيط دقيق من الأخضر في العين البنية؛ ومع ذلك تبقى خضراءَ عينٍ وبنّية أخرى. وهذه صفة وراثية شديدة الندرة لا أذكر أني رأيتها قبلاً. لاحظتُ أيضاً شارة صندوق الحياة البرية العالمي على حقيبة ظهرها المصنوعة من القنّب والغريبة الشكل. كانت لورا مُغريةً وغريبة إلى درجة لافتة للانتباه، بيد أنها لم تكن قطعاً معنية بذلك التعارف السطحي الذي يجري في

المطارات عادة. قضت الرحلة منكبة على دليل «الكوكب الوحيد» تقرأ فيه عن الجزيرة.

أمّا شريك سفري الآخر فهو بيل. أظن أنه أعطاني اسم كنيته أيضاً، لكنني نسيته منذ أمدٍ طويل. بيل رجل في أواخر خمسينياته، قدِم من مونتيري في كاليفورنيا، ومن الواضح أنه متقاعد من النوع الثري الباحث عن المغامرة. سرعان ما تصوّرته الممثل النموذجي لخاصية شمال ـ أمريكية مميزة، أعني التلذذ الجامح بتذوّق العالم واختباره شخصياً إلى أقصى حد، دون أن تحرفه عن هذا الهدف علاقات اجتماعية من زوجة أو طفل أو صديق حميم. كان بيل أشبه بفتى يافع. أوحت لي شخصيته بأن بعض الناس لا يكبرون أبداً؛ يصيرون أثرياء جداً، ثم مسنين جداً: هذا كل ما في الأمر.

كان الرجل الذي التقانا بريطانياً سمى نفسه جون، وهو رجل متين البنية في أواسط ستينياته، يبلغ ستة أقدام وثلاثة إنشات طولاً على الأقل، وذو شعر رمادي وشاربين قصيرين أبيضين تقريباً. أدركتُ متأخراً أنه ليس واحداً من أعضاء الطاقم العامل في ماراڤو، وأنه ضيف مثلنا عرضَ على أصحاب المنتجع أن يقوم بنقلنا لأنهم كانوا في مأزق. بدا حريصاً على تكوين انطباع عن الضيوف الجدد بأسرع ما يمكن.

ما أن انعطفت السيارة على الطريق الريفي صوب منتجع ماراڤو بلانتيشن ريزورت حتى ملأتني الدهشة من جمال المكان. يتكون المنتجع من عشرة أكواخ وبناء رئيسي واحد، وقد تناثرت جميعاً في أرجاء مزرعة جوز هند قديمة. كانت الأكواخ ـ أو البيورات حسبما تسمى في الجزيرة ـ مبنيّةً على قمة تشرف على البحر وتكتنفها الأدغال وأشجار جوز الهند المتمايلة. وهذا ما جعل رؤية أحد الأكواخ من الأكواخ الأخرى مستحيلاً، أو على الأقل رؤية باب من باب آخر. أما البناء الرئيسي فقد شُيِّد بجدران مكشوفة وجملونات عالية مسقوفة بسعف النخيل على غرار المنازل التقليدية لأهالي الجزيرة. أما أرضيته الخشبية فتتسع لقاعة استقبال مفتوحة وبار ومطعم.

رُحِّب بنا في البار، وبينما كانت تتم إجراءات تسجيلنا، قُدِّمت لكل منا

جوزة هند كاملة مزينة بأزهار الخبازى، ومعها «شلمونة». جلسنا بضع دقائق نتبادل أطراف الحديث، بينما جاء كل من كان على رأس عمله في المنتجع للترحيب بنا واحداً واحداً. كانوا يقولون «بولا! بولا!». هذا السلام المحلي يتكرر كثيراً جداً في فيجي حتى ليكاد يصبح شعاراً. لكن لهذه الكلمة معنىً أكثر مرونة من مقابلاتها في معظم اللغات الأخرى. «بولا» تعني أي شيء من «مرحباً»، «أهلاً»، إلى «طاب نهارك»، إلى «كيف حالك؟»، «تمتع بيومك» و«وداعاً».

كانوا جميعاً يعلمون أني أنا فرانك وأن بيل هو بيل وأن لورا هي لورا. بدا كأن المكان برمته لم يجد ما يفعله في الأسابيع القليلة الماضية غير التحضير لاستقبالنا، لجعلنا نشعر أننا صفوة مصطفاة. وكأننا قدمنا إلى ماراڤو لنتطهر ونولد من جديد أفراداً. اكتشف بيل أن كلمة ماراڤو الفيجية تعني «هادئ وأنيس»، أما لورا فأرادت أن تعرف أفضل مكان لرؤية ببغاوات الجزيرة الشهيرة.

اقتادني أحدهم بمحاذاة المسبح وعبر بستان النخيل إلى البيور 3، حيث فعلتُ أقل ما يمكن فعله قبل جلوسي على شرفة مكشوفة والنظر منها إلى البحر، وأتذوّق ـ برهبة متأملة ـ مورداً طبيعياً شديد الندرة في عالمنا الراهن. ما أقصده هو الصمت. فقد اجتثَّ الجنس البشري هذا المورد عملياً من بين ما اجتث.

ها أنذا على الأرض مرة أخرى، وإن يكن من الصعب القول إني ترجّلت ترجلاً، دعي عنك أن أدير ظهري لتجربة تلك الطائرة، رغم أني أخذت ضمانات بالحصول على مقعد في الطائرة النظامية في رحلة العودة إلى نادي. كنت في مزاج من الخوف المتوتر، في حالة ذهنية أيقنتُ أني لن أتخلّص منها أبداً. كأني كنت مستمتعاً بدفقة من الفوران وصفاء الرؤية اللذيْن يسببهما الكحول، لكني شعرتُ أن الخمر الذي شربت منه هذه المرة لن يجد طريقه خارج جسمي أبداً.

سمعت عن أطباء يتحولون إلى مُوَسْوَسين، عن متسلقي جبال يصبحون مذعورين من المرتفعات، وعن قُسس يفقدون إيمانهم؛ كنت في حالة لا تقل

سوءاً عن أحوالهم. فأنا عالم الإحاثة الذي أضحى يخشى العظام، وأنا عالم الحيوان الذي لا يكاد يقر بأنه حيوان. وأنا عالم الأحياء التطوري الذي يصعب عليه أن يسلم بأن فرصته، هو أيضاً، محدودة على الأرض. انقضى نصف حياتي وأنا أفحص بقايا من هياكل الثدييات. بحماس متعطش للمعرفة ألقيت بنفسي في غمار تحليل بقايا الحيوانات البائدة، وها هو ذا ينمو في داخلي خوف مريع من أني، يوماً ما، سأترك كومتي الشخصية الصغيرة من ذات المادة التي طالما استمتعت بفحصها. شعرت أني مفلسٌ، غير أن هذا الشعور لم يكن يشبه وسواساً؛ إنه مجرد إدراك حدسي مطلق. رأى بوذا رجلاً مريضاً فرجلاً عجوزاً فجثة. وفي طفولتي تعثرت بظبي ميت في الغابة؛ والآن، وبعد تلك الرحلة الخطرة بالطائرة من نادي إلى ماتثي، ها هوذا الجرح القديم يُنكأ من جديد.

استعدتُ، مرة أخرى، الفيلم الطويل للحياة على الأرض بدءاً من أربعة مليارات سابقة من السنين. إنه تاريخي أنا هذا الذي استعيد، إنهم أسلافي أنا؛ لم أسترجع خط تحدّري المباشر من زواحف صغيرة، شبيهة بالثدييات، عاشت هنا قبل أزْيَدَ من مئتي مليون عام، بل عدتُ أبعد من ذلك نحو زاحف بدائي ما، نحو برمائي ما، سمكة مفصصة الزعانف، لافقاريٍّ ما، عَوْداً إلى أول خلية حية في هذا العالم. لست وحدي من تحدّر من زواحف شبيهة بالثدييات عاشت هنا قبل أكثر من مئتي مليون عام، بل كل خلية من خلايا جسدي تحتوي مورثات لها العمر ذاته بالضبط. أنا الحلقة الأخيرة في سلسلة متصلة من الانقسام الخلوي، من عمليات كيميائية حيوية مرسومة بهذا القدر أو ذاك، ومن عمليات علم الأحياء الجزيئي في التحليل الأخير. التمعتْ في ذهني فكرة عدم اختلافي، من حيث المبدأ، عن عضويات بسيطة وحيدة الخلية تمثل أوائل أسلافي. ما أنا إلا مستعمرة خلوية بأدق معنى لهذه العبارة، لكن مع فارق واحد هام: إن خلاياي أكثر تكاملاً من خلايا المستنبت الجرثومي؛ إنها أكثر تمايزاً، وبالتالي أقدر على تقاسم جذري للمسؤولية. بيد أني أنا أيضاً مكوّن من خلايا مفردة، وكل واحدة وأيٌّ واحدة منها مبنية حول أبسط قاسم مشترك، أعني

المدونة الوراثية، الخطة السيدة بالذات، الخطة المدفونة في أعماق كل واحدة من خلاياي. تمثل مدونة د.ن.آ D.N.A(*) وحدها تراكماً مجهرياً من عبث شارد الذهن بالحموض النووية، استغرق مئات ملايين السنين. من الناحية الوراثية، لست، مع ذلك، أكثر من تكوين ممسوخ من خليتين متماثلتين. ولكن كيف أمكن لهذين النسيلين الضخمين الاتصال ببعضهما، وكيف استطاعا، فوق ذلك، تشغيل المورثات وتعطيلها بما يفيد الكل أحسن فائدة؟ هذا واحد من أعظم أسرار الأرض.

تَمثَّل المحرك الحقيقي للتطور في تلك الواقعة البسيطة التي تفيد بأن نسبة صغيرة فقط من كل جيل هي التي تمكنت من النمو و التكاثر؛ فلولا الاصطفاء لكان التطور مستحيلاً. إن تساقط الذُّرية على الطريق إلى جانب معركة أبدية من أجل البقاء هما الواقعتان اللتان تشكلان عماد التطور. ولكن ها أنذا جالس هنا. ها أنذا هنا في جزيرة صغيرة في أوقيانيا أشبه باستثناء نادر مهمل لقاعدة تنص على أنكِ لا تربحين جائزة اليانصيب الكبرى ألف مرة متتالية. أنا ـ وأعني بهذه الكلمة نَسبي، شجرتي العائلية، خطي غير المتقطع من الأعراس والانقسامات الخلوية ـ فزتُ بمعركة البقاء عبر ملايين الأجيال. نجحتُ في كل جيل من هذه الأجيال في تقسيم خلاياي، ثم في التناسل عبر الإلقاح أو طرح البيوض، ثم في الطور الأخير، في حمل صغاري. لو أن واحداً فحسب من ملايين أسلافي، أحد البرمائيات التي عاشت حياتها الموحلة في الحقبة الديفونية مثلاً، أو أحد الزواحف التي انسلّت بين السراخس في الحقبة البيرمية مثلاً،

(*) للمزيد من المعلومات عن الـ د.ن.آ D.N.A والبنية التكوينية للإنسان وخلاياه وأمراضه وأسباب هرمه وموته الحتمي المبرمج في خلاياه، راجع كتاب «الجنس ومنابع الموت» الصادر عن دار الكلمة بدمشق. وللمزيد من المعلومات عن كيفية تطور الكائنات الحية بدءاً من الخلايا الحية الأولى وحتى الإنسان مروراً بالحشرات والأسماك والنباتات والطيور والحيوانات.... راجع كتاب «الجنس وطبيعة الأشياء» الصادر عن دار الكلمة أيضاً. الناشر.

لو أن فرداً واحداً من هؤلاء هلك قبل نضجه الجنسي ـ تماماً كما حدث للخشف الصغير في بلدي النرويج ـ لما وجدتُني على الشرفة الآن. ولا تقولي لي إني أنظر إلى الأشياء من منظور مفرط في طوله، ففي مقدوري أن أرجع أكثر وأكثر في الزمن: لو حدثت طفرة مميتة واحدة في انقسام خلوي جرثومي محدد قبل مليارين أو ثلاثة من السنين لما رأيت أنا نور النهار أبداً. إنما من تلك الجرثومة الواحدة المحددة تحدرتُ أنا، وحصراً من تلك الخلية بالذات؛ فلأسمِّها الخلية ZYG، 31، 514، 718، 120، 211، 212، 091، 514 من المستعمرة الخلوية KAR، 251، 521، 118، 512، 391، 414، 518، الواقعة على خط الطول 180 درجة بضع درجات شمالَ مدار الجدي. لم تتح لي فرصة غيرها قط، ولن تسنح لي فرصة أخرى أبداً. سبق لي أن نجوت مليارات من المرات من أخطار شديدة التقلب. ولكن تمكن أسلافي دائماً ـ نعم ڤيرا، نعم بكل تأكيد ـ تمكنوا دائماً من تسليم عصا السبق الوراثية سليمة، دائماً في أسلم حالٍ لها، مع أنهم كانوا «يُدوْزنون»، بانتظام، ميراثهم، بتنويعات صغيرة مفيدة. وهكذا، كان ثمة مرحلة جديدة من السباق على الدوام، كان لا يزال هناك ملايين المراحل التي لا بد من قطعها في أعسر الظروف حتى يجيء دوري. قُطِعت المرحلة الجديدة أيضاً، وكذا المرحلة اللاحقة لها، وقد يكبر الجيل التالي حتى لو كان من الصعب أن نضمن ذلك، بيد أن ذلك سيحدث، وسيحدث مراراً وتكراراً لأن أحداً لم يسقط في الفخ، الكل محترس وجاهز، وقد مرت عصا السبق من جيل إلى جيل مئات ملايين المرات؛ والدليل أني هنا.

هذا ما كنت أفكر به بطريقة تدين إلى تلك الطائرة التي عرّضت كنزي الوراثي، وعمره ملايين السنين، إلى أشد المخاطر. شرد فكري في حقيقة أن جزءاً كبيراً من الطريق الموصل إلى حلم اليقظة الصباحي هذا قد تم قطعه سلفاً حين كانت السمكتان مفصصتا الزعانف اللتان هما جَدَّة جَدَّة جَدَّة جدتي وجد جد جد جدي ـ وقد صادف أن كانتا جارتين في الحقبة الديفونية ـ تتجرجران من بركة إلى بركة كيلا تختنقا من نقص الأكسجين. لكن، وهنا الجزء المؤلم،

أشرف سباق التتابع هذا، بطوله الخارق وبصفائه وشفافيته المحزنين، أشرف على النهاية. ها قد وصلت لعبة الدومينو الأبدية التي تواصلت، دونما توقف ولو لثانية واحدة، أكثر من ثلاثة مليارات من السنين، ها قد وصلت إلى خط النهاية. وقد بدأتُ أنا بلمّ البقايا.

وجدتُني ثرياً جداً من حيث الخلفية. فكم عدد الأجيال الذي أستطيع تقديرها بدءاً من أوائل البرمائيات، وكم من الانقسامات الخلوية أستطيع أن أضيف إلى حسابي منذ أول خلية عرسية؟ إنما أنا المالك لهذا الماضي الذي يكاد يخنقني ثراؤه. غير أني بلا مستقبل، ولن أكون شيئاً مذكوراً بعد هذا التراث.

هكذا جالَ عقلي بين الخواطر، ولربما ينبغي عليّ أن أضيف أني كنت أفكر فينا نحن الاثنين. خطرَ ببالي بالطبع أيضاً أني لم أعد أباً لأطفالٍ. كانت هذه الحقيقة ضربة إضافية على مفاصل أصابعي. فحتى اليوم، أنا أول جيل بلا أطفال ضمن تراث يُعدُّ بمئات ملايين الأجيال السابقة لي. فكما هو معلوم، لاينتقل انقطاع النسل إلى الأجيال اللاحقة. إن قانون علم الأحياء التطوري يقضي بأن غياب النسل صفة غير ملائمة يتم استئصالها فوراً. فقط أولئك الذين لهم أطفال من نسلهم هم يحق لهم أن يحلموا بأحفاد، ودون أحفاد لن يكون المرء أبداً جداً أو جدّة.

ومن المؤسف أن يحدث هذا بالضبط حين بدأت الأمور بالتحسن من وجهة النظر التطورية، أو بالضبط حين أخذت أبدي إعجابي بالمكنوزات الثمينة لعائلتي. بمعنى ما أنا ثري واسع الثراء. أملك ملايين الجواهر العريقة الموروثة من أسلافي منسقة هناك في أعماق صدري. بيد أني أغني آخر القصائد. أنا في الأربعين تقريباً، ولا أكاد ألمح أدنى أثر لذرية تخصني. وحيدٌ في هذا العالم، مرميٌّ بطريقة لا توصف فوق نفسي.

آدم لا يشعر بالدهشة

حاولت إلقاء نظرة على الملاحظات النهائية التي دونتها في أوكلاند بعد كل ما أجريته من لقاءات مع المسؤولين عن حماية الطبيعة فيها. وفي هذه الأثناء سمعت صوتاً مكتوماً مرة أو مرتين. ظننت في البداية أنه صدى رعد بعيد، لكنني أدركت بعدئذ أنه صوت سقوط ثمار جوز الهند من قمم أشجارها العالية إلى الأرض.

وبعد سقوط الجوزة الثالثة، سمعتُ فجأة، أصواتاً بشرية تزداد اتضاحاً، ثم رأيت رجلاً وامرأة يسيران بمحاذاة جدار كوخي، على درب ضيق يتخلل بستان جوز الهند، ويقودهما صوب البحر نزولاً أو صوب الطريق العام. كان ذراعا الرجل يحضنان كتفي المرأة بحميمية شديدة لدرجة أني شعرت قليلاً بالخجل من جلوسي حيث كنت. ذكّرني هذا الموقف بالرب وهو يتجول في الفردوس مراقباً مخلوقاته. هاأنذا في الموقف نفسه، وإن يكن ذلك بعد السقوط والطرد من الجنة، لأن الكائنين لم يكونا متحاضنين فقط، بل لقد سترا عريهما أيضاً. ستر الرب المرأة بفستان أحمر بلون شقائق النعمان، بينما مُنح الرجل ملابس من الكتان الأسود. سمعتهما يتحدثان الإسبانية، فأصختُ لكلامهما سمعي.

على حين غرة توقف الرجل على الدرب. رفع ذراعه عن كتفي حوّاء، وأشار بيده عبر الحديقة ونحو البحر. ثم تكلم بصوت عالٍ وصاف:

«ما من شيء شاذ في افتراض ان الخالق قد ارتد خطوة أو خطوتين، جافلاً، بعد ان شكّل الإنسان من التراب، ونفخ نَفَس الحياة في منخريه،

مُسوِّياً منه كائناً حياً. المفاجئ في هذه الحادثة هو عدم شعور آدم بالدهشة».

كان الطقس حاراً، والسماء صافية بعد بضع مُزنات شديدة في الصباح، لكني شعرت عند سماعي هذا الكلام بقشعريرة باردة تخترق جسدي. ألا يبدو كأن الرجل يقرأ أفكاري؟

ضحكت المرأة، ثم التفتت نحو الرجل وردّت بصوت واضح:

«لا مجال لإنكار حقيقة أن خلق عالم كاملٍ مأثرةٌ جديرةٌ بكل تقدير. غير أن الأجدر بالاحترام هو عالم كامل قادر على خلق نفسه. والعكس بالعكس، لامجال لمقارنة تجربة المخلوق مع الإحساس الغامر الذي يولّده ابتكار المرءِ ذاتَه من العدم، ثم الانتصاب على قدميه معتمداً على نفسه فحسب».

جاء دوره الآن بالضحك. هز رأسه متأملاً ثم عاد إلى تطويق كتفيها بذراعه. وحين بدآ بالابتعاد والغياب عن ناظريّ بين أشجار جوز الهند، سمعت الرجل يقول:

«تبدو آفاق المستقبل ممعنة في الغموض بحيث لايُستغنى عن استبقاء عدة ممكنات في أذهاننا: إذا كان ثمة خالق، فما هو؟ وإذا لم يكن ثمة خالق، فما هذا العالم؟».

من دون أن أذكر من كان ذانك العرّافان، شعرتُ بذهول عميق من كلامهما. أتراني كنت أشهد طقساً صباحياً عريقاً؟ أم أني التقطتُ، مصادفة، تعليقين عابرين من محادثة أطول؟ تمنيتُ، إن كان الأمر كذلك، أن أسمع الحديث كله. نبشت مفكرتي من بين أمتعتي، وحاولت تدوين ما سمعت من كلام.

بعد قليل، وحين انطلقتُ في جولة استكشافية، التقيتُهما مرة أخرى وجهاً لوجه. كنت أوجّهُ وجهي صوب الطريق العام الذي يساير الشاطئ إلا في

مواقع الانحدار الشديد في الجنوب الشرقي. التزمتُ الطريق ما يقارب ميلاً واحداً، وسرعان ما وصلتُ إلى ما تسميه الخريطة شاطئ الأمير تشارلز: اسمٌ مهيب لمنبسط ضحل من الماء لايكاد يجذب في بعض الأيام سبّاحاً واحداً. لعل الوريث الشرعي للإمبراطورية البريطانية قد اقتيد يوماً إلى هنا رغبة من السكان في تمتيعه بمشاهدة أكثر شواطئ تاڤوني بعداً عن الإثارة. لقد أحسنوا الاختيار.

لمحت عبر البساتين آدم وحوّاء يسيران عاريي القدمين على حافة الماء كأنهما يجمعان الأصداف. وجدتُ نفسي منجذباً نحوهما، وقررت أن أتجه نحو الشاطئ كما لو أن الأمر مصادفة. ما إن خرجتُ من بين الأشجار حتى طرقت بالي فكرة مهمة: لِمَ أكشف عن معرفتي بالإسبانية؟! إنها ورقة رابحة قد يكون من المفيد الاحتفاظ بها، الآن على الأقل.

سمعاني أقترب وقابلاني بعيون راقبة. أظن أن المرأة قالت للرجل شيئاً عن أنهما لم يعودا وحيدين.

كانت تحوز من الجمال كل ما تنسبه أسطورة الخلق للمرأة: شعر أسود تتدلى خصلاته الكثيفة فوق فستانها الأحمر، وأسنان بيضاء ناصعة البياض وعينان فاحمتا السواد. كان جسدها الذي لوّحته الشمس طويل القامة أنيقاً وتياهاً، وأظنها كانت تمشي برشاقة غير مألوفة. كان الرجل أقصر منها، وبدا متحفظاً، بل محترساً، وإن تكن ابتسامة عابثة قد داعبت ملامح وجهه أثناء اقترابي. كان شاحب البشرة أشقر الشعر أزرق العينين. وهو من مُجايليّ سناً، وأكبر منها بعشر سنوات على الأقل.

ثمة ما أوحى إليّ، حتى في ذلك اللقاء الأوّل بالذات، أني قد رأيت هذه المرأة قبلاً. ورغم أني لست ممن تغريهم أفكار عن الحياة الأخرى، فقد بدا لي أني التقيتها في حياة سابقة، أو في وجود آخر. استعرضتُ سريعاً ماضيّ القريب ومعارفي، فلم أجد لها مكاناً في ذاكرتي. لكنني التقيتها بالتأكيد قبلاً، وبالنظر إلى صِباها، فلا بد أن اللقاء وقع منذ زمن غير بعيد.

حيَّيْتُهما بالإنكليزية، وقُلتُ إن الطقس لطيف، وإني وصلت ذلك

الصباح إلى الجزيرة. قدما لي نفسيهما باسمي آنا وخوسيه، وعرفتهما على نفسي باسم فرانك. اكتشفنا سريعاً أننا نقيم جميعاً في ماراڤو، وعلى أي حال، لم يكن هناك مكان قريب آخر يستضيف الزوار. كانا يتحدثان الإنكليزية بطلاقة.

«أنت في عطلة؟» سألني خوسيه.

تريثتُ في الرد ساحباً نفساً متمهلاً، إذْ ليس من المناسب أن أدخل في محادثة مطولة. قلتُ إني في طريقي إلى بلدي بعد عدة أسابيع من دراسات ميدانية في جنوب المحيط الهادي. وحين تابعتُ مضيفاً بضع كلمات عن الأخطار المهددة للحياة النباتية والحيوانية الأصلية لتلك المنطقة، أصغيا بانتباه شديد. كانا يتبادلان نظرات خفية، وبشكل عام بدت حميميتهما مفرطة إلى درجة أنني بدأت أشعر بعدم الارتياح مجدداً. أدركت أن أوضاعاً حميمية كهذا الوضع تقدم فائدة لا تُنكر، فائدة التصرف كاثنين. تساءلتُ: «وأنتما؟ في شهر عسل؟».

هزّت آنا رأسها بالنفي، وقالت: «نعمل في الصناعة السينمائية».

«في السينما؟» ردَّدتُ خلفها.

حاولتُ استخدام هذه العبارة كمحاولة أخيرة لاكتشاف أين قابلت هذه المرأة الأنيقة قبلاً. أهي نجمة سينمائية شهيرة تتمتع حالياً بعطلة في البحار الجنوبية مع زوج يكبرها سناً بقليل هو المخرج أو المصوّر المعروف خوسيه الفلاني أو العلاني؟ إذ ليس من الضروري أن أكون قد قابلتها في الحياة الواقعية، فربما رأيتها على الشاشة فقط. كلا، هذا غير معقول. فأنا لم أكن قط من مرتادي صالات السينما، وقطعاً لم أكن كذلك منذ أن بلغتْ آنا سن النضج.

نظرتْ إلى زوجها وتردَّدت لحظة قبل أن تدير عينيها نحوي ثانية. أومأت برأسها بتحدٍّ: «نحن نعمل في محطة تلفزيون إسبانية».

وكأنما توكيداً لصدقِ ما قالته، أخرجت آلة تصوير صغيرة مدمّجة، وشرعت تلتقط صوراً للشاطئ، لخوسيه، ولي. كانت تبتسم بخبث جعلني أرتاب في أنها تتسلى على حسابي. إذا كان الأمر كذلك، فلن يكون الصفح

عنها صعباً لأني لم أكن منبهراً بالرمل المرجاني الأبيض وبشمس الظهيرة وحدهما.

سألَ الرجلُ المرأةَ عن الوقت، وأذكر أن ذلك أثار استغرابي لأني كنت قد لاحظت أن أياً منهما لا يحمل ساعة. قلتُ إن الساعة هي الثانية عشر والربع، وبتلويحة مودّعة أعلنتُ أني منطلق لاستكشاف الجزيرة. ما إن أدرتُ ظهري لهما، ولم أكد أتجه نحو الطريق، حتى سمعتُ المرأة تهمس بتوكيد طقسي:

«كما حين ينتهي تصوير المشهد، وتُقَوَّض خلفيته وتحرق، كذا نحن حين نموت: اشباح في ذاكرات نسلنا. ثم نصير أطيافاً، يا عزيزي، ثم نصير أساطير. غير اننا لانزال معاً، لانزال نحن الماضي معاً، نحن ماضٍ بعيد. تحت قبة ماضٍ غامض لاازال اسمع صوتك».

داعبتُ في خاطري فكرة أن تكون آنا أعطتني معلومة جديرة بالمتابعة. فلربما في ماضٍ غامض ما عليَّ أن أبحث عن مفتاح يفسر مألوفيتها لي.

لقد رأيتها قبلاً، هذا ما أنا على يقين مطلق منه. لكن في الوقت ذاته، لا يبدو هذا الأمر كله صحيحاً ومعقولاً. تملكني شعور مزعج بأن شيئاً ما، شيئاً ما، قد حصل في لحظة من لحظات الزمن.

أثارت مقابلة الإسبانيين اضطراباً شديداً لديَّ إلى درجة أني قررت أن أمشي على الشاطئ مسافة الأميال الثلاثة التي تفصلني عن خط الطول 180، أي إلى حيث كان قد تقرر تشييد نصبٍ على الخط الذي يفصل اليومين المتعاقبين. انقلب الأمر بالنسبة لي إلى نزهة، لكنها نزهة مكّنتني من تكوين انطباع عن الحياة اليومية في الجزيرة. مررتُ أثناء سيري بقريتين تعجّان بالحياة. رحّب بي سكانهما الباسمين بثيابهم الملونة. كانت بعض جداول الماء مزدحمة بأطفال يسبحون، وبينهم رأيت واحداً أو اثنين من البالغين أيضاً. لفت نظري أن الرجال هم من كانوا يحملون الأطفال الصغار. فلدى النساء ما يفعلنه غير هذا.

لم ألمح ولو وجهاً واحداً عابساً، رغم أن الفرصة كانت سانحة لتأمل عدد من الوجوه عصر ذاك اليوم. كانت الأزهار وثمار جوز الهند والأسماك والخضار وفيرة في كل مكان، أمّا فيما عدا هذه الأشياء فلم يكن ثمة من طعام آخر يُذكر بالنسبة لرجل غربي. لكن ألم يعش آدم وحواء في شروط مماثلة، في جنة عدن، قبل أن يأكلا من شجرة المعرفة، ويُكتب عليهما الكدح طوال النهار، كي يأكلا طعامهما بعرق جبينهما؟ لا أتخيل أن نساء هذه الجزيرة يطلبن غاز الضحك أو البيثيدين أثناء ولادتهنّ. دار في خلدي أن الحياة مجرد لعبة، أن الحياة كلها قطعة من الحلوى.

تقرحت قدماي حين اقتربت أخيراً من قرية واييفو التي لا تبعد عن خط تعاقب الأيام أكثر من نصف ميل. تحادثتُ هناك مع ليبي ليزوما، وهي امرأة أسترالية لطيفة متزوجة من رجل فيجي، وتدير مخزن القرية العام ومتجراً صغيراً للتذكارات في الوقت نفسه. كانت محاطة بعصبة من الأطفال، ولمّا ذهب أحدهم لجلب كرته من تحت أشجار جوز الهند، أشرت نحو الأشجار، وسألتها إن لم تكن تخشى أن تقع جوزة على رأسه. اكتفت المرأة بالضحك وقالت إن الأمر لم يخطر لها ببال، وإن ما تخشاه أكثر هو أسماك القرش. ورغم ذلك، لم تمنع الأطفال من السباحة في البحر، لكنها ألزمتهم بأن يبقوا خارج الماء إذا ما تعرض أحدهم لأدنى خدش في جسده. فأسماك القرش تستطيع شمّ الدم من مسافات بعيدة، حسب قولها، الذي صادقتُ عليه بإيماءة من رأسي. ولمّا ذكرتُ أني قطعت المسافة من ماراڤو مشياً، تساءلَت ـ على سيرة القرش ربما ـ عما إذا كنت جائعاً. قلت إني ميت من الجوع، ثم أضفت مازحاً أني لم أتوقع مصادفة أي مكان للوجبات السريعة على الطريق. ابتسمتْ بطريقة أمومية دافئة، وأخذتني ـ كما يُتَوقَّع من جنية خيِّرة ـ إلى حانة صغيرة محجوبة خلف الدكاكين، وتُشرف على الشاطئ تماماً. تناولتُ غداءً إفرادياً وبسيطاً محاولاً بعث العزم في نفسي على إتمام الشوط الأخير من المسافة. كانت الحانة تسمى «مقهى أكل البشر»، وتعلن الكلمات المكتوبة بحروفٍ حمراء كبيرة على لافتة مبهرجة: «نشتهيك على الغداء».

يا له من موقف عابث يتخذه أحفاد أكلة لحوم البشر من ماضيهم الهضمي! كم هو مدهش أن أولئك الناس السعداء، دائمي الابتسام، المتميزين بالرصانة، لا يبعدون أكثر من جيلين عن احتمال وضعي في أحد قدور مطابخهم! شيء ما في أسلوبهم الجذاب أثار في ذهني هذه التداعيات. شعرت دائماً أنهم شغوفون بالغرباء، غير أن إحساساً كان يدغدغني، بين حين وآخر، بأنهم يحبون السائحين بطريقة تقارب حبهم لرائحة شرائح لحم الخروف. وحين كان الفيجيون يسلّمون عليّ بـ«بولا»هم الحاضرة أبداً، كنت أتساءَل عما إذا كانوا على وشك لحس شفاههم. لا أعرف إن كانت استِسَاغَةُ اللحم البشري شيئاً قابلاً للتوريث. إذا كان الأمر كذلك، فإن السؤال الذي يُطرح هو: هل المستعدون وراثياً لأكل لحوم البشر هم أولئك الذين نجوا من أكل لحمهم هم؟ فمن المرجح أن من كانوا يشعرون بنفور من اللحم البشري عانوا من سوء التغذية وماتوا بسبب عَوَز البروتين؛ هذا دون أن نذكر من تمّ أكلهم قبل أن ينجبوا أطفالاً. فقد خسر هؤلاء الأخيرون أيضاً بطاقات تصويتهم الوراثية.

كان النصب المشيّد عند خط تعاقب الأيام يرمز إلى تعاقبها بشكل إعلاني سمج يُعْوِزه الذوق. فخلف صخرة حمراء منتصبة، نُصِبت لوحة إعلانية عمودية تحمل خريطة ثلاثية الأبعاد لتاڤوني. تعطي تلك اللوحة انطباعاً عن «الجزيرة الجنة» من مسافة تراها عين الطائر، المسافة التي لم أجسر على النظر منها حين كنت في طائرة علبة الكبريت. وبالضبط تحت مجسّم الجزيرة ذاك، بِطُرقِهِ المرسومة بالألوان، وببحيراته ومجاري أنهاره، رُسِم خط يتجه من الشمال إلى الجنوب. الخط في الحقيقة جزء من دائرة، مقطعٌ من محيط الأرض يصل إلى القطبين ثم يستدير مُشكّلاً خط الطول الأوّل الذي يخترق غرينتش. إلى يمين الخط، أي في نصف الكرة الطولاني الذي قَدِمتُ منه، نحن في اليوم، وإلى شماله نحن في غدٍ. وقد كتب تحت التمثال: **خط تعاقب الأيام الدولي الذي يبدأ منه كل يوم جديد.**

لن أحاول البرهنة على أن الوقوف بقدم في هذا اليوم وأخرى في غدٍ يمثل تجربة خارقة. لكن خطرَ لي أنه، على هذا الشاطئ بالذات، ستشرق الألفية

الثالثة، ولم يبق حتى ذلك الفجر إلا عامان فقط. ستنتشر الهوائيات ذات الشكل الشبيه بالقطع المكافئ انتشار الفطور السامة هنا، أي في واحدٍ من أماكن قليلة مسكونة في هذا العالم لايزال دون شبكة ربط تلفزيونية. ستصدر التقارير من هذا الفردوس الأخير إلى العالم الخارجي الذي كُتِبَ عليه الهلاك، هذه التقارير الصادرة من الحوافي الخارجية المذعورة لعالم جريح، ستقلبُ، هي بالذات، البراءة الطوباوية لهذه الجزيرة، رأساً على عقب. جال بخاطري وأنا أفكر في هذه الاشياء أن من المستحيل أن تبث تقريراً عن حلمٍ ما دون أن تنهي الحلم ذاته.

تذكرت شيئاً سبقت لي قراءته عن خطط فيجي بصدد احتفالات الألفية. لقد اعتبرتُ نفسي على الدوام قادراً على ملاحظة الجوهري، وقد انحفرت جملة واحدة محددة في ذهني. قال السيد سيتيفني باكون، رئيس اللجنة الوطنية الفيجية للاحتفال بالألفية: «لما كانت فيجي تقع على خط الطول 180 تماماً، فإنها ستكون أول من يحتفل بعام 2000 بين بلاد الأرض، وقد كانت لجنتنا تستكشف السبل الممكنة للاحتفال بالألفية الجديدة في فيجي». وفي هذا السياق المخصوص، فيجي تعني تاڤوني «الواقعة على الخط 180 تماماً». كنت منشغل البال بتخيل أن العالم سيجتاح هذه الجزيرة غير المنيعة خلال احتفائه الهاذي بال متى وال أين الدقيقين لبداية المستقبل. سيقع كل شيء هنا بالذات، وحرفياً عند العلامة التي ترسم الحد الفاصل بين الألفيتين الثانية والثالثة، أي «أول لحظة من الألفية الثالثة على الأرض».

فضلاً عن بحثنا عن «الأخير» و«المفقود»، تتملكنا جميعاً رغبة مَرَضِيَّة في أن نكون «الأوّل». لكني عند التروّي في الأمر، تبيّنتُ أن الأوّل والأخير هما الشيء ذاته. فلمّا كان روالد أمندسن أوّل إنسان يصل القطب الجنوبي، كان الأخير أيضاً. كان آخر شخص على الأرض يقتحم تلك البرّية البكر، الأمر الذي سيتعلمه (سْكُوتْ) على حسابه بعد ذلك بشهر واحد فقط. سيكون الأوّل هو الأخير. وكذا كان الحال بالنسبة للوصول إلى القمر. كان آخر أولٍ على القمر ـ الآخِر الذي لن يتمكن أحدٌ من تكرار أوّليته أبداً ـ هو نيل

آرمسترونغ. ألم تكن تحيته الشهيرة إلى هيوستن، التحية التي قال فيها إن الرحلة إلى القمر خطوة صغيرة بالنسبة لإنسان واحد، وقفزة عملاقة للإنسانية، ألم تكن تنويهاً سخياً بجنسه البشري بالذات؟

من المحتمل أن حشوداً ستتزاحم في كانون الثاني عام 2000 في المكان الذي كنت أقف فيه. فترتيبات حفلة ذلك اليوم تسير منذ الآن على قدم وساق، وقد سمعتُ عن عدة أفلام تلفزيونية وثائقية وعروض تجريبية أخرى عن خط تعاقب الأيام. وعندئذٍ سيأتي «سائحو العام 2000» زرافاتٍ فيما يشبه الصرخة اليائسة الأخيرة لصناعة الأسفار المستهترة أصلاً. رأيتُ الملصقات: «احتفل بفجر الألفية الجديدة في قارات ثلاث!» وقد نفدت كل أنواع البطاقات منذ وقت بعيد، وستزداد أسعارها مع الوقت. فثمة على هذا الكوكب عدد كبير من الناس المستعدين لدفع آلاف الدولارات، ليتخلصوا من المذلة الاجتماعية التي قد تنجم عن الاحتفال بقدوم الألفية مرة واحدة، وفي قارة واحدة أيضاً.

كنت جاهزاً لبدء طريق العودة إلى ماراڤو: لكن بينما كنت أقوم ببعض الحسابات الدقيقة عن الوقت والمسافة، وصلتْ سيارة جيب سوداء إلى النصب، وقفزت منها آنا ثم خوسيه. شعرت بنبضي يتسارع.

سلّمتْ آنا عليّ بحرارة، ثم قالت وآلة التصوير في يدها: «ليبي قالت إننا قد نجدك هنا». أُرتِجَ عليّ لحظة، ثم تذكّرتُ الجنية الخيّرة من قرية وايڤو.

أفاضت آنا في شرحٍ مسهب: «كان لدينا عمل في القرية. ولمّا سمعنا أنك مررت بها، رأينا أنكَ قد تحتاج إلى سيارة تقلك في طريق العودة».

لابد أني بدوتُ مضطرباً قليلاً، لكني شكرتُها على عرضها لأني أخطأت في حساب الوقت ومسافة الأميال التي تحتمل رجلاي قطعها على ذلك الطريق الترابي؛ خاصة وأن موعد العشاء سيحين بعد ساعتين.

مرة أخرى شرعت آنا تطقطق بآلة التصوير، مصوّرة النصب والجيب وخوسيه وأنا.

أوضح خوسيه أنهما كانا يقومان ببعض التقديرات عن ظروف الجزيرة، ويعقدان اتفاقيات، ويضعان اللمسات النهائية على بعض الترتيبات، قبل العودة إليها في وقت لاحق من ذلك العام لتصوير فيلم وثائقي هام عن مستدار الألفية. سيشكل ذلك الفيلم جزءاً من سلسلة برامج عن التحديات التي تواجه الجنس البشري عند فجر الألفية الجديدة.

أشارت آنا إلى خريطة الجزيرة، وقالت: «نحن في هذه النقطة الآن، ومن هنا سوف تبدأ الألفية الثالثة، المكان الوحيد الذي تستطيع فيه أن تمشي من اليوم إلى غدٍ دون ارتداء أحذية خاصة بالثلج».

سبق لي أن سمعت هذا الشعار. فبِغَضِّ النظر عن جزيرتين أُخريين في فيجي، لايقطع خط الطول 180 إلا الدائرة القطبية الجنوبية وسيبيريا الشمالية.

«أهناك أهمية خاصة لهذا النوع من الوثيقة؟» تساءلتُ.

أومأ خوسيه برأسه: «نعم، أهميةٌ كبيرة جداً».

أَملتُ رأسي مصغياً، وأضاف خوسيه: «سيكون الفيلم هزة إصبع محذِّرة منذرة».

أردت أن أعرف ما يعنيه بالضبط: «منذرة ممَّ؟».

«بطريقة أو بأخرى سيؤثر مستدار الألفية على الكوكب بأكمله، ويتصور الجميع أن لهم الحق في القدوم إلى هنا عند اللحظة الأولى بالذات. غير أن اجتذاب انتباه العالم كله، وتركيزه على جزر البحر الجنوبي، سيكون بالغ الأذى على تلك الجزر سهلة العطب أصلاً. من وجهة النظر هذه، كان أنسب لِخط تعاقب الأيام أن يمر بلندن أو باريس. لكن في أيام الاستعمار كان ملائماً أكثر رسم الخط بعيداً في مكان ما في الأدغال. لعلك ترى ما أرمي إليه...».

فهمتُ، بمنتهى الوضوح، ما يعنيه. فمن السهل أن تشرح ما يعنيه شخص ما حين يقلدك هذا الشخص كالقرد. ومرة أخرى شعرتُ أن ذهني يُقرأ ككتاب مفتوح. جعلني هذا الشعور أكثر طلاقة في كلامي. فإذا استطعنا فعلاً قراءة أفكار بعضنا البعض، فسنتمكن أيضا من الكف عن التلعثم. قلتُ: «وليس

مفيداً أن تعمد كل شركة تلفزيونية، فوق تغطيتها للواقعة ذاتها، إلى إنجاز فيلمها الوثائقي الخارق عن كيف ولماذا بالضبط تتعرض الثقافة والبنية المحليتان للتدمير. يحوز هذا الفيلم قيمة إمتاعية بذاته، أليس كذلك؟».

فكرتُ أني ربما تجاوزت الحد حين أضفتُ: «هل ثمة شيء أصلاً لا يحوز قيمة إمتاعية؟». أرفقتُ عبارتي بابتسامة تسليم، فضحكتْ آنا وأشرق وجه خوسيه. أظن أننا كنا نتواصل على موجة التواتر العالي ذاتها.

هُرعت آنا إلى الجيب، وعادت تحمل كاميرا ڤيديو صغيرة بحجم آلة التصوير العادية. وجهت الكاميرا نحوي وأعلنتْ: «فرانك أندرسون، عالم الأحياء النرويجي، كان يدرس مؤخراً النظام البيئي لعدد من الجزر في أوقيانيا. ما الذي يمكنك قوله لمشاهدينا في إسبانيا؟».

أخذتني المفاجأة والارتباك فلم أعرف ما أقول. كيف عرفت أني نرويجي؟ وكيف اكتشفت كنيتي! أتكون قد اختلست نظرة إلى دفتر الحجز في ماراڤو! أم أنها تذكر أين سبق لنا أن التقينا؟

كانت تلقائية وأشبه بالأطفال في سلوكها فلم يخطر في بالي أبداً أن أسحب نفسي من لعبتها هذه. أظن أني تحدثتُ ست دقائق أو سبعاً، أي مدة طويلة جداً، لكنني قدمتُ تصوراً أولياً عن الموضوع، ولامستُ قضايا الدمار البيئي في أوقيانيا والتنوع الحيوي وحقوق الإنسان في مقابل مسؤوليات الإنسان.

لمّا أنهيتُ كلامي، وضعت آنا الكاميرا على الأرض وصفّقت.

هتفتْ: «براڤو! خارقٌ جداً».

وفي خلفية المشهد سمعتُ خوسه يعلّق: «وهذا هو تقريباً ما أسمّيه هزة أصبع منذرة».

مرة أخرى سلّمت نفسي لإغواء تينك العينين السوداوين. وسألتُ: «هل سجّلتِ فعلاً؟».

أومأتْ إيماءة خفية أن نعم. لم يخطر لي على بالٍ يوماً أن لكاميرا ڤيديو

متواضعة كتلك أية علاقة بما يسمى، بكل تبجح، أفلاماً وثائقية. والحقيقة أن شيئاً ما منعني من أخذِ قصة عملهما التلفزيوني بعين الجد. في البداية قلتُ أنا إني موجود هنا لإنجاز بعض الأبحاث، وعندئذ حاولا أن يمنحا نفسيهما أهمية معادلة. ومن المحتمل أنهما لم يصدقاني. نعم، هو ذا الأمر. ربما اعتقدا أني مدّعٍ كاذب، إذ من المعقول تماماً أن يشعر شخص يسافر وحيداً في المحيط الهادي بالحاجة إلى هالة من الأهداف السامية تغطي رحلته بدلاً من مجرد عطلة تحت أشعة الشمس.

وهناك شيء آخر أيضاً. هل مرّ هذان الإسبانيان بمحض المصادفة قرب كوخي، واستظهرا تلك الدُّرر العميقة عن وجود الله وعدم شعور آدم بالدهشة! وهل طلعا لي هنا عند خط تعاقب الأيام بمحض المصادفة أيضاً! أم أنهما يلعبان معي ألاعيب من نوع ما؟

إنهما شخصان عابثان بالتأكيد. زعمت آنا أنهما في بعثة إعلامية في جزر الهادي، وقد سايرتُها أنا لأني لم أكن قد استبعدتُ فكرة أنهما في شهر عسل. «لكننا لا نزال معاً...» لو كانا يعرفان أني أفهم ما يقولان، لاستولى عليَّ الإحراج حتماً، ولكان هذا الشعور متبادلاً قطعاً.

انحدر خوسيه صوب البحر، وخلال وقفته هناك مديراً ظهره لنا، قال شيئاً بالإسبانية. دلّت نبرة صوته على أنه مهتم بإعلان نهاية ما، وبدا لي، مجدداً، أنه يكرر كلاماً سبق أن قاله مرات عديدة، أو أنه يحفظه عن ظهر قلب:

«ثمة يوجد عالَم. لو تعلّق الأمر بالاحتمالات، لشارَفَ هذا الوجود على الاستحالة. لَكَان أرجح بكثير لو أن المصادفة قضت ألّا يوجد شيء على الإطلاق. آنذاك، على الأقل، ما كان أحدٌ ليتساءل عن سبب عدم الوجود».

حاولتُ فهم كل ما قاله، لكن الأمر لم يكن سهلاً لأن المرأة الجميلة تابعتْ نظراتي بثبات طوال الوقت، كأنها تبحث عن رد فعلي على التفاتِ

خوسيه وتحدّثه بلغة لا أفهمها. ما من شكٍ في أني سمعتُه، لكن هل فهمتُ ما قال؟ وإن لم أفهم، هل سأسأل ماذا قال؟

من الصعب النظر في عيني آنا السوداوين والتظاهر بعدم فهم كلمات خوسيه العاتبة، الكلمات التي بذلتُ أقصى ما بوسعي لاستيعابها لحظة كان يفوه بها. ورغم أني كنت مبلبل الذهن، لم أستطع إبعاد عيني عن تحديقة آنا الفاحصة.

أظن أني خرجتُ من تلك المجابهة منتصراً، إذ سرعان ما التقطت آنا الكاميرا، وأعادتها إلى مقعد السيارة الأمامي. وللحظة وقفتْ مستندة إلى السيارة كأنها تشعر بالدوخة. ألم يكن وجهها شاحباً أيضاً؟ استغرق ذلك بضع ثوان قبل أن تعتدل في وقفتها مرة أخرى، وتجري، ناسية إياي، عبر الدرجات القليلة منحدرة نحو خوسيه وتمسك يمناه بيسراها. وقفا عدة دقائق تحت ضوء ما بعد الظهر الاستوائي كأنهما منحوتة حيّة لكيوبيد وسايكه. ثم نطقت سايكه شيئاً بالإسبانية، لعله ردٌّ محفوظ على كلمات كيوبيد عن وجود عالم رغم أنه كان أرجح أن تقضي المصادفة بعدم وجود أي شيء على الإطلاق. قالت:

«نحمل روحاً، وتحملنا روح لانعرف عنها شيئاً. حينما ينتصب اللغز على ساقيه دون ان يجد حلاً، يحين دورنا نحن. حين تقرص صورة الحلم ذراعها هي دون أن تصحو، إنما هي نحن. إنما نحن اللغز لايحزر جوابه أحد. نحن حكاية الجنيات العالقة في أسر صورتها هي. نحن ما يهيم في كل وادٍ من دون ان يبلغ فهماً واضحاً.».

وبينما كانا لا يزالان واقفين وقد أدارا ظهريهما إليّ، سحبتُ دفتري الصغير، وحاولتُ خطّ ما صاغاه بيسرٍ وإحساس، ولكن أيضاً بطريقة قطعية معتقدية. «نحن ما يسعى ويسعى دون أن يبلغ فهم...».

أتُراهما حفظا أشعاراً إسبانية عن ظهر قلب، وكل منهما يلقي، بنشاط، ما حفظه على سمع الآخر خلال تجوالهما؟ غير أن الأسلوب شبه الطقسي

لاستظهارهما تلك الحِكم العجيبة جعلني على يقين من أنه لا مؤلف لكلامهما إلا هما، بل ولا مُخاطَبَ به إلا نفساهما.

تحدثنا في طريق عودتنا إلى ماراقو عن أشياء مختلفة منها دراساتي في مجال التاريخ الطبيعي. كانت الشمس القريبة من الأفق الغربي تنشدُّ متثاقلة نحو البحر تحت تأثير جاذبية أفول النهار التي لا تقاوم. وكنت أعلم أنه خلال ما لا يتجاوز ساعة واحدة سيحل الظلام. تحت أشعة الشمس الذهبية الحادة شاهدنا نساءً يجمعن الثياب من على حبال الغسيل، ولايزال الأطفال يترددون في النهر، والفتيان يحاولون الفوز بلعبة الركبي.

«إذ إننا اللغز الذي لا يحزره أحد...»

دار بخلدي فجأة أني كنت مستسلماً على الدوام، كأني مُنوّم مغناطيسياً، لنظرة اختزالية إلى العالم بشكل عام، ولحياتي أنا الوجيزة على هذا الكوكب خاصة. أعاد آنا وخوسيه إيقاظ شعورٍ غافٍ لديّ بكون الحياة مغامرة، ليس هنا في فردوس البحر الجنوبي فقط، بل كل الحياة على الأرض، بما فيها تلك التي نعيشها في المدن الكبرى، رغم أننا معرضون هناك لخطر أن لا نرى كم هو سحريٌ عالمُ الإنسان بسبب انغماسنا في العمل واللهو والملذات الحسية.

لمّا مررنا بقرية سوموزومو، التفت خوسيه إلى آنا، وأشار إلى حشدٍ صغير من الناس في الفناء الخارجي للكنيسة المعمدانية. هنا أيضاً قال شيئاً بالإسبانية، شيئاً متنافراً هذه المرة مع ما كان يدور في خاطري من تأملات أثناء جلوسي في المقعد الخلفي للسيارة، ورأسي يطرق سقفها كلما مرّت بحفرة على الطريق:

«بنو الجن نشطاء اكثر مما هم عاقلون، خارقون للمالوف اكثر مما هم موثوقون، اشد غموضاً مما يستطيعون هم بالذات تصوّره بما اوتوهُ من فهم محدود. مثل نحلات طنانة تطير من زهرة إلى زهرة عصر أحد ايام آب الناعسة، مثلها يتمسك جن الموسم بمساكنهم المدينية في السموات. وحده الجوكر ينأى بنفسه عن هذا المصير».

«جنُّ الموسم...»! جفلتُ عند سماعي هذا التعبير الغريب. كدت أن

أطبق يداً على فمه لمنعه من تكرار تلك العبارة بصوتٍ عالٍ. ربما تتساءلين متعجبة لماذا لم أفعل ذلك بالذات. لماذا لم أستطع مواجهة آنا وخوسيه بمعرفتي لخصلتهما الشعرية العجيبة تلك؟ ولو سألتهما عمّا يقولان، لقدّما لي، بلا شك، ترجمة إنكليزية، ولربما تفضّلا بشرحٍ وافٍ كافٍ أيضاً. وإن تكن عبارات مثل «جنُّ الموسم» لايكاد يفيد فيها شرح.

طرحتُ هذا السؤال على نفسي مراراً، ولستُ متأكداً أني وجدتُ إجابة مناسبة عليه؛ لكنني وقتها اعتبرتُ أسلوب آنا وخوسيه الغريب في التواصل شيئاً يربط حياتهما معاً. ڤيرا، كانا ثنائياً ـ قد يكون هذا ما أسعى للتعبير عنه ـ كانا زوجين متماسكين منسجمين في توافق ذهني لاتنفصم عراه. اعتبرتُ تواصلهما الكلامي الغريب أولاً وأساساً تعبيراً عن رباط شخصي وثيق بين عاشقين؛ والمرء مِنّا لا يمتنع عن قراءة رسائل العشاق دون سبب وجيه، على الأقل لا يفعل ذلك أمامهما. ثم إني لو أقررتُ بفهمي لما يقولان، لجازفتُ بهدر فرصة سماع المزيد.

تقولين الآن: طيب، لستَ مضطراً للإقرار بمعرفتك اللغة، ولكن عليك على الأقل أن تسأل، بين وقت وآخر، عمَّ يتحدثان عنه. أليس من الغريب، بعد كل شيء، أن تصغي للحديث كله من دون أي استجابة منك على هذا السلوك الخارج عن المألوف؟ غير أنه ليس من الغرابة في شيء أن يتبادل شخصان ـ يتحدثان الإنكليزية عادة أمام من لايعرف لغتهما ـ بضع كلمات بلغتهما هما. تسمى هذه الحالة الحياة الخاصة، الدائرة الحميمية؛ وفي هذه الحالة يُفترض بي ألّا أفهم ما يقولان. كل ما أعرفه عندئذ هو أنهما يدردشان عن مغص بطني أو عن الشعور بالجوع أو انتظار العشاء. فضلاً عن ذلك، أردتُ مواصلة الإصغاء. كنت مصمماً على انتزاع أكبر قدر ممكن من أقوالهما. عندما يبدأ الشخص الذي تشاركينه السرير بالكلام في نومه، لاتندفعين فوراً إلى إيقاظه، رغم أن هذا هو التصرف الأليق، لا، لا، بالعكس، تحاولين البقاء ساكنة لمنع حتى صوت احتكاك الأغطية، من أجل أن تظفري بأكبر قدر ممكن من كلام النائم، أي مما يشكل نسخة نادرة غير منقحة منه.

مالت آنا نحو خوسيه الذي وضع ذراعه اليسرى حول كتفيها بينما كان

يُحكِمُ يده اليمنى على عجلة القيادة. رَنَت نحوه بعينين متلألئتين، وقالت:

«يعيش بنو الجن في حكاية الجنيات الآن، غير أنهم غافلون عن ذلك. أتكون حكاية الجنيات حكاية جنيات حقيقية إن تمكنت من رؤية نفسها؟ أتكون الحياة اليومية معجزة لو داومت ابداً على شرح نفسها؟».

جلستُ في مؤخرة السيارة، وحاولت التفكير بالعلاجيم المهروسة على الطريق العام. سبق لي أن رأيت أكثر من مئة منها حين كنت متوجهاً نحو خط التعاقب، وكانت بالفعل تشبه أقراصاً من الحلوى. لكن ليست العلاجيم ما كانت تشغل بالي آنذاك، بل هذا السؤال الذي طرحته على نفسي: هل كنتُ شديد الاستغراق في علمي فخسرت القدرة على رؤية سحر حكاية الجنيات في كل لحظة على الأرض؟ رأيتُ المدى الذي ذهبتْ إليه مطامح العلوم الطبيعية في محاولتها شرح الأشياء جميعاً. هنا يكمن خطر التعامي عن كل ما لا يمكن شرحه.

اضطررنا، ونحن نعبر القرية الأخيرة، إلى إبطاء سيرنا، وكدنا نتوقف حين صادفنا عدداً من النساء والأطفال سائرين، على غير نظام، في منتصف الطريق. لوّحوا لنا بأيديهم وابتسموا، ورددنا عليهم بالتلويح والابتسام أيضاً. كانوا يصرخون عبر نافذة السيارة «بولا!»، «بولا!» وكانت إحدى النساء حاملاً في شهرها الثامن أو التاسع.

رفعت آنا نفسها متحررة من ذراع خوسيه الذي عاد يسوق السيارة بكلتا يديه. وقالت وهي تلتفت إلى الخلف لتنظر إلى المرأة الحامل:

«في عتمة البطون المنتفخة، تسبح دائماً ملايين من شرانق وعي جديد كلياً بالعالم. ينسرب بنو الجن العزّل واحداً فواحداً حين ينضجون ويصيرون جاهزين للتنفس. ليس في وسعهم الآن تناول طعام غير الحليب الجني الحلو الذي يتدفق من برعمين طريين في لحم الجن.».

«لحم الجن»، فيرا! كنت قد افترضت أن الجن في هذا الكون الخوسيهاني هو نحن، الكائنات البشرية الأرضية عامة. أما وقد صيغت العبارة خصيصاً من

أجل الفيجيين، فقد تمثّلت لي ذكرى أسلافهم، وهم يزدردون بكل رباطة جأش لحم الجن ودم الجن، تمثلت لي هذه الذكرى شديدة الشناعة والقبح.

ما إن عدت إلى كوخي، بعد وصولنا إلى ماراقو، حتى وقفت على الشرفة بضع دقائق أرقب غروب الشمس. شعرتُ أن ذلك النهار يستحق هذا التكريم الوداعي الأخير احتفالاً بانتهاء رحلتي الجوية على خير. تمت الرحلة صباحاً لحظة شروق الشمس، وها أنا الآن أتابع بعيني قرصها الأحمر الشاحب ينقلب على ظهره ويتدحرج على حافة البحر. ما الشمس إلا واحدة من مئات مليارات النجوم في هذه المجرة، حتى إنها ليست واحدة من النجوم الكبيرة. بيد أنها نجمي أنا.

كم من مرة أخرى سأسافر على متن الأرض الراحلة حول نجمها في درب التبانة؟ خلفي أربعون دورة تقريباً، أربعون رحلة حول الشمس. إذن انتهى نصف ترحالي على الأقل.

أفرغتُ ثيابي من حقيبة السفر، ثم أخذتُ حماماً سريعاً وارتديتُ قميصاً أبيض كنت اشتريته في أوكلاند. قبل أن أمضي إلى العشاء تناولت جرعة صغيرة من الجن الذي جلبته معي، ثم وضعت الزجاجة على طاولة السرير الصغيرة. هذه الجرعة طقسٌ التزمتُ به دائماً في أسفاري. وكنت أعرف أني سآخذ جرعة كبيرة حين أهيئ نفسي للنوم، فالجن هو عقاري المنوم الوحيد.

تذكرتُ كم افتقدتُ تلك الزجاجة في جلستي البائسة في الطائرة الصغيرة القادمة من نادي. افترقنا، أنا وهي، دقائق حاسمة، لكن الخطوط الجوية كانت ألطف ذاك الصباح بالزجاجة من صاحبها.

لـمّا خرجت إلى بستان النخل وأغلقتُ الباب خلفي، سمعت شيئاً يهرع مسرعاً بين عوارض سقف الكوخ الخشبية. شعرتُ أني أعرف ما هذا الشيء، لكنني لم أعد إلى الكوخ لألقي نظرة مدققة.

البرمائيات الطليعية

الظلمة حالكة في الخارج. نقطتا الضوء الوحيدتان في بستان النخل هما مصباحا غاز معتدلا الإنارة. وفوق ذرى أشجار جوز الهند تومض آلاف الفوانيس الصغيرة وسط كتلة كثيفة من حلقات الضوء النجمية. فكرتُ أنه ما أن يبرح المرء المدينة، وحالما يحلّ الظلام، حتى يجد نفسه في قلب الفضاء الكوني. ومع ذلك فقد سمحتْ جحافل إنسانية متنامية العدد لنفسها بالاحتجاب عن هذا الفضاء كأنها تعيش في دفيئة زجاجية. ويجعلها التأثير البصري لهذا النمط المعتكف من الحياة تنسى ماهيتها وأصلها. بالنسبة للكثير من الناس أضحت الطبيعة مرادفاً لصور التلفزيون ولنباتات الأُصص المنزلية وطيور الأقفاص. وعلى هذا المنوال، لا غرابة أن نرصد السماء عبر نماذج تمثيلية صُنعية لها.

لم يكن الوصول إلى المطعم سهلاً، غير أني توجهت متخبطاً نحو وميضٍ خافتٍ بعيدٍ يصدر عن المبنى الرئيسي. شققت طريقي عبر الأجمات بين أشجار النخيل، وبعد لأيٍ بلغت المسبح الذي كانت كل أعمدة الضوء حوله مُنارَةً. ثلاثة أو أربعة من علاجيم القصب كانت تسبح دون كلل صعداً ونزولاً في المسبح. أكانت تتسابق لنيل شهادات مهارة في السباحة! خطر ببالي هذا التساؤل لأن واحداً منها كان جاثماً على حافة بركة السباحة كأنه يُراقب المشهد كله. فطوال النهار تستأثر الرئيسات بالمسبح دون أن تفسح مجالاً للعلاجيم. أما في المساء فيحين دور الأخيرة لاستخدام هذا المرفق.

يمّمت صوب المطعم المفتوح حيث كانت الشموع المشتعلة تغطي

الطاولات العشر. ثمة عشرة أكواخ أو بيورات في ماراڤو، لذلك هناك عدد مُساوٍ من الطاولات في المطعم.

كان خوسيه وآنا قد احتلا مكانيهما. لم تزل آنا في فستانها الأحمر، ولاحظت أنها ارتدت حذاء عالي الكعب أيضاً. خوسيه يلبس طقمه الكتاني الأسود ذاته مع فارق واحد: يرتدي الآن منديلاً أحمر حول عنقه. كان المنديل مناسباً تماماً لفستان آنا، وربما يكون قد أُخِذَ من القماش ذاته.

جلستُ إلى الطاولة المجاورة لهما، وتبادلنا بضع إيماءات سريعة. كنت قد تعلّمت، بوصفي مسافراً منفرداً، فن عدم استدرار دعوات الآخرين للانضمام إلى موائدهم. نحن في المساء الآن، وقد انقضت نزهة بعد الظهر، فلم يعد لي أي حق على آنا وخوسيه. إنهما الآن يخصان بعضهما فقط.

أومأتُ كذلك إلى لورا التي كانت تجلس وحدها عند الطرف الآخر من المطعم. جلس إلى طاولة أخرى رجل أسود الشعر ذو لحية خطّها الشيب، ولعله يكبرني بعشر سنوات. في وقت لاحق من ذلك المساء اكتشفتُ أنه إيطالي يدعى ماريو. احتل الطاولة المجاورة له زوجان شابان في بواكير عشرينياتهما يقضيان شهر عسل هنا، ولم يكتف هذان الزوجان بالاستناد على الطاولة بأيدٍ متعانقة، بل كان رأساهما ينصهران بين الفينة والأخرى في قبلة جامحة. تيسّر لي في الأمسية التالية أن أتبادل بضع كلمات مع هذين الشابين أيضاً. هما من سياتل ويسمّيان مارك وإيڤلين.

على مبعدة جلس جون، وهو الرجل الإنكليزي الذي التقانا في المطار. من الواضح أنه كان يدوّن بعض الملاحظات. وأنا أتذكر ذلك بجلاء لأني كثيراً ما وجدت نفسي أقوم بالأمر ذاته: بينما أنتظرُ الغداء أو العشاء أجلس إلى طاولتي وأخطُّ ما أخط. لم أجد في نفسي يوماً استعداداً ذهنياً للانغماس في كتابة رواية. فيما بعد عرفت أن جون هو المؤلف البريطاني جون سبوك المقيم في كرويدن قرب لندن. حين علمتُ أول مرة أنه كاتب، افترضتُ تلقائياً أنه واحدٌ من تلك الفئة من أصحاب الكتب شديدة الرواج الذين يمتعون أنفسهم

بالإقامة في جزر البحر الجنوبي بضعة أشهر في الشتاء بحثاً عن إلهامٍ لكتابة روايةٍ جديدةٍ. لكنه في الحقيقة جاء إلى الجزيرة منذ يومين فقط، وذلك من أجل المشاركة في برنامج تلفزيوني. نعم، أنتِ محقة، فالبرنامج فعلاً عن قدوم الألفية وخط تعاقب الأيام والتحديات التي تواجه العالم، وما شابه ذلك من أشياء. كل ما شابه ذلك، ڤيرا، كل ما شابه ذلك!

لم أرَ بيل، لعله كان في غرفته يمارس تمارين اليوغا على أمل أن يعيش سنة أخرى. قدّم العشاء رجلان من الأهالي يرتديان التنانير الفيجية التقليدية، وقد وضع كل منهما زهرة حمراء خلف أذنه. وضع أحدهما الزهرة خلف أذنه اليسرى، وهذا يعني أنه ليس مرتبطاً بامرأة بعد. أما الثاني فكانت زهرته خلف الأذن اليمنى، أي أنه متزوج. لو أني من سكان تاڤوني لتجرّعت ذُلّ نقل زهرتي من الأذن اليمنى إلى اليسرى قبل عدة أشهر من الآن.

طلبتُ نصف زجاجة من نبيذ بوردو الأبيض وزجاجة من المياه المعدنية. عادةً يختار المرء بين نوعين من الطعام في ماراڤوا، وكنا أثناء الحجز قد اخترنا عشاء مسائنا الأول. كان رأسي مزدحماً بصورٍ حية عن عادات تناول الطعام الفيجية، لذلك بدت لي وجبة من السمك أسلم خيار.

كان خوسيه وآنا يتبادلان حديثهما بصوت خافتٍ فلم ألتقط في البداية منه غير بضع نتفٍ صغيرة. ومع ذلك كانت هذه النتف كافية لاستثارة فضولي. بدا من كلامهما أنها يتناقشان حول شأنٍ ما، أو يضيفان اللمسات الأخيرة على تقرير مشترك حول هذا الأمر أو ذاك؛ نعم، حول هذا الأمر أو ذاك.

قال خوسيه: «إنما نحن مآثر فنّية لا عيب فيها استغرق خلقها مليارات السنين. بيد اننا مجبولون من مادة بخسة جداً». ضاع عليّ بعد هذه الفقرة مقطعان من المحادثة، ثم التقطتُ قسماً آخر من كلمات خوسيه: «باب الخروج من حكاية الجنيات مفتوح على مصراعيه». أومأت آنا برأسها باتزان: «إنما نحن ماسات من العبقرية داخل الساعة الرملية».

على هذا المنوال مضت المحادثة بينهما، أو بعبارة أدق، النتف التي بلغت سمعي بوضوح مُبين.

بينما كانا في مجلسهما هذا يتجاذبان أطراف الحديث، ظهر بيل أخيراً يمشي الهوينى قادماً من بستان النخيل. كان يرتدي سروال برمودا قصيراً وقميصاً هاوائيّاً أزرق مزهراً. لا بُدّ أن لورا لمحته قبلي، لأنها تشبثت، ما أن رأته يدخل، بكتابها «الكوكب الوحيد» وشرعت تقرأ فيه بنهم، بل بنهم شديد إلى درجة أني كنت متأكداً أنها لم تستوعب كلمة واحدة منه. كان هذا موقفاً غير مُستحبٍّ فعلاً. وقف بيل لحظات على المدخل مُمتّعاً ناظريه بالمشهد العام لتوزعنا على موائد العشاء، ثم رمى بنفسه ـ دون أدنى تحفظ ـ على طاولة لورا. أما هي فقد دفنت نفسها خلف الكتاب بحيث لم أعد أرى عنقها، وهي قطعاً لم ترفع عينيها نحوه. ذكّرتني لورا بسلحفاة حرونة الطبع تلتمس السّكينة في درعها، وأذكر أني شعرت ببعض الأسف من أجلها، لكنني أحسست أن الأمور ربما سارت بصورة أحسن لو أنها تصرفت بطريقة أقل جفاء تجاه باحث ميداني في علم الحيوان. لعله امتزج في شعوري الأخير قدر من السرور الشامت بها.

اتخذت المحادثة الناشبة على الطاولة المجاورة منعطفاً حاسماً. قالت آنا:

«مليارات من السنين تلزم لخلق إنسان. ولا تلزم إلا بضع ثوانٍ لموته».

بحذر سحبت دفتر ملاحظاتي من جيب القميص. تبّاً، لقد نسيتُ قلمي! تصاعد حنقي حين رفع خوسيه صوته قليلاً ونطق بجلاء كلمات الحكمة التالية:

«لعينٍ غير محابية، لا يبدو العالم ظاهرة شاذة وبعيدة الاحتمال فحسب، بل هو ايضاً مصدر توتر دائم للعقل. هذا إن كان العقل موجوداً، أعني إن كان العقل غير المحابي موجوداً. هكذا يتكلم الصوت الصادر من الأعماق. هكذا يتكلم صوت الجوكر».

بعد إيماءة دالّة من رأسها، تبرعت آنا بالقول:

«يحس الجوكر أنه ينمو، يشعر بذلك في ذراعيه وساقيه، يشعر أنه ليس

مجرد شيء تخيّله هو نفسه. يشعر بالميناء والعاج ينبتان في فم الحيوان الشبيه بالإنسان الذي هو فمه. يشعر بخفة أضلاع الرئيسي تحت مبذله، يحس بالنبض الثابت الذي يخفق ويخفق، ضاخاً السائل الدافئ في جسده الآن».

نهضتُ، بلا تروٍّ، ومضيتُ عبر الصالة نحو الإنكليزي الذي كان، قبل بدء العشاء، يكتب بحماس. أما الآن فقد أنهى مقبلاته، وأزاح القلم والورقة جانباً. حييتُه وقلتُ: «اعذرني... لاحظتُ أنك تسجل بعض الملاحظات. أيمكن أن تعيرني قلمك لحظة واحدة فقط؟».

رفع رأسه نحوي وعلى وجهه سيماء من التساؤل واللطف. قال: «من دواعي سروري حقاً، استخدم هذا!».

ثم سحب قلم بيلوت أسود من جيبه الداخلي. عبث لحظة أو لحظتين بالقلم بطريقة استعراضية قبل أن يسلمه لي.

«سأعيده لك بالتأكيد»، قلتُ واعداً.

لكنه اكتفى بهزة الرأس التي تصدر عن رجل عركته الحياة وعركها، وصرّح أنه إذا تموّن بشيء، وخاصة في الأماكن النائية، فهذا الشيء هو الأقلام السوداء. شكرته بلطف، ثم تعارفنا بأسلوب أليق مما فعلنا في المطار.

حاولت أن أعطيه فكرة وجيزة عن دراساتي الميدانية، وأصغى من جانبه بانتباه إلى كلامي، بل بانتباه شديد حقاً. بلغتُ سناً يجعلني أُثمّن خصلة الانتباه تثميناً شديداً.

بسط يده نحوي وقدم نفسه: «جون سبوك، كاتب، من انكلترة».

«أتقوم بكتابة شيء ما هنا؟».

هز رأسه بالسلب، ثم كشف أنه أُرسل إلى هنا على نفقة هيئة الإذاعة البريطانية للمشاركة في برنامج تلفزيوني عن مستدار الألفية. وأضاف بنبرة

تهكمية أنهم يظنون أن المستقبل سيبدأ من هنا، أي سابقاً باثنتي عشرة ساعة على بزوغ الألفية في لندن. ذكر أيضاً عنوانَيّ روايتين من رواياته، ويبدو أن إحداهما قد ترجمت إلى النرويجية.

شكرته على القلم مرة أخرى، وكنت عائداً إلى طاولتي حين هتف بمزاج رائق: «اكتب شيئاً جميلاً...». التفتُّ نحوه، فأضاف: «وسلّم لي على من تكتب إليه!».

حسناً، لست أدري ڤيرا، ربما يتوجب عليَّ أن أستجيب لرغبة ذلك الإنكليزي الدمث بإرسال التحيات إليك، رغم أني لم أكن أكتب لك في ذلك الوقت.

الآن أكتب إليك، أكتب إليك عما شهدتُ وشاهدتُ في أمسيتي الأولى في منتجع مارافو ريزورت بلانتيشن كي أعطيك فكرة أوضح عما حصل في سلمنكا بعد ذلك بعدة شهور.

كافح بيل لفصل لورا عن «كوكبها الوحيد». ويبدو أن انعدام الاستجابة من جانبها وضع حداً لغزوات ذاك الراغب في مشاركتها العشاء.

أما العروسان الشابان فواظبا على تبادل القُبل بشراهة من فوق صحون السَّلَطَة، ومرة أخرى ذكّرني ذلك بأكل لحوم البشر. أنحدرُ أنا من ثقافة تتقبل اللحس والمصّ علناً وعلى رؤوس الأشهاد، حتى لو وقع ذلك على طاولة العشاء. تبدأ حدود المحرم في هذه الثقافة عند الأنشطة الطعامية الأشد امتناعاً على الإلغاء. ويخيّل لي أن الأمر كان عكس ذلك في الثقافة الفيجية. فالبوْس جهاراً أمام عيون الناس شيء غير مقبول، دع عنك أن يتم ذلك أثناء وجبة طعام. من جانب آخر يتقبل العُرف هنا تناول أحشاء جثة كغذاء.

كان الإيطالي يحدّق بأسى في كأس الخمر الأحمر أمامه. ومن بين كل الحاضرين كان لافتاً أنه الأكثر وحدة. ذكّرتني نظرة عينيه المكتئبتين نحو الثنائي الأمريكي بكلب لا صاحب له.

عدتُ إلى مجلسي فسمعتُ خوسيه يُعلّق على «أحداث غرائبية الرتابة».

تلا ذلك دمدمة مطوّلة لم ألتقط منها شيئاً، ثم قال خوسيه كلاماً أثار السيدة ذات الفستان الأحمر. ابتسمتْ ابتسامة عريضة ثم انتصبت في جلستها وألقت ما يلي باقتناع عظيم:

«توقٌ يجتاح العالم. بقدر ما يزداد حجم شيء ما وجبروته، يكون شعوره بعُسر خلاص أمضى. من ذا يُصغي إلى آلام حبة الرمل؟ من ذا يُعير اذناً صاغية إلى توق القملة؟ لو ان لا شيء موجوداً لما حنّ احد إلى شيء ابداً».

رمَقَتِ الصالة بنظرتين خاطفتين، ثم استدارتْ سريعاً فلم تلحظ أني أخطُّ كل كلمة قالتها. لم تكن تعرف أني أتكلم الإسبانية، ولا كانت متأكدة من أني أسمعها بوضوح. كل ما كانت تعرفه هو أني قد أكون مستغرقاً في تسجيل بعض الملاحظات عن أنواع العظاءات المختلفة التي درستها في أوقيانيا.

لفترة طويلة كان عليَّ أن أرتضي بما استطعت التقاطه من أجزاء التمتمات الخفيضة بين الأحمر والأسود. «بقدر ما يدنو الجنُّ من العدم الأبدي، يغدو كلامهم اشد افتقاداً للمعنى»، صرّحتْ آنا وهي تلقي نظرة مستقصية نحو شريكها. قال هذا: «لولا شذوذ ذلك المهرج الذي لا عزاء له، لكانت دنيا الجن غير منظورة مثل جنّة سرية».

تولَّد لدي ارتياب غامض بأن ما اختلستُ سماعه من شذرات لا رابط بينها، يشكِّل ـ على الأرجح ـ جزءاً من أحجية صورٍ مقطوعة أكبر حجماً، وأن من العسير قطعاً إلصاق ما لديَّ من قطع ببعضها. لكن الطعام وُضِعَ عندئذ على الطاولة، فأزحت دفتر ملاحظاتي جانباً. كان ما تمكنت من اقتطاعه شديد التفكك فضلاً عن قِلّتِه.

لم يعد خوسيه إلى الكلام حتى نهاية الوجبة تقريباً. جاءني صوته أعلى قليلاً مما كان:

«ينسل الجوكر دونما هداة بين الجن كانه جاسوس في حكاية جنيات. يتوصل إلى بعض الاستنتاجات لكنه لايجد من يرويها له. وحده الجوكر هو ما يرى. وحده الجوكر يرى ما هو».

فكرت آنا برهة قبل أن تجيب:

«يحاول بنو الجن التفكير في أمور يصعب التفكير فيها إلى درجة أنهم لا يستطيعون التفكير فيها. غير أنهم لا يستطيعون الامتناع عن التفكير أيضاً. لاتقفز الصور الجارية على الشاشة إلى داخل السينما وتهاجم جهاز إسقاط الصور. وحده الجوكر يجد لنفسه طريقاً نحو صفوف المقاعد».

لن أُقسم أن هذه كلماتها بالذات، لكن صِدقاً كانا يتحدثان عن أشياء كهذه.

نُظِّفت الطاولات، وها هو الإيطالي يقترب. أرسل إيماءة متحدية نحو آنا وخوسيه، ثم اتجه نحو طاولتي ومدّ يده لي معرِّفاً بنفسه. نعم، هذا هو ماريو. وقد كان يدير خلال الأعوام الخمس عشرة الماضية رحلات بحرية مأجورة تنطلق من سوڤاني في فيجي على متن يخت بناه بنفسه. لم يكن هذا المشروع جزءاً من خطته الأصلية حين أبحر، قبل عقدين من السنين، عبر قناة السويس إلى الهند فأندونيسيا وأوقيانيا؛ وقد بقي هنا لأنه لم يتمكن أبداً من ادّخار ما يكفي من المال للعودة إلى نابولي في وطنه.

جاءَ إليّ مبعوثاً، سألني: «هل تلعب البريدج».

هززتُ كتفي بلامبالاة، إذْ لم أكن متأكداً - رغم أني لاعب بريدج ماهر - من أن اللعبة تأتي على رأس قائمة أولوياتي في تلك الأمسية، وخاصة أن تلك الليلة الاستوائية بدت آسرة جداً. لكنني حين أضاف أننا سنلعب ضد الثنائي الإسباني وافقتُ دونما تردد. في الأماسي القليلة السابقة كانوا يشكلون فريقيْ اللعب بمشاركة شخص هولندي حسبما شرح لي ماريو، إلا أن الهولندي سافر باليخت إلى ڤينواليڤو في وقت باكر من ذلك اليوم.

انضممنا إلى الإسبانيين ولعبنا بضع جولات. كان خوسيه وآنا هما وحدهما من يقوم بمزاد الشوط؛ أو يُلقيان بنا، الإيطاليّ وأنا، أرضاً عبر مناورة ختامية حاسمة. لم يلعبا بدقة مدهشة فحسب، بل وبأسلوب هادئ ومتهاون إلى درجة أنهما كانا ينغمسان في إطلاق حِكَمٍ إسبانية أثناء تلك التسلية

المجنونة. لفتت نظري كلمات وعبارات مثل «ذلك الطبل البدائي»، «هذه الشرنقة عديمة الحياء التي تنمو وتكبر في كل اتجاه»، «كتكوت الرئيسيات»، «أخ إنسان نياندرتال غير الشقيق المُحتفى به»، «نوم الحياة اليومية المسحور»، «تيار حارٌ من هلوسات نصف مهضومة»، «هيولى الروح»، «الواقي الهوائي لمهرجان البروتين»، «قرص العضوية المدمّج»، «هلام الإدراك».

لمرتين كنت اللاعبَ مكشوفَ الأوراقِ فأُتيحتْ لي فرصة الانسلال من الطاولة لتدوين ما التقطتُ من كلمات. العبارات التي ذكرتُها هي ما استطعتُ تجميعه، وهي صيغٌ وأقوال قديمة مجرّبة مثل «هيولى الروح»، «الواقي الهوائي لمهرجان البروتين»، «هلام الإدراك» و«الأخ غير الشقيق للنياندرتالي المحتفى به». توصّلتُ إلى تشخيص لحالة آنا وخوسيه على أنهما شاعران مصابان بتناذر تُورِت. ولن أنكر أني كنت سألعب بإجادة أكبر لو لم أضطر للانتباه إلى ما كان يتردد من نغمات بين الشمال والجنوب طوال الوقت. خطر لي أن تشويش انتباه الشرق والغرب هو الرهان الذي ربما كانا يسعيان إلى كسبه.

كان ماريو هو من قرر أخيراً أنه قد اكتفى. أُبالغُ إن قلت إنه رمى أوراقه على الطاولة، لكنه بالفعل أزاح الأوراق بطريقة انفعالية جعلتني أثب من مكاني. هزَّ رأسه دونما أثر من التسلّي وقال: «إنهما بصّاران!».

رفعتْ آنا ناظريها نحوه بما يشبه ابتهاجاً خبيثاً؛ وسعى ماريو إلى كسبي في صفه. زعق قائلاً: «خمسة أوراق كُبّة! لكن بعد ذلك الطلب كان يمكن أن يكون الآس في يد فرانك. كأنهما كانا طوال الوقت يعرفان ما بأيدينا».

لعله كان أقرب إلى الحقيقة مما خطر بباله. فمن الواضح أن هذين الزوجين شديدي الانسجام ليسا في شهر عسلهما الأول، وربما يستطيع كل منهما فعلاً أن يقرأ أفكار الآخر. تماديتُ في التفكير متسائلاً في دخيلة نفسي لم لا يكون الأمر كذلك فعلاً؟ ها نحن هنا، في هذه الليلة الاستوائية المسحورة، أربعةٌ من الرئيسات المتيقّظة، تحت بطانية متلألئة من النجوم في درب تبّانتنا الحلزوني الذي يكاد يكون مجرد ضاحية ريفية في هذا الكون. من هذا المنبسط المائي

الضحل في الأرخبيل المجرّي، ها هم أمثالنا يرسلون مسابر فضائية وأمواجاً لاسلكية في محاولات جادة منهم لبلوغ تواصل إدراكي من نوعٍ ما مع مخلوقات حية متقدمة مثلنا، تقيم على الشاطئ الآخر من نظام شمسي آخر يبعد عن حُجيْرتنا هذه بضع سنوات ضوئية. نقوم بكل ذلك دونما إشارة منا إلى التطور عالي التمايز لتلك المخلوقات التي يمكن، بكل سهولة، أن تتكشّف أشبه بقناديل البحر منها بالثدييات. لماذا إذن لا يتمكن شريكان في الروح، لايتقاسمان المحيط الحيوي ذاته فحسب، لكنهما من النوع نفسه والبلد نفسه، ويشتركان، علاوة على ذلك، في فعل ثمينٍ آخر ـ فعل يتجاوز تجوالهما معاً ورؤية كل منهما نفسه في مرآة الآخر ـ لماذا لا يستطيع هذان تبادل إشارات كهرطيسية بدائية لمعرفة لون ورقم اثنتين وخمسين ورقة على طاولة البريدج؟ آه، نعم، لقد أُصِبتُ بالحمى الروحية التي يسببها هذا الليل الاستوائي، وليست هذه هي المرة الأولى التي أُبتَلى فيها بهذا النوع من الاضطراب.

ثم إن حالي لن تتحسن سريعاً، إذ سرعان ما برز عدد من الأسئلة ذات الصلة. إذا كان اللاعبون الأربعة حول طاولة البريدج متساوين في المهارة، فما فرصة ربح أحد الفريقين ثماني جولات متعاقبة؟ يريد ماريو جواباً على هذا السؤال. قلتُ إن كل شيء يتعلق بالحصول على ورقٍ جيد، لكن احتمال حصول فريق واحد على أحسن الورق ثماني مرات متعاقبة احتمال ضئيل جداً بحيث يُفضّل ـ بعد أخذ كل شيء بعين الاعتبار ـ التسليم بأن آنا وخوسيه هما اللاعبان الأمهر.

كانت آنا جذلى بنصرها، حتى إنها لم تحاول إخفاء سرورها. وبدا واضحاً أن هذه لم تكن أول مرة تربح فيها لعبة الورق. لم تتوان عن وضع يدٍ مواسية على كتف ماريو، لكنه انكمش بمزاج معتكر مبتعداً عنها.

بادر خوسيه إلى تحويل السؤال عن الاحتمال والمصادفة نحو شيء يتصل باختصاصي أنا. أظن أنه تساءل أولاً إن كنت أعتبر تطوّر الحياة على هذا الكوكب مدفوعاً فقط بسلسلة من الطفرات العارضة التي لا يمكن التنبؤ بها، أم

أن هناك أواليّة من نوع ما تغاضت عنها العلوم الطبيعية؟ هل أعتقدُ، على سبيل المثال، أن طرح الأسئلة عن غاية التطور والنية الكامنة خلفه أسئلة غير معقولة؟

أظن أني تنهدتُ، لا لأني اعتبرتُ سؤاله ساذجاً، ولكن لأنه، مرة أخرى، وجّه المحادثة نحو قضايا شعرتُ أنها شديدة الحساسية في ذلك اليوم؛ غير أني قدمت الإجابات المدرسية الكلاسيكية على أسئلته، وتصورت أن الأمر انتهى عند هذا الحد.

لكنه قال: «لدينا ذراعان وساقان. هذا مناسب تماماً حين نجلس حول طاولة تلعب البريدج، وليس سيئاً من أجل قيادة سفينة فضاء إلى القمر. لكن هل هو عَرَضي؟».

قلت: «هذا يتعلق بما تعنيه بكلمة «عَرَضي». إن الطفرات عَرَضية، وبعد ذلك البيئة هي ما يُحدد أي الطفرات جديرة بحق الحياة».

تابع النقاش متسائلاً: «إذن فأنت تعتبر أن الحصيلة الإجمالية لتلك الرميات الموفقة من غير رامٍ تُقَدِّمُ اليوم، للكون، سويةً ما من فهم تاريخه ومداه في الزمان والمكان؟».

لوّح خوسيه بذراعه كأنه يشير نحو السماء حِبْرية اللون، وبالفعل كان السؤال الذي طرحه موجهاً إلى حيث أشار.

كدتُ أقول شيئاً عن الطفرات والاصطفاء الطبيعي، لكنه سبقني وقال: «إن كان هدف التطور بلوغَ عقلٍ موضوعي إلى هذا الحد أو ذاك، فلستُ أرى كيف أمكن لنا أن نكون على هذه الدرجة من الاختلاف في المظهر».

ابتسمت آنا ابتسامة ماكرة، ثم وضعت يدها حول عنقه وطبعت قبلة خاطفة على خده كأنها تريد إيقافه. التفتتْ نحوي بعد ذلك وقالت بطريقة استفزازية: «إنه شغوف جداً بفكرة حتمية وجود حياة عاقلة على الكواكب الأخرى، حياة تشبه، من كل بدٍّ، حياتنا».

«إذن فهو مخطئ فيما أظن»، قلتُ متعجباً.

غير أنه لم يستسلم:

«لابد أن لتلك الكائنات العاقلة جهازاً عصبياً، وعضواً للتفكير بالطبع. ولكان من الصعب أن تتطور لو لم يكن لها أيضاً طرفان علويان احتياطيان لا يلزمان للمشي».

«لماذا اثنان؟» جابهتُه بالسؤال.

ظننتُ أني اصطدته، لكنه رد الضربة نحوي. قال:

«إنهما كافيان!».

هنا، للمرة الأولى، شعرتُ أني أنا الطرف المنهزم. فلا جدال في أنه سجل نقطة أربكتني، في تلك اللحظة. يكفي وجود ذراعين وساقين! حتى لو أن العلم التجريبي لا يتناول الأمر بهذه الطريقة. ألم تمض نصف ألفية من السنين منذ أن تخلّت الفلسفة عن المعتقد الأرسطيّ حول «الأسباب الغائية»؟

استطرد خوسيه: «وعلى المدى الطويل لاحاجة لاستبقاء أطرافٍ أكثر مما يلزم، وخاصة عبر ملايين السنين».

في تلك اللحظة بالذات نطّ علجوم إلى الأرضية التي كنا نجلس عليها، لعلّه واحدٌ من السباحين. أشرت نحوه وقلت بنبرة انتصار: «لدينا ذراعان وساقان في الواقع لأننا تحدرنا من كائن رباعي الأطراف مثل هذا. علينا أن نشكر هذه الكائنات لأننا ندين لها بالمخطط الأساسي لجهازنا العصبي أيضاً. يُسمى هذا النموذج بوفو، أو بعبارة أدق بوفو مارينُس».

التقطتُ العلجوم وأشرت إلى عينيه، منخرية، فمه، لسانه، حنجرته وغشاء الطبل لديه.

تحدثت بإيجاز أيضاً عن قلب الحيوان ورئتيه وشرايينه ومعدته ومرارته ومُعثكلته وكبده وكليته وخصيته وإحليله. وختمت بملاحظات قليلة عن هيكله العظمي وعموده الفقري وأضلاعه وقدميه. ولمّا أطلقت الحيوان من يدي أضفت بضع معلومات عن التطور من البرمائيات إلى الزواحف ومن الزواحف إلى الطيور والثدييات.

غير أني استهنتُ بخوسيه.

قال: «إذن تملك البرمائيات يداً رائعة. هذا يمكّنها من ربح كل جولات البريدج. فالمسألة ليست إذن مسألة حظٍ فحسب. البرمائيات بالمقارنة مع أنواع الحيوان الأخرى كائنات طليعية. لديها كل ما يلزم لخلق إنسان».

قلتُ: «من السهل أن يكون المرء حكيماً بعد وقوع الواقعة».

ردّ بإصرار: «أن تأتي متأخراً خير من أن لا تأتي أبداً. ثمة سببان لوجود ساقين وذراعين لدينا. الأوّل هو أننا متحدّرين من رباعيات الأطراف مثل ذاك العلجوم. والثاني هو أن هذا هو الشيء العملي والملائم».

«وماذا لو كان لدى البرمائيات ستة أطراف؟».

«إما أننا ما كنا، حالئذٍ، لنجلس هنا وننغمس في هذا النقاش العقلاني، أو لتلاشى اثنان من الأطراف الستة. كان لنا ذيل في يوم مضى، وهو لايزال مفيداً لعددٍ من الحيوانات، لكنه لو بقي عندنا لأعاق جلوسنا أمام الحاسوب أو في سفينة فضاء».

أظن أني سكنتُ في مقعدي قليلاً. لايتجاوز ما فعله خوسيه إضاءة أسئلة كنت أطرحها على نفسي في الأيام الأخيرة. بعد ما أصابنا، ڤيرا، استغرقتُ كثيراً في التفكير. لماذا تحتم علينا أن نفقد سونيا؟ لست أدري كم مرة طرحت هذا السؤال على نفسي. لماذا لم نتمكّن من الاحتفاظ بها؟ لو أن أياً من طلابي طرح سؤالاً كهذا في ورقة امتحانه لفكرتُ في إسقاطه. بيد أننا بشرٌ، ويجنح البشر إلى البحث عن المعنى حتى حيث لا معنى البتة.

«أنت محقٌ قطعاً بقولك إن من اقتحم الفضاء لم يكن، في نهاية المطاف، أحد المفصليات، ولا هو واحد من الرخويات أيضاً».

وهنا استطرد خوسيه: «ومن غير المرجح أن يشبه التكوين التشريحي للكائنات التي سترسل لنا، يوماً ما، من نظامها الشمسي النائي، بطاقات زيارة ملغّزة عبر الأثير، من غير المرجح أن يشبه تشريح الحبّار أو الديدان ألفية الأرجل».

شرعت أنا بالضحك، وصرخت: «ما الذي قلتُه لك؟».

بدأ خوسيه وآنا ـ وسرعان ما تبعهما ماريو ـ بطرح حشد من الأسئلة عليّ عن علم الطبيعة، ويبدو أن ما كنت أعانيه من تأثير استوائي جعلني أستمتع بوقوعي تحت الأضواء. وهكذا استعرضت عبر بضع محاضرات قصيرة الجوانب الإشكالية لعلم الإحاثة وعلم الأحياء التطوري. غير أني ازددتُ، أثناء كلامي، إدراكاً لنوعية خصمي. فقد استطاع خوسيه عدة مرات، وبأسلوب ظريف، أن يسبب بأسئلته إرباكاً مِهْنياً لي. لن أقول إني استفدت شيئاً جديداً من سياق ذلك الحديث، لكنني بلغت فهماً أعمق لعدد من نقاط ضعف العلم الطبيعي فيما أعتقد، نقاطُ ضعفٍ لم أُقِرّ بها قبل ذلك قط.

تركّز رأيُ خوسيه على أن تطوّر الحياة على الأرض لم يكن مجرد عملية فيزيائية، بل هي عملية تخللها المعنى على الدوام. أشار إلى أن خاصية هامة كالوعي الإنساني لا يمكن أن تكون خاصية اعتباطية بين خصائص اعتباطية أخرى تولّدت في سياق الصراع من أجل البقاء؛ إنها هدف التطوّر بالذات. يكاد يكون قانوناً من قوانين الطبيعة أن يحتضن أحد الكواكب تطوّر جهاز إحساسي متزايد التخصص. وحول هذه النقطة الأخيرة قدّم خوسيه عدداً من الأمثلة الجيدة. فالطريقة التي طوّرت بها الحياة ـ دونما وجود رابط وراثي باطن ـ العيون والبصر، والطريقة التي ارتفعت بها الحياة ـ أكثر من مرة ـ في الهواء الجوي، أو تطوّر القدرة على المشي بقامة منتصبة، كلها شواهد على أن في الطبيعة نزوعاً كامناً نحو أفقٍ عقلي.

ما كان يزعجني قليلاً هو أنه كانت لدي أنا نفسي أفكار كهذه أيام صباي، أيامَ كنتُ واقعاً تحت تأثير بيير تيلار دو شاردان. وبعد أن بدأت بدراسة علم الحياة تخلّصتُ بالطبع من جميع الأفكار الخاصة بتطور غائي للحياة. إكراماً للعلم شعرتُ أن عليّ إبداءَ بعض المقاومة تجاه خوسيه. فأنا أمثّل مؤسسة مهيبة، ولعلها مؤسسة مُبالَغٌ في هيبتها.

وافقته على أن القدرة على الرؤية، على الطيران، على السباحة وعلى المشي بقامةٍ منتصبةٍ قد ظهرت مراتٍ عديدة في تاريخ الحياة المديد. فقد اخترُعت العين مثلاً أربعين أو خمسين مرة، وقد طوّرت الحشرات أجنحة تطير

بها قبل ظهور الزواحف بمئة مليون عام. كانت البيتروصورات هي أول الفقاريات التي حلّقتْ في الهواء؛ فقد تكونت هذه الطيور منذ نحو مئتي مليون عام، ثم بادت مع الديناصورات. بيّنتُ لمستمعيّ أن البيتروصورات كانت تطير مثلما تفعل خفافيش ضخمة، وكانت بلا ريش بحيث أنه يستحيل أن تكون هي أسلاف الطيور الحديثة. وُجد أقدم الطيور، أركيوبتيريكس، قبل 150 مليون عام خلت، وكان حقاً ديناصوراً صغيراً. أما تطور أجنحة الطيور وريشها فقد حدث بشكل مستقل تماماً عن البيتروصورات...

هنا قاطعني خوسيه: «تتحدث عن أجنحة وريش! أتوجد أشياء كهذه بين ليلة وضحاها؟ أم أن الطبيعة تعرف إلى أين هي سائرة؟».

ضحكتُ من سؤاله. مرة أخرى لمس خوسيه لب الخلاف أو عقدته بالذات، رغم أن سؤاله كان، هذه المرة، مجرد سؤال بلاغي فيما أعتقد.

قلتُ: «كلا، يتعلق الأمر بسلسلة كاملة من الطفرات وقعت خلال آلاف الأجيال. وكل ما يقضيه أحد قوانين التطور هو أن الفرد الذي نال، بفضل الطفرة، ميزة بسيطة في الصراع من أجل البقاء، يحظى بفرصة أكبر لنقل مورثاته إلى جيلٍ لاحق».

تساءل خوسيه: «أية ميزة ينالها الفرد بتطوير جذوع أجنحة تُربكُ حركته قبل أن يتمكن من الاستفادة من الأجنحة بأجيال؟ ألن تعوق هذه المحاولاتُ الجنينيةُ لاستنباتِ أجنحةٍ حركةَ الكائن وتُضْعِف قدرته على الهجوم والدفاع عن نفسه؟».

حاولت أن أرسم صورة حيّة لأحد الزواحف وهو يتسلق الأشجار ملاحقاً الحشرات. سيمنحه أضأل مقدار من الريش - وهو في الأصل حراشف استحال شكلها - ميزة مباشرة أثناء القفز أو الإسراع في النزول على جذع الشجرة. وبقدر ما تزداد استحالة الحراشف إلى ريش، تتحسن قدرة الحيوان على القفز والمناورة والخفق، وتكبر فرصة ذريته في النمو والبلوغ. حتى إن أدنى مَيْلٍ نحو اكتساب أقدام وثْراء يمكن أن يمنح الحيوان، جزئياً أو كلياً، ميزة هامة، حين

يعيش في الماء. عدتُ بكلامي إلى تطور الريش، وبيّنتُ أن الريش أضحى عاملاً هاماً في تثبيت حرارة جسم الطائر رغم أن هذه النقطة لم تكن «المقصد» الأصلي من تطوّر الريش. فمن شبه المؤكد أن الميزة الأصلية لاكتساب الريش كانت مرتبطة بحركة الحيوان. غير أن الترتيب المعاكس للحوادث وجيه بدوره. فربما، في الأصل، أكْسَبَ الريشُ أسلافَ الطائر ميزة العزل الحراري قبل أن يصبح هاماً من أجل التنقّل. يشكل العثور حديثاً على ديناصورات ذات ريش حجة واضحة في هذا الاتجاه الأخير.

قال خوسيه: «ثم جاءت الخفافيش. في النهاية تعلّمت حتى بعض الثدييات الطيران».

أظن أني قلتُ شيئاً عن أن الطيور كانت تهيمن على المجال الهوائي هيمنة كاملة بحيث لم يتح للخفافيش إلا فرصة القنص ليلاً. ولهذا لم تطوّر الخفافيش أجنحة فحسب، بل طوّرت أيضاً ما نعرفه اليوم باسم التحديد الصَدَوِيّ للمكان.

قال خوسيه: «إنها مسألة الدجاجة والبيضة، إذ ماذا جاء أولاً: تحديد الموقع بالصدى، أم القدرة الفعلية على الطيران؟».

لم تسنح لي فرصة الإجابة، لأنه، عند هذه النقطة، جاءت لورا وانضمت إلى طاولتنا. لمّا كنت مكشوف الأوراق في البريدج آخر مرة، لم تكن لورا قد نجحت في التخلص من بيل. لكنها أرسلت نحوي نظرة لها معنى واحد: معنى وقوعها في ضائقة، أي إنها طلبٌ للصفح مني على برودتها معي أثناء تجاوُرِنا في المطار. وقفتْ على البار بضع دقائق وبيدها شراب أحمر اللون، ولمّا قرّرتْ أخيراً قطع المطعم نحونا، رفعتُ ناظري نحوها وعرضتُ عليها مكاناً على طاولتنا. كنت أشعر أني في مكاني الطبيعي، بينما جذب لها ماريو كرسياً من الطاولة المجاورة.

«أعطني كوكباً حياً...»، انطلق خوسيه مجدداً.

«هذا الكوكب!» تدخّلت لورا. وهنا أشارت بحماسة نحو بستان النخيل

الذي كان معتماً جداً فلا يمكن رؤية شيء فيه. تذكرتُ لحظتها شارة صندوق الحياة البرية الدولي على حقيبتها.

ضحك خوسيه وأردف: «أعطني أي كوكب حي آخر، وأنا على يقين تام بأنه سيخلق، عاجلاً أو آجلاً، ما نسميه الوعي».

هزت لورا كتفيها، ومضى خوسيه في حديثه: «لدحض هذه الفكرة علينا أن نعثر على كوكب يعج بكل أصناف الحياة، لكنه لم يطور قط جهازاً عصبياً معقداً بما يكفي للسماح لبعض أفراده الشاذين بالنهوض ذات صباح جميل من نومهم والتفكير بـ «أن أكون أو لا أكون»، أو «أنا أفكر إذن أنا موجود»».

تساءلت لورا: «أليس هذا تصوراً متمركزاً حول الإنسان؟ الطبيعة غير موجودة من أجلنا نحن فقط».

غير أن خوسيه كان في أقصى تدفقه: «أعطني أي كوكب حي، وسأُظهر لك، بكل سرور، حشداً متزاحماً من العدسات الحية، وانتظر بعض الوقت فقط قبل أن نكشف أننا إنما نحدّق في روح حية قادرة على أن تحتسب لذاتها».

هنا، مرة أخرى، اندفعت آنا لمساعدته: «يقصدُ أن كل كوكب قادر على الحياة سيبلغ عاجلاً أو آجلاً شكلاً من الوعي. قد يستلزم الطريق من أول خلية حية إلى عضوية معقدة مثلنا عدداً من المنعطفات، لكن الهدف النهائي يبقى هو ذاته. فالكون يكافح من أجل أن يفهم ذاته، والعين التي تشرف على الكون من علٍ هي عين الكون بالذات».

«هذا صحيح»، قالت لورا، وكرّرت ما قالته آنا: «العين التي تشرف على الكون من علٍ هي عين الكون بالذات».

طوال تلك الأمسية كنت أهرش دماغي محاولاً تذكُّر أين قابلت آنا قبلاً، بيد أن جهودي ضاعت سُدىً. أفضل طريقة للتذكر، إذن، هي المزيد من التعرف عليها.

سألتُها: «ما رأيك الشخصي أنتِ؟ لا بُدّ أن لديك قناعاتك الشخصية».

فكّرتْ بالأمر ملياً، ثم نطقت بما احتفظت به ذاكرتي حرفياً: «ليس بمقدورنا أن نفهم ما نحن. نحن اللغز الذي لا يحزره أحد».

«اللغز الذي لا يحزره أحد؟».

تروّت في الرد مجدداً، ثم قالت: «لاأستطيع الإجابة إلا عن نفسي».

نظرتْ في عينيّ برهة، ثم قالت: «أنا كائن إلهي».

باستثناء خوسيه، قد أكون أنا الوحيد الذي لاحظ أن ردّها شُفع بابتسامة لاتُسْبَر أغوارها. واضح أن ماريو لم يكن دقيقاً في متابعتها لأنه قال وعيناه البنّيتان تتسعان: «إذن فأنتِ إله؟».

أومأت آنا برأسها بحزم، وقالت: «نعم، أنا كذلك».

قالت ذلك بنبرة مسترخية كأنها تجيب عن سؤال عما إذا كانت قد ولدت في إسبانيا. ولماذا عليها أن تتردد؟ فـ آنا امرأة فخورة من الصنف الذي لا يبذل أي جهد لتبرير أصله الأرستقراطي.

«ممتاز»، قال ماريو مسلّماً. «تهانينا!».

قال هذا ثم نهض ومضى إلى البار. أظن أنه كان لا يزال يفكر بلعبة الورق. عرف الآن، على الأقل، لماذا لم يربح أبداً.

هنا انفجرت آنا ضاحكة. لم أتبين ما الذي يضحكها، غير أن صوت ضحكتها كان مُعدياً، فسرعان ما انضممنا إليها جميعاً.

والآن جاء جون يحمل كأساً من البيرة. كان قد تحادث مع الأمريكيين الشابين لوهلة، لكنه طوال الوقت كان يرفرف حولنا، ولا بد أنه سمع قسطاً كبيراً مما قلناه.

جلبنا كراسيَ أخرى حول الطاولة، وسرعان ما صرنا ستة بعودة ماريو حاملاً كأساً من البراندي ومترنّماً بلحنٍ لبوتشيني، أظنه لحن **السيدة الفراشة**. قدم ماريو نفسه إلى لورا، وعَرّفت لورا نفسها لخوسيه وآنا.

قال الإنكليزي: «دون قصد مني سمعت جانباً من حديثكم عن «معنى»

و«غاية» الأشياء. حسناً، حسناً! على كل حال، أعتقد أن من المهم أن ندرك أنه، على العموم، يُفْصَل في هذه المسائل بمنظور استرجاعي».

لم تكن لدى أيٍّ منّا أدنى فكرة عما يتحدث عنه الإنكليزي، غير أن هذا لم يكبح من اندفاعته.

«لايظهر المعنى الواضح لأية حادثة بعينها إلا بعد وقت طويل من وقوع الحادثة ذاتها. وهكذا فإن سبب شيء ما لايتضح إلّا في وقتٍ متأخر. وما ذلك إلا لأن لكل عملية محورها الزمني».

إلى هنا لم يستثر ما قاله أدنى استجابة، حتى إنه لم يُطلب منه أن يحاول توضيح رأيه.

«تخيّلوا فقط أننا كنا شهوداً على ما جرى على الأرض منذ ثلاثمئة مليون سنة. أنا متأكد أن صاحبنا عالم الأحياء يستطيع أن يعطينا فكرة عن تلك الحقبة».

استجبتُ للتحدي فوراً. قلتُ إننا كنّا في ذلك الوقت في نهاية العصر الفحمي. ثم قَدّمتُ خلاصة وجيزة عن الحياة النباتية وأوائل الحشرات الطائرة، والأهم من ذلك، عن أول ظهور للزواحف على الإطلاق، تلك الزواحف التي ارتقت سلّم التطوّر بقدر ما صار مناخ الأرض أكثر جفافاً مما كان في الحقبتين الديفونية والفحمية الدنيا. لكن البرمائيات كانت لاتزال مسيطرة بين الفقاريات البرية.

قاطعني جون مكملاً: «وكانت تزحف بين السراخس والنباتات المتسلقة الخيطية بعضُ البرمائيات الكبيرة الشبيهة بالسلمندر، وأيضاً بعض الزواحف بما فيها تلك التي كانت ستصبح أسلافاً لنوعنا نحن. لو كنا موجودين في ذلك الوسط لاعتبرنا، بكل تأكيد، أن ما نشهده شيء خارج على كل منطق. الآن فقط، وبنظرة منا إلى الوراء، يظهر معنى كل ذلك».

«لأنه لولا ما حدث عندئذ لما كنا نجلس الآن هنا؟» تساءل ماريو.

أومأ الإنكليزي برأسه مؤيداً، وتدخلت آنا بالقول: «لكنك لا تقول إننا نحن سبب ما حدث منذ ثلاثمئة مليون سنة؟».

خوسيه، الذي لم يستطع إخفاء امتنانه لتدخّل جون، أشار له هنا أن يتابع كلامه. مضى جون يقول: «كل ما أقوله إنه كان من السابق لأوانه قبل ثلاثمئة مليون عام أن نستخلص أن الحياة على هذا الكوكب شيء لا معنى له، دع عنك أن تكون بلا هدف. لم يكن هدف التطور قد أخذ ما يكفي من الوقت لكي يعطي ثماره».

«وماذا كان الهدف؟» سألتُه.

«مثّلت الحقبة الديفونية الحالة الجنينية للعقل. وأعتقد أن من المشروع تماماً أن نتحدث عن وجود غاية للجنين. فمن ناحيتي لا أسلّم بفكرة أن أسابيع الحمل الأولى لها غاية ذاتية، على الأقل ليست لها هذه الغاية من وجهة نظر الجنين. وعلى هذا المنوال، من السابق لأوانه الآن أن نعتقد بقدرتنا على تقديم إجابة وافية عن معنى وجودنا نحن».

«تقصد أننا لانزال على الطريق؟» تساءلت لورا.

أشار برأسه موافقاً مرة أخرى، واستطرد: «نحن الآن في طليعة السباق، غير أننا لم نبلغ خط النهاية بعد. فقط بعد ألف أو مليار عام سنرى إلى أين نحن ماضون. وهكذا، بطريقة ما، سيكون ما يحدث في لحظة غارقة في المستقبل هو سبب ما يقع هنا والآن».

أفاض الرجل بعد ذلك قليلاً وشرح ما يعنيه بـ «الحالة الجنينية للعقل». وأظن أن أكثرية المتحلّقين حول الطاولة اعتبروا قسماً كبيراً مما قاله طلعات فانتازية من خيال كاتب. لكنه استطرد:

«لكن دعونا نَعُدْ أكثر إلى الوراء. فلنفترض أننا شهدنا خلق النظام الشمسي ذاته. أما كنا سنشعر ببعض الضيق عند مشاهدة ذلك الاستعراض الوحشي لقوة الطبيعة؟ من المؤكد أن معظمنا كان سيشعر أن الوصف الوحيد

المناسب لما نراه هو أنه خالٍ من المعنى. أعتقد أن رد الفعل هذا فج وسابق لأوانه».

ثابر كل من آنا وخوسيه على هز رأسه موافقاً، بينما مضى الإنكليزي في كلامه: «أو قد نرجع خطوة أخرى إلى الوراء. تخيلوا أننا نتفرج على الانفجار العظيم، أي على أصل الكون بالذات لحظة خلق الزمان والمكان. أنا واثق أني لو كنت أشاهد ما يحدث عندئذ لبصقت مشمئزاً. إذ ما جدوى هكذا استعراض مفرطٍ للألعاب النارية؟ أما الآن فأنا أقول إن سبب الانفجار الكبير هو أن نتمكن من الجلوس هنا والتفكير فيه».

«نحن!» هتفت لورا مستنكرة. «لماذا نحن دائماً؟ لماذا ليس الضفدع أو حيوان الباندا الضخم الجثة؟».

لبث جون يحدّق فيها بينما كان يلخص موقفه: «إن أولئك الذين يصرّون على أنه ما من معنى كامن خلف الكون قد يكونون مخطئين. لدي شخصياً شعور قوي بأن الانفجار الكبير كان مقصوداً، رغم خفاء الهدف الكامن خلفه عنّا نحن على الأقل».

اعترضتُ على هذا بالقول: «أعتقد أنك تقلب كل شيء على رأسه. حين نتحدث عن الأسباب نقصد دائماً شيئاً سابقاً من حيث الزمن. لا يمكن للسبب أن ينتمي إلى المستقبل إطلاقاً».

نظر إليّ ساخطاً: «لعلنا هنا انحرفنا عن جادة الصواب. علينا أن نقلب هذا المنظور بأي ثمن. فقط لو أن الحياة على هذا الكوكب توقفت عن التطور بعد البرمائيات الأولى لكان في وسعنا أن نقرر أنها منافية للمعقول وخالية من المعنى. لكن من كان سيأخذ على عاتقه عندئذ أن يكون جوابَ الضفدع على جان بول سارتر؟».

لا وقت لدى لورا تضيّعه على آراء كهذه. ألقت على جون نظرة حارقة وقالت: «حسناً، كانت الضفادع ستكون ضفادع. لست أرى لماذا يجب أن يكون معنى ذلك أقل من معنى كون الجنس البشري جنساً بشرياً».

حرك الإنكليزي رأسه متفهِّماً: «حقاً، كانت الضفادع ستكون ضفادع، وكانت ستفعل ما تفعله الضفادع. غير أننا بشر، ونفعل ما يفعله البشر. ونحن البشر نسأل عمَّ إذا كان ثمة معنى أو غاية لكل شيء حولنا. بالنسبة لنا نحن البشر وليس بالنسبة للضفادع، أنا أقول إن الحياة في الحقبة الديڤونية كانت مرشوشة بالمعنى».

غير أن لورا لم تتأثر بذلك: «أرى الأشياء مختلفة كلياً عما تقول. فكل الحياة على الأرض لها القيمة ذاتها».

هل كان جون يعني كل ما يقول؟ هذا ما لم أستطع معرفته. لكنه لم يُنْهِ كلامه بعد: «كان يمكن ألّا توجد حياة على هذا الكوكب أبداً. ولكان في وسعنا القول عندئذٍ أنه ليس للكون من هدف أعظم من أن يعيش وجوده الأجرد. لكن من كان سيكشف عن ذلك؟».

ولما لم يصدر عنها أي جواب، ختم كلامه بالقول: «لو لم يحدث الانفجار العظيم لكان كل شيء خاوياً وبلا معنى، الخواء وحده ولا شيء آخر. والخواء بالطبع أقل إدراكاً للّامعنى من الضفادع والسلمندر».

لفت نظري أن آنا وخوسيه كانا طوال الوقت يتبادلان نظرات مصحوبة سراً بتلك الحكم الإسبانية الغريبة التي طافا الجزيرة وأحدهما يلقيها على مسامع الآخر. أهناك صلة بين الأمرين؟ أتكون هذه الجلسة لعبة مرتبة من قبل؟ أمن المحتمل أن يكون الإنكليزي هو مؤلف شذرات الحكمة العجيبة هذه؟ أليس غريباً أن معظم نزلاء ماراڤو تجمعوا للحديث في ذات الموضوع؟».

إكمالاً للتعارف سألتْ آنا لورا من أي بلدٍ هي. قالت لورا إنها في الأصل من سان فرانسيسكو، وإنها درست تاريخ الفن، لكنها مؤخراً بدأت العمل كصحفية في أديلادي، وفي الآونة الأخيرة نالت منحة عمل من المؤسسة البيئية الأمريكية؛ أما مهمتها فهي إنجاز جدول بأسماء كل القوى التي تقاوم الكفاح الشعبي ضد تدمير البيئة. وبالتحديد تقوم لورا بكتابة سجل سنوي بأسماء

الأفراد والمؤسسات والشركات التي، في سعيها وراء الأرباح، تقلّل علناً من المخاطر المحدقة بالبيئة الحية للأرض.

تساءل ماريو عن سبب رحلتها هذه، فانتهزت لورا الفرصة لتقديم صورتها هي، وهي صورة شديدة العمومية، عن حالة الأرض. كانت ترى أن الحياة مهددة بالخطر، وأن الأراضي القابلة للزراعة ستقل باطراد على المدى الطويل، وأن الغابات المطيرة ستحترق، والتنوع الحيوي لن يكف عن التراجع. أكدت أيضاً أن هذه العملية لن تكون عكوسة.

قال ماريو موافقاً: «طيّب ما جدوى نشر قائمة بأسماء المتهمين في مؤلف واحد؟».

أجابت لورا: «عليهم أن يتحملوا المسؤولية. حتى اليوم كان عبء الإثبات مُلقى على عاتق حركة حماية البيئة. هذا ما نسعى الآن لتغييره. نريد كلاماً صريحاً».

«ومن ثم؟».

رفعت لورا يدها: «في يوم ما قد تُتخذ إجراءات قضائية. لا بُدّ لأحد منا من تمثيل الضفادع».

«ولكن هل أنت مقتنعة فعلاً أن تقريرك هذا كافٍ لوقف مُخربي البيئة عند حدهم؟».

هزت لورا رأسها: «كثرة من المعتدين الجعجاعين يستكينون حين يسمعون سبب إجراء المقابلات معهم، ثم يسحبون كلامهم تماماً حالما يعرفون هدفي من المقابلة. هذا شيء يستحق أن يُعرض لأحفادهم: انظر إلى الأيام التي وقف فيها جدك على المتاريس وتجاهلَ المشاكل التي سببها التلوث البيئي».

أخيراً أدرك ماريو مقصدها. قال: «تريدين تحميلهم المسؤولية شخصياً».

أظن أني كنتُ أبتسم بيني وبين نفسي. كان ثمة ما استعذبْتُه في جسارة لورا. قلتُ: «أظنها فكرة ممتعة».

حوّلت نحوي نظرةً فاحصةً، وبدوري نظرت في عين خضراء وأخرى بُنِّية. مثل معظم المثاليين كانت لورا محترسة.

قلتُ: «قد نحتاج إلى مُشهِّرة علنية».

ظلّ جون يشير برأسه موافقاً. كانت إشاراته مبالغة في موافقتها بحيث إنه اجتذب، مرة أخرى، انتباه الجميع:

«قد يكون الإنسان المخلوقَ الحي الوحيد في الكون الذي يملك وعياً كونياً. وبالتالي فإن صون البيئة الحية على هذا الكوكب ليس مسؤولية كوكبية فحسب، إنه مسؤولية كونية. يوماً ما قد يخيم الظلام مجدداً. ولن ترفرف روح الرب على وجه المياه».

لم تُثر هذه الخاتمة اعتراضاً من أحد، بل بدا أنها وحّدت الحاضرين في تأمل هادئ.

هنا قَدِمَ بيل إلى الطاولة وهو يوازن في يديه ثلاث زجاجات من النبيذ الأحمر وكأساً من الوسكي. وتجرجر خلفه، حاملاً ستة كؤوس، الرجلُ ذو الزهرة خلف الأذن اليسرى. وضع الأمريكي الزجاجات على الطاولة ثم سحب كرسياً لنفسه من طاولة مجاورة، وجلس بجوار لورا.

أعطى بيل لكل شخص كأساً وأشار نحو الزجاجات الثلاث قائلاً: «على نفقة البيت!». أُتيحت لي فرصة جديدة لمتابعة طريقة لورا في تجاهله. وأعتقد أني لمحتُ كرهاً لبني البشر كامناً وراء التزامها البيئي. قد تكون لورا جميلة وغريبة لكنها لا ترفع نظارتيها ولا تنزع بصرها عن «كوكبها الوحيد» بمناسبة تعليق ودي جرى في مطار بعيد.

استمر الحديث عن الشؤون البيئية حول الطاولة، وقدّمتُ خلاله تقريراً قصيراً عن مهمتي العلمية بتحريض من آنا وخوسيه فيما أذكر. هذه المرة لم تحاول لورا إخفاء تأثّرها بما قلتُ، وهكذا وجدتُ نفسي في النهاية أحظى ببعض الاحترام. أتصور أنها كانت قد اعتبرت نفسها الشخص الوحيد في هذا العالم ـ وخاصةً هنا في الجزيرة ـ المعنيّ بقضايا البيئة على الكوكب.

صدق تخيلي عن بيل، فهو واحد من تلك الفئة الكبيرة من الأمريكيين المتميزين باللياقة البدنية والحيوية. سبق له أن عمل في شركة نفط كبرى خبيراً رفيع التخصص في السيطرة على التَّفجّرات العشوائية للنفط.

دون أدنى فخر روى لنا بيل أن أحد الأشخاص الذين عمل معهم كان ريد أدير الشهير جداً. كان قد كُلِّفَ أيضاً بمهام من قبل وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا)، ويمكنه ـ بكل تواضع ـ أن ينسب لنفسه نصيباً من الفضل في كون أبولو 13 لا تستمر حتى اليوم في الدوران حول القمر. أذكر كل ذلك من أجل الواقعة التالية:

واصلنا مناقشة القضايا البيئية لبعض الوقت قبل أن يذوي الحديث عنها ويتحول نحو أمور أكثر طرافة. بدأ بيل، بتحريض منا نحن الآخرين، بوصف بعض مآثره. كان حديثه ممتعاً ومسلياً، ثم إنه دفع ثمن الخمر الذي كنا نشربه. لكن بينما كان يصف تفجراً خطيراً وقع مرة في أحد حقول النفط، أصابت لورا نوبة عنيفةٌ من الغضب ورمت نفسها على بيل تلكمه بقبضتيها، وتزعق:

«ما رأيك بهذه من أجل انفجار عشوائي أيها الخنزير النفطي القذر!».

من ناحيتي اعتبرتُ هذا التصرّف رد فعل مفرطاً وسيِّءَ التوقيت، فقد كان الرجل قد روى لتوّهِ كيف خاطر بحياته أو بأحد أطرافه لمنع كارثة نفطية هائلة.

لم يكن مفاجئاً على أي حال سوء مزاج المرأة الشابة، ولا عجزها عن التمييز بين الالتزام والتعصب. المفاجئ هو أنها كانت شديدة الحنق وهي تضرب بيل إلى درجة أنه حدّب كتفيه عدة مرات لتفادي ضرباتها. في هذه الجلبة انقلبت إحدى زجاجات الخمر وانسكب ما كان فيها على غطاء الطاولة الدامقسي الأبيض.

هنا فعل بيل شيئاً غريباً. وضع يده في نقرة عنق لورا وقال بنبرة ودودة:

«هيي، هيا، هوّني عليك».

دشّنت هذه الكلمات تحولاً خاطفاً في مسار تلك الأمسية. فلورا التي كانت تغلي بالغضب هدأت من فورها كما اندلعت نوبتها. دفعتني هذه الحادثة إلى التفكير بالنمر ومروّضه وبدرجة اعتماد كل منهما على الآخر: فالمروض يحتاج إلى النمر احتياجه إلى شيء يُخضعه، ودون المروض لن يجد النمر ما يثير ضراوته. مثّل هذا العراك رمزاً لثبات بيل حين يتعلق الأمر بمواجهة انفجار عشوائي منفلت. أما الشيء الذي لم أفهمه فهو سر العنف الكامن وراء هذا العراك.

بطريقة ما وضعتْ هذه الحادثة نقطة النهاية لتلك الأمسية. كانت لورا أوّل من نهض، شكرت بيل على الخمر واعتذرتْ عما بدر منها ثم مضت إلى كوخها. ولعلّي أتذكر أنها استدارت نحوي مرة، وحاولت أن تلتقي عيوننا كما لو أني أملك ترياقاً لعذابات روحها.

ماريو الذي شرب معظم الخمر غمغم بالإيطالية «تحركت السيدة «La donna e Moile»»، وأشار بيده نحوها، ثم انتصب على قدميه ومضى مبتعداً هو الآخر.

تلفّت الإنكليزي المُسِنُّ حوله وهز رأسه راضياً: «بداية واعدة جداً، لكن إلامَ أنتم باقون هنا؟».

قلتُ إني سأقضي ثلاث ليال في الجزيرة، وكذا قال بيل الذي سيسارع بعد ذلك إلى تونغا وتاهيتي. أما الإسبانيان فسيسافران بعدي بيوم.

كان العروسان القادمان من سياتل قد لاذا بجناحهما قبل وقت طويل، وكان طاقم المطعم مشغولاً في إطفاء المصابيح وتنظيف الطاولات. أفرغ جون إبريقه من البيرة قبل أن يستأذن بأسلوب رسمي. وحين شَكَرَنَا بيل على تلك الأمسية اللطيفة، بقينا وحدنا، أنا والإسبانيان، قبل أن نشق طريقنا عبر أشجار جوز الهند إلى أكواخنا. وقفنا برهة نرقب العلاجيم وهي تسبح صعداً ونزولاً في البركة، علقتُ على المشهد بأنها تؤدي، سباحة الصدر مثلنا تماماً.

قال خوسيه: «أو بالعكس، تعلَّمْنا هذه الطريقة منها».

كانت النجوم تومض فوقنا كأنها علامات مورس صادرة من ماضٍ تبدّد. أشار خوسيه نحو الليل الكوني وقال: «في وقت مضى كانت المجرة تعج بهن».

لم ألتقط فحوى عبارته فوراً. ربما لأن أفكاري كانت لاتزال عند لورا وبيل.

«ماذا؟» سألته.

أشار مرة أخرى، ولكن نحو البركة: «العلاجيم. لكن من المشكوك فيه أنها تدرك هذا الأمر. أعتقد أنها لا تزال أسيرة نظرة أرضية إلى العالم».

وقفنا هناك وقتاً نبذل تعجّبنا باللآلئ الحمر والبيض والزرق في السموات.

سأل خوسيه:

«يتساءل المرء: ما فرصة انبثاق شيء ما إلى الوجود من لاشيء؟ أو بالعكس طبعاً: كم تبلغ احتمالات وجود شيء منذ الأزل؟ او ايضاً: امن الممكن تقدير احتمالات ان تَنْفُضَ المادة الكونية، ذات صباح، نوم العصور عن اجفانها، وتصحو على الوعي بذاتها؟».

كان من المستحيل معرفة هل وجّه هذه الأسئلة لي أم لِلّيل الكوني أم لنفسه. سمعتُ نفسي أُقدِّم جواباً كسيحاً: «كلنا نطرح هذه الأسئلة، لكنها بلاجواب».

بادر بالرد: «يجب ألّا تقول ذلك. فمجرد كون الإجابة خارج متناولنا لايعني أنها غير موجودة».

هنا جاء دور آنا للكلام. أخذتني على حين غرة حين خاطبتني بالإسبانية. نظرت مباشرة في عيني وقالت:

«في البدء، اي منذ زمن بعيد جداً، كان الانفجار الكبير. هذا مجرد تذكير بعرض الليلة المسرحي الإضافي. لايزال في وسعك انتزاع بطاقة دخولٍ لنفسك. باختصار، يدور العرض المُعاد ويدور خالقاً نظّارة العرض

انفسهم. وعلى كل حال، دون نظّارة يتحمسون، لن يكون من المعقول أن نعتبر العرض عرضاً. لاتزال المقاعد متوفرة».

صفّقتُ مُدْرِكاً بعد فوات الأوان أية زلة ارتكبت. ولكي أغطي خطيئتي سألتُ: «ولكن ما معنى كل ذلك؟».

عوضاً عن جواب منحتني ابتسامة التقطْتُها بالكاد على الضوء الشحيح الصادر عن المسبح.

رمى خوسيه ذراعه حولها كأنه يريد حمايتها من الفضاء الخاوي. دعَوْنا لبعضنا بليلة طيبة ثم افترقنا كلٌّ في سبيله. قبل أن يتلعهما الليل سمعت خوسيه يقول:

«إن كان ثمة إله فهو ليس عظيم البراعة في عدم ترك اثرٍ يدلُّ عليه؛ إنه، اكثر من اي شيء آخر، استاذٌ في الإخفاء. ليس العالم شيئاً يعرض نفسه للناظرين. فالسموات لاتزال تحتفظ باسرارها. وهناك نميمةٌ تدور بين النجوم...»

هنا انضمت إليه آنا، واستظهرتْ معه ما بقي من رسالته على ذات نغم صوته كأنهما يرتّلان نصاً قديماً:

«لكن احداً لم ينس الانفجار الكبير بعد. منذ ذلك الوقت دانت السيادة للصمت، واخذت الأشياء كلها تتباعد. لازال المرء يصادف قمراً، او نيزكاً. لكن ليس لك ان تتوقع ترحيباً ودياً منها. إذ لا بطاقات زيارة تُطبع في الفضاء».

بين رجل البعوض وأبو بريص

تملكني شعور غير مريح وأنا أفتح باب البيور 3. كان أول ما لاحظته وأنا أشعل الضوء حركةُ وزغةٍ على زجاجة الجن. إذن فالأمر كما تصورت. ولا بدّ هذا هو الشيء الذي مرق على عارضة السقف حين ذهبت إلى العشاء. كان طول أبو بريص ذاك قدماً أو ما يقاربه. ولم يكن ثمة ما يشير إلى معاناته من نقص في البعوض. جفلنا في البداية نحن الاثنان، ثم سكن أبو بريص بلا حراك، ولمّا تقدمت خطوة باتجاهه التفّ بجسمه نصف التفافة حول زجاجة الجن. عندئذٍ بدأت أشعر بالقلق من احتمال انقلاب الزجاجة وسقوطها عن طاولة السرير. كفى تلك الأمسية ما سبق أن سُفِحَ فيها.

كنت على معرفة طيبة بالوزغات، ومع علمي أني إنما أُمَنّي النفس بالأوهام إن تصورت عدم مشاركتها لي غرفة النوم في هذا الجزء من العالم، فقد كرهت أن أرى عدداً كبيراً من هذه المخلوقات المفرطة النشاط تتدافع في الغرفة بينما أنا أهيئ نفسي للنوم. وبالتأكيد لم أكن أريد رؤيتها تندفع فوق لحافي أو تستلقي ناعسة على مَنصِبَيْ سريري.

تقدمت خطوة أخرى نحو طاولة السرير. لبث أبو بريص ساكناً وقد ارتكز القسم الأعظم من وزنه على الجانب البعيد من الزجاجة مما مكنني من دراسة بطنه وشرجه اللذين كبّر الانعكاس على الزجاج حجمهما. لم يحرك الحيوان عضلة من عضلاته، لكن رأسه وذيله كانا بارزين من خلف الزجاجة. حدقت العظاءة الصغيرة بي بثبات وهي تعرف غريزياً أن هناك واحداً فقط من احتمالين: إما أن تبقى جامدة بلا نأمة على أمل أن تتاح لها الفرصة للذوبان في

محيطها، أو أن تتسلق الجدار بأقصى سرعة وتلوذ بالسقف، وربما تختبئ - وهذا أفضل حلٍّ - خلف عارضة السقف.

المفارقة أن هذا اللقاء مع عيّنةٍ حسنةِ التغذيةِ من هِميداكتيلُس فِرناتُس زادني إصراراً على تناول جرعة محترمة من المشروب بأسرع ما يمكن. وها قد بدأتُ الآن أخشى أن يحبطَ هذا المخلوق الطائش إصراري، لا هذه الليلة فقط بل في الأيام الباقية من إقامتي في الجزيرة. كانت الزجاجة ملأى تقريباً، وكنتُ احتسبتُ - مراعياً مصالحي المشروعة أحسن مراعاة - أن يكفيني الخمر حتى موعد مغادرتي إلى بلادي. كنت قد فتشتُ البار الصغير في غرفتي، ووجدت أن إدارة المنتجع لم تضع فيه إلا البيرة والمياه المعدنية.

بِيدٍ يسرى جاهزة لإنقاذ الزجاجة إن سقطتْ، خطوتُ خطوة أخرى نحو الوزغة. غير أن ضيفي الثقيل فضّل تكتيك المزج بين المقاومة السلبية ونزعة التملك على النكوص على عقبيه. كان قلقي الشديد على محتويات الزجاجة يقتضي أن أذهب ببساطة إلى الحمام، وأترك لأبو بريص فرصة الاختباء مع بقاء كرامته محفوظة. لكن كان لا يزال حيّاً في ذهني ذلك العدد الكبير من المناسبات التي أسقط فيها أبو بريص أوعية الشامبو ومعاجين الأسنان. أمّا الآن، ولكي يصير السيء أسوأ، فقد لاحظت أن غطاء الزجاجة لم يكن محكم الإغلاق.

خطوةٌ أخرى وسيكون بمقدوري إمساك الزجاجة، لكنني سأكون ممسكاً بالوزغة أيضاً. عليَّ أن أعترف أن علاقتي بالزواحف تميزت على الدوام بازدواج انفعالي: فأنا مفتون بها وخاصة بسبب ما تثيره في الذهن من تداعياتٍ إحائية، لكن، من ناحية أخرى، لا يسعدني الإمساك بها وأكره انسلالها عبر شعري، خاصة حين أكون على وشك أن آوي إلى سريري.

العظاءات بالنسبة لمعظم الناس شيء Mysterium tremendum et fascinosum(*) ، ولست أنا استثناء من هذه القاعدة، مع أني أعتبر نفسي خبيراً

(*) باللاتينية في الأصل، قد يكون معناها شيء غامض جداً وفتّان. م.

بها. فمن الممكن للمرء أن ينمي اهتماماً مهنياً بالجراثيم والفيروسات حتى إن كان لا يسعده اللقاء بها دونما وقاية مسبقة. ثم إن كل متحمّس للأشعة السينية منذ أيام مدام كوري توجّب عليه اتخاذ احتياطات معيّنة أثناء لعبه الفتّان مع النظائر المشعة. وما من تناقض بين خوف المرء الشديد من العناكب وبين قدرته على كتابة أطروحة رائعة حول مورفولوجيا تلك المفصليات المقتاتة بالحشرات.

وإذا نظرنا إلى فقاريات من مثل الوزغات والإغوانات فيجب أن نعدّها كائنات أكثر تمتعاً بالحس من العناكب والجراثيم على سبيل المثال. منذ أن عثرتُ على خشف ميت في بلدي النرويج، صرت متنبهاً إلى أن للحيوانات أيضاً شخصية من نوع ما. لذلك لم أكن قادراً على صنع صداقات جديدة معها، ولم تكن لدي أدنى رغبة في الوقوع تحت النظرة المحدّقة لإحدى العظاءات، على الأقل ليس في هذا الوقت المتأخر من الليل، ولا في ما اعتبرته مملكتي الشخصية التي دفعت ثمنها من جيبي، مملكتي التي عبّرتُ، علناً، عن عدم استعدادي لمشاركة أي من الضيوف في منتفعاتها. أما الحشرات فلها شأن مختلف تماماً. لم يساورني القلق تجاه الحشرات أبداً، ولم أستطع يوماً اعتبار حشرة ما شخصية بين الشخصيات. فليس للذبابة وجه، وهي بالتالي دون ملامح فردية خاصة بها. أما العظاءة فلها وجه وملامح فردية، وكذا حال أبو بريص الجاثم على زجاجة الجن.

كان يمكن بالتأكيد أن أسيطر على ما شعرتُ به من اشمئزاز عند اقترابي من ذلك الزاحف لو أني استطعت تناول عدة غبّات من الجن. بيد أن طرافة الموضوع تكمن في تتالي الأحداث بالذات. فلا بد لي من امتصاص بعض محتويات الزجاجة قبل أن أتجاسر على رفعها إلى فمي. كان الوضع مأزقياً بالفعل. وقد كُتِبَ لفيلم الرعب هذا أن يطول أكثر بكثير مما قدّرت. كنت متعباً، بل شديد التعب، ولم تكن لدي الشجاعة على الاستلقاء والنوم بجوار وزغةٍ قبل أن أتناول مقداراً من عقاري المنوم.

غير أني لم أكن قادراً على الاستمرار بالوقوف أيضاً، فقد كانت قدماي تؤلماني كثيراً بعد ذلك الشوط الطويل من المشي نحو خط تعاقب الأيام. وفوق

ذلك كان الوقوف مربكاً أمام زاحف يحملق بي فاغر الفم ولم يرفع عينيه عني ولو للحظة، ولابد أنه كان يصوغ استنتاجاته النهائية حولي. كان أول ما فعلته هو الجلوس بهدوء على السرير على قربٍ كافٍ لالتقاط الزجاجة إذا سارت الأمور في ذلك المسار السيء. وليس هذا بالأمر المستبعد، فهذه العينة المنتفخة من أبو بريص نِصفِيِّ الأصابع هي أسمن واحدة من نوعها رأيتها في حياتي. وقد زال عندي أي شك في أن قوة هذا المخلوق ووزن جسمه كافيان لإسقاط الزجاجة وتهشيمها، على الأقل في أسوأ السيناريوهات؛ ولم يكن متاحاً لي ترف الأمل بسيناريو أحسن.

لبثنا كذلك وقتاً طويلاً يحدّق أحدنا في الآخر، أنا من على حافة سريري وأبو بريص على عرشه جاثم مثل أبو الهول على مدخل مخزني للعقاقير. صفقةٌ واحدةٌ بيديَّ وسيتخلى أبو بريص عن كل مقاومته السلبية، لكنه في تعجله المفرط للهرب، أو حباً بالشر فحسب، سيضمن أن تتكسّر زجاجتي على الأرض بعد أجزاء قصيرة من الثانية من اصطفاق راحتيّ، وقبل وقت طويل من تمكّن أحد الرئيسات البليدة من إنقاذ محتوياتها من الدمار. ما من شيء يملأني إعجاباً بهذه المخلوقات أكثر من قواها شبه البصّارية في الارتكاس السريع. وكان هذا الفرد بينها عضواً متميزاً باحتراسه الشديد.

عمّدتُه باسم غوردون تيمناً بالاسم الملصق على الزجاجة. وكنت قد حددت جنسه حتى قبل أن أتخذ مجلسي على السرير. واضح أن السيد غورون قد تجاوز ربيع حياته؛ بالمقاييس الإنسانية هو أسنُّ مني بعقدين من السنين. ورغم أنه ينتمي إلى نوع لا تضع أنثاه البيّاضة أكثر من بيضتين في المرة الواحدة، إلا أن من المفترض أن له ذُرّيّة كبيرة العدد. أنا على يقينٍ من أن غوردون صار جَدّاً وجَدّ جَدٍّ منذ أمد بعيد؛ مع علمي بأن نوعه إنما أُدخل إلى فيجي في سبعينيات القرن العشرين. ولابد أن جَدّه هو قد وصل إلى تافوني ضمن الجيل الأوّل من المهاجرين.

في قرارة نفسي استخلصتُ أن خبرته بالحياة هي التي علّمته أن يبقى على الزجاجة، إذ لا بُدّ أنه أدرك الآن أحسن إدراك أن كلاً منا يثبّت الآخر في

موقعه. لا بد أيضاً أنه اكتشف أن الرئيسات التي تلبس ثياباً ولها شعر على رؤوسها لا تمثّل خطراً حقيقياً؛ هذا مع أنه لا بد قد فهم أيضاً أن الانسحاب لا يعرضه للخطر. غير أن هناك احتمالاً آخر: قد يكون غوردون فضولياً بطبعه، بل قد يكون اجتماعي المزاج.

كنت شديد الرغبة في جرعة من الجن فلم أتمالك نفسي من النظر في الحدقتين العموديتين للحيوان هامساً بعنف: «ما عليك الآن إلا أن تنقلع من هنا!».

أظن أن إيقاع تنفسه اشتد قليلاً، وربما ارتفع ضغطه الدموي درجةً، لكنه، فيما عدا ذلك ثابر، على هدوئه. كان يشبه أولئك المحتجين السلبيين الذين تضطر الشرطة لحملهم حملاً سواءً كانوا يتظاهرون ضد شق طريقٍ أو ـ كما في هذه الحالة ـ ضد قوانين ترخيص بالشرب مفرطة في ليبراليتها. خلافاً لي، لم يكن ذلك المتظاهر العفوي يحتاج إلى أن يرمش بعينيه، وكنت أستشيط غضباً من حقيقة أن ليس للوزغات أجفان متحركة؛ لا لأن ذلك حرمني من الانتفاع، ولو لمجرد ثانية واحدة من انصراف انتباهه عني، ولكن لأنه كان يستطيع ملاحقتي بنظراته برهات قصيرة من الزمن دون أن أكون قادراً على الرد عليه بالمثل. إن لحظة واحدة هي فاصل زمني قصير بالنسبة للإنسان أكثر مما هي كذلك بالنسبة لأبو بريص، لذا كان في مقدوره أن يحملق بي فترات طويلة، خاصة بعد أن عرف في قرارة نفسه أني أغرق، مرة بعد أخرى، في وسن ناعس.

قلت بصوت عالٍ: «طيّب، كفى!». لكن غوردون لم يتزحزح قيد أنملة. لم يكتف بأن واظب على احتلال مكانه، بل بات من الواضح لي أني أتعامل مع رجعي عجوز مستهتر سئم الدنيا وما فيها، وربما لم يعد هذا العجوز المحافظ يجد سلواه إلّا في الاحتيال على الرئيسات العليا التي تفوقه حاجة إلى النوم. احتيال؟ نعم، هي ذي الكلمة. إذْ أما كان هناك شخص آخر مضطر للاعتراف باختلاس مالٍ ذلك اليوم، شخص يؤمن بالحياة الأبدية، شخص هجرته امرأة في

الآونة الأخيرة؟ هنا عرفت وميزتُ قائد علبة الكبريت الطائرة. كان لغوردون الوزغة ذات ملامح الطيار المُشعِر بالضبط، ذات النظرة النفاذة، ذات الحنجرة المتغضنة وطبقة الأنسجة المتدلية تحت الذقن، هذا دون نسيان يدي أبو بريص الشبيهتين بالمجرفة وأصابعهما الخمسة القصيرة. تعني كلمة هِميداكتيلُس «نِصْفيّ الأصابع»، وربان الطائرة أيضاً كان نصفيّ إصبعين من أصابعه. ها قد بدأت الأمور تنتظم. فليست هذه هي المرة الأولى التي أجد نفسي فيها رهينة فيلم رعب. ومرة أخرى يثير هذا الوضع المتوتر المقلق عطشاً شديداً للجن لديّ، لكن الظروف تمنعني من إخماده.

كنت حانقاً جداً إلى درجة أني قدَّرتُ من جديد النتائج المحتملة لقيامي بغارة خاطفة. غير أني انتهيت إلى نبذ الفكرة استناداً إلى أن إنقاذ الزجاجة بعملية كوماندوس سريعة، لا يلغي خطر فقدان معظم محتوياتها، خاصة إن كان غوردون غير دقيق في رد فعله، وهذا احتمال لا يسعني استبعاده. وبما أني دون احتياطي من الخمر، فلم أكن مستعداً لخسارة قطرة واحدة منه.

«أصغ إليّ يا هذا»، قلتُ مركِّزاً بصري في النظرة الصارمة لذلك القريب البعيد من أقاربي: «آخر شيء أريد فعله هو خنقك، وأظن، إن كنا نتحلى بالأمانة، أنك تعرف ذلك. لن أطلب منك حتى أن تفرنْقع من هنا. كل ما أريده هو الزجاجة التي تجلس عليها».

لم يساورني شك في أنه فهم ما قلتُ، إذ بدا كأنه أجابني طوال الوقت بأنه يعرف ذلك، وأنه قد انتهى من هذا الموضوع منذ أكثر من ربع ساعة، وهو كان جالساً على الزجاجة يصطاد الحشرات قبل وقت طويل من ظهوري من حيث لا يدري. لا حقّ لي إذن في مطالبته بالانصراف. العكس هو الصحيح، فأنا الذي تجاوزت حدودي وانتهكتُ مجاله هو. لم يسبق له أن رآني هنا قط، فإذا لم أبادر بالرحيل فوراً أو، على الأقل، إن لم أتركه بسلام، فسيجد نفسه مضطراً إلى ضمان أن لاتبقى الزجاجة موضع النزاع على قيد الوجود بعده. ولعله يَحسُن بي أن ألاحظ أنه حائز على حزام بني في اللسع بالذيل.

قلتُ: «لم أقصد ما تهيأ لك. لو فقط أستطيع تناول جرعات قليلة من ذلك المقطّر. لن يستغرق هذا إلا بضع ثوانٍ وستكون بعدها مدعواً بكل ترحاب إلى اعتلاء الزجاجة مجدداً. أنا بالمناسبة حائز على حزام أسود في سحق الزواحف، وبما أن ما من واحد بالمئة من الثقة بين الطرفين فإني أقترح أن تتفضل بالنزول إلى طاولة السرير لحظة بينما أتناول أنا الشراب. عليّ كذلك أن أُحكم إغلاق سدادة الزجاجة، وإلا فقد يتركنا سوء الفهم ننفث معاً رائحة العرعر في أرجاء الغرفة».

كان وجهه جامد الملامح، لكنه قال بعد لحظة: «سمعت بذلك من قبل».

«ماذا؟»

«ستأخذ الزجاجة وتمضي».

«لاأظنك تدري كم أنا عطشان».

«حسناً، أنا جائع»، كان جوابه. «وأنا لا آكل إلا في هذا الوقت من اليوم. لعلّك لا تدري أن البعوض يحب الزجاجات، وهو يحطّ هنا طوال الوقت. وكل ما أفعله هو أن أقذف لساني خارجاً وأشفط ـ شِفْطْ ـ فتنتهي القصة».

كلام لا يخلو من الوجاهة، وإنْ يكنْ تصوره أنه يمكن أن يعلّمني أي شيء عن عوائد الوزغات قد أغضبني قليلاً. ولولا محتويات الزجاجة ذات السدادة المنزاحة لأمكن لنا الاشتراك في غرفة النوم في تعايش تام. لولا ذلك لأمكن لغوردون أن يمكث على الزجاجة ويتولى أمر البعوض بما يسمح لي بنوم لا ينغصه شيء، والاستيقاظ في الصباح التالي دون انتباجات حاكة على جلدي. في أيام خلت، كان أعيان فيجي يستخدمون «رجل بعوض» يُجْلِسونه قربهم أثناء النوم، وذلك كي يقرصه البعوض ويتخلصون هم من الهرش. ولابد أن الطلب على رجال البعوض قد انحسر حين انتشرت الوزغة المنزلية المتميزة بالكفاءة في الجزيرة. واليوم تكاد الوزغات تكون من المنتفعات المنزليّة الثابتة.

خطرت على بالي فكرة. قلتُ: «سأجلب لك زجاجة أخرى. ستحظى بزجاجة بيرة باردة من الثلاجة، وستنجذب البعوضات إليك أكثر».

لبث برهة يقلّب الاقتراح على وجوهه، ثم قال: «إن شئت الصدق، سئمتُ أنا أيضاً هذا الشجار السخيف. إني أقبل المقايضة».

«أنت جوهرة نفيسة!» صرختُ.

شعرت بالسعادة بضع لحظات، وأذكر أني أثنيتُ على دهائي وسعة حيلتي.

«هيا انزل عن الزجاجة، وستنال زجاجة جديدة على الفور».

بيد أن البهيمة الصغيرة نفضت جسمها، وقالت بعناد: «هات البيرة أولاً، وعندئذ سأترجل عن الزجاجة».

هززت رأسي رافضاً: «أثناء ذلك قد تُسْقِطُ ما أريده مقابل زجاجة البيرة. من السهل أن تصبح أخرقَ، خاصة إن لم تكن تحت المراقبة».

«ستنقلب الزجاجة فقط إن وصل الأمر بك إلى الخرمشة. ولكن إنس الآن الصفقة كلها».

«لماذا؟»

«أنا بخير حيث أنا».

لم يبرحني الأمل بزحزحته فقلت: «إن كان ثمة بعوض هنا، أنا متأكد أنه يفضل البيرة الباردة. كل البعوض يحب تكثُّف البخار على زجاجات البيرة الباردة».

اكتفى غوردون بنظرة هازئة نحوي، ثم قال: «آه، نعم. وما تظنه سيحصل لي إن جلستُ على شيء بارد كالثلج؟ سيكون ذلك محض انتحار لفتى حساس مثلي. ولكن لعل ذلك هو، في المقام الأول، ما جعلك تقترح هذا الاقتراح».

لم يكن الأمر كذلك حقاً، فأنا ببساطة لم آخذ في اعتباري حقيقة أن غوردون مخلوق من ذوات الدم البارد التي ستفقد الشعور إن قضت خمس دقائق فحسب على سطح لا تتجاوز حرارته درجتين مئويتين.

«طيب، سأُدفّئ زجاجة بيرة كرمى لعينيك. يسعدني أن أقدّم لك هذه الخدمة».

«غبي!»

«ها؟»

«عندئذ لن تكون الزجاجة باردة، إذن لم لا أبقى في مكاني؟»

هنا صرت أُزبد غضباً.

«أنت تدري أني أستطيع أن أهجم عليك وأسحقك بيدي العاريتين؟»

كدتُ أسمعه يضحك.

«لا أظنك تجرؤ على ذلك أو حتى تستطيعه. أما كنت لتوك تُطري سرعة استجابتي. كنت تقول إني بصّار تقريباً».

«كان هذا شيئاً فكرت فيه، لاشيئاً قلته. لا تخلط بين الاثنين».

هنا ضحك ضحكاً حقيقياً.

«إن كنا بصّارين فنحن بصاران، وهكذا يستوي ما سمعتُك تقوله وما خمنتُ أنك تفكر فيه. أتوقع أن أرى يديك تمتدان نحوي بحركتهما البطيئة قبل وقت طويل جداً من وصولهما إليّ. خلال ذلك سيتاح لي فائض من الوقت لتوديعك بلسعة من ذيلي ثم أُشَمّع الخيط نحو السقف بوثبة واحدة».

كنت أعرف أنه محق.

«لم يعد الأمر طريفاً أبداً»، قلتُ بصوت أقرب إلى الصراخ. «ليس من عادتي أن أتجادل مع الزواحف، وأنا موشك على فقدان مزاجي المرح».

«أتجادل مع الزواحف!» ردّد كلماتي، ثم أضاف: «احتفظ بتهكمك لنفسك».

غطستُ في السرير بعيداً هذه المرة بحيث لم يعد بوسعي إنقاذ القنّينة لو أنه نفّذ تهديده.

قلتُ متملقاً: «لم أقصد تهكماً. أنا في الواقع أُكنّ احتراماً أكبر مما تظن لمخلوقات مثلك».

قال هازئاً: «مخلوقات مثلك. إن الأحكام المسبقة الأشد لؤماً راسخة فيك لدرجة أنك لا تراها..».

قلت له مطمئناً: «لاأريد بالفعل مماحكة، لكن يبدو لي أنك ترزح تحت عقدة نقص عميقة الغور».

«قطعاً لا. حين كنتم حيوانات تافهة بحجم الزبابة، كان أعمامي وعماتي يتسيّدون الحياة الأرضية كلها، وشمخ بعضهم فوق المشهد الطبيعي كأنهم سفن فخورة».

قلتُ: «طيب، طيب. أعرف كل شيء عن الديناصورات، وأستطيع تمييز السينابسيد من الديابسيد. لكن لا تنسَ أيضاً أني قادر على تفريق ليبيدوسوريا عن أركوسوريا. لذلك لا تتبجح بقرابتك مع الديناصورات، اترك ذلك لليمام والببغاوات داخل الجزيرة».

ظننت أني أفحمته بتلك الأسماء التصنيفية، فقد لبث وقتاً طويلاً دون أن ينبس بكلمة. لعله أيضاً لا يعرف شيئاً من الإغريقية أو اللاتينية. وبعد توقف مديد قال: «إن عدنا إلى وقت أسبق من الديناصورات، يلتقي خطا نسبنا. وهكذا فنحن أقرباء. هل فكرت يوماً في ذلك؟».

هل فكرتُ أنا في ذلك! سؤال سخيف جداً بحيث لم أتجشم عناء الردّ عليه. بيد أنه لم يتوقف هنا: «إن عدنا حتى نهاية الحقبة الفحمية نجد أن لنا معاً ذات الأبوين. أنت أخي رغم كل شيء. هل ترى ذلك؟».

فاقت هذه الحميمية الزائدة في الحديث قدرتي على الاحتمال، لكن شاغلي الرئيسي بقي أن لا أخسر الجن.

قلت: «أرى ذلك طبعاً. وأنت لا ترى ذلك إلا لأني أراه. أم أن هناك جامعة أبو بريصية في الجزيرة؟!»

كان عليّ ألّا أقول ذلك لأن كلامي عكّر مزاجه. حدّق بي في البداية بوجهٍ كأنه قُدَّ من الصوان. تراءى لي كأنه كان يوتّر عضلات جسمه كلها. ثم حصل ما كنت أخشاه منذ البداية. ففجأة التف بجسمه لفتين ونصف حول زجاجة الجن، وشهدت بأم عيني كيف تزحزحت هذه إنشين عن مكانها. غير أن أسوأ ما في الأمر هو أن غطاء الزجاجة انفك تماماً بتأثير هذه الجلبة وسقط على طاولة السرير ثم تدحرج على الأرض. شعرت بالدموع تملأ عيني. فها هو هذا التنين الساخط يستعرض تحكمه بمصيري، ولن يستغرق الأمر طويلاً قبل أن يتهشم عالمي كله، ويَتحكمَ عليَّ هذا المخلوق بالسهر طوال الليل وأنا أشرب البيرة الفيجية. لا بد أنه أخذ على خاطره مني منذ أن حدجته بنظرتين مستاءتين لأنه بسط تلك الخريطة الكبيرة في حضن لورا حين بلغت الأمور ذروة سوئها ونحن في الجو فوق جبل تومانثيقي.

التقطتُ الغطاء عن الأرض، وداخلي يعتمل بالغضب، لكني قنّعتُ وجهي بالشجاعة وتحدثتُ بلهجة مسترضية: «كان ذلك التعليق عن جامعة أبو بريصيّه وقحاً بعض الشيء. أُقرّ بذلك عن طيبة خاطر. هلّا قبلت اعتذاري».

كان موقعه الآن في الجهة الأمامية من زجاجة الجن، وقد أدار ظهره نحوي، فلم يكن يراني إلا بعين واحدة.

«ثم إنك محق بخصوص ذلك العصر الزواحفي الذهبي في الحقبتين الجوراسية والكريتاسية. كنتم وقتها أرقى من الثدييات البدائية الأولى، وقرب نهاية الحقبة الكريتاسية كنتم أكثر تقدماً من الثدييات ذوات الجراب وذوات المشيمة على السواء. أفهم ذلك كل الفهم. هو ذا السبب في أن ذلك النيزك القاتل الذي أعلن بداية الحقبة الثالثية كان جائراً بصورة لا تصدّق.

«كيف ذلك؟»

«كان أمامكم مستقبل مجيد جداً. كثيرون منكم كانوا قد بدأوا بالمشي على قدمين، وبعضكم كان حار الدم مثلنا. أنا حقاً أعتقد أنكم كنتم قد قطعتم

شوطاً لابأس به على طريق بناء ثقافة راقية بجامعاتها ومرافقها البحثية. لم تكن بعض أنواعكم تبعد عن هذا الهدف إلا بضعة ملايين من السنين؛ وليس هذا بالزمن المديد، إن أخذت باعتبارك أن الديناصورات هيمنت على حياة البرّ قرابة مئتي مليون عام. تأمّل، من باب المقارنة فقط، بما حققه نوعي أنا من تقدم فيما لا يزيد عن مليوني عام، وما أعنيه هنا هو التقدم الوراثي. أما المنجزات الثقافية فتقاس بالعقود والقرون، وهي لذلك لا تحتاج إلى بيان».

سمعتُ كلماتي أنا تتردّد، ومرة أخرى خشيتُ من كوني قليل الحذر في اختيار منظوراتي. ألم أنغمس مجدداً في تبجُّح سافر عن مآثر نوعي مع ما يحمله ذلك من انتقاص من الزواحف بالتحديد؟ حاولت سكب الزيت على المياه العكرة لتلميع الموقف:

«أوافق على أن أسلافك كانوا أكثر تقدماً في الحقبتين الجوراسية والكريتاسية. ثم تحطم كل شيء بسبب اصطدام أهوج مع جسم سماوي. لم يكن هذا عادلاً، بكل بساطة لم يكن عادلاً. كانت تلك أول محاولة عملاقة على هذا الكوكب، وربما الوحيدة حتى اليوم، من أجل بلوغ أفق عقلي، أي بناء تصور عن تاريخ تطوّر الكون ونظرة عن العالم. انهارت هذه المحاولة لالسبب إلا لأن نيزكاً زاغ عن سبيله، ودونما شفقة سحَبَتْه جاذبية هذا الكوكب. تسبب هذا الحادث بهدر ملايين السنين».

تركزتْ عينا غوردون عليّ، ولم أجرؤ من جانبي على تحويل نظري عنه ولو لثانية واحدة. قلتُ ما قلتُ بنبرة تقطر عسلاً، وتصورتُ أني نجحت في تهدئته قليلاً.

قال: «ماذا تعني بأننا خسرنا ملايين من السنين؟».

كانت لهجته لهجة مصالحة هنا، كأنه طفل مبوّز يريد من أبيه أن يكمل الحكاية، رغم أنه لم ينجح في الحصول على الشوكولاته.

«خسرتم سباق الوصول إلى القمر. ربح نسل الزبّابة تلك المنافسة». عضضتُ شفتي، فقد تجاوزت الحد مرة أخرى.

قال: «شكراً لك، يمكنك أن تنسى بقية الإهانات». وأدركت أن ما قاله هو الإنذار الأخير قبل وقوع كارثة لا تقل هولاً عن كارثة النيزك المذكورة أعلاه، وفي هذه الليلة بالذات.

قلتُ: «أخشى أنك أسأت فهمي ثانية، وهذا خطأ أتحمل وحدي مسؤوليته لأني لا أفكر بوضوح في منتصف الليل، وخاصة حين أُمنع من تناول.. يعني، أ أ أ، طيب. ولكن كما أشرتَ أنت وبكل الحق نحن أخوان في الدم. نحن في الواقع نشترك بنسق كامل من المورثات المتماثلة. فكلانا رباعي الأطراف خماسي الأصابع. وأعتقد أن بمقدورنا بلوغ تفاهم متبادل إن تعلمنا النظر إلى هذا الكوكب الذي نعيش فيه بوصفه مجالاً أو حيزاً مشتركاً. إنه الكوكب ذاته، لا أنت ولا أنا، ولا إن شئت الدقة، كلانا معاً، من هدر ملايين السنين بسبب ذلك الاصطدام الأعمى مع نيزك تائه. علينا أن ندرك أن أي كوكب لا يحظى بعمر غير محدود، وسيأتي يوم ما يستنفد كوكب الأرض فيه حصّته من الزمن. لولا تلك الكتلة الصخرية ذات المزاج المتقلب لكنت أنت من يجلس على حافة السرير ولكنت أنا من يتقاذفه الجري وراء الحشرات في أرجاء الغرفة. ويمكن لهذا الأمر أن يحدث مجدداً. ولعلّ هذه النقطة هي ما كنت أسعى لتوضيحها منذ البداية. نعم، يمكن أن يحدث هذا الأمر ثانية! فميزان القوى بين الوعي الكوني واللاوعي الكوني ميزان غير مستقر. إنه ميزان للإرهاب الكوني يدفع محارتنا الأرضية الضئيلة هذه إلى السقوط في النسيان. وقد يتعين عليّ أن أضيف أن العقل في هذا الميزان هو داوود بمقلاعه البائس ضد عملاق اللامعقولية جوليات مع ترسانته الجاهزة من المذنبات والنيازك الصاعقة. ما الذكاء إلا وسيلة تكيف نادرة الوجود، في حين أن هناك الكثير من الجليد والنار والصخور؛ جلاميد جلاميد منها لا تزال تشكل آلاف الكويكبات المتهورة التي تزدحم في مداراتها غير المستقرة بين المريخ والمشتري. ولن يقتضي الأمر إلا اقتراناً منحوساً واحداً ليخرج واحد منها عن مساره ويندفع نحو الأرض. ما عليك إذن إلا أن تنتظر، ففي المرة القادمة قد تفارق الرئيسيات الحياة، وربما سيقود بنو بريص المنتسبون إلى تحت رتبة العظائيات سفينة الطبيعة

في محاولتها القادمة تجميع كُسيرات إضافية من المعرفة بهذا الكون. ولكن أيكون الوقت قد تأخر بالنسبة للعالم وضاعت عليه الفرصة، هذا هو السؤال. إذ من يستطيع تحديد كم بقي من الزمن حتى تصبح الشمس عملاقاً أحمر. لكنني لن أصدر حكماً حول هذا الشأن، كل ما أتمناه لكم هو التوفيق والحظ الطيب. يوماً ما قد تخطون خطوة صغيرة بالنسبة لعظاءة، خطوة عملاقة بالنسبة للطبيعة، وعندئذ يجب عليكم أن تتذكروا أننا نحن أيضاً قطعنا شوطاً من الرحلة».

«أنت تتكلم كثيراً».

قلت معترفاً: «كثيراً جداً. هذا يسمى القلق الوجودي».

«أما من ثناء لديك على عائلتنا كما هي الآن؟»

تعاطفتُ كثيراً مع هذا الاعتراض:

«آه، نعم، لدي أجزل الثناء. فعلى سبيل المثال أنا معجب أشد الإعجاب بقدرتكم على تجنب المواد السامة طوال ملايين السنين. لعلكم لهذا السبب تعيشون حتى عمر متقدم. أنا متيقن من أن كون المرء من الزواحف ليس بالقَدَر الهيّن على الدوام، لكني أؤكد لك أيضاً أن حياة الإنسان وأشباهه لا تخلو من تَعبٍ أحياناً. قد نشكو نحن من ذلك الشذوذ الضئيل الشأن المتمثل بوجود تلفيف أو تلفيفين زائدين في أدمغتنا. ولستُ أصدر في كلامي عن رثاء للذات، إذ من ذا الذي يستطيع إنكار وجود بعض الزواحف المسكينة التي تعاني إصابةً بهذا التشوه الوراثي أو ذاك؟ لكن كما كنت أقول لك، الكحول متوفر لنا بكثرة؛ ومع أنه يمكن الحصول عليه من أنواع عديدة من الثمار التي تسقطها الريح مثلاً، فإن أحداً منكم لم يصبح مدمناً على هذه المادة، لا أحد من جميع الرُّتب سواء خطميات الرأس أو الزواحف الحرشفية أو التماسيح، هذا إن لم نتحدث إلّا عن الديابسيدات. ورغم خجلي من الإقرار بقلة معرفتي لعادات السلاحف الغذائية، فإني أظن أن كل أنواع السلاحف قادرة على الاستغناء عن الكحول، لفترات طويلة على الأقل. وهي تعيش حتى سن متقدم جداً، حتى إن

بعضها مثل السلحفاة اليونانية البرية تعيش حتى تبلغ المئتين من العمر. قيل إن أسقف سان بطرسبورغ كانت لديه واحدة عاشت 220 عاماً، ورغم ما في هذا الكلام من مبالغة محتملة، فقد ذكرت المراجع المختصة أن سلحفاة عملاقة أُسِرتْ كعينة طبيعية عن نوعها في جزر سيشل عام 1766، وأنها عاشت في الأسر ولم تمت إلّا بحادث في موريشيوس عام 1918، لكنها قضت 110 سنوات من هذا الزمن وهي عمياء. على أن طول العمر ليس حكراً على السلاحف، فأنا بالطبع أعرف أن الزواحف عامة تعيش عمراً مديداً، لكن ذلك لا يغرس فيكم استعداداً ثابتاً لأي نوع من أنواع الإدمان الكحولي المرتبط بالتقدم في السن. ومن المؤلم أن النوع الذي أنتمي إليه نزّاع إلى هذا الإدمان، على الأقل في الثقافات التي تعبد تلك التلافيف الزائدة في الدماغ، تلك التلافيف الفائضة أو تكاد بحيث تضر ولا تفيد، وتجلب معها الكثير من المخاوف حول الكون وعبورنا الوجيز على الأرض والآماد الهائلة من الزمان والمكان».

«أنت تتكلم كثيراً كما سبق لي أن قلت».

توخّيتُ من خُطْبتي المطوّلة الأخيرة تلطيف مزاجه، وكنت واثقاً أنها إن انتهت إلى نتيجة عكسية فسأكون أفقر مما أنا الآن بزجاجة جن. سعياً وراء السلامة قررت الاستسلام ..

«سيد غوردون، في ما يخص تلك الزجاجة قررتُ رفع العلم الأبيض».

«قرار حكيم».

«وعليه لن أتطرق بعد الآن لهذا الموضوع».

«طوال ساعة وأنا أريد ذلك».

«لكن بالطبع أنت لا تمانع في وضع الغطاء في مكانه. هذا شيء لا يستغني أحدٌ عن تعلمه».

لاإجابة من طرفه.

«أنا متأكد أن ذلك لن يؤثر على صيدك. بالعكس أعتقد أن البعوض لا يطيق رائحة الجن. يقولون إنه طارد حقيقي للبعوض. ألم يكن ذلك هو السبب في أن المستعمرين البريطانيين كانوا يُكْثِرون من هذه المادة حماية لأنفسهم من الملاريا؟»

هنا تزحزح عن مكانه قليلاً، ربما ليضعني في مجال رؤية عينيه الاثنتين، الرؤية التي لا تتجاوز 25 درجة عند الوزغات.

«جرّب فقط»، قال.

هناك تأويلان لهذا الرد البليغ، لذلك سألته: «هل يعني هذا نعم؟»

«كلا. إنه يعني أيضاً أن عليك أن تكون أكثر حرصاً في تقدير الأمور. أقول ذلك لأنك محق بالطبع في تصورك أن الإمساك بزجاجة بلا غطاء يحتاج إلى عناية أكبر من واحدة مسدودة كما ينبغي».

«ألا تتعب أبداً؟»

«أنا أبو بريص ليلي وأنت سيد العارفين».

لم يعد ما يقلقني هو لياليّ القليلة القادمة في ماراڤو. فغداً قد يمكنني شراء زجاجة جن من الفندق أو من المتجر في سوموزومو، وإن أكن لا أعرف شيئاً عن القوانين والنواظم الفيجية لبيع وشراء الكحول. كل ما كنت متيقناً منه هو أني بحاجة إلى غبّات قوية من زجاجة غوردون لكي أنام ما بقي من الليلة. كنت بعد كل ما جرى مستعداً للمجازفة بنصف لتر من محتوياتها مقابل الحصول على المقدار اللازم لي. أدرت في ذهني فكرة شن غارة كوماندوس استناداً إلى افتراضات جديدة تماماً، افتراضات لا تستبعد إراقة شديدة، لكنها ستنقذ بلا شك مقداراً كافياً لهذه الليلة. في أسوأ الاحتمالات ستنتهي العملية وقد تهشمت الزجاجة على الأرض، لكن مجرد تصوري لما سأشعر به من ذل إن رآني غوردون أزحف على الأرض وألعق البقايا الملوثة من إكسيري السحري قبل أن ترشح عبر الأرضية الخشبية، جعلني أعاود التفكير في اتجاه آخر.

في منتصف الغرفة، وعلى بعد خطوة ونصف من مكان جلوسي، توجد

حقيبتي السفرية السوداء. فجأة تذكرت أن في داخلها علبة عصير مصنوعة من الكرتون بقيت من إحدى رحلاتي الجوية، وهناك شاروقة مرتبطة - طيب، كانت هناك في الأصل شاروقة ملصقة بالعلبة حين سلّمتها لي المضيفة الجوية. قد تكون هذه ورقتي الأخيرة. هذه المرة قررت ألّا أخبر هذا الإرهابي المغرور بما في بالي، سيّان عندي إن كان بصاراً أم لم يكن.

بيدي اليسرى الممدودة باتجاه طاولة السرير، وعيناي مثبتتان على غوردون والزجاجة، نجحت في بلوغ الحقيبة، وبعد ثوان، استعدتُ جلستي على السرير.

«بم تعبث؟»، سألني.

قلتُ كاذباً: «أريد فقط أن أنام. أنا في الواقع مخلوق نهاري كما تعلم».

«لم تكن تلك الزبّابات التي تحدّرتَ منها نهارية. كانت تتسلل للصيد ليلاً حين يكون الهواء بارداً، لأن الضواري من ذوات الدم البارد تضطر لالتزام مساكنها».

بينما كنت أفتح الحقيبة قلت: «أعرف ذلك، أعرف كل شيء عن ذلك. أنا أيضاً الذي قلت لك لولا ذلك النيزك قبل خمسة وستين مليون سنة لربما كنت أنت من يأوي الآن إلى السرير، بينما أترامى أنا على الأرض بحثاً عن الحشرات. لستَ قادراً على معرفة المزيد أو على معرفة أي شيء مختلف عما أعرفه أنا قبلاً».

قصدتُ من كلامي الختاميّ المتباهي هذا أن أختبر مزاجه، ولكن أيضاً أن أخفي ما كنت أفعله بعلبة العصير. لم ينقضِ وقت طويل حتى كانت الشاروقة في يدي.

لم أكن غبياً لأسأل غوردون أن يُنْعم عليّ بالإفراج عن قدر من السائل البائس الذي كان يجثم فوقه. اكتفيت بإمالة جسمي نحو الزجاجة وقلت: «أنا خبير في تذوّق الزواحف كما تعلم...»

«نعم، أعرف ذلك. أنت مهووس بنا».

«لكن لعلّي لم أشدد تشديداً كافياً على القول إني شغوفٌ خاصة ببني بريص. ولاسيما الأنواع الخمسة والثلاثين من «نصفيات الإصبع» بينها..».

ثم وضعتُ الشاروقة في فمي وأدْنيتُها من فم الزجاجة دون أن ألمسها بيدي، وكان الأمر الخارق أن غوردون لم يُبدِ نأمة. لعله لم يجرؤ على فعل شيء، أو لعله كان مشوّش الذهن.

أنا متأكد أني امتصصت ما يعادل كأسين مضاعفتين قبل أن أتوقف لالتقاط أنفاسي. المهم أني نجحت في مسعاي، وأفلحتُ - عبر تلك الحيلة الماهرة - في الشرب من الزجاجة دون أن أرفعها إلى فمي. وهكذا فإن بيضة كولومبوس ليست ذلك الرهان العظيم.

«آ آ آ، رائع»، قلتُ، وتجشأتُ بصوت عالٍ.

لم يَصدُرْ تجشؤي عن قلة أدب، ولا عن تلك الغطرسة التي يسببها الكحول عادة؛ لقد خرجت مني دون قصد. ومع ذلك يجب أن أعترف أني شعرت بتحسُّن فوري في المزاج وأن شجاعتي تعود إليّ. فإذا أخذنا ذلك بالاعتبار، نجد أنه كانت لدى غوردون أسباب مقنعة لإصراره على منعي من الظفر بالزجاجة منذ الوهلة الأولى.

خلال لحظة بدأ هميداكتيلُس فِرناتُس بالدوران سريعاً حول الزجاجة، ورغم أني أسندتها بأحد أصابعي، لم أستطع الحؤول دون تناثر بضع قطرات ثمينة منها انسفحتْ على طاولة السرير. لكني احتملتُ الأمر، ولم أترك الزجاجة إلا لأني كنت أعرف أنه سيثب نحوي ما أن تسنح له الفرصة، مع العلم أن اختلاط مشاعري تجاه الوزغات لم يتبدل بعد تعرفي على غوردون.

قال: «سأكون صريحاً معك، إن حاولت ذلك ثانية فستندم حيث لا ينفع الندم».

تفهّمتُ هذه النصيحة وأدركت في أعماقي أن نجاحي في شفط كأسين أخريين سيرفع من شجاعة السكران عندي إلى حد التجرؤ على الغدر به. فالجرعة الأولى وحدها كانت كافية لإثارة شعور واخز في أصابعي.

قلت: «مفهوم. ما كنت أعرف أنه يزعجك تجريب هذه القشة البارعة، وهي كتيمة على الماء في الحقيقة. كما لم يخطر لي ببال أن أسحقك».

«يحسن بك أن توقف إسهالك الكلامي هذا أيضاً».

بحق. فلم يعد لدي ما أقوله بعد تلك اللحظة لغوردون أبو بريص، تماماً كما أنه ما من شيء يقوله عالِم نفسٍ يعمل في الشرطة لمحتجز رهائن، رغم أنه يزعم وجود ما يقال؛ كل ما في الأمر أنه يحتاج إلى وقت، ولذلك يطيل المحادثة؛ ثم إن هناك سبباً مشتركاً للإطالة بين الطرفين. فحين تصل القضية إلى طريق مسدود للاثنين، ويعرف محتجز الرهائن أنه أضحى مطوّقاً بقوة متفوقة، فإنه، هو الآخر، يحاول كسب الوقت.

قال غوردون: «أو أن عليك التحدث عن شيء آخر معقول».

«أتحب ذلك؟ أتحب أن أتحدث عن شيء معقول؟».

«لايزال الليل طفلاً، وعلى الأغلب سيأتي البعوض مادمتَ أنت في الجوار، وسيكون أسمن وأكثر شبعاً حين أبتلعه».

لم أستسغ حقيقة كوني رجل بعوض لأبو بريص، وأظنه بلغ حد الوقاحة حين أضاف: «كنت أفضّل لو أنك لم تسارع إلى إغلاق الباب خلفك بعد أن أشعلت الضوء».

الحقيقة أني أغلقت الباب قبل إشعال الضوء لا بعده. أكملتُ ما يقارب الشهرين في المنطقة الاستوائية، ورغم أني لست شديد الحساسية تجاه البعوض، كنت دائم الحرص على عدم دخوله معي إلى غرفة النوم، وذلك لمجرد الحد من عدد الوزغات فيها إلى أدنى حد ممكن.

قلتُ: «في وسعنا التحدث عن أي شيء تريد. هل تحب كرة القدم؟».

«لا إطلاقاً».

«وماذا عن الكريكت؟»

«لأ».

«الطوابع النادرة؟»

«توقف!»

«إذن أقترحُ أن نتحدث عن الواقع».

«الواقع؟»

«نعم، لم لا؟ أم تظنه موضوعاً اعتباطياً جداً؟»

«طيب، تابع. فعلى أي حال لن أذهب للنوم قبل شروق الشمس».

«إنه كبير جداً وقديم جداً جداً، ومع ذلك لا يعرف أحد منشأه».

«الشمس؟»

«لا، الواقع. هذا ما نتحدث عنه الآن. أعتقد أن علينا التركيز على شيء واحد في الوقت الواحد. أما النظام الشمسي فهو مجرد جزء صغير مما نسميه الواقع. الواقع في كُلّيته يتألف من نحو مئة مليار مجرة. مجرتنا الصغيرة درب التبانة واحدة من هذه المجرات، وهي الآن تلف بقوسها الحليبي منعطف مضمارها. والشمس، ضمن هذه المجرة، مجرد واحدة من أكثر من مئة مليار نجم. ذاك هو النجم الذي سيطلع خلال بضع ساعات معلناً بداية يوم جديد على الأرض، لأننا عملياً على خط تعاقب الأيام، حيث يبدأ كل يوم جديد».

«الواقع أن الواقع ضخم جداً»، علّق غوردون، وبتعليقه هذا بدا أشد غباءً مما كان رأيي فيه.

قلت: «بيد أننا هنا لبرهة وجيزة، ثم تفْف.. نتبدّدُ طوال ما بقي من الأبدية، وهي وقت مديد مديد. أنا مثلاً سأزول خلال بضع سنوات أو عقود، ولن تتاح لي عندئذ أي طريقة لمعرفة كيف تسير الأمور هنا. بديهي أني سأكون في غياب خلال مئة مليون عام من الآن أيضاً، وبالتالي سأكون حتى ذلك الوقت خارج الواقع لمدة مئة مليون عام مطروح منها عدد من الأسابيع أو الأشهر، ولا ننس أيضاً ما بقي من هذه الليلة».

«أرى ألّا تعذب نفسك بهموم كهذه»، قال بطريقة تكاد تكون مواسية، كأنه لم يكن هو شخصياً مصدر كآبتي.

استطردتُ: «ما يزعجني أكثر من أي شيء آخر ليس قِصَر الحياة. يمكنني تدبر أمري حتى بما بقي منها، أو بقليل من الرقاد، لأني - إن شئتَ الحقيقة - أحس بالإعياء منذ الآن. ما يحنقني هو أنه لن يُسمح لي بالعودة بعد ذلك الرحيل، أعني العودة إلى الواقع. لن أصر على العودة الى هذه البقعة بالضرورة، إلى درب التبانة. سأرضى بالتفكير في مجرة أخرى إن كانت هذه تعاني من اكتظاظ سكاني، لكن بشرطين: أن توجد في مجرتي الجديدة حانات، وأن أتجسد في أحد الجنسين؛ فلم تَرُقْ لي أبداً الكواكب اللعينة التي يكون التكاثر فيها عملية خنثوية. لذلك سأبتعد عن هذه الكواكب وأُغنّي لها. وهكذا فليس الإشكال في الذهاب، بل في عدم القدرة على العودة. بالنسبة لأولئك الحائزين افتراضاً على تلفيفين فائضين أو ثلاثة في أدمغتهم - وهي بالفعل تلافيف نافلة، أو احتياطية إن شئت - بالنسبة لأولئك يمكن لتصورات من هذا النوع أن تدمرهم عاطفياً وتقضي على كل استمتاعهم بالحياة. ما نتحدث عنه ليس مأزق المشاعر فحسب بل مأزق المعقولية بالذات. قد تقول بحق أن ما يُحدِثه اثنان أو ثلاثة من التلافيف المخية النافلة هو بالضبط هذه التلافيف، اثنين أو ثلاثة: تلافيف تعضُّ ذيلها هي، ولاتعضّه مداعبة بل بلؤمٍ وشرّانية. بعبارة أخرى لهذه التلافيف طابع ذاتي التدمير، دون أن يكون من السهل مع ذلك التخلص منها. وفي حين تستطيع العظاءة بسهولة التخلص من ذيلٍ تعرّض لمأزق، لانجد نظيراً مخياً عند الرئيسات العليا لقدرة العظاءة على استكمال ما خسرته. لاشك أنه يمكن تخدير الوصلات العصبية المتأذية عدة ساعات - بكأسين من الجن مثلاً - غير أن هذا مجرد قمعٍ موقوت للأعراض وليس حلاً للمعضلة ذاتها».

«أعرف»، هذه الكلمة هي كل ما قاله. وهنا بدأت جدياً بالتساؤل عما إذا كان يبالغ في ادعائه المعرفة، لأني لا أظنه فهم كلمة واحدة مما قلت.

«مكّنتنا المناطق الدماغية غير الضرورية للحياة - بأدق معنى للضرورة - أعني المناطق النافلة، مكّنتنا من اكتساب بعض الفهم عن تطوّر الحياة على الأرض، عن بعض القوانين الأساسية للطبيعة، وأهم من كل ذلك، عن تاريخ

الكون بالذات منذ الانفجار الكبير حتى اليوم. نحن لانحشو رؤوسنا بالتوافه».

«هذا مثير للإعجاب».

«نحن نفهم ما يكفي فحسب لتكوين عدد من الأفكار الواضحة عن تاريخ الواقع، عن جغرافيته، وعن طبيعة المادة بالذات. لكن أحداً لا يعرف من جوهر أي مادة يتكون الواقع، على الأقل في شريطنا المكسو بالغابات هذا. أما المسافات في الكون فليست هائلة فقط، إنها شنيعة وبشعة. السؤال الهام هو: أكنّا سنفهم الحقيقة العميقة للعالم بدرجة أحسن لو أن أدمغتنا كانت - لِنَقُلْ - أكبر مما هي الآن بعشرة بالمئة، أو أكثر فاعلية بخمسة عشر بالمائة. ما رأيك؟ أتظن أننا بلغنا أقصى ما بوسعنا بلوغه بصرف النظر عن نوعية دماغنا وعن حجمه؟ هناك أمور تشير أبلغ إشارة إلى حقيقة أنه من المستحيل، مبدئياً، استيعاب ما يزيد كثيراً على ما نعرفه اليوم. إن كان الأمر كذلك فعلاً، فإنها لمعجزة صغيرة بحد ذاتها أن لدماغنا الحجم المناسب تماماً لفهم أشياء كنظرية النسبية وقوانين فيزياء الكم والتكوين الوراثي الإنساني. فليس هناك الكثير من الحلقات المفقودة في هذه المجالات. يخامرني شك عميق في تملُّكِ الشمبانزيات الأرقى لأدنى فكرة عن الانفجار الكبير، عن عدد السنوات الضوئية التي تفصلنا عن أقرب مجرة، أو حتى عمّا إذا كان العالم مستديراً. ثمة عامل مهم هنا، وهو أنه لو كان الدماغ الإنساني أكبر بأي قدر مما هو الآن لما استطاعت النساء المشي بقامة منتصبة. هنا أيضاً عليَّ أن أسارع إلى الإشارة إلى أنه لولا المشية الإنسانية القائمة لما تمكن الدماغ أبداً من النمو إلى حجمه الحالي. ما أحاوله هو تبيان ميزان دقيق، لذا دعني أصُغ الأمر بطريقة مختلفة: قد يعتمد مقدار ما نفهمه من الأحجية التي نحوم حولها على حجم الحوض الأنثوي. أعتقد أنّ تقيُّد الذكاء في هذا الكون بهذه الحدود التشريحية المبتذلة أمرٌ لايخطر على بال. لكن أليس غريباً أن يتبيّن أن هذه المعادلة المكتنزة باللحم مطابقة تماماً للمطلوب؟ يبدو كما لو أن المجهول (س) في هذه المعادلة يمثل المقدار الكافي تماماً، المقدار الكافي ليكون هذا الكون، في وقتنا الراهن، واعياً بذاته. الحوض الأنثوي ذو حجم كاف للسماح لنا بفهم ما هي السنة الضوئية، وكم عدد

السنين الضوئية حتى أبعد مجرة، وكيف ـ مثلاً ـ تتصرف أصغر الجزيئات سواء في المختبر أو في الثواني الأولى التالية للانفجار الكبير».

«لكن لماذا ليس ثمة أدمغة أكبر في مكان ما في الفضاء الخارجي؟» أقحم غوردون هذه الكلمات في مجرى كلامي.

كتمت ضحكة كادت تصدر مني.

«هذا ممكن بالطبع، ولا مانع لدي في مواجهة دماغ قد يمكنه، مثلاً، حفظ الموسوعة البريطانية عن ظهر قلب. بل إني لا أجد أي صعوبة في تخيل عقل واحد قادر على استيعاب كل الحكمة البشرية المرصودة. ما أشك فيه فعلاً هو: هل من الممكن نظرياً أن نفهم عن أسرار الكون أكثر مما نفهم الآن؟ وهكذا فإن كل ما أطرحه من أسئلة إنما يُختصر في مسألة ما إذا كان لدى الكون ذاته من أسرار يفشيها. أعني أنك إذا وجدتَ قطعة من نيزك، فستبدأ في حساب وزنه وجاذبيته النوعية، وأهم من كل ذلك، تركيبه الكيميائي. ولكن بعد أن تقوم بكل ذلك، من المستحيل أن تعتصر أسراراً أخرى من تلك الكتلة الصخرية. فبعد كل ذلك تكون تلك الكتلة ما تكونه وما كانته على الدوام. وهكذا يمكن وضعها جانباً، ربما لكي يتجمع عليها الغبار في متحف ما. لكننا لم نزدد علماً، إذ ما هي في النهاية صخرة ما؟»

«لاأظن أني أتابع جيداً ما تقول»، قال غوردون متنهداً وقد بدا عليه الإعياء.

«طيب. ما أريد قوله هو أن عصر العلم بدأ يدنو من نهايته. لقد بلغنا الهدف الذي هو إدراك الطريق الطويل نحو الهدف. لقد قدمنا أنفسنا الى الكون، والكون من جانبه فرض نفسه علينا. قد يكون انتهاء العلم هو ما أعنيه، وقد أعني أننا نعرف كل شيء يستحق المعرفة. وحين أقول «إننا»، أرجو أن تفهم أني لا أعني نحن الاثنين فحسب، فأنا أُضمّن في الكلمة كل الأدمغة الممكنة في الكون كله. إذا كان الأمر كذلك، والنظرية التي أميل إليها الآن تقول إنه كذلك، فالواقع يعاني من غُفْليّة لاشفاء منها. من أنا؟ يتساءل الواقع. لكن أحداً لا يجيب. لا أحد يرانا أو يسمعنا. نحن فقط نرى أنفسنا».

«أتمنى لو أستطيع مساعدتك»، دمدم غوردون محتاراً. ولاشك أنه كان يمكن أن يساعد لو كان لديه من الفطنة ما يجعله يتزحزح عن الزجاجة التي يرقد عليها.

«لكنك تقول إنك تؤمن بالحياة الأبدية. عليك إذن ألّا تأخذ مسافرين حين تطير دون ربان مساعد. لكن لابأس، فلنترك هذه المسألة».

سألته: «أمِنَ المألوف أن يؤمن أفرادٌ مثلك بالحياة الأبدية؟».

«لم أقابل في حياتي أبو بريصاً واحداً لديه برهان حاسم على العكس».

«هل لك أن تتحدث بدقة أكبر؟».

«ما من أحد من بني بريص ينكر وجود حياة أبدية. لا أظنه خطر على بال واحد من الزواحف أن الحياة يمكن أن تنتهي يوماً ما. ببساطة لم تطرق الفكرة أبواب عقولنا».

ولمّا تابع كلامه بدا كأنه يحاول تقليد طريقتي في الكلام.

«وبذلك أنا أعني كل الأنواع في كل جنس وعائلة في كل رتب الفقاريات الأربع من صف الزاحفيات. ليس لدى أي منا أدنى فكرة عن أن الحياة ستنتهي عند لحظة ما».

لمع في ذهني أني لو عدتُ عدداً من الأجيال في التاريخ الإنساني لانطبق ما يقوله على الرئيسات أيضاً. فتلك القشعريرة الباردة الناجمة عن الشعور بهول الخواء هي ظاهرة جديدة. ومن يدري؟ فقد يكون الخوف من الموت غير معروف على أي كوكب آخر من الكون كله. قال غوردون:

«ثمة يوجد عالَم. لو تعلّق الأمر بالاحتمالات، لشارَفَ هذا الوجود على الاستحالة. لَكان ارجح بكثير لو أن المصادفة قضت الّا يوجد شيء على الإطلاق. آنذاك، على الاقل، ما كان احدٌ ليتساءَل عن سبب عدم الوجود».

حين لم أجب أضاف: «أسمعتَ ما قلتُه؟»

«نعم، طبعاً. والآن لعلك تخبرني عما إذا كنتم جميعاً في هذه الجزيرة تخترعون هذا الكلام أثناء تجوالكم، أم أنكم وجدتموه في كتاب حِكَمٍ قديم».

لم يُجِبْ، فحاولت استنطاقه: «أكنت تفكر في ذلك منذ وقت طويل؟ أم أنكم جميعاً شعراء جوّالون من نوع ما؟»

لكنه وصل إلى فقرته الختامية. هنا أعلنَ:

«نحمل روحاً، وتحملنا روح لانعرف عنها شيئاً. حينما ينتصب اللغز على ساقيه دون أن يجد حلاً، يحين دورنا نحن. حين تقرص صورة الحلم ذراعها هي دون أن تصحو، إنما هي نحن. إنما نحن اللغز لايحزر جوابه أحد. نحن حكاية الجنيات العالقة في اسر صورتها هي. نحن ما يهيم في كل وادٍ من دون أن يبلغ فهماً واضحاً».

قلت: «ربما جاء دورك الآن في الصمت. لقد نفد صبري».

ردّ باستهتار: «يمكنك أن تنام في أي وقت تشاء. سأتولى أنا أمر الزجاجة».

«على جثتي»، صرختُ؛ فقد أتت ساعة الحسم. كانت أعصابي لا تحتاج إلّا إلى تخدير. قلت ذلك ووثبتُ نحوه هو والزجاجة.

بغضب اندفع غوردون عبر يدي مُرتقياً بقفزة واحدة الجدار، بينما انقلبت الزجاجة وسقطت على الأرض تاركة ذلك المهدِّئ الحيوي ينسفح منها ويختفي بين الصدوع فاغرة الأشداق في عوارض الأرضية الخشبية. حين نجحت في استعادتها ورفعها نحو الضوء، كان قد بقي فيها قرابة كأسين مضاعفتين، أو في أحسن الأحوال ثلاثة. وضعت الزجاجة على فمي وأفرغتها دفعة واحدة.

زعق من الجدار: «أيها الخنزير! سنتواجه ثانية!».

كان آخر ما أذكره قبل أن أغرق في النوم هو إلقاء غوردون لهذه الجمل الإسبانية المختلسة من أوصاف آنا وخوسيه العديدة للواقع:

«إن كان ثمة إله فهو ليس عظيم البراعة في عدم ترك اثرٍ يدلُّ عليه؛ إنه،

اكثر من أي شيء آخر، استاذٌ في الإخفاء. ليس العالم شيئاً يعرض نفسه للناظرين. فالسموات لاتزال تحتفظ بأسرارها. وهناك نميمةٌ تدور بين النجوم. لكن احداً لم ينس الانفجار الكبير بعد. منذ ذلك الوقت دانت السيادة للصمت، واخذت الأشياء كلها تتباعد. لازال المرء يصادف قمراً، او نيزكاً. لكن ليس لك ان تتوقع ترحيباً ودياً منها. إذ لا بطاقات زيارة تُطبع في الفضاء».

لاأملك إلا ذكريات غامضة، وأغلبها مختلط، عما قاله غوردون لإبقائي يقظاً بقية تلك الليلة، لكني أظن أنه أيقظني قرابة الخامسة، وهو يردد الحكمة التالية:

«مليارات من السنين تلزم لخلق إنسان. ولا تلزم إلا بضع ثوانٍ لموته».

الأخ النياندرتالي المُحْتَفى به

هكذا مضى يومي الأوّل في الجزيرة الفيجية، ولاحاجة بي إلى وصف الأيام التالية بذات الدرجة من التفصيل. وصفتُ لكِ الأوّل فقط لتفهمي دوافع تصرّفي بتلك الطريقة في سلمنكا.

كنت على وشك أن أبدأ الحديث بشأننا نحن حين لمحتُ، فجأة، آنا وخوسيه على ضفة نهر التورمس تحت الجسر. وشعرتُ فوراً كأني عدت إلى شاطئ الأمير تشارلز في تافوني. لذلك لم أعُدْ أبداً إلى الكلام عن أمرنا، أو عما حدث لسونيا. وكنت تنفجرين في ضحك صاخب وأنت تسمعين ما اعتبرتِهِ قِصصاً ملفقة قصدتُ منها استبقاءك هناك. لكنْ جميل أن أسمعك تضحكين ثانية. كنتُ على استعداد لرواية الكثير من الهراء لمجرد سماع ضحكتك. لكنهما بالفعل آنا وخوسيه من رأيتُ، أنا على يقين من ذلك. وها قد صار البرهان عليه في حوزتي صباح اليوم التالي. ثم لم تمض إلّا عشرة أيام قبل أن ألتقي خوسيه ثانية، إنّما في مدريد هذه المرة. حين أُنهى خوسيه الحكاية التي لا تُصدق عن إلْ بلانيتا واللوحتين في متحف ألبرادو، انجلى أمام عيني كسطوع الشمس أن هناك دروساً هامة يعلّمها كل منّا، أنت وأنا، للآخر، وأن الباب الوحيد إلى حوار جديد بيننا هو أن أكتب لك.

ڤيرا، أطلب منك أن تسدي إليّ معروفاً، حتى لو كان آخر شيء على الإطلاق تفعلينه من أجلي. سأحاول أن أرسل لك كل ما كتبت بعد ظهيرة يوم الأربعاء، وفي يوم الجمعة ينبغي أن تأتي معي إلى إشبيلية. أدين لآنا وخوسيه بالذهاب إلى إشبيلية ذلك اليوم، وأكاد أكون على يقين من أنك ستفكرين بالذهاب أيضاً إن أنت قرأت قصة آنا والصورة السحرية.

لا شك أنك لم تنسي، بعد كل تلك السنوات، البطاقة التي أرسلتِها إليّ من برشلونة. كتبتِ فيها: «أتذكر الإكسير السحري؟» وحين عدتِ إلى البيت في النرويج، أعلنتِ أنكِ لو وجدتِ ذلك الشراب لما ترددتِ في إعطائي نصفه. تمنّيتِ وقتها بحرارة أن نبقى معاً على الدوام. قلتِ في البطاقة: «بالنسبة لي ثمة رجل واحد وأرض واحدة». أتذكرين ذلك؟ ثم أضفتِ: «شعوري قوي إلى هذه الدرجة لأني أعيش مرة واحدة». لكن القدر تدخل وقضى بمصير مختلف.

كل ما أطلُبه منك الآن هو أن تخصصي لي يوماً واحداً من أيامك. لاأستطيع أن أسافر إلى إشبيلية من دونك، بكل بساطة لا أستطيع.

بعد أن أعدتُ بالكتابة عيش ذلك اللقاء الأوّل النكد مع غوردون، نزلت إلى القاعة المستديرة في الفندق وقرأت صحيفة (إل بايس) وتناولت كوباً من الشاي وبعض الكعك. أحسست بتحسن في المزاج بفضل الاسترخاء التام بعد كل ما تطلّبتْه مني الكتابة من تركيز، فاكتفيت بالإصغاء إلى موسيقا القيثار المصحوبة بالغمغمات المختلطة لأصوات التجمعات الصغيرة حول الطاولات المتناثرة تحت قبة القاعة. كنت أعرف أني أُحمِّل نفسي فاتورة فندق باهظة بإقامتي تلك، لكنني اعتزمتُ ألّا أغادر مدريد إلّا وقد أخبرتُكِ بكل شيء. وكما ترين فقد استضفتُ نفسي لإقامةٍ جديدة في بالس. فالعاملون هنا يعرفونني، ثم إن الفندق لا يبعد أكثر من رمية حجر عن ألبرادو، ورمْيَتَيْ حجر عن الحدائق النباتية، وما لا يزيد على خمس دقائق مشياً عن متنزّه رتيرو أو بيوترا دِل سول.

ولكن لأعُدْ إلى فيجي. لمّا صحوتُ من نومي في الصباح التالي، وجدتُني في قبضة ذلك النوع من الكَرَب التالي لليقظة، والمتولد عن تعريتي الصريحة لنفسي في الليلة السابقة أمام من لا أعرفه ولارغبة لدي في التعرف إليه. يتميز هذا الإحساس بأنه ذو حدّين. فمع أن الواحد منا بالكاد يسترخي استرخاءً بسيطاً في البوح بمكنونات نفسه، إلا أن الشعور البغيض المتخلّف عن

هذا الاسترخاء يُضَخِّم هذه الإفشاءات الطفيفة العارضة. لاتعرفين وأنت أسيرة تباريح الندم ما الذي قلتِه وما الذي استبقيتِه لنفسك. وطوال اليوم التالي يُنغّصكِ شعور مُمِضّ بأنك اكتسبت عدواً مدى الحياة - أو أسوأ: صديقاً مدى الحياة - وأنا أعني بذلك صديقاً من أحسن نوع، صديقاً يعرف أدق أسرارك الدفينة. كنت أعرف أن غوردون في مكان ما من الغرفة، لكنني كعالم أبو بريصي أعرف أيضاً أنه، في هذا الوقت من اليوم، يكون أقل عجرفة مما هو ليلاً.

وقفت قبالة مرآة الحمام فور استيقاظي من النوم. ومع أني لستُ من ذلك الصنف من الناس الذين يبدؤون يومهم بالسخرية مما يرونه في المرآة، فإني، مع التقدم في السن - وبقدر ما أدنو من نهايتي - أرى بوضوح أكبر وجه الحيوان المنعكس في المرآة يرحب بي صباحاً؛ أرى ضفدعاً مستحيلاً من صورة إلى صورة، أرى عظاءة منتصبة، رئيسياً تعيساً. غير أني أرى شيئاً آخر أيضاً، وهذا الشيء الآخر هو أكثر ما يزعجني. أرى ملاكاً حبيساً في قِصَرِ عمره الشديد، فإن لم يهتد الآن إلى طريق عودته إلى السماء، فستبدأ ساعته البيولوجية بالتكتكة أسرع وأسرع، وسيفوت عليه وقت العودة إلى الأبدية. كل ذلك بسبب خطيئة مهلكة ارتُكِبت منذ وقت بعيد، منذ أن اتخذ الملاك المذعور جسداً من اللحم والدم. فإن لم يَفُزْ هذا الملاك بخلاصه الآن، فلن يعود قابلاً للخلاص أصلاً.

في طريقي إلى الفطور صادفتُ جون في بستان النخل. كان يقف تحت شجرة جوز هند يُنعم النظر في لافتة كتب عليها: **حذار من سقوط جوز الهند على رأسك.** لعله كان حسير النظر لأنه كان واقفاً قرب جذع الشجرة وتحت قمتها مباشرة.

سألته: «أتراك تلعب الروليت الروسية؟(*)».

(*) يضغط المراهن في هذه اللعبة على زناد مسدس مصوب إلى رأسه. في إحدى عيون مخزن المسدس، رصاصة واحدة لا يعرف المراهن مكانها. يجازف جون، إذ يقف تحت شجرة جوز الهند، باحتمال سقوط جوزة على رأسه، وبالتالي بحياته.م.

مشى يحوي: «ماذا قلت؟»

لكني لم أحتج إلى الإفاضة في الشرح، إذ في تلك اللحظة سقطت جوزة ضخمة على الأرض، حيث كان يقف قبل ثوانٍ.

قال: «أعتقد أنك أنقذتَ حياتي».

«لاداعي لقول ذلك».

لم أعرف ماذا أقول بعد ذلك، لكني كنت بحاجة إلى من أكلّمه، إلى من أتكلم معه عن آنا وخوسيه. منذ اللحظة التي نظرت فيها إلى المرآة قررتُ أن أقوم اليوم بعمل رجل التحري. فأنا لم أستبعد بعدُ أن يكون الإسبانيان قادرين على مساعدة ملاك مفرط التجسد في ضائقته، رغم هزال هذا الاحتمال.

سألته: «ألم تر أثراً للإسبانيين؟».

هز رأسه أن لا. وسألني بدوره:

«التقيتُم أمس عند خط التعاقب، أليس كذلك؟»

تملكني من جديد شعور بأن له علاقة ما مع آنا وخوسيه. من أخبره أني التقيتُهما عند خط التعاقب؟ أهذا اللقاء من الأشياء التي يحلو للناس الحديث عنها هنا؟!

أومأتُ بالإيجاب عن سؤاله. وقلت: «إنهما زوجان فاتنان. أتتكلمُ الإسبانية؟» أتراني لمحت ظل ابتسامة في وجهه؟ مهما يكن، شعرت أنه يعرف سبب سؤالي. لكنه اكتفى بهز رأسه: «قليلاً جداً. لكنهما يتحدثان الإنكليزية بطلاقة».

«نعم، لكنهما يتحدثان فيما بينهما بين الفينة والأخرى».

أصغى إليّ بانتباه. كان انتباهه الشديد مخيفاً أو يكاد. بدا كأنه يولي اهتماماً خاصاً بملاحظاتي. أيشمل هذا الاهتمام الإسبانيين بطريقة من الطرق؟

«وأنت تفهم ما يقولان؟»

ها أنذا أواجه مشكلة. لم أشأ إخبار جون بأني أجول في الجزيرة مسترقاً السمع على آنا وخوسيه.

قلت: «حسناً، إنهما لا يتحدثان عن كرة القدم أو الكريكت. هذا هو كل ما استنتجته. يحدث كل منهما الآخر عن أشياء شديدة الغرابة».

لبث واقفاً يتنسّم الهواء. ثمّ قال: «من المفروض أنها واحدة من أشهر راقصات الفلامنكو في إشبيلية».

فلامنكو! هي ذي فرصة أخرى، كلمة أخرى قد تفتح باب الذاكرة المقفل الذي تختفي خلفه آنا. لقد زرت مرقص فلامنكو مرتين في مدريد، بيد أن هذا حصل منذ سنوات عديدة؛ وحتى لو أني رأيت آنا آنذاك يستحيل على ذاكرتي أن تُفْرِد لها مكاناً خاصاً وسط كل ذلك الإيقاع الصاخب وألبسة الرقص المدوّمة حول الأجساد والأغاني المثيرة للحواس. ثم إن الصورة التي أحملها في قاع ذهني عن آنا تغطّي حتماً فترة أطول من مجرد استعراض فلامنكو واحد.

ومع ذلك كان خبر الفلامنكو مفيداً.

قلتُ: «أشعر أني التقيتُ آنا قبلاً».

جفل جون: «أين؟»

«المشكلة هنا تماماً، لم أعثر لها على مكان محدد في ذاكرتي».

«طريف، لا بل خارق. فأنا أواجه المشكلة نفسها. هناك شيء ما مألوف بطريقة مثيرة حولها..»

إذن ها نحن اثنان، ومن حقي الآن أن أُسقط احتمال أن تكون آنا من بنات خيالي، أو أني كنت متزوجاً منها في حياة سابقة. ولعلّي أعرف الآن أيضاً لماذا يرغب جون في معرفة ما إذا التقيتُ الإسبانيين على خط التعاقب.

قلتُ: «ليس وجهها بالوجه الذي يُنسى».

أعتقد أن تعليقي هذا بدا وقحاً بعض الشيء. وقف غارقاً في أفكاره قبل أن يجيب: «ربما، لكن من الأكيد أيضاً أنه ليس وجهاً يتذكره المرء تذكّراً. يبقى احتمال ثالث...».

كنت على أحرّ من الجمر في انتظار ما سيقول:

«رأينا نحن الاثنان المرأة في وقت سابق ما. من المحتمل إذن أنها خضعت لنوع من... التحوّل».

كان تفكيري يسير في الاتجاه نفسه، وبدأتُ الآن أحس بالدوار. ولم تكن الحرارة والرطوبة عوامل مساعدة في وضعي ذاك. لكن هنا قاطعنا صوت نسائي غاضب أتى من جهة المسبح. إنها لورا، وقد كانت تزعق في بستان النخل: «أقول لك أن تكف عن ملاحقتي طوال الوقت!».

وفي اللحظة التالية سمعنا طرطشة في المسبح، وأدركتُ أن لورا قد دفعت بيل فيه. أومأتُ إلى جون، وقلتُ إن عليَّ المسارعة إلى تناول الفطور قبل أن يتأخر الوقت.

لمّا مررت بحافة البركة رأيت العقابيل المتناثرة لتلك الدراما. كان بيل يرقى خارجاً من الماء بعد سقوط غير مخطط له، على البطن، وعلى وجهه ملامح الحنق المتوقعة، غير أنه كان يرتدي لباساً أنيقاً لا يتناسب مع غطسته: سروال قصير أصفر، قميص أزرق نِصفيّ الكمين رُسِمت عليه جوزة هند. أما لورا فكانت تمدِّدُ جسمها على أريكة شمسية، وقد ارتسمت على وجهها تعابير اكتفاء خبيث. لمّا رفعت ناظريها ورأتني متجهاً نحو المطعم، غطّت نفسها بمنشفة، وسألتني إن كنت ذاهباً لتناول الفطور. أشرتُ برأسي إيجاباً.

أعلنتْ: «سأتناول كأساً من الشاي معكْ»،. واضحٌ أنها أنهت قراءة «الكوكب الوحيد».

أعادت المنشفة إلى الكرسي، وسحبت ثوباً أحمر ارتدته فوق لباس السباحة البكيني الأسود ثم أقحمت قدميها في صندل. وقفتُ أنتظرها ثم مضينا معاً نحو المطعم.

وزع العاملون قهوة وشاياً، ولم ألحق أنا إلا الخبز والمربى لأنهم كانوا يُخْلون صحون الطعام. نظرتُ في عين بُنّية وأخرى خضراء.

سألتها: «هل يزعجك بيل؟».

اكتفت برفع كتفيها وقالت: «آه لا، ليس ذلك الإزعاج».

«لكنك دفعتِه في البركة؟»

«حدِّثني عن دراساتك»، قالت مترجّية.

لم يكنْ لدي مانع من تغيير موضوع الحديث. تحدثت بإيجاز عن عملي الميداني، واكتشفتُ أنها، هي أيضاً، ليست مجرد هاوية في هذا المجال. إنها من هذه المنطقة، وكانت قادرة على إعلامي بما لم أكن أعرفه من مشاكل مماثلة في القارة الأسترالية.

طرحتُ عليها بعض الأسئلة عن المؤسسة البيئية التي تموّل التقرير السنوي عن حال البيئة، التقرير الذي حدثتنا عنه في الليلة السابقة. في البداية تهربت من الإجابة، لكنها في النهاية أفضت إليّ بأن المؤسسة هي في الواقع هبة، وأن المال منحة من شخص أمريكي.

«أهو أحد المثاليين؟» سألتها.

صحّحت تصوري قائلة: «شخص غني. يلعب بالمال لعباً».

سألتها إن كانت متفائلة أم متشائمة فيما يخص المستقبل البعيد للأرض والجنس البشري.

«أنا متشائمة من مستقبل البشر، لكني متفائلة بمصير الأرض».

بدأتُ أفهم وجهة نظرها، وسرعان ما شرحت لي كل شيء على أي حال. كان اهتمام لورا البيئي مبنياً على أساسٍ إيديولوجي أعمق مما تخيلتُ. كانت تؤمن أن الأرض عضوية حية، وأن هذه العضوية تعاني حالياً من هجمة حادة من الحمى، لكنها حمى مطهِّرة توفِّر لها شفاءً سريعاً.

«تتحدثين عن الأرض كأنها شخص عاقل؟»

«جايا(*) كذلك. إن لم يحدث شيء خارق للمألوف فستقتل جايا الجراثيم التي أمرضتها».

«جايا؟» كررتُ الاسم مع تنهيدة خفيفة.

(*) إلهة الأرض حسب الأساطير اليونانية القديمة. م.

«إنه مجرد اسم أطلقناه على أمنا الأرض. كان يمكن بالطبع أن نسميها أرضى. لكن المهم أن ندرك أنها كائنٌ حي».

«الكائن الذي سيقتل الجراثيم؟»

«قبل ملايين السنين كانت الديناصورات هي الكائنات التي ينبغي التخلص منها. وربما لم ينجم ذلك عن اصطدام أحد النيازك بالأرض. ربما تسببت الديناصورات بمرض للأرض فاستأصلت نفسها بنفسها. سمعت عن إحدى النظريات التي تفسر انقراض الديناصورات بأن له علاقة بغازات أمعائها. غير أن الأرض شُفيت، بل في الواقع وُلِدت من جديد. الآن يعرّض البشر الحياة على الأرض للخطر. نحن ندمر موطننا البيئي، وجايا تريد التخلص منا».

«ثم... ثم يستعيد العالم عافيته؟»

وافقتْ لورا برأسها. نظرتُ في عينها البنية وقلت: «ألا تعتقدين أن للإنسانية نفسها قيمة أصيلة أيضاً؟».

اكتفتْ برفع كتفيها، وفهمتُ من ذلك أنها لا تُكنُّ اعتباراً كبيرا للجدارة الإنسانية. أرى شخصياً صعوبة كبيرة في النظر بعين التقدير إلى عالم لم ينجب إلّا العضويات الدنيا. غير أني أكثر تفهماً وتعاطفاً مع فكرة التجدد أو الانبعاث. هذا رغم أنه فات الوقت على العالم من أجل ولادة جديدة كما أسررتُ لغوردون في الليلة الماضية، وليس من المؤكد أن يحظى العقل بفرصة ثانية للولادة. ليس على هذا الكوكب على الأقل، لأن دورة جديدة قد تتطلب وقتاً طويلاً جداً بالفعل.

قلتُ: «أرى أن لكل فرد قيمة لا تُقدر بثمن».

«وكذا كل دبٍّ من دببة الباندا».

كنت الآن أنظر في العين الخضراء.

«وماذا عنكِ أنتِ؟ ألستِ خائفة من الموت؟»

هزّت رأسها: «سأموت في صورتي الحالية فحسب».

أذكر أني فكرتُ وقتها كم كانت تلك الصورة متميزة بالجمال.

استطردتْ: «غير أني أنا هذا الكوكب الحي أيضاً. أنا أشد قلقاً على موت جايا لأن لي فيها هوية أعمق وأبقى».

«هوية أعمق وأبقى»، كررتُ كلماتها.

ابتسمت ابتسامة متحدية: «لابد أنك رأيت صورة لجايا مأخوذة من الفضاء..»

«بالطبع».

«أليست جميلة؟»

لم أصدق شيئاً مما قالت. وعلى أية حال لم يكن لدي أبداً وقت من أجل هذا النوع من التثبّت الواحدي المتطرف الممتزج باهتمام بيئي مشوب بكرهِ الإنسان. ومع أن هذا المزيج أثار سخطي، عليَّ أن أُقرّ أني استلطفت لورا وارتحت إليها. كانت كائناً حذراً فاتناً، وبطريقة ما، جريحاً.

حاولت بيني وبين نفسي امتحان بلاغتها: طيب، نحن نعيش حيواتنا الوجيزة على الأرض، لكن الحياة لا تنتهي بانتهائنا إذ إننا نعود زنابق أو جوز هند، دبب باندا أو وحيدات قرن؛ وجايا هي كل ذلك، هي هويتنا الأعمق والأصدق.

ظلت لورا جالسة تنقر الأرض بصندلها. عبر القماش الأحمر لثوبها لمحت قمة بكُينيْها الأسود.

سألتني: «كيف بدأت الحياة على الأرض؟».

اعتبرتُ سؤالها بلاغياً، لكني قدمتُ الإجابة التقليدية: من الممكن أن تكون كل الحياة على الأرض قد نشأت من جزيئة واحدة ضخمة لأن هناك صلة لاجدال فيها بين المواد الوراثية للكائنات كافة.

بناءً على كلامي قالت: «إذن فالأرض عضوية حية، وليست حياتها مجرد استعارة لغوية. أنا بالفعل على قرابة مع الخُبّازى».

كانت تشير نحو البستان. نظرتُ حيث أشارت فلاحظت أن بيل أخذ المنشفة التي تركتها على أريكة التشميس، لم أجد مناسباً ذكر هذا أمامها.

مضتْ تقول: «في الواقع أنا أوثق قرابة بالخبازى مما قطرة من الماء إلى قطرة أخرى. فإذا كانت كل الحياة قد انبثقت من ذات الجزيئة الضخمة الواحدة..»

ترددتْ لحظة، وكنتُ مرة أخرى أنظر في عينها الخضراء.

«نعم؟»

«... إنها لجزيئة خارقة إذن. لن أتردد في تسميتها جزيئة إلهية. إنها بذرة إلهية. ومن ثمّ لن أتردد في تسمية جايا إلهة أيضاً».

«وجايا هي أنتِ؟».

«وأنتَ، والخبازى».

سبق لي أن سمعتُ بكل ذلك، وكما قلتُ قبل قليل، لم أصدق أنها تعني نصف ما تقول.

قلت معترضاً: «بيد أن للأرض عمراً محدوداً. إنها مجرد «كوكب وحيد» ضمن العَدَم العظيم».

«أو ضمن الكل العظيم!».

أرفقتْ هذه الكلمات بأخذ يدي بين يديها. شعرت بارتباك شديد فلم أعرف ماذا أفعل. لم أعد أعرف لحظتها الفرق بين «الكل» و«العدم». ترى أليسا بالفعل مترادفين؟

عصرتْ يدي بحنان، ثم قالت: «معاً نحن واحد».

أذهلتني صدمة الاقتران المفاجئة هذه. أما وقد تكلمنا عن الكل العظيم أو العدم العظيم فمن الخير أن تحضني يداً دافئة في يدكِ. إن لم يكن الكل واحد، فنحن على الأقل اثنان. لم أكن على وشك الاهتداء إلى معتقد إيديولوجي جديد. ولا أقول هذا إلا لأني أعرف أيضاً أنه حين يكون الليل حالكاً، تّمحي كل الحدود والملامح.

لبثنا بضع لحظات متماسكي الأيدي. كانت لورا امرأة فاتنة ومثالية راسخة في أوهامها معاً وفي الوقت نفسه. هذا رغم أن ما قالته هو، على

مستوى معين، شيء لايُدحض، تماماً كما هي لا تدحض فرديَّتي أنا الخالية من الروح. ومعاً نحن واحد.

«أينطبق ذلك على مهندس البترول أيضاً؟» سألتُها، وهنا فقط سحبت يديها.

هزت رأسها وقالت بابتسامة دافئة: «مكانه المناسب هو كونٌ آخر».

ومع ذلك سرعان ما نهضتْ ومضت نحو الأريكة قرب المسبح. لعلها فعلت ذلك لتوبيخ الأمريكي على أخذ منشفتها.

كنت قد طلبتُ سيارة تُقِلُّني إلى متنزّه تافورو الوطني على الجانب الشرقي من الجزيرة لكي ألقي نظرة على ببغاواتها الشهيرة، وأرى شلالاتها الجبارة. أمامي أيضاً مهمة أخرى تتطلب مني اهتماماً خاصاً، مهمة لا تخلو من محاذير صحية.

كان جوشن كيس، صاحب منتجع مارافو بلانتيشن ريزورت، رجلاً ألماني الأصل. وكان خدوماً في تلبية طلبي للسيارة، لكن مهمتي الأخرى لم تُنجَزْ بالسهولة ذاتها. ثمة بار للخمر في المنتجع، بار مرخص على أكمل وجه بالطبع، لكن القانون المحلي يحظّر بيع زجاجة كاملة من المشروبات الروحية. قلت إني أفهم هذا تماماً، وإن لدينا القانون نفسه في النرويج، لكن هذا ليس بيعاً عادياً، بل هو تعويض شرعي عن ضرر سببه واحد من الوزغات الكثيرة في المُنشأة. ومع ذلك وضّحت تماماً أني مستعد لدفع ثمن الزجاجة حسب الإجراءات المتبعة، أي بالسعر نفسه للجرعات المباعة في البار. لا أظنه اقتنع بحججي، لكن طيبته مكنتني في نهاية الأمر من العودة إلى البيّور وأنا أُصَفِّر مبتهجاً، وفي حوزتي زجاجة غير مفتوحة من الجن. في الطريق قطعت عسلوجاً من الخبازى التي أشارت إليها لورا، الخبازى الأوثق قرابة بلورا مما قطرةٌ من الماء إلى أخرى. بالطبع هي محققة فيما يخص قطرتي الماء، لكن فقط لأنه لا قرابة بين قطرتي الماء على الإطلاق. إنهما فقط متماثلتان إلى أقصى حد.

ملأت زجاجة الجن الفارغة بالماء ووضعت فيها غُصين الخبازى، ثم

وضعت الزجاجة على الطاولة الصغيرة أمام النافذة المشرفة على بستان النخل. بعد ذلك فتحت الزجاجة الجديدة وألصقتها بشفتي. أخذت غبّةً صغيرةً منها فقط لكي أثبّت حقوق ملكيتي لها، ولأتأكد من أنها لن تعاد إلى البار. فتحت حقيبتي السفرية ووضعت الزجاجة فيها بعناية، ثم أغلقتها.

هنا بالضبط لمحته مرة أخرى. كان غوردون ينعم بغفوته النهارية على الحامل الخشبي للستائر. ظننته نائماً، وإن يكن من الصعب معرفة ذلك بالنسبة للزواحف التي خُلِقت بحلقتين مندمجتين حول عينيها بدلاً من الجفنين. على أية حال، كنت لحظتها أنظر مباشرة في حدقتيه المفتوحتين.

سأل: «دواءٌ لصداع السُكْرِ؟».

اللعنة! ها قد عاد إلى فظاظته.

قلت مُطَمْئِناً: «كنت فقط أرطِّب فمي، وعلى كل حال، لا علاقة لك بما أفعله في خلوتي».

«لاتقصد أنك ترغب بالمتابعة من حيث توقفنا الليلة الفائتة؟»

«قطعاً لا. كل ما أقوله هو أنه ليس لك أن تتواقح مع أسيادك. أنت مجرد أبو بريص».

«إه. نعم ولا ياسيد».

«ماذا تعني بذلك؟»

«قد أتراءى لك بمظهر أبو بريص هنا والآن فقط؛ لكن في الحقيقة...»

تراءى لي أني أعرف ما يرمي إليه.

قلت: «تابع! لن أفرض أي قيد على حرية الكلام».

«أنا في الحقيقة روح العالم، الروح التي اتّخذت لنفسها مقاماً في أبو بريص. وهكذا إذا كان لديك ما ترغب في معرفته فما عليك إلا أن تسأل».

«لن أزعج نفسي بالتعليق على ما تدعي. مهما يكن ما تقول، أنا أعرفه سلفاً».

«أشك في ذلك. أنا روح العالم العالمة بكل شيء».

«طيب، انطق جوهرتك إذن. ما الذي تعرفه؟»

«تناولتَ فطورك مع أنثى أسترالية من الرئيسات».

«طيّب. لابأس. لِنَقُلْ إنك نجحت في الامتحان. أتستطيع الآن أن تخبرني إن كنتُ واقعاً في حبها؟»

ضحك: «لا، سيكون الأمر مهزلة في وقت قصير كهذا، حتى بالنسبة لرئيسي ذكر مثلك. لكن قد تضيع إن لم تنجح في ترويض غرائزك الحيوانية».

«هي من أرواح العالم أيضاً».

«هذا صحيح يا سيد. أنا في كل مكان حولك. أنت تعيش وتتحرك وتوجد فيّ».

لا يزال ثمة عدد من التجمعات البشرية المعزولة التي لم يستسلم أهلها لغواية بيع أرواحهم مقابل المال. يدرك سكان قرية بوما الصغيرة على الجانب الشرقي من تاڤوني أن عيونهم تفتحت منذ الولادة على واحدة من أجمل الغابات المطيرة في العالم. قامت هذه الغابة بدور مغناطيس جاذب لعشاق الطبيعة وصناع الأفلام الفردوسية مثل (عودة إلى البحرة الزرقاء). ولما كانت بوما - بل وفيجي كلها - تفتقر إلى الرأسمال النقدي، فقد أثار العرض المغري الذي قدمته إحدى شركات تجارة الخشب لشراء الغابة، جدلاً كبيراً بين القرويين. لكنهم في النهاية قالوا لا لقطع الأشجار ونعم للفكرة الوجيهة، فكرة تحويل محيطهم الغني بالخضرة إلى متنزّه طبيعي؛ وهو ما سيوفّر للقرويين الفقراء مصدراً متجدداً للدخل بعكس إغراء المال السائل الذي عُرِضَ على القرية مقابل قطع أشجارها. اليوم حُوِّلَ اثنا عشر ألفاً وخمسمئة أكر من الأراضي المحمية إلى متنزّه يستقبل السياح البيئيين الذين يأتون إلى هنا. زرع القرويون أنفسهم الممرات وسيّجوا الأجزاء الأشد انحداراً منها، كما بنوا مراحيض وقدموا

تسهيلاتٍ لتناول الطعام والتخييم. ثم انتشر أسلوبهم؛ إذْ يجري الآن تصميم عدة مشاريع مماثلة في أجزاء أخرى من الجزيرة.

كنت مبتهج القلب وأنا أعبر القرية وأقطع نهر بوما الجميل. لذا دفعت بطيبة خاطر خمسة دولارات فيجية لقبولي في ذلك الفردوس المحمي. في كوخ صغير قُدّمت لي معلومات مفيدة عن الأميال الخمسة من الممرات الممهدة. اشتريت علبة من البسكوت وزجاجة من الماء، وطمأنتهم أني مدرك أن أي استخدام للنار قد يسبب نتائج كارثية.

تمشيت أعلى نهر بوما قرابة نصف ميل. كان الممر الذي سرتُ فيه أشبه بشريط متصل طويل من النخيل والشجيرات المزهرة الكثيفة جداً. ڤيرا، هذا هو ما أسميه منظراً طبيعياً ثقافياً. ليتكِ كنتِ هناك!

سرعان ما سمعت هدير أول شلّال كبير. كنت قد قرأت أنه يبلغ خمسة وستين قدماً ارتفاعاً، وأنه شق في الأرض مسبحاً عملاقاً يغطيه الزبد. سبق لي كذلك أن سمعتُ أن المكان ليس مطروقاً بكثرة، لذلك لم آخذ سروال السباحة معي، وقررت أن أقفز عارياً في تلك البركة الطبيعية إن وجدت نفسي وحيداً، وإلا سأذهب إلى مسقط المياه الآخر الذي يبعد نصف ساعة باتجاه أعلى النهر؛ هناك يبلغ الارتفاع 170 قدماً لكن بركته ليست كبيرة كبركة الشلال الأول.

طرقت سمعي أصوات مألوفة حين اقتربت من مسقط المياه الذي لا تزال دفقته الناعمة تسكن ذاكرتي؛ وبعد هنيهة لمحت آنا وخوسيه في البركة. لست متأكداً إن كان شعوري بالخيبة ناجماً عن فقدان وحدتي المأمولة، أم عن عدم توقعي مصادفتهما. مهما يكن فقد مثّل وجودهما عقبة غير منتظرة حتى وإن كان تجدد اللقاء بهما شيئاً لطيفاً من دون شك. أقنعتُ نفسي بأن الفكرة ذاتها قد خطرت لهما، خاصة وأنهما كانا يسبحان عاريين. ذكّراني من جديد بآدم وحواء، أول رجل وامرأة خلقهما الله، القالب البدئي للسعادة، على الأقل قبل ما سببته التفاحة من هوى بينهما ومن ثم طردهما من الجنة. غير أن الطرد

سيحدث في الفصل التالي، أما الآن فلا يزالان يتردان عاريين كما خلقهما الله. قبل أن أبتعد عنهما لاحظتُ وحمة ولادية كبيرة على بطن آنا.

أنْ أتجول هنا وهناك، متظاهراً بعدم فهم ما يقوله خوسيه وآنا لبعضهما، شيء، أمّا أن أتلصص على عريهما فهو شيء آخر تماماً، شيء وضيع لم أنحدر إلى مستواه بعد. يمكنني ترك هذا السلوك للكائن الأسمى وحده، فهو النموذج الأصلي لكل متلصص على الأجساد العارية. المشكلة أنه لم يكن ممكناً المضي إلى الشلال الثاني دون أن يرياني، إذْ ما من بديل من الممر الرسمي الذي يمر بمحاذاة بركة السباحة مباشرة. وهكذا كان عليَّ أن أعود أدراجي.

غير أني لم أستدر راجعاً، ففي تلك اللحظة سمعت خوسيه يقول شيئاً لشريكته العارية، ورغم أني لم ألتقط وقتها كل ما قال، فسأسمعه كاملاً في وقت لاحق:

«يصحو الجوكر من أحلام غير مغلولة إلى الجلد والعظم. يسارع إلى قطف توت الليل قبل أن يفسده النهار من فرط النضج. إن لم يقطفه الآن فلن يقطفه ابداً، إما الآن او ابداً، ثم إما الآن او ابداً. يعرف الجوكر انه لن ينهض من السرير ذاته مرّتين».

قلتُ لنفسي قد أتمكن من سماع ما سترتجله آنا هذا الصباح إن لبثتُ حيث كنتُ، فلم أتقدم أو أتراجع. قالت:

«ما الذي يفكر به الجن حين يُطلق سراحهم من سر النوم ويصلون مكتملي التكوين إلى يوم جديد كل الجدة؟ ماذا تقول الإحصائيات؟ الجوكر هو الذي يطرح السؤال. ينتفض من الدهشة كلما تكررت المعجزة الصغيرة. لقد حُسِبت عليه تماماً مثلما تُحْسب عليه إحدى «مَلْعناته». هكذا يحتفل بفجر الخلق. هكذا يرحب بخلق فجر اليوم».

تساءلت دائماً من عساه يكون هذا الجوكر، وها أنذا الآن أحصل على نوع من الإيضاح في قول خوسيه:

«يتجول الجوكر بين الجن الصغار في إهاب احد الرئيسات. يُنْعم النظر في يدين غريبتين هما يداه، يُمسّد خداً لا يعرفه هو خدّه، يتلمس محجره، ويعرف انه يُخفي لغز الذات المقيم، هيولى الروح، هلام الإدراك. لن يستطيع ابداً أن يدنو من جوهر الأشياء. يتصوّر بغموض انه، ولا بُدّ، دماغ مغروس. لذلك هو لم يعد هو».

أم لعله ملاك كيميائي حيوي، ممثلّ للأبدية شديد الفضول تجاه عجيج الحياة في ممالك من اللحم، في ممالك نسي - لشدة غطرسته - تهيئة طريق الانسحاب منها. ليس الرئيسي وحده هو من كان ينبغي عليه الحذر من تركيب أجنحة من الشمع وتَعَجُّلَ الاستنتاج بأنه قادر على الطيران إلى السموات مثل ملاك. فقد كان العكس حماقة أيضاً. كان طائشاً الطيش ذاته اعتقاد الملاك أنه يستطيع مشاركة الرئيسي قسمته من دون التضحية بمكانته كملاك. ما يخسره الملاك أكبر بما لا يقاس مما يخسره الرئيسي، مع أنهما يخسران الشيء ذاته: نفسيهما. يكمن الفرق في أن الملاك افترض بأن الحياة الأرضية أبدية.

لعلي افترضتُ أن آنا وخوسيه قد لمحاني فابتدآ مجدداً بعرض سلّتهما الصغيرة من الشذرات الفلسفية. من الحمق أن أتراجع إن كان الأمر كذلك. كيفما كانت الحال، وسواء قمتُ بهذه الحسابات أم لا، أذكرُ أني انكشفت لهما على الممر، إحدى يدي تغطي عيني، ومذكّراً نفسي بأني لم أسمع كلمة واحدة مما دار بينهما.

سألتهما: «أهناك متسع لغريب؟ لقد دفعت دولاراتي الخمسة ثمن بطاقة دخول إلى الفردوس».

ضحكا، وبدآ الخروج من البركة، وأنا واقفٌ ويدي تستلفت الأنظار معلنة أنها تغطي عيني؛ ومع ذلك انفرج اثنان من أصابعي لحظة بما يكفي لإلقاء نظرة على جسديهما العاريين قبل أن يتمكّن كلٌّ منهما من ارتداء بنطال أسود ورداء صيفي أحمر.

هبط عليّ إلهام حالما رأيت آنا بهيئة حواء: رأسها هو الجزء الوحيد الذي

رأيته منها قبلاً. لا شيء من جسد حواء مألوف لي، رغم أن ذلك الجسد يناسبها تماماً؛ لاجدال في ذلك. لكن يقيناً من المستحيل نقل رأس من جسد إلى آخر! لم أسمع قط بما يمكن أن يُسمى زرع الرأس.

بعد أن أنهيا ارتداء ملابسهما، جلسنا على مقعدٍ في الظل نتناول البسكويت، ونحاول التفوق على بعضنا في مديح ذلك الكنز الطبيعي، وإطراء مضيفينا سكان بوما. شرعت آنا ثانية تطقطق بكاميرتها، وتعيّن عليّ أن التقط لهما بضع صور. بينما كانت آنا تصوِّر، عاد خوسيه إلى هرش دماغي بعدد من الأطروحات عن التطور. كان اطّلاعه على الموضوع ممتازاً بالنسبة لرجل غير مختص، وهي النقطة التي كنت سجلتها له في الليلة الفائته. كان يستخدم المصطلحات الفنية مثل التدرّجية والنقطية دون أن يطرف له جفن.

كانا قد تواعدا مع سائق ينتظرهما عند مقصورة الاستقبال، واتفقنا على أنه قد جاء دوري لاحتكار الفردوس. بعد غطسة في البركة الأولى تمشيت نحو الشلال الثاني.

تجدّد اللقاء بآنا وخوسيه في بستان النخل في ماراڤو بعد عدة ساعات. وهنا أيضاً، عادت آنا إلى التقاط الصور. أذكر هذه الواقعة جيداً لأن الصور الفوتوغرافية بدت جزءاً من طقس ما، مثلها في ذلك مثل وابل الجمل الملغزة التي كان كل منهما يمطر بها الآخر.

كنت وحدي في البستان حين سمعت، على حين غرة، أصواتاً مألوفة. اكتشفت أني قرب كوخ آنا وخوسيه، واستخلصتُ من سماع أصواتهما أنهما جالسان على شرفتهما. لم يكن وارداً أنهما قد رأياني، فقد كنت محجوباً عنهما تمام الاحتجاب في وقفتي هناك مع أني كنت قريباً منهما اليوم كما بالأمس حين كنت أنا على الشرفة وهما في البستان. كنت سأبتعد لولا شلال الحِكَم البارعة الذي بدأ يتدفق الآن منهما.

خوسيه هو الذي دشن الإلقاء:

«من كان يمكن ان يتمتع بعرض الألعاب النارية الكوني حين كانت صفوف المقاعد في السموات ملأى بالجليد والنار فحسب؟ من كان يمكن ان يتخيل ان أوّل برمائي جسور لم يَخْبُ خطوة صغيرة فحسب نحو الشاطئ، بل وثب وثبة عملاقة على الطريق الطويل إلى حيث استطاعت الرئيسات ان ترى مشهد تطورها الشامل والفخور منذ بداية ذلك الطريق نفسه؟ لم يُسمع هدير الانفجار الكبير إلا بعد خمسة عشر مليار عام على وقوعه».

«أم أن علينا ذِكْر هذا المقطع أولاً»، قالت آنا؛ ثم ألقت:

«ثمة ما يصيخ اذناً ويفتح عيناً: يطلع من السنة اللهب، يطلع من الحساء البدائي الكثيف، يطلع عبر الكهوف، ويطلع، يطلع فوق افق السهوب».

«هذا جيد في نظري. لكن ألّا ينبغي أن نسميه «الحساء البدئي الرصاصي؟»

«لماذا؟ ما من شبه بين الحساء والرصاص».

«أعني أنه مثقل ـ كأنه الرصاص ـ بدلالاته المجازية. كانت الظروف المعاكسة محدودة جداً فكان لا بد أن يزحف مخلوق ما نحو البر يوماً ما».

«ألا تُخرّب إضافة هذه الكلمة الإيقاع؟»

«بالعكس تماماً: «يطلع من الحساء البدئي الرصاصي..»»

«طيب، سنرى».

الآن جاء دور خوسيه. واضح أنه كان يصفن مفكراً قبل أن يحزم أمره. بعد هنيهة قال:

«مثل سديم مسحور يرتفع المشهد الشامل، يرتفع عبر السديم، يرتفع فوق السديم. يحضن اخو النياندرتالي المحتفى به حاجِبَه، وهو يعرف أنه خلف جبين الرئيسي الذي هو جبينه، تموج مادة مخية لينة؛ إنها الربان

القائد للتطور، إنها الكيس الهوائي الواقي لمهرجان البروتين، الكيس الذي يفصل بين الروح والمادة».

وهنا لم تحتَجْ آنا للتروي في تقديم جواب. كان جوابها مقرراً سلفاً ضمن البناء المسرحي للطقس:

«يقتحم الوعي حلبة السيرك المخي لرباعي الأطراف. إنما في هذه الحلبة تُعلَن احدث انتصارات الأنواع. إنما في الخلايا العصبية الدافئة للفقاريات ترتفع اولى سدادات الشمبانيا. اخيراً، تنجز الرئيسات ما بعد الحداثيةِ مسحها الشامل. ولا خوف عليها؛ فالكون يمسح نفسه بزاوية منفرجة».

تلا ذلك توقف قصير فظننت أن الإلقاء بلغ خاتمته، وخاصة لأني سمعت صوت فتح زجاجة خمر. لكن خوسيه لم يلبث أن قال:

«فجاة ينظر الفقاري خلفه، ويرى الذيل المبهم لبني عمومته عبر التامل الاسترجاعي في ليل السنين الضوئية. الآن فقط بلغ الممر السري نهايته، وما تلك النهاية إلا وعي الرحلة الطويلة نحو النهاية نفسها. كل ما في وسع الفقاري فعله هو صفقُ يديه، صفق الطرفين الذين يتركهما وديعة لورثة النوع».

كررت آنا عبارة : «التأمل الاسترجاعي في ليل السنين الضوئية»، ثم تساءلت: «أليس هذا مفرطاً؟»

خوسيه: «لكن النظر الفاحص للكون هو ذاته إرجاع النظر في التاريخ».

«سنعود إلى ذلك. ثم لعلنا نأخذ هذه القطعة الآن:

«من الأسماك والزواحف، ومن الزبّابة الصغيرة الحلوة كالسكر، ورث صوص الرئيسات زوجاً من العيون الجميلة ثنائية الاتجاه. الورثة البعيدون للسمكة مفصصة الزعانف يدرسون ترحال المجرات عبر الفضاء، وهم على علم بانقضاء مليارات من السنين قبل أن تبلغ عيونهم ما بلغته من كمال. لقد صُقِلت العدسات باستخدام جزيئات عملاقة. اما

تركيز النظر فالفضل فيه لبروتينات عالية التكامل وحموضٍ امينية».

عاد الدور إلى خوسيه:

«في كرة العين نِزَاعٌ بين الخلق والانعكاس. ما كرتا البصر ثنائيتا الاتجاه إلا بابان سحريان دوّاران تلتقي عبرهما الروح الخالقة بالروح المخلوقة. إن العين التي تشرف على الكون من علٍ هي عين الكون ذاته».

ساد صمت لبضع ثوان. ثم قال خوسيه: «سباتي أم ديناري؟»

«ديناري؟ هذا بديهي».

مُلِئ كأسان جديدان، وبقيتُ أنا في مكاني لم أتزحزح. لكن حين لم يضيفا شيئاً انسحبت بأهدأ ما أستطيع.

كنت في حالة صدمة، غير أني وجدتُ إجابات على عدد من أسئلتي. فمن الواضح الآن أن تلك الأمثال الغريبة هي شيء يقطّعه خوسيه وآنا على شرفة مسكنهما. لا بُدّ أيضاً من نسبة وقاحة استثنائية لهما فلا شك أن تلك الخطبة الطويلة التي استرقت السمع لها تكشف عن إصابتهما بما لن أتردد في تسميته اللصوصية الفكرية، لا بل الاختلاس العقلي؛ فمن غير المعقول أن يكون التشابه المميز لِحِكَم آنا وخوسيه مع منظوري الشخصي للتطور مجرد مصادفة، وخاصة بعد محادثّاتنا البارحة؛ أو بعد حديثي القصير مع خوسيه قبل بضع ساعات فقط. منذ أول لقاء بيننا اختبرني هذان اللصان اختباراً دقيقاً وشوّها كل فكرة من أفكاري.

ومع ذلك بقي العديد من الأسئلة معلقاً. «ديناري! هذا بديهي». إنه ديناري، فيرا، ديناري وقطعاً ليس اسباتي أو بستوني. ولكن ما الذي يعنيه ذلك؟ ما علاقة الأمر بورق اللعب؟ ومن هم «الجوكر» و«الجان»؟

لم أكن واثقاً أيضاً من أن ورشة بعد الظهر تلك لم تكن عَرَضاً دورياً مقصوداً لِلَفْتِ نظر أي سائح وحيد يتجول متلصصاً في بستان النخل. لست متأكداً مثلاً من أنهما لم يرياني في الدقائق التي سبقت وجودي خلف شرفتهما. ثم هناك حكاية آنا: عودة من نسيانٍ كامنٍ في داخلي. آنا!

عقدت العزم على القيام بفعلٍ ما. عدت أولاً إلى كوخي وجلست على حافة السرير، ثم كتبت: «كلما اقترب الجوكر من العدم الأبدي، رأى بأوضح صورة الحيوان الذي يواجهه في المرآة حين هو يصحو على يوم جديد. لا يجد ما يواسيه في النظرة التي لا عزاء لها لرئيسي بائس. يرى سمكة مسحورة، ضفدعاً مستحيلاً من صورة إلى صورة، عظاءة مشوهة. يفكر: هي ذي نهاية العالم. إنما هنا تبلغ رحلة التطور الطويلة نهاية مفاجئة».

قرأت المقطع بصوت عال، وفجأة وردني ردٌّ من جهة حامل الستائر:

«أحب القطعة التي تتحدث عن «عظاءة مشوهة»»، قال غوردون.

«لماذا؟»

«إنها تؤكد بطريقة ما أننا نحن الأصلاء».

«هراء! أنت أيضاً سمكة مسحورة».

«لكنني لست مشوهاً. ليس لدي تلفيف مخي واحد فائض. لدي جهاز عصبي وافٍ تماماً بالحاجة بلا زيادة ولا نقصان».

«طيب. إن كان الأمر كذلك فسأضع عبارة «عظاءة قائمة على قدميها»».

«أرى أن عليك الاحتفاظ بـ «مشوهة»، ليس بسبب تلك التلافيف الفائضة في أدمغتكم فحسب، بل لأنها أيضاً تلائم إيقاع اللغة. هذا من دون ذكر علاقات حسن الجوار بيننا».

قلتُ: «لدي واحدة أخرى»، وقرأتها أثناء كتابتي لها:

«الجوكر ملاك في مأزق، كان سوء فهم مميت هو الذي قاده إلى اتخاذ جسد من اللحم والدم. أراد فقط أن يشارك الرئيسات قسمتها لبضع ثوانٍ كونية، لكنه سحب السلم خلفه بعد النزول. إن لم يرجعه أحد الآن، ستدق ساعته البيولوجية دقاتها أسرع وأسرع، وسيكون قد أزف وقت العودة إلى السموات».

رفعت نظري إليه.

« هذا هراء رومانسي إن طلبت رأيي».

«لم أطلب منك أي شيء».

«ماذا لو لم يكن ثمة أبدية البتة؟»

«هذا بالضبط ما يثير لدي أشد سخط، بل وأشدّ حزنٍ أيضاً. أنا رئيسي تعيس».

«لكنك تفترض وجود سماء تنحدر منها الملائكة متجسدة لتجد نفسها عالقة في حمأة هذا العالم الزمني لا تستطيع منه فكاكاً لتعود إلى موطنها».

«أأسجل ما قلتَ: «عالقة في حمأة العالم الزمني لا تستطيع منه فكاكاً للعودة إلى موطنها»».

«قطعاً لا. من غير المرجح وجود عالم آخر غير هذا العالم الذي، وحده، ينبسط في الزمان والمكان».

قلت بصوتٍ كأنه الزعيق «أعرف ذلك! ومعرفتي به هي السبب الوحيد لكلامك عنه. غير أن تشبيهاتي فيها «إذا» مضمرة: أنا أُشبه ملاكاً في ضائقة أولاً، ثم هذا إذا كانت الملائكة موجودة. يمكنك فقط أن تتخيل ملاكاً مُحاصَراً ضل سبيله وانحبس في مستنقع اللحم المرتعد، ملاكاً أدرك أنه قام بفعلٍ وخِيم ومحتومٍ فأضاع طريق عودته إلى السموات. ألا ترى كم هذا فظيع بالنسبة للملاك؟ لقد افترض، وفقاً للنظام الطبيعي للخلق، أن وجوده لن ينتهي أبداً. كان موجوداً على الدوام، وهو خاضع للميثاق الإلهي القاضي بثبات هذا الحال، أو بعالَم لا حدَّ له. لكن ها هو ذا الآن خلل في النظام، خطأ مأساوي، تماماً كما سببت التفاحة في جنة عدن خللاً في النظام؛ ويدرك الملاك هنا أن مكانته قد خُفِّضت تخفيضاً شديداً، لأنه، بضربة واحدة، انحط إلى ملاك كيميائي حيوي، أعني إلى إنسان، وبالتالي إلى آلة بروتينية قابلة للموت مثلها مثل أي سمكة أو ضفدع. يقف أمام المرآة ويدرك أنه بسبب خطأ غبي لم يعد يَفْضُل أبو بريص بشيء».

«سبق لي أن قلت أننا لا نشكو أبداً من مكانتنا الوجودية».

«أما أنا فأشكوا»

«لأن لديك تلفيفاً زائداً»

«نعم، نعم. أما الملاك فلا تلافيف زائدة لديه. لعله يملك من الفهم ما يعادل إنساناً، أعني فهماً كافياً لاستيعاب مفاهيم محددة عن الكون، بينما يتمتع هو ـ على النقيض تماماً من البشر ـ ببقاء أبدي. إنما هنا يكمن الفارق الكبير، هنا بالذات. من هذا المنظور يتمتع الملاك بفهم كافٍ، بفهم فُصِّل على مقاس مكانته الكونية. أنا شخصياً أعرف الكثير إن أخذت بعين الاعتبار أني مجرد زائر عابر لهذا المقام».

«لست أرى أي داعٍ لمناقشة قدرة ملاك على الفهم حين تُقِرّ، كما فعلتَ لتوك، بعدم إيمانك بوجود الملائكة».

اكتفيتُ بتجاهل كلامه وأضفت:

«أنا من عائلة السلمندر. وإنما مقابل قِصَر العمر لدي تلفيف مخي فائض أو تلفيفان. لذلك ليس ما أنا بصدده الآن قضية فكرية، بل قضية عاطفية، إن لم أقل إنها قضية أخلاقية. إنه لأمر مستفزّ ومحزن أن تقف وجهاً لوجه أمام قِصَر عمرك واضطرارك ـ منذ الآن ـ لترك الكثير خلفك».

«لعل عليك استخدام حصتك من الوقت لفعل شيء آخر غير التفجع من ضآلتها».

«تخيل أنك في رحلة طويلة، وفجأة تُدعى إلى منزل أناس لطفاء تعرّفتَ عليهم. يُشترطُ عليك أن تكون زيارتك قصيرة، وأن لا تعود إلى ذلك البيت، أو حتى إلى ذلك البلد أو المدينة».

«حسناً، ما عليك إلا البقاء والتمتع بدردشة مسلية».

«طبعاً. لكن لماذا يُفرضُ عليّ التعرّف على تفاصيل إدارة البيت؟ ما من حاجة بي لمعرفة أين توضع المغارف والطناجر، مقصات العشب وأغطية الأسِرّة. ما من حاجة بي لمعرفة شيء عن الأداء المدرسي للطفلين، أو ماذا قدّم ماما وبابا

من طعام لضيوفهما في العيد الفضي لزواجهما الذي صادف العام الماضي. لطيف منهم أن يدوروا بي في البيت قليلاً، ولست من يقلل من قيمة هذا النوع من الضيافة. لكن أن يُشرح لي عن كل شيء في البيت، من القبو إلى العلية، فهذا لعمري إفراط شديد».

«تماماً مثلما هي التلافيف الزائدة».

لم أقع في إغراء ملاحظته الجانبية، وتابعت كلامي:

«لو أن مقامي يطول عندهم بضعة أشهر لكان الأمر مختلفاً تماماً لأنهم بلا شك أناس لطفاء يستحقون التعرف عليهم بالتفصيل. ولو لم يكونوا كذلك لما زرتهم أصلاً، حتى لو لم أكن على علم بأنهم سيستغلون زيارتي القصيرة لاستعراض حياتهم الرائعة ومنزلهم الأروع ذي التدفئة الأرضية والجاكوزي الجديد تماماً. عليّ أن ألحق بطائرة، أنا مسافر إلى نصف الكرة الآخر. إني على أحر من الجمر، فبعد قليل عليّ الاستعداد للمغادرة وستكون السيارة هنا في أية لحظة، ولن أعود أبداً أبداً.. ألا تفهم حقاً ما أريد؟»

«بدأت أفهم بلا ريب أنك تفهم الكثير».

«الكثير بالضبط، هذا ما كنت أقوله طوال الوقت. أنا أشارك الشمبانزي بما يقارب 99٪ من مورثاتي، ونعيش عملياً العمر نفسه ـ لكني لا أظن أن لديك أدنى فكرة عن المقدار الهائل من الأشياء التي أعرفها بالمقارنة معه. وأعرف، مع ذلك، أن عليّ ترك كل ذلك خلفي. على سبيل المثال أنا على إطلاع حسن على الاتساع اللامحدود للفضاء الخارجي، أعلم أنه مقسّم إلى مجرات وعناقيد من المجرات، سُدُم لولبية ونجوم منفردة، وأن هناك نجوماً معافاة وعمالقة حمراء محمومة، أقزاماً بيضاً ونجوماً نترونية، كواكب وكويكبات. أعرف كل شيء عن الشمس والقمر، عن تطور الحياة على الأرض، عن الفراعنة والسلالات الصينية الحاكمة، عن بلدان العالم الحالية وشعوبها، هذا دون أن أذكر كل ما قمتُ به من دراسات عن النباتات والحيوانات، عن الأقنية والبحيرات، عن الأنهار والممرات الجبلية. دون صفنة أستطيع أن أذكر لك أسماء مئات المدن،

أسماء كل أقطار العالم تقريباً، وأعرف أيضاً عدد السكان التقريبي لكل منها. لديَّ بعض المعرفة عن الخلفية التاريخية للثقافات المختلفة، للأديان والأساطير، وإلى حد ما لتاريخ اللغات، وبالتحديد العلاقات بين أصول كلمات كل منها، وخاصة ضمن عائلة اللغات الهندوأوروبية، لكني أستطيع أن أسرد أمامك عدداً لا بأس به من تعابير اللغات السامية أيضاً، وبعض التعابير الصينية واليابانية، ناهيك عن أسماء المواقع والأشخاص التي أعرفها من هذا اللغات. علاوة على ذلك، أنا على معرفة شخصية بمئات الناس، ومن بلدي الصغير فقط أستطيع خلال لحظات ذكر آلاف الأسماء لأشخاص أحياء أعرف عنهم شيئاً ما؛ وما أعرفه عنهم واسع جداً في بعض الحالات. وما من سبب يلزمني بذكر النرويجيين فقط، نعيش اليوم باطراد في قرية كونية، وسرعان ما ستشمل ساحة هذه القرية المجرة بأكملها. على مستوى آخر، ثمة كل الناس الذين أنا شغوف حقاً بهم، علماً أن المرء لا يتعلق بأناس فقط، بل بأمكنة أيضاً. فكرّ فقط في الأماكن التي أعرفها كما أعرف ظهر يدي، الأماكن التي أستطيع تمييز أدنى تغير يطرأ عليها: هل قطع أحد شجرة أو حرك حجراً فيها؟ ثم هنالك الكتب، ولاسيّما تلك التي علمتني الكثير عن الغلاف الجوي والفضاء الخارجي، لكن أيضاً الأعمال الأدبية، وعبرها كل أولئك الأشخاص المتخيلون الذين تعرفت على حيواتهم، والذين عنوا الكثير لي في بعض الأوقات. ثم إني لا أستطيع العيش من دون موسيقا، كل أنواع الموسيقا من الموسيقا الشعبية إلى موسيقا النهضة إلى شونبرغ وبندريكي، وهذا مع أني انتقائي جداً. لكن عليَّ أن أعترف ـ ولاعترافي علاقة ما بهذا المنظور الذي نحاول استشرافه ذاته ـ أني أُكنُّ ولعاً خاصاً بالموسيقى الرومانسية، ولاتنسَ أن هذه الموسيقا توجد أيضاً بين أعمال باخ وغلوك، وبالطبع ألبينوني. على أن الموسيقى الرومانسية وُجِدتْ في كل العصور، وأفلاطون بالذات حذّر منها لأنه اعتقد أن ما تسببه من كآبة قد يضعف الدولة إضعافاً حقيقياً. وعندما تصل إلى بوتشيني وماهلر، يغدو واضحاً كل الوضوح أن الموسيقا تصير تعبيراً مباشراً عما أحاول جعلك تستوعبه، أي عن أن الحياة قصيرة جداً، وأن الطريقة التي خُلق الناس بها تعني أن يموتوا

بحسرة الكثير الكثير الذي يتركونه خلفهم. إذا سمعت مقطوعة ماهلر المسماة «الوداع» من سمفونية «أغنية الأرض»، ستعرف ما أعنيه. أرجو أن تفهم أن مسرح الوداع الذي أشير إليه، أي الاستئذان بالذهاب من هذا العالم، هو العضو ذاته الذي أختزن فيه كل ما سأودِّعه».

اتجهت نحو حقيبتي وفتحتها، سحبت منها زجاجة الجن ووضعتها على فمي. ما كان هذا ليستحق تعليقاً لأني شربت سحبة منها فحسب، ولم يبق الكثير من الوقت حتى يحين العشاء، لكن غوردون قال: «أمُنذُ الآن تبدأ؟!».

«أبدأ؟! أظن أنك تستخدم هذه الكلمة بأسلوب مُغرِض جداً. تناولت سحبة واحدةً لأني عطشان، وبعبارة أخرى لإرواء غليلي؛ وأنت تقول إني أبدأ شيئاً ما!».

«أنا قلقٌ فحسب من أن تؤدي عادة الشرب هذه إلى تقصير عمرك أكثر مما هو قصير أصلاً».

«ربما، والمفارقة ليست خافية عني. لكن ما أتحدث عنه ليس بلوغ عمر متقدم، أنا أتحدث عن الأبدية. ومن هذا المنظور ليست زيادة أو نقص سنتين أو ثلاثة إلا شيئاً تافهاً».

«من حسن الحظ أني في منجى من قلق الأبدية».

قلتُ: «إه، أنا لست كذلك!»، والتقطت ما كتبته، ثم خرجتُ من الغرفة صافقاً الباب خلفي بشدة.

قصدتُ كوخ آنا وخوسيه ثابت الخطوِ، لكني خففت اندفاعي حين اقتربت منه مؤمِّلاً أن يبدو قدومي مجرد مصادفة لطيفة. كنت قد طويت الورقة وحشرتها في جيبي الخلفي.

«ما رأيك بكأس من النبيذ الأبيض؟» غرّدت آنا سائلة.

«موافق، شكراً».

جاءت بكرسي وكأسٍ من الداخل، ولـمَّا اتخذنا أماكننا أمام الكؤوس

الممتلئة، تظاهرتُ أني أحدِّق في بستان النخل متأملاً، وغمغمت لنفسي كمن يلوك قولاً مأثوراً قديماً:

«كلما اقترب الجوكر من العدم الأبدي، رأى بأوضح صورة الحيوان الذي يواجهه في المرآة حين هو يصحو على يوم جديد. لا يجد ما يواسيه في النظرة التي لا عزاء لها لرئيسي بائس. يرى سمكة مسحورة، ضفدعاً مستحيلاً من صورة إلى صورة، عظاءة مشوهة. يفكر: هي ذي نهاية العالم. إنما هنا تبلغ رحلة التطور الطويلة نهاية مفاجئة».

كان يمكن سماع صوت إبرة تسقط؛ خيّم الصمت على الشرفة إلى درجة أني أحسست بالرعب. أظن أن آنا وخوسيه تبادلا النظرات، لكن أحداً لم ينبس ببنت شفة إلى أن سألتني آنا عن رأيي بالنبيذ.

كنت قد اعتبرت صدور استجابة منهما، من أي نوع، شيئاً مسلماً به. فما قلته لتوّي لا يقبل إلا تفسيراً واحداً: رد فعل على فورتهما اللفظية الغريبة خلال اليومين السابقين. لكن ما حصل هو أننا بقينا أكثر من ربع ساعة نناقش شؤون فيجي ومواضيع متنوعة ذات اهتمام مشترك.

أذكر أن احتمالاً مخيفاً طرق باب ذهني، احتمال أن كل ما كان يسرده أحدهما للآخر هو نوع من التواصل لايختلف في شيء عن محادثتي مع غوردون. لكن في هذه الحالة تقف المشكلة منكوسة على رأسها، إذ لماذا لم يُدْلِ أحدهما بتعليق على ذِكري للسمكة المسحورة والرئيسي التعس؟ فجأة ولكن تماماً أيضا، تبادلنا الأدوار.

أتراهما شعرا بأنهما ضحايا استراق للسمع وتجسس من قبل طرف لم يقصدا أبداً أن يفهم من كلامهما شيئاً؟ لعل المسارات التي تجري بين عاشقين يسبحان عاريين تحت شلال استوائي ليست مخصصة لأي طرف ثالث، وهي بالتالي لاتفترض أية إجابة ممن سمعها. علاوة على ذلك، ما من مبرر لشعوري بالإهانة من تحويلهما، تحت تأثير إلهامٍ ما، ما ناقشناه سوية إلى شكل أكثر غنائية.

لكن عليّ أن أتأكد من الأمر كله. بعد أن شكرتهما على النبيذ سقطت جوزة هند من إحدى النخلات، وهنا أيضاً تحدثت إلى نفسي، ولكن بصوت عالٍ لكي يسمعاه:

«الجوكر ملاك في مأزق. كان سوء فهم مميت هو الذي قاده إلى اتخاذ جسد من اللحم والدم. أراد فقط أن يشارك الرئيسات قِسْمتها لبضعِ ثوانٍ كونية، لكنه سحب السلم خلفه بعد النزول. إن لم يُرجعه أحد الآن، فستدق ساعته البيولوجية دقاتها أسرع وأسرع، وسيكون قد أزف وقت العودة إلى السموات».

مرة أخرى تركت كلماتي صمتاً مطبقاً خلفها، وشعرت أن جواً من الارتباك قد خيّم على الشرفة. ڤيرا، لم أتلق أدنى رد فعل، حتى لو كان رد فعل غير كلامي. ويجب أن أضيف أن ذلك النوع من التبادل الكلامي انقطع منذ عصر ذاك اليوم. ولامرة واحدة بعدها انعقد ذلك الحديث بين آنا وخوسيه بحضوري. ثمة ما قد مات وشبع موتاً مثل ذلك الملاك الذي أضاع مفتاح الأبدية.

خرجنا معاً وسرنا عبر بستان النخل. اصطحبت آنا كاميرتها وعادت إلى التقاط الصور. كان عليّ أن أصوّرهما هنا أيضاً، صورةٌ مثلاً وهما واقفان تحت شجرة النخل التي تحذر لافتة نصبت قربها من سقوط الجوز على رأسك.

عدا عن الملاك اليائس، كان شيءٌ ما عن الرؤوس والجوز الساقط عليها قد ذكّرني بمدى سهولة تركيب صورٍ عارية مزورة لمن نعرفهم على شبكة الإنترنت. لكن ليس في صورة فوتوغرافية رأيت وجه آنا قبلاً. كنت على يقين مطلق من ذلك، يقين مطلق بالفعل إلى درجة أني سألت نفسي لماذا أنا واثق إلى هذه الدرجة من شيء لا أتذكره.

القمة الاستوائية

لمّا وصلنا إلى المطعم للعشاء وجدنا الطاولات الصغيرة قد جُمعت معاً لتشكل طاولة كبيرة واحدة. في الليلة السابقة، بدأ الضيوف بالاختلاط فور انتهاء الوجبة، وافترضت من جانبي أن مضيفينا رغبوا هذه المرة في تجميعنا منذ بداية العشاء. لم أعرف إلا في وقت لاحق أن جمع الطاولات كان مبادرة المستر سبوك، وقد وافق عليها صاحب المنتجع جوشن كيس لأن منتجع ماراڤو بلانتيشن ريزورت يرغب في أن يكون منارة يلوذ بها الأفراد المتوحدون حسب تعبيره.

وصلت باكراً، لكن في الوقت الملائم لشرب البيرة مع الإنكليزي. تحدثنا عن زواحف أوقيانيا، ولا سيّما الوزغات المنزلية التي يوجد عدد منها في غرفة جون أيضاً. لم أقل شيئاً عن زجاجة الجن، فهذا سرٌّ بيني وبين مالك المنتجع. عوضاً عن ذلك عليَّ أن أعترف لكِ بأني حدثته قليلاً عن أوسلو، بما في ذلك بضع كلمات عنا، أنت وأنا. أخبرته أيضاً أننا فقدنا طفلة في حادث مرور.

كنت صباح ذلك اليوم قد أجريت مكالمة مع مقر المؤتمر في سلمنكا لأثبّت اسمي في لائحة المشاركين. أخبرتُ جون بذلك، ولم أتمكن من كتم ما سبق لي أن سمعته عن احتمال حضورك المؤتمر أيضاً. ما لم أكن أعرفه هو إن كنتِ أنتِ تعرفين بقدومي. أخبرني جون بدوره أنه فقد زوجته قبل بضع سنواتٍ خلت بعد مرضٍ عضال. كان اسمها شيلا، واستنتجتُ من كلامه أنه كان متعلقاً بها تعلقاً عميقاً. توافقنا على أن الحياة ليست سهلة. بعد عدة سنوات من العطالة الأدبية بدأ الإنكليزي تدوين بعض الأفكار لكتابة رواية

جديدة. قادنا ذلك إلى تبادل بضع كلمات حول الفن والثقافة عامة. أسررتُ له أني أحب معلمي الفن الإسبان، ولاسيّما تلك المجموعة الفخمة من أعمالهم المعروضة في متحف ألبرادو. عند قولي ذلك اتسعت عيناه دهشة كأنه أصيب بصدمة.

بدأ النزلاء بالتوافد إلى المطعم بينما كنا، جون وأنا، نتحدث. على العشاء جلست لورا إلى يميني وإيڤلين إلى يساري. أما مارك، وهو محامٍ أنهى تخصصه، فقد جلس على الجانب الآخر لإيڤيلين. وعلى رأس الطاولة، وإلى يسار مارك، جلس بيل. اتخذ جون مجلسه قبالتي، وإلى يساره وأمام لورا جلس ماريو، وإلى الجانب الآخر للإنكليزي جلست آنا ثم خوسيه.

سأكتفي بالنقاط الأساسية لأحاديث تلك الأمسية، وسأمضي فوراً إلى الجوهري منها. قبل وصول الحلويات، نقر جون كأسه وأدلى بعدد من الملاحظات المتنوعة عن المجلس الذي وجدنا أنفسنا فيه، عن الإلهام الفكري الذي تثيره هذه الليالي الاستوائية ـ فالإنسان مخلوق استوائي ـ وبالأخص عن طيب اللقاء بنا جميعاً، سواءً توافدنا من أوروبا البعيدة أم من أمريكا أم أستراليا. كانت مضيفتنا في مارافو، السيدة أنجيلا كيس، قد ذكرت أمامه أن هذه أول مرة منذ شهور يبقى النزلاء أنفسهم ليلتين متعاقبتين، فعادة يأتي أحدهم أو يذهب آخر أثناء النهار. فضلاً عن ذلك كان الإنكليزي مقتنعاً بوجود شيء مشترك بين كل من على المائدة بصرف النظر عن الفوارق العارضة بينهم؛ نعم، ثمّة قاسم مشترك بسيط بين الجميع إن جاز له أن يستعير هذا التعبير الرياضي. باختصار نجح جون في تداول بضع كلمات مع كل منّا، وعرف أننا جميعاً، كلٌ بطريقته الخاصة، نحمل اهتماماً خاصاً بما يسميه معضلة الإنسان الحديث كما كشفت عنها الأمسية السابقة. لكنه يأمل أن تكون أحاديث الليلة أقل تشتتاً من سابقتها بفضل خدمات رئيس الجلسة التي لا يستغني عنها حتى تجمع غير رسمي. ثم أدرج أسماءنا في قائمة واحدة لتشكيل نوع من المقطع العرضي للإنسانية، مقطعٍ تنادى إلى ملتقاه تحت سماء فسيحة زاخرة بالنجوم.

هكذا تداعى لقاء ذلك المساء الذي عمّده جون باسم «القمة الاستوائية» إلى الانعقاد. ثم ألقى رئيس الجلسة الكلمة التالية التي لا بد أنه قلّبها في خاطره وقتاً طويلاً:

«حين نلتقي أناساً آخرين، سواء في مؤتمر مهني أو في إحدى جزر البحر الجنوبي، يقتضي العرف أن يعلن كل منكم اسمه وموطنه، وربما يقدم معلومات أخرى، خاصة إن قُدِّر للتعارف أن يدوم أياماً. ربما تذكرون بعض التفاصيل عن حالتكم المدنية، عن عملكم، عن البلد أو المدينة التي قدمتم منها. وقد تكتشفون أن لكم معارف مشتركين، اهتمامات مشتركة، أو إن شئتم مشاكل مشتركة؛ زوجٌ غيور جداً مثلاً، أو إعاقة جسمانية، أو رهاب نادر أو والد توفي حديثاً. جيدا!»

ألقيت نظرة حولي، كان معظم الضيوف كأنهم علامات استفهام حية. لورا، وكانت تلبس في تلك الأمسية بلوزة سوداء وبنطال جنز مقطوعاً وطويل الأهداب، وضعت يدها على ذراعي وهمست: «إنه مهرج حقيقي».

«جيدا!» كرر الإنكليزي قبل أن يستطرد مجدداً: «إحدى اللازمات المتكررة في تعريف الناس أنفسهم للآخرين هي الرغبة في الظهور بأحسن صورة ممكنة، سواء في قضايا الجنس أو المكانة أو الشؤون المالية أو العلاقات الاجتماعية أو المنجزات الخاصة أو المهارات الشخصية. لا يتمثل الفن هنا في مجرد كشف الجوانب الفُضْلى من الشخص، بل في فعل ذلك بطريقة عارضة، طريقة تلميحية وغير مقصودة قدر الإمكان؛ فالإنسان ليس مجرد حيوان اجتماعي، إنه أولاً كائن مزهو بنفسه، أشد زهواً من كل الفقاريات الأخرى. نقول: انظروا كم أنا رائع وذكي. آمل أن تدركو أني لست من هذا الصنف. لدي ابنان بالغان، كلاهما في الجامعة، وابنة مراهقة تريد أن تصبح ممثلة أو فنانة. آه، فعلاً طيّب. تزوجت ابنتنا مؤخراً من ابن محافظ ليفربول، كان مجنوناً بها كل الجنون. يمكنكم القول أيضاً إني ميسور الحال. آه، نعم، لعائلتنا اسم شركة الفولاذ نفسه، فشبوك اسم جد أبي. حسناً، أنا غصت عميقاً في أعمال دريدا طبعاً، وخلال الأيام القليلة الماضية كان ثمة كتاب لبودريلارد على

وسادتي. ثم هناك الفن: لدينا لوحة صغيرة لـ مونيه في غرفة النوم، وواحدة لـ ميرو في غرفة الجلوس، والوقع أننا علّقنا في الآونة الأخيرة مرآة باروكية فوق الموقد...»

قاطع نفسه بعبارات تعجب: «طيب، لطيف! جيد!».

نظرت حولي ثانية فوجدت عدداً من الجالسين يفعلون الأمر نفسه. ففي تلك اللحظة لم يكن أحد يعرف إلامَ يرمي صاحبنا. على الأقل هذا ما ظننته أنا، لكني سأتساءل فيما بعد عما إذا لم يكن له شريك متواطئ بيننا.

قال بيل: «الجو حار. ما رأيكم أن نطلب زجاجتين من النبيذ الأبيض؟ أم نفتح زجاجتين من الشمبانيا؟»

لكن جون استمر بالكلام: «بصرف النظر عن ذلك، بصرف النظر عن الثياب وحفلات العشاء، مساحيق التجميل والدبابيس المذهبة، الحوالات المصرفية والمرايا الباروكية فوق المواقد، بصرف النظر عن كل هذه التنميقات الاجتماعية، أمامنا سنتان أو عشرة، وفي أحسن الأحوال عدة عقود فقط من الحياة على هذا الكوكب. وبسبب ذلك، نعم، بسبب ذلك ثمة قضايا وجودية تمسنا جميعاً، مع أننا قلما نتحدث عنها. لذلك أقترح أن نحاول في هذه الأمسية تجاهل مصالحنا الاعتباطية واهتماماتنا، والتركيز عوضاً عن ذلك على شيء يؤثر فينا جميعاً».

في هذه اللحظة بالذات، ولأني كنت أستعيد في ذاكرتي أمراً تحدثت فيه مع غوردون الليلة السابقة، أُفلِتت مني العبارة التالية: «الكون مثلاً».

دمدمت العبارة لنفسي، لكن جون تساءل: «ماذا قال ذلك السيد؟»

قلتُ: «الكون مثلاً».

«ممتاز، ممتاز جداً. إذن لدينا الآن اقتراح بتركيز محادثتنا الليلة على الكون. سنضع السياسات الحزبية خلف ظهورنا، وكذلك ليندا تريب ومونيكا لوينسكي، هذا مع أني لم أفهم أبداً كيف أمكن لفضيحة هائلة كهذه أن تنشأ

عن الإمكانيات الإيروسية لسيكار هافاني؛ لكن دعونا من ذلك، كفى ما عرفناه عنه ووفى. نحن، وبكلمة نحن أعني كل وأي واحد منا، لسنا مجرد نتاج للاجتماعية الإنسانية. إننا نعيش أيضاً تحت سماء تكتنفها الأسرار، سماء ملأى بالنجوم والمجرات، حتى إنه من المستحيل على أقمارنا الاصطناعية ذاتها أن تميز سيكاراً كوبياً محظوراً عن سيكار برازيلي بريء».

أحسست بالتحفز والإثارة يسيطران على الجو حول الطاولة. كان خوسيه وآنا قد اندمجا في الجو تماماً، هذا إن لم يكونا من اللجنة المنظمة لهذه الأمسية أصلاً. أظن أن لورا بدأت تنجذب إلى الموضوع رغم أنها وصفت جون بالمهرج قبل دقائق فقط. لكن مارك وماريو كانا يظهران قدرتهما على الصبر والجلد فحسب. إيفلين التي كانت تدرس الصيدلة في سياتل، قالت بصراحة إنها لا تعرف شيئاً عن علم الفلك وأنها قد تفضل الانسحاب. من ناحيته بدا بيل شديد اللامبالاة. فبينما كان جون يتكلم، تسلّى باستدعاء الرجل ذي الزهرة خلف أذنه اليسرى، وطلب منه ما كان اقترحه من مشروب. أما أنا فألقيت نفسي في الخضم جاعلاً من منتجع ماراڤو بلانتيشن ريزورت ملجأً للأسئلة الكبرى، وملاذاً لي، فرداً وحيداً.

شرع جون يرطّب جو الجلسة بالتساؤل عمن يؤمن بوجود حياة على الكواكب الأخرى. ولما لم تقدم إيفلين جواباً، بالسلب أو بالإيجاب، انقسمت مجموعتنا إلى قسمين متساويين، وكان جون جاهزاً لتلخيص الموقف لأول مرة في تلك الأمسية.

«مذهل! أعترف بأني مندهش من حكم هذه الجمعية. لقد طرحت سؤالاً أساسياً عن طبيعة الكون، وأُصَرِّح الآن، وبعد بضع دقائق فقط من المداولات، أني تلقيت أربع إجابات صحيحة على السؤال، وأربع إجابات خاطئة تماماً تماماً».

علق ماريو: «أنت تعرف الإجابات إذن، أليس كذلك؟».

تجاهله رئيس الجلسة وأضاف: «لأنه إما ثمة حياة في الكون أو لا حياة. (ما من احتمال ثالث Tertium non datur!). إن مجرد تصور وجود حياة تدب في مكان ما هناك هو شيء يسبب الدوار بالطبع. غير أن من المحتمل أن تكون الحياة مقصورة على كوكبنا هذا، وإن لم يكن من السهل، إن لم نقل إنه من المزعج، القبول باقتصار الحياة على كوكب الأرض وحده. من الواضح إذن أن أربعة من الموجودين هنا أعطوا الجواب الصحيح والمضبوط على السؤال المطروح. بكلمات أخرى، ليس ضرورياً أن يكون حل الأحاجي الطبيعية حلاً شديد التعقيد».

«لم تقل من منا أعطى الجواب الصحيح»، قال ماريو عابس الوجه.

أكّد جون كلامه: «هذا لايهم إطلاقاً. إنها لمأثرة عظيمة فيما أرى أن يعطي أربعة من الجالسين حول هذه الطاولة الجواب الصحيح حول وجود حياة أخرى في الكون».

هنا سبق لساني عقلي بطريقة مخجلة: «لا بد من وجود حياة في كواكب أخرى. هناك مئة مليار مجرة في الكون، وفي كل مجرة مئة مليار نجم. إنه لتبديد لايصدق للفضاء إن كنا وحدنا في هذا الكون».

«هذا تعليق طريف»، رد خوسيه.

«لماذا؟».

«مساء البارحة كنتَ متشدداً في التأكيد على عدم وجود نيّةٍ كامنة خلف العمليات الطبيعية».

«ولا أزال»، قلت مؤكداً موقفي.

كنّسني جانباً، وأضاف «واليوم هدرٌ لا يصدق للفضاء إن كنا هنا وحدنا..».

أومأت برأسي موافقاً لأني لم أدرك حتى اللحظة تناقض تفكيري. لكن

الفخ أطبق عليَّ، فْيرا، ووجدتُني في قبضته: «لعلك إذن تحدد لنا من هو الذي يبدد، أو لا يبدد، الفضاء؟»

كل ما استطعتُ فعله هو أن ألحس كلامي وأُقِرّ بتناقضي. تذكّرتُ في الوقت ذاته أن أول من استخدم حجة «تبديد الفضاء» برهاناً على امتلاء العالم بالحياة هم أولئك الذين ينكرون وجود معنى كامن وراء العمليات الطبيعية. لكن إن كان خلق الحياة على الأرض مجرد مصادفة مجنونة لا أكثر، فإن ما هو أشد جنوناً اعتبار تلك المصادفة المجنونة مبدأً كونياً.

مضى جون في توضيح عدد من المسائل الكونية عبر طرح أسئلة تقسم المشاركين إلى معسكرين متعارضين. تساءل مثلاً عما إذا كانت الطاقة الكونية قد وُجِدت على الدوام، وإن لم تكن كذلك، هل انبثقت إلى الوجود تلقائياً أو تحت تأثير قوة خلاقة، داخلية أو خارجية. ثم هل سيستمر الكون بالاتساع، أو أن كتلته الهائلة تتجاذب إلى بعضها من جديد وتسبب عدداً غير محدود من الانفجارات الكبرى والأكوان الناشئة عنها. ثم: هل ثمة وعي متعالٍ أو أن الكون الفيزيائي هو كل ما هو موجود؟ ثم أبدى اهتمامه كذلك بسماع أفكارنا حول خلود الروح أو فنائها بعد موت الدماغ. أهناك ظواهر فائقة للحس أم أن كل ما يعتبر ظاهرة فائقة خيال ولاشيء غير الخيال، لا شيء أيضاً إلا البقايا الأثرية المترسبة عند الإنسان الحديث من التصور الأسطوري، بل الأحيائي، للعالم؟ وخلال ذلك كله اعتنى جون بإبراز انقسام الحاضرين إلى معسكرين متناقضين. ولأننا لم نشترك برأيٍ واحدٍ حول أي سؤال، فقد أبدى حرصاً بالغاً على تذكيرنا بأن بعضاً منا قد أعطى الإجابات الصحيحة على الأسئلة المطروحة، فيما أخطأ البعض الآخر.

«إما ـ أوا» نطقها جون سبوك بإنكليزيته الأكسفوردية المرخّمة قبل أن يختم معادلاته الكينونية ذوات المجهولين باقتباس لاتيني: (ما من احتمال ثالث Tertuim non datur!).

بعد قليل وضع الرجل ذو الزهرة خلف أذنه اليسرى زجاجتين من

الشمبانيا على الطاولة تنفيذاً لأمر بيل. ومن هنا أخذ الحديث حول الطاولة طوراً جديداً تماماً. فقد أخذ جون يدور حول الطاولة طالباً من كل منا أن يقدم خلاصة وجيزة عن فلسفته ـ أو فلسفتها ـ في الحياة. انخرطنا جميعاً في اللعبة، حتى إن إيفيلين ذاتها تحمست للأمر.

ابتدأ خوسيه بالكلام، فانتهز الفرصة للدفاع عما يمكن أن أسميه، بكل ثقة، نظرة متمركزة حول الإنسان. يستحيل أن يتخلّق الإنسان في الكون لو كان هذا أصغر بكثير مما هو، أو لو كان مختلفاً عن نظامه الراهن حسب اعتقاد خوسيه. كانت استنتاجاته أغزر بكثير من الحجج التي قدمها لدعمها، لكنه ذكّرنا أن الدماغ الإنساني قد يكون المادة الأشد تعقيداً في الكون كله، وأنه أصعب بكثير على الفهم من النجوم النترونية والثقوب السوداء. الدماغ، إضافة إلى ذلك، مكون من ذرات طُبِخَتْ يوماً ما في نجوم احترقت زمناً طويلاً؛ ولو لم يكن الكون في حجمه الحالي لما استطاع خلق نجوم وكواكب، أو حتى عضوية مجهرية واحدة. حتى الكواكب «غير الذكية» مثل المشتري لها دور حيوي في إتاحة الفرصة لنا للمشاركة في هذه المداولة العقلانية. فلولا ذلك الكوكب العملاق بحقل جاذبيته الهائل، لتعرضت الأرض لقصف مستمر من النيازك والكويكبات، لكن أبانا جوبيتر(*) يقوم بوظيفة مكنسة كهربائية في وجه قوى العماء التي كانت، لولاه، ستمنع تشكل غلاف جوي حول كوكب الأرض، ومن ثمّ ولادة وعي إنساني فيما بعد. شرح دور كوكب المشتري بأسلوب ذكّرني بدور رجل البعوض في خدمة أعيان فيجي السابقين. فإذا كانت الأرض عيناً من الأعيان والنيازك أسراب البعوض، فإن من يقوم بدور رجل البعوض هو المشتري. علينا ألّا ننسى إذن أن المشتري جلب على نفسه قرصات البعوض الأليمة التي كان من شأن واحدة منها، حسب خوسيه، أن تنهي الحياة على الأرض جميعاً.

«أعطني كوكباً حيا!» هتف منهياً خطبته. «أعطني كوكباً حياً، وسيكون

(*) في الميثولوجية الرومانية الكواكب آلهة، وجوبيتر هو كوكب المشتري إلهاً. م.

هذا الكوكب هو الأرض، شريطة عدم وجود قوة قررت ألّا تبدد الفضاء. إنه لأمر مفهوم أن الكتلة الكونية كافية بالضبط لإبداع وعي قادر على طرح نظريات كهذه التي نطرح. ثم إن الزمن لازمٌ أيضاً لخلق شيء شديد التعقيد كالعقل الإنساني؛ ليس هذا أمراً ينجز في سبعة أيام. لم يسمع هدير الانفجار الكبير إلّا بعد خمسة عشر مليار عام من وقوعه».

أمّا بيل فقد ارتأى أنها مسألة وقتٍ قبل أن يكشف العلم كل أسرار المادة والكون.. وألمحَ مارك إلى أن البحث الأساسي سيتلقى أموالاً متزايدة من الشركات متعددة الجنسيات. بينما كان لدى إيڤلين إيمان لا يتزحزح بالمسيح منقذاً للجنس البشري والكون.

ثم جاء دور لورا. لم تُخْفِ لورا أنها تستمد إلهامها من الفلسفة الهندية، وخاصة من **ڤيدانتا** - وهي واحدة من المدارس الست القويمة المعتقد لتلك الفلسفة - وبشكل أدق من **كيڤال - أدڤيتا**. وهذه عبارة أُخِذتْ من الفيلسوف شانكارا الذي عاش في الهند في أوائل القرن التاسع عشر. تعني **كيڤال - أدڤيتا** «اللاثنائية المطلقة» حسب لورا. صرّحت لورا أيضاً أن هناك حقيقة واقعة واحدة، يسميها الهنود **براهمية أو مهاتمية**. وتعني روح العالم أو، حرفياً، «الروح العظمى». تتميز الحقيقة البراهمية بأنها أبدية، غير قابلة للقسمة، وغير مادية. وعليه هناك جواب واحد لكل أسئلة جون، جواب واحد فقط، لأن البراهمية هي جواب كل الأسئلة.

«أوه، إلى الجحيم لورا» قال بيل متنهداً، وهو الذي عبَّر قبل قليل عن تفاؤل ساذج بالعلم. لكن لورا لم تُعِرْهُ اهتماماً. بيّنتْ أن التنوع كله محض وهم، وهم يتظاهر عبر تعدد وجوه العالم في حياتنا اليومية، إنه الوهم الذي سماه الهنود طوال آلاف السنين **مايا**. ليس ذلك التعدد كله إلا أضغاث أحلام. وهو واقعي فقط بالنسبة لأسرى قيوده؛ أما للحكيم، فالمبدأ البراهمي، أو روح العالم، هو وحده الواقعي. أضافت أن الروح الإنسانية مماثلة للبراهما، وأننا حين ندرك ذلك فقط يتلاشى وهم الواقع الخارجي. عندئذ فقط تصبح الروح براهما، أي ما كانته دائماً دون أن تدرك ذلك.

علق جون: «هكذا إذن. العالم الخارجي غير موجود. وكل ما حولنا من تنوع هو مجرد وهم». غير أن لورا لم تنجذب إلى الطعم. أزاحت خُصَلَ شعرها الأسود، وجالت بنظرها حول الطاولة وهي تبتسم بمكر. ثم استفاضت في شرحها: «عندما يرى أحدنا حلماً، يظن نفسه جزءاً من واقع متعدد الوجوه، وأنه موجود ضمن عالم خارجي عنه. لكن كل شيء في عالم الأحلام الوهمي نتاج لروحنا نحن، روحنا نحن ولاشيء غيرها. المشكلة أن واحدنا لايدرك ذلك إلى أن يصحو من نومه. فعندئذ فقط يزول الحلم من الوجود. هنا يتجرد من كل أقنعته الزائفة، ويستعيد حقيقته الدائمة: نحن أنفسنا».

قال مدير جلستنا معترفاً: «لست على اطلاع على هذه النظرية. لكنها مدهشة وجذرية. يكاد يستحيل دحضها..».

ثم صفن لحظة وقال: «هل فعلاً قلتِ مايا؟»

أشارت برأسها بالإيجاب، فحوّل الإنكليزي نظرته نحو آنا التي كانت جالسة إلى يمينه. لفت نظري أنها خفضت نظرها، وفي الوقت ذاته أحاطها خوسيه بذراعه واجتذبها نحوه.

قالت لورا شارحة: «نظن أننا تسعُ أرواحٍ حول الطاولة، ومصدر هذا الظن هو مايا. في الواقع نحن جميعاً مظاهر روح واحدة، الروح ذاتها. إنما وهم المايا هو الذي يجعلنا نظن الآخرين مختلفين عنا. لذلك إذن ما من مبرر للخوف من الموت. لا شيء يموت. الشيء الوحيد الذي يتلاشى حين نموت هو طيف وجودنا المنفصل عن الدنيا وما فيها؛ تماماً كما نتوهّم أن أحلامنا منفصلة عن أرواحنا».

شكر جون لورا على مساهمتها. وأعطى الدور لماريو.

«أنا كاثوليكي»، هذا كل ما قاله ماريو، ونفض يده كأنه يقول: ليس لدي ما أضيفه.

غير أن جون لم يدعه يفلت بهذه السهولة، وبعد لأي استفاض صاحب اليخت المتوحّد: «تستريحون جميعاً في مقاعدكم وتتحدثون بمرح عن كل ما

ترونه، بينما أنتم في الحقيقة عميان لاترون شيئاً. تقولون إنكم ترون النجوم والمجرات، ترون تطور الحياة على الأرض، بل وتزعمون أنكم ترون المادة الوراثية بالذات. ترون النظام يخرج من قلب العماء، بل وتتبجحون حول قدرتكم على رؤية الماضي بدءاً من لحظة الخلق. ثم تختمون كلامكم بإعلان أنكم أثبتّم عدم وجود الله! رائع!».

ولما لم يتابع من تلقاء نفسه حاول جون شحنه مرة أخرى. بعد صفنة قصيرة قال الإيطالي: «لقد جِلْنا في أرجاء الكون كلها، ومع ذلك لم نلمح أدنى أثر إلهي. لم يكن ثمة رب ينتظرنا على قمة إفرست. ولم يكن ثمة مائدة لطعامنا على سطح القمر. حتى إننا لم نستطع الاتصال لاسلكياً بالروح القدس. لكن إذا كنا نلعب لعبة الغُمَّيْضة فلن نجد أمامنا إلا الغُمَّيْضة. ما أقوله هو: من هم أصحاب النظرة الفلسفية الأشد سذاجة إلى العالم؟ الدينيون؟ أم الاختزاليون الذي يردون العالَم إلى المحسوس؟»

تدفّق متكلماً وقد شجعه تصفيق إيفلين، وسرعان ما اندمج في موضوعه؛ أعلن للمستمعين أنه كان مُعلّم فيزياء في سني شبابه، وأنه لايزال يواكب تطور هذا العلم عبر الدوريات والكتب:

«اكتشفنا منذ أمد بعيد طبيعة المحيط الحيوي الأرضي. إنه جزئيات ضخمة فحسب، بروتينات، بل هو أقل من ذلك: مجرد شوربة من الحموض الأمينية. وليس الفضاء بدوره ذلك الشيء المشوّق الذي يُمتع الحديث عنه. لم يكن ثمة إلا انفجار أعظم أطلق كل هذه الجلبة. ما من شيء غامض وملغز في كل ذلك، في ظاهرة الدوبلر، في الإشعاع الكوني الشامل، في الفضاء المنحني، أو في أي شيء في هذا الكون. إنه مجرد موضوع لعلم الفيزياء، أو للفيزياء النظرية. يبقى الوعي وحده، وعندما تُستحْضَر هذا الوعي في المختبر لن تجد فيه شيئاً مختلفاً عن باقي الخلق. فهو بدوره، وكغيره، مجبولٌ من ذرات وجزيئات. الوعي أيضاً. في وسع الفلسفة أن تمتّع نفسها بإجازة طويلة، لأن الألغاز انتهت. أم تُراه العلم هو من يحل، بعد صفنة قصيرة، الألغاز كلها؟ لكن لعلّ

العلم هو الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة. الشيء الوحيد الذي يقلقنا نحن الآن ـ وحين أقول «نحن» يجب أن أشير إلى أننا ننتمي إلى أقلية ضئيلة ـ هو العالم نفسه. لكن بحجة أو حجتين معقدتين ومصطنعتين، تجدنا وقد جفّت أسئلتنا».

صفّقت إيڤيلين ثانية. بينما كان بيل وخوسيه يهزان رأسيهما تأييداً.

بعد ماريو جاء دور جون.

«سبق لي أن انتهزت الفرصة لإظهار إيماني بوجود إجابات بسيطة عن المشاكل الكبيرة العديدة التي نطرح. أما الصعوبة التي تواجهنا فهي صعوبة الاختيار بين تلك الإجابات. حاولتُ أيضاً الإشارة إلى أن المسائل الكونية تلائم المداولات الجماعية أكثر مما تلائم التحليل العلمي. قدم لنا العلم نظرية التطور، نظرية النسبية، فيزياء الكم، وأخيراً وليس آخراً، النظرية الجذابة عن الانفجار العظيم. حسناً، لطيف! هذا كله لطيف! السؤال المطروح الآن هو: هل بدأ العلم الطبيعي يدنو من نهايته؟ ومع أننا نوشك على رسم الجدول الوراثي الإنساني، بما فيه من مئات آلاف المورثات، فمن غير المرجح أننا سنزداد بذلك حكمة ودراية. لاشك أن الجدول بذاته سيعزز من تقدم التقنيات الحيوية، وقد يساعد في علاج عدد من الأمراض، لكن لم يعد وارداً أن يكشف عن طبيعة الوعي ولا عن سر وجوده. يمكننا الاكتفاء بذلك والمضي في حياتنا. إن الإجابة على ما إذا كان ثمة حياة في مجرة تبعد عنا مئات ملايين السنين الضوئية شيءٌ لن نعرفه أبداً، لن نعرفه وكفى، كما هي المسافات الكونية هائلة جداً، هائلة وكفى. ومع أننا مواظبون على توسيع نطاق فهمنا لتطور الكون فلن نصل أبداً إلى تفسير علمي لماهية الكون. لكن اسمحوا لي أن أستعير صورة من لورا شبّهتْ فيها العالَم الخارجي بحلم من الأحلام. تصلح هذه الصورة أن تكون أمثولة رفيعة. فإذا كان العالم حلماً، فإن العلم يسعى إلى تحليل طبيعة هذه المادة. إنه يحاول قياس المسافة بين أحد طرفي الحلم وطرفه الآخر، غير أن الجميع متفقون على انهيار الزمان والمكان حين يبلغ نظرنا التخوم القصوى للكون، أو حين يعود طَرْفُنا في الزمان نحو الانفجار العظيم؛ هذا رغم أننا نتحدث عن وجهي قطعة العملة ذاتها لأننا كلما نظرنا أبعد في الفضاء عدنا

إلى زمن أقدم في التاريخ. وهكذا نحاول، قدر ما نستطيع، العثور على مسلك نسلكه في الحلم. جيد، كل ذلك لطيف جداً جداً. غير أننا لا نستطيع الخروج من الحلم. لانستطيع البتة رؤيته من الخارج. إننا نطرق برؤوسنا حدود الحلم القصوى بذات الطريقة التي يطرق بها شخص متوحد رأسه بالجدار».

سكبتُ مزيداً من الشمبانيا في كأس لورا، وسألتُ المتكلم: «أتستبعد تماماً إمكانيّة فهمنا، يوماً ما، للمزيد عن هذا الكون الذي نعيش فيه؟»

هز رأسه نافياً: «بالعكس تماماً. أؤمن أقوى الإيمان بالحدس البشري. لكن إن شئنا حل لغز الكون، ربما علينا أن نعالج هذا اللغز فكرياً. وإذا أخذنا بالحسبان الحجم الهائل لمعرفتنا المكتسبة، فإنه من المحتمل أن يكون قد تم حل اللغز سلفاً. لن أفاجأ إطلاقاً إن تبين أن حل الأحجية الكونية موجود أصلاً في كتاب يوناني أو لاتيني أو هندي. وما من ضرورة لأن يكون الجواب مفرط التعقيد. قد لا يستلزم التعبير عنه أكثر من عشر كلمات أو عشرين. وبالطريقة ذاتها أنا واثق من أن نظرية المايا التي عرضتها لورا يمكن تلخيصها في جملة أو جملتين. لدينا في هذه الأمسية إجابات صريحة عن سلسلة كاملة من المسائل التي لا تحتمل إلا واحداً من حلين. أنا على يقين من عدم وجود أداة علمية تستطيع تحديد أي الإجابات التي قدمنا هي الصحيحة وأيها الخاطئة بِقضِّها وقضيضها. لكن ما هو رأيكِ يا آنا؟».

جاء دورها الآن. حدّقت لحظات طوالاً في الليل الاستوائي، ثم اعتدلت في جلستها وقالت بعزم: «ثمة واقع يتجاوز هذا الواقع. لن أموت حين أموت. ستظنون جميعاً أني ميتة، غير أني لن أكون كذلك. سرعان ما سنلتقي ثانية في مكان آخر».

دشّنت هذه الكمات بداية نهاية السهرة. هنا تحول جوُّ الحديث تحولاً عميقاً. ساد شعور مُنْذرٌ حول الطاولة، وأظن أني لم أكن الوحيد الذي رأى دمعة تنحدر من عين خوسيه. أما آنا فاستطردت: «ستظنون أنكم في مأتم، لكن في الحقيقة ستكونون شهوداً على ولادة جديدة...»

ثم نظرت مباشرة إليّ، وقالت بإصرار: «ثمّة ما يتعدى هذا الواقع. ما نحن إلّا أرواح عابرة بين عالَم وعالَم».

همس خوسيه بالإسبانية: «كفى. يجب ألّا تضيفي شيئاً».

كانت أعين الجميع مُسمّرة على آنا وهي تتكلم. هنا، ڤيرا، حدث الشيء الذي دفعني إلى الاستفاضة في تغطية تلك القمة الاستوائية في منتجع مارافو بلانتيشن ريزورت.

«ما نحن إلّا أرواح عابرة بين عالَم وعالَم»، كرر مُقرّرنا، وأرفق كلامه بوضع أحد أصابعه على جبين آنا، وأضاف: «وأما هذه الروح فاسمها مايا!»

هز خوسيه رأسه بقلق، ووضع ذراعاً حول آنا كأنه يحميها. من الواضح أن تعليق جون الأخير أزعجه. أم تُراه، بكل بساطة، لم يُحِبِّذ الطريقة التي لمس بها الإنكليزي آنا بإصبعه؟ لم أستطع سبر قرار رد فعله.

قال: «أظن أن هذا يكفي».

عض جون شفته كأنه أدرك فجأة أنه تصرف بطيش. ومع ذلك، ألقى نظرة سريعة نحو آنا، وقال كأنه يكلم نفسه: «وفي الأمر قطعة فنية رائعة أيضاً».

على ذلك رد خوسيه بجذب آنا من كرسيها نحوه، ثمّ قال: «شكراً! هذا يكفي ويزيد!»

وأردف بالإسبانية لآنا: «هيا بنا!»

وسرعان ما اختفيا في بستان النخل. كانت هذه آخر مرة نرى فيها الإسبانيين تلك الليلة؛ على كل حال كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل.

أظن أن دقيقة طويلة انقضت قبل أن ينبس أحدٌ بكلمة. لبثنا حيث نحن نُقلّب في رؤوسنا ما دار بين جون وخوسيه. كان بيل أول من كسر الصمت. قال شافعاً كلامه بابتسامة عريضة: «أتعرفون ما أفكر به؟ أفكر في أنه ثمة ستة مليارات ثرثار على هذا الكوكب، وأننا نعيش هنا ثمانين أو تسعين عاماً في أحسن الأحوال، وهناك الكثير الكثير من الأشياء الظريفة التي يمكن أن تقال، والكثير الكثير من الزبل أيضاً».

نهضت لورا بهدوءٍ من مقعدها وابتعدت عن المجموعة. كان ثمة إبريق من الماء المثلج على طاولة جانبية. أمسكت بالإبريق وتقدمت من خلف الأمريكي، ثم أفرغت كل محتواه، بما فيه من ماء ومكعبات ثلجية، على رأسه.

جمد في مكانه ثانيتين على الأقل لم تتحرك فيهما عضلة من عضلاته. لكنه لم يلبث أن قفز عن كرسيه وأمسك بها من ذراعها الأيسر ثم جذبها نحوه وضربها.

حتى تلك اللحظة كنت متعاطفاً معه. لم تكن اللطمة قوية، مُجرد صفعة براحة يده، ومع ذلك أثار تصرفه استياء الحاضرين. ولم تُخَفِّف زجاجتا الشمبانيا من صنف ڤيوڤ كليكو من هذا الشعور. أما لورا فاكتفت بالعودة إلى مكانها بهدوء وجلست قربي دون أن تنبس ببنت شفةٍ.

أخذ جون الكلام يشكرنا على أمسية لطيفة أخرى، ثم أضاف: «ليس من الضروري أن نطرق مواضيع كبرى غداً».

غادر بيل الطاولة، وكذا فعل مارك وإيڤلين. أظن الأمريكيين غادرا هرباً من احتمال تبادل اللكمات المتوقع حدوثه. وكان ماريو قد استأذن حتى قبل أن تفرغ لورا إبريق الماء والثلج على رأس بيل.

وضعت يدي على خد لورا الأيسر: «أكانت الضربة مؤلمة!»

هزت رأسها نافية.

قلت: «لم يكن ما جرى لطيفاً».

قالت: «فرانك، عليك أن تتعلم إطلاق العنان لنفسك».

«ماذا؟»

«إن ما تخسره شيء لا يقارن بما تكسبه».

على ضوء الشمعة الموضوعة على الطاولة نظرتُ في عينٍ بنية. في ثنايا الصباغ الغامق للقزحية كان ثمة خيط أخضر يكافح لإثبات وجوده وسط هيمنة البني.

«وما الذي أكسبه؟»

«ستكسب العالم كله».

«العالم كله»، كررتُ خلفها.

أشارت أن نعم: «قد يبدو ما تخسره كبيراً وهاماً. غير أنه لا يغْدو وهماً مفروضاً عليك».

«النفس تقصدين؟ أهذا هو الوهم؟».

«النفس الصغيرة فحسب، النفس الوهمية. لا خسارة في خسران هذه النفس على أية حال. ستبقى لك النفس الكبرى».

سمعتُ وقْع خطىً تقترب منا في العتمة، وبعد لحظة أُفْرِغ إبريق من الماء فوق رأسينا. لأظنها مصادفة أن معظم الماء أُفرغ عليَّ أنا مع أننا كنا لصق بعضنا حين وقعت الواقعة. وقبل أن تسنح الفرصة لالتقاط أنفاسنا كان من فعل ذلك، كائناً من يكون، قد اختفى.

«الأبله!» قالت لورا بصوت يرشح بالازدراء.

وقفت على قدميّ أنفض الماء عن رأسي. كان قميصي منتقعاً بالماء، وكذا كانت بلوزة لورا. أحسست بشيءٍ من الاضطراب حين رأيت التصاق البلوزة بجسدها.

قلت: «حسناً، ربما علينا أن نأوي إلى السرير».

رفعت نحوي عينها الخضراء: «أأنت واثق من ذلك؟»

«كل الثقة».

لم أدرك إلّا بعد أن انفصل دربانا أن سؤالها كان دعوة للذهاب معها.

كنت شبه متشوق تلك الليلة إلى الالتقاء بغوردون. فهو فتى طيب القلب حقاً، ولعله مصيب في كلامه عن لا جدوى احتسائي ذلك المقدار من الجن من أجل النوم كل ليلة.

اتخذ موقعه هذه المرة على المرآة الكبيرة يمين طاولة السرير. سمعت ما إن أغلقت الباب خلفي حفيف حركته من أحد طرفي المرآة إلى طرفها الآخر. بالطبع لم أكن واثقاً من أن هذا هو غوردون، فهناك العديد من الوزغات في غرفتي. ولم يكن لدي ما يكفي من الحماسة للبدءِ من الصفر وتقديم نفسي إلى أبو بريص جديد. لكنني ما إن أشعلت الضوء حتى رأيته: غوردون بعينه. لطالما كنتُ موهوباً في تحديد الخصائص الفردية للفقاريات. وبالطبع لا تقلّ الوزغات فردية عن بني البشر: تتمتع بذات الدرجة من الفردية التي نتحلى بها نحن. هذا على الأقل ما أشعر به حيال ممثلي الحيوانات غير الأليفة في هذه الجزيرة. علاوة على ذلك، كان غوردون أبو بريصاً فيليّ الحجم، ولابد أنه الأضخم في صنفه من الكائنات.

أعلنت على الفور: «حسناً، سآوي إلى فراشي فوراً. أقول ذلك فقط كيلا تأخذ على خاطرك إن لم أتبسّط معك في الكلام في هذا الهزيع المتأخر من الليل».

فتحت حقيبتي، ثم غطاء زجاجة الجن، وغببت منها غبة كبيرة تكفي لتنويمي.

قال غوردون: «بصراحة يصعب عليّ تصديق ذلك».

«هَهْ؟»

«أعني تصديق أنك ستأوي إلى السرير. أراهن أنك ستشرب مرة أخرى من تلك الزجاجة».

«لا نية لدي إطلاقاً لفعل ذلك».

«أكانت أمسيتك جميلة؟».

«لا أرغب في الحديث عنها. إن بدأتُ الكلام الآن فلن ينطفئ النور في هذه الغرفة وستكون الليلة كالبارحة. لعلك تعرف ما أرمي إليه».

«كل ما في الأمر أني سألتك عن أمسيتك».

«لورا من المؤمنين بوحدة الوجود. إنها أحديّة متطرفة. أكاد أعتبرها أحدية مبتذلة».

«هذا يعني أنها سيدة لامعة، لا تتهاوى ناعسة مثل بعض من لن أسميهم. وأنا متأكد أنها لا تنظف أسنانها بالجن قبل النوم».

«ثم إنها تحدثت عن **مايا**. سمعت بهذه الكلمة قبلاً، لذا لا أريد سماع المزيد عن هذا الأمر».

قال غوردون: «**مايا** هي وهم العالم. إنها أصل الوهم الماكر، وهم أنك مجرد أناً بائسة انفصلت عن الروح العظمى، وليس أمامها من فسحة للعيش سوى أشهر أو سنين معدودات. إنها أيضاً اسم شعب في أمريكا الوسطى، غير أن هذا أمر مختلف تماماً...»

«قلتُ إني في غير ما حاجة إلى مزيدٍ من الشروح. لكن خوسيه تصرف على نحو غريب حين وضع الإنكليزي إصبعه على جبين آنا، وكأنه كشف عن ذاتها الحقيقية. قال: «اسم هذه الروح مايا»، ثم غمغم شيئاً ما عن إحدى «روائع الفن». كان ما قاله غريباً، غريباً جداً. لكنها ردت بطريقة غريبة أيضاً. بدت كأنها لا تطيق أن تواجه ما قاله مواجهة مباشرة».

«ثمة أناس واقعون في قبضة المايا المحكمة، وقد يكون من الصعب إيقاظهم. الأمر أشبه بالاستيقاظ من كابوس مزعج».

«هراء. أنت تهرف بما لا تعرف، لأنك لم تكن موجوداً بيننا».

«فرانكي، أنا في كل مكان. ما من موجود إلّاي».

«ألن تكف عن هذا الهذر من فضلك؟».

«إنما أُفْصِحُ عن أبسط وأوضح مقولات الوجود ليس إلا».

«وما هذه؟»

«ليس هناك إلا عالم واحد».

«طيب، فهمت. هناك عالَم واحد فحسب».

«وذاك العالم هو أنت».

«أوف، هلّا صمتّ».

«عليك أن تحطم أغلال الذات ياسيد، ما عليك إلّا أن ترفع ناظريك عن سُرّتك نحو الخارج، نحو أفاعيل الطبيعة حولك، نحو شلال الوقائع السحري الذي لا انقطاع فيه».

«إني أحاول».

«وماذا ترى؟»

«أرى بستان نخل في نصف الكرة الجنوبي».

«هو أنت».

«والآن أرى آنا تخرج عارية من بين الزبد تحت شلالات بوما».

«هذا المشهد هو أنت».

«أعرف رأسها ولا أعرف جسدها».

«ركّز ذهنك الآن».

«أرى كوكباً حياً».

«هو أنت».

«وأرى كوناً رهيباً يعج بمليارات المجرات وعناقيد المجرات».

«كلّه أنت».

«لكني عندما أجول بناظري في أقاصي الكون، يرتد طرفي إلى التاريخ أيضاً. أنا بالفعل أدرس حوادث عمرها بضعة مليارات من السنين. العديد من النجوم التي أراها في هذه اللحظة تحولت منذ زمن بعيد إلى عمالقة حُمْر أو إلى نجوم منفجرة هائلة الحجم. وبعضها صار أقزاماً بيضاً أو نجوماً نترونية مهتاجة وثقوباً سوداء».

«إنما تنظر في ماضيك أنت. هذا ما يسمى الذاكرة. تحاول أن تتذكر شيئاً نسيته، بيد أنه أنت. كل ذلك هو أنت».

«أرى نظاماً عمائياً من الأقمار والكواكب، من الكويكبات والنيازك».

«كلها أنت. فهناك واقع واحِدٌ فقط».

«نعم، سبق أن وافقتُك على ذلك».

«ثمة عالم مادي واحد، ومادة واحدة فقط».

«وكل ذلك هو أنا؟»

«هو أنت».

«لستُ شيئاً عديم القيمة إذن، أليس كذلك؟»

«هذا فقط إن أدركتَ قيمتك. فقط إن تخلّيتَ عن نفسك».

«نعم تماماً. ولكن لِمَ ذلك عسيرٌ كل العسر».

«لأنك لا تريد التخلي عن نفسك الصغيرة. الأمر بهذه البساطة».

«يمكن حتى للحلول الصغيرة أن تكون صعبة عند التطبيق. من السهل جداً مثلاً أن يتخلص المرء من حياته».

«لستَ بدائياً إلى هذه الدرجة».

«بدائي؟»

«ثم إن التخلّص من الحياة يفترض أن لديك ذاتاً تخسرها».

«صحيح تماماً، والمفارقة أني قد أنتحر لمجرد الخوف من بطء الموت. أحياناً يأكل الطفل الشوكولاته لا لسبب إلا لأنه يخشى أن يأكلها أحد غيره. بيد أني تجاوزت هذه المرحلة. تستطيع أنت بكل بساطة أن تسلخ عنك ذيلك إن تَعرّض لهجوم. أما أنا فلا أستطيع استئصال اثنين أو ثلاثة من تلافيف مخي. ليس في وسعي الذهاب إلى أحد المشافي لاستئصال فص مخي والتحرر من القلق الوجودي».

«ليس هذا حلاً للمشكلة على أية حال. فهو سيكلفك الكثير ولن تتاح لك الفرصة لاستعادة وعيك مجدداً. أعتقد أنك بحاجة إلى قشرتك المخية كلها من أجل هذه العملية».

«أليس طريفاً أن يصدر كل هذا منك؟».

«بمعنى ما عليك أن تموت. عليك أن ترتكب هذه المأثرة الجسور».

«أظن أنك قلت لتوك أن هذا ليس حلاً؟»

«لكن عليك أن تموت بمعنىً مجازي فقط. لست أنت من يجب أن يموت. إنه ذلك التصور المنتفخ عن الـ«أنا» هو الذي يجب أن يفنى».

«إن استخدامك للضمائر يزيدني تشوشاً».

«هذا وارد جداً. لعلنا نحتاج إلى ضمير جديد».

«ألديك اقتراح محدد؟».

«لابد أنك سمعت بضمير يسمى «الجمع الجليل»».

«بالطبع، إنه الضمير الذي يستخدمه أحد الملوك أو الأباطرة حين يشير إلى شخصه النبيل بكلمة (نحن). يسمى هذا الضمير نحن المَلَكية».

«أظننا أيضاً بحاجة إلى أنا ملكية».

«وما الجدوى من ذلك؟»

«بقولك «أنا»، إنما تتشبث بتصور للذات، تصّور زائف حتماً».

«ها قد بدأت تلف وتدور».

«لكن حاول التفكير بالكوكب باعتباره كلاً واحداً، بل بالكون كله، الكون الذي يشكل هذا الكوكب جزءاً عضوياً منه».

«إني أحاول».

«فكِّرْ في كل ما هو موجود».

«أُفكِّر في كل ما هو موجود».

«وبالمجرات جميعاً، وبكل ما تفجر منذ خمسة عشر مليار عام».

«بكل شيء، نعم»

«قل الآن «أنا»».

««أنا»».

«أهذا عسير؟»

«بعض الشيء. غير أنه مُسَلٍّ أيضاً».

«فكر بكل ما هو على قيد الوجود، ثم قل لنفسك بصوت مسموع: «هذا أنا»».

««هذا أنا»..».

«ألا تشعر بالانعتاق؟».

«قليلاً».

«الفضل في ذلك لاستخدامك الضمير الجديد «المفرد الجليل»».

«حقاً؟»

«أظنك نجحت في الامتحان يا فرانك».

«كيف ذلك؟ أنا ممتنٌّ للدرس فحسب».

«أعتقد أن في وسعك أن تكون مثلي، شخصاً انعتق من كل العُصابات الوجودية».

«لا، هذا غير وارد. لقد جانبك الصواب هنا».

فتحت حقيبة السفر ثانية وتناولت منها غبّة سخيّة. كنت أعرف أنه سيعلق تعليقاً واخزاً. وبالفعل، قال بعد لحظة: «يجب أن تعترف بأنك لا تعرف نفسك جيداً».

«هذا يتعلق بنوع الضمير الذي استخدمته في تعليقك».

«منذ هنيهاتٍ فقط أعلنتَ أنك ستأوي إلى سريرك، وأنك لن تتناول مزيداً من المشروب».

«ثم انطلقتَ أنت متكلماً، وكدت تخدعني أيضاً. كدت تجعلني أتمنى لو كنت أبو بريص».

«أأنت قادر على سماع ما تقول؟»

«قلتُ إنك من بدأ بالكلام».

«أعني هل أنت قادر على سماع الضمير الذي تستخدم. من الذي بدأ الكلام؟». كانت هذه مناورة ماكرة. أخذني على حين غرة مجدداً. وفي الحقيقة أنا من أبقى الحديث جارياً.

«وهكذا فأنت تعرف القليل جداً عن نفسك. ثم إنك تعاني من مشكلات حقيقية في تقرير ما تريده».

قلت معترفاً: «أقرّ بضعف ضئيل لدي».

تصورتُ أني لا أجازف بشيء عبر هذا الإقرار. فعلى كل حال، ليس المرء مضطراً لإخفاء الكثير عن أبو بريص.

«غير أن هناك شيئاً آخر».

«قل ما هو!»

«أنت تكلم نفسك».

«أعليكَ أن تُذكّرني بذلك؟»

«فرانك، إنك تعض ذيلك أنت. أنصحك باستئصال فوري لذيلك».

«طيب، هلّا خرستَ!»

«أنت تتحدث إلى نفسك الآن».

«ماذا؟»

«وكذا تفعل روح العالم»

«ماذا؟»

«تتحدث روح العالم إلى نفسها. والسبب هو أن هناك روحاً واحدة للعالم».

«وما اسم روح العالم هذه؟»

«نفسك».

لبثت وقتاً أُقلّب ما قاله في ذهني.

قلت: «أظن أني سأدرس قواعد اللغة في حياتي القادمة. ما رأيك بهذا العنوان لأطروحة دكتوراه: (الهوية والمكانة الوجودية: تحليل أولي للضمير الجديد كل الجدة، المفرد الجليل)».

«رائع في رأيي. فعندئذ فقط ستكون اللسانيات قد بلغت مرحلتها الوضعية. أما الضمائر الأخرى جميعاً فهي محض مايا».

«وآنا أيضاً مايا».

«نعم، هي أيضاً».

«لأنها تتحدث إلى نفسها».

«ومَنْ مثلاً كان يتحدث في القرن الرابع قبل الميلاد؟».

«في البداية كان سقراط وتلامذته، ثم جاء أفلاطون وطلابه، ثم أرسطو وثيوفراستوس، ولا شك أن الأخيرَيْن قد تداولا في شأن الوزغات «نصفية الأصابع» في جزيرة ليسبوس اليونانية...»

«أتصدق ذلك؟»

«لا أظنك ستصر على أن التاريخ بدوره مجرد وهم؟»

«التاريخ هو روح العالم تتحدث إلى نفسها. كان هذا شأنها في الأزمنة القديمة أيضاً، وإن كانت وقتها مرتبكة لأنها عندئذ فقط بدأت تصحو».

«كانوا يسيرون في السوق في أثينا. كان سقراط رجلاً من لحم ودم، رجلاً حُكِمَ عليه بالموت لمجرد أنه بحث عن الحقيقة. وقف أصدقاؤه حوله وهم يبكون. تخيل نفسك في هذا الموقف».

«لم أقل أبداً إن روح العالم كانت في سلم وسكينة مع نفسها. ولم أقل كذلك إنها كانت سعيدة على الدوام».

«أيُّ هراء!».

«والآن عد إلى ماضٍ أقدم. من كان يجتمع في السوق قبل مئة مليون عام؟»

«أنت تعرف ذلك حق المعرفة، إنها الديناصورات».

«أتستطيع إعطائي بعض أسمائها؟»

«بالطبع، أستطيع إعطاءك الكثير من الأسماء».

«فلنسمع بعضاً منها!»

«تعني أسماء الأنواع أم الأجناس أم العوائل؟»

«لا، هل أنت أحمق؟ أعني أسماء الأفراد»

«لاأعرف. كان ذلك عصر ما قبل التاريخ».

«على كل حال هذا لايهم. فقد كانت الديناصورات مجرد طور من أطوار ارتقاء روح العالم. وقع هذا الطور قبل أن يستكمل مفهوم المايا فاعليته، قبل وجود هذه التلافيف النافلة، وهو بذلك سابق لتوهم العقل الإنساني عن وجود أنت وأنا. كانت روح العالم في تلك الأيام كلّاً غير منقسم، وكان كل شيء براهمياً».

«كانت الديناصورات براهمية. ألم تُعْمِ المايا بصرها».

«بلى، هذا ما قصدْته».

«واليوم صارت الديناصورات مادة لشركتي شل وتكساكو. دارت رباعيات الأطراف عديمة الأسماء تلك دورة كاملة، فهي الآن الدم الأسود لروح العالم. هل سبق لك أن فكّرت في ذلك؟ هل أخذت في اعتبارك أن دم الحقبة الكريتاسية يملأ خزانات السيارات التي نتجول فيها هنا وهناك؟»

«فرانك، أنت مصاب بنزعة اختزالية لاشفاء منها. ومع ذلك فأنت محق في هذه النقطة».

«هيا لنكمل! أريد أن أستنفد هذا الموضوع تماماً».

«لو كنتَ في هذا الكوكب قبل مئة مليون عام لوقعتَ ـ بسبب تلافيفك المخية الفائضة ـ أسير الوهم الزائف، وهم أن الزواحف تشكل باقةً من الأفراد المستقلين. ولكنت اعتبرت الأضخم منها ذواتاً بهيمية هائلة الحجم».

«هذا صحيح. أنا أُولي الفرد اهتمامي الأكبر. أما الحديث عن البهائم فهو عبارتك أنت».

«والآن ارتدَّت تلك البهائم إلى بحيرات بترولية هائلة. الآن هي شل وتكساكو. سبعون بنساً لكل لتر يا سيدي!»

«هذا ما كنت أقوله».

«وذات المصير ينتظرك أنت. سبعون بنساً لكل لتر!»

«أعرف. هذا إن لم أستيقظ من الوهم وأرى الأشياء بصورة مختلفة».

«نعم، إن لم تفعل ذلك».

«وها هو ذا الوقت يأزف. ليس هذا مكاني المناسب. إنما أنا ملاك مفرط التجسّد وقعَ في مأزق».

مرة أخرى امتدت يدي إلى حقيبة السفر السوداء.

قلتُ: «لكن ما يبعث الأمل هو أن ثمة يوماً جديداً غداً».

وضعتُ الزجاجة على فمي وتجرعتُ منها مقداراً وفيراً. هذه المرة كنت سخي النفس متجرداً من روح النقمة. ولم يعد لدي أي خيار غير الشرب حيال البانوراما التي دشنها غوردون. وعلى أية حال، ما قيمة صداع ضئيل صباح اليوم التالي بالمقارنة مع المنظورات الممتدة عبر ملايين ومليارات السنين؟ كان النوم هو المخرج الوحيد من المسارات المعقدة لتلك الليلة. وبعد ذلك سيبزغ يوم جديد، يوم واعد أو غير واعد بالصداع.

كنت مستعداً للتقريع المناسب من غوردون، غير أنه اكتفى بالقول: «أشعر بالخذلان يا فرانك، أعني أنك تشعر بالخذلان. أنت مفجوع بنفسك».

«إذن ما علينا إلا أن نشعر بالخذلان معاً، ثم نتقاسم المسؤولية».

«قلتَ إنك ستأوي فوراً إلى فراشك. ثم قلتَ إنك لن تلمس الزجاجة ثانية».

«نعم، هذا صحيح تماماً، لكنكَ قلتَ إنك لا تثق كثيراً بكلامي».

«ومع ذلك أشعر بالخذلان».

«طيب، من السهل عليك أن تقول ذلك. كم من السهل أن تكون زاهداً حين لا تغويك الملذات، بل ولا سبيل لك إلى تلك الملذات أصلاً. لست أنت من كانت هدية تعميده إلى الوجود هي الانفجار الكبير. لست أنت من كُتِبَ عليه أن يقيس سنوات الكون الضوئية بواسطة درنة مفرطة النمو من الخلايا العصبية مزروعة في رأسه. لست أنت من يشعر بالمسافات الكونية تضغط على مخه، كأنه جَمَلٌ يندسُّ في خرم إبرة».

خلعتُ قميصي واستلقيتُ على السرير. ثم قلت: «أوَتظن أني سأنال نِعَم السموات إن بعثُ المجرات وتقاسمت عائداتها مع الفقراء؟».

قال: «لست أدري. لكن لعله ليس من السهل على رئيسيٍّ ما بعد حداثي أن يودِّع العالم أكثر مما كان يوماً في وسع حاخام يهودي أن ينقذه».

«إذن لا بأس. جعجعة، جعجعة، جعجعة... أما الآن فالنوم».

«لكنك لا تغرق كلّك في النوم أبداً».

«أظنني سأنام بعمق. أسعى إلى النوم عادةً بعد أربع كؤوس مضاعفة. أما هذه الليلة فقد شربت ثماني كؤوس. هذا يكفل لي نوماً عميقاً».

«أعني أني سأكون صاحياً حتى وأنت نائم».

«البيت بيتك».

«وبهذا لن تنام كلّك».

«إذاً!»

«لأنه ليس هناك «أنا» و«أنت». ثمة واحد منا فقط».

«أيقظني وقت الفطور إذن».

«أنت تأمر ياسيدي. لكن في الواقع ستستيقظ معتمداً على نفسك».

ناطقاً هذه الكمات، اندفع عبر المرآة ثم صعد الجدار واستقر على السقف فوق موقع وسادتي.

سألته: «ما المشكلة الآن؟».

«ألا ينبغي عليَّ أن أوقظك وقت الفطور؟»

تقلَّبتُ في السرير وفكّرتُ كم كان يومي طويلاً. غير أني لم أستسغ احتمال أن تخرأ روح العالم عليَّ من مكانها فوق.

اليمامة البرتقالية

أعترف أني لا أزال أواجه صعوبة في استحضار ما جرى من مجادلات بيني وبين غوردون أبو بريص، مع أن صلتي به لم تنقطع انقطاعاً تاماً. فحتى هنا في مدريد يمازجني شعور بالبهجة حين أتبادل أحاديث مديدة في آخر الليل معه. هكذا تسير الأمور عادة مع أولئك المعارف الذين يستفزّون في داخلك شيئاً. إنهم يعودون رغم انقضاء سنوات عديدة على انقطاع التواصل المباشر معهم.

سهرتُ طوال الليل أكتب، وبعد ساعتين من النوم انطلقت في جولة قصيرة بجانب الريتز، ثم مضيت إلى متنزّه رتيروبارك قبل أن أعود لتناول الفطور في الروتندا. لم يكن عليّ إلّا أن أقف عند باب المطبخ، وخلال دقائق أخذتُ بيضتين مقليتين من كِلا جانبيهما وشريحتين من اللحم ومغرفتين من الفول المدمس.

قضيتُ بعضاً من يومي الأخير في تافوني في لقاء ودي مع كهول قرية سوموزومو. أفادني اللقاء في دراساتي التي لم أهجرها هناك هجراناً تاماً. كنت بحاجة إلى معرفة أحدث المعلومات عما اتُّخِذ من إجراءات في بضع السنوات الماضية في مجال حماية المَوَاطن البيئية في الجزيرة والحفاظ على أنواعٍ نباتيةٍ وحيوانيةٍ عديدةٍ. علمتُ في ذلك اللقاء أن أول حاكم بريطاني لفيجي كان الـ سير أرثر غوردون الشهير، الذي دامت إدارته بين عامي 1875 و 1880. لعل اسمه ذُكِر أمامي قبلاً؛ أما وقد أصبحت «جزيرة غاردن = جزيرة الجنة» بالنسبة لي «جزيرة غوردون» فإن التذكير باسمه لم يكن برداً وسلاماً على قلبي. وكما تعلمين فإن شغفي بمشروب الجن المزّ من ماركة غوردون اللندنية سابقٌ كثيراً

على زيارتي للجزيرة. نعم، ڤيرا، أنا واعٍ تماماً لما أقول، وأعرف أيضاً أنك لن تصدقيني إن قلت إني لا أكاد ألمس الجنّ ما لم أكن على سفر. أضطر للشرب لأني لست ممن يطيقون الوحدة. كوني على ثقة أنك قد فوضتِ غوردون بعضاً من أدوارك. خُيّل إليّ مراراً أني كنت أسمع صوتكِ أنت بلسانه هو.

كنت أترنح ثملاً قليلاً حين غُصتُ في مخزن القرية لشراء الڤيتامينات. غير أني كدت أهوي على الأرض حين ارتطمت بآنا وخوسيه في المتجر القروي الصغير الذي كان مكتظاً إلى درجة الانفجار بأهالي الجزيرة. شققنا طريقنا إلى الخارج معاً، وبما أنه من غير المحتمل أن نلتقي وحدنا بعد هذه المرة، فقد استجمعتُ شجاعتي من أجل مواجهة نهائية معهما. كانا هما الاثنان في مزاج هابط، ومن الواضح أن هذا المزاج نتيجة للسلوك المحيِّر الذي سلكه الإنكليزي في الأمسية الماضية؛ لكن لم يكن أمامي خيارات كثيرة. كنت قد قررت السفر في الصباح التالي، ومن المسلَّم به أني لن ألتقي آنا وخوسيه ثانية.

خارج الدكان أشعل خوسيه سيكارة، وانتزعت آنا سدادة علبة مياه معدنية. اعتبرتُ ذلك دعوة إلى دردشة قصيرة قبل أن تفترقَ سُبُلنا، فطرقتُ الموضوع مباشرة. نظرتُ في عيني آنا السوداوين وقلتُ بطريقة عارضة: «قد يبدو الأمر غريباً، لكنني أشعر أنه سبق لنا أن التقينا».

كان أول ارتكاس صدر من خوسيه هو أن جذبها نحوه. ذكّرني تصرفه بما شهدتُه على طاولة العشاء في الأمسية السابقة، نظرتْ إليه كأنها تلتمس الإذن منه بتولي الإجابة بنفسها.

قالت: «لكنك لاتذكر أين التقينا؟».

«سبق لي أن عشتُ في إسبانيا في فتراتٍ متقطّعة».

«في إسبانيا اثنتان وخمسون مقاطعة».

«بعدد الدوائر الانتخابية في البرلمان الفيجي».

قالت مُستفزّةً: «أظن أنك يمّمت نحو جزر الكناري»،.

هززتُ رأسي نافياً: «عشت معظم الفترة في مدريد. أيحتمل أني رأيتك هناك؟»

واضح أن خوسيه رأى أن هذه المحادثة اتخذت شكل استجواب. قال: «ثمة عدد كبير من النساء من ذوات الشعر الأسود في إسبانيا. هذه مجرد واقعة عادية يافرانك. تجدهنَّ حتى في مدريد».

لم أدع نظرة آنا تفلت مني. أكان فيها ما يشير إلى رد على تساؤلي؟ أيشير توسع بسيط في الحدقة إلى أنّ ذاكرتي لم تخُنّي رغم كل شيء؟

سألتها: «أيحصل كثيراً أن يتعرف عليك الناس؟».

نظرتُ إلى خوسيه ثانية. بدا كأنها تتوسل إليه أن يسمح لي بمشاركتها في معرفة سر ما، وكأنه هو رفض رجاءها من دون أن يحرك عضلة من عضلاته. ابتسمت لي ابتسامة ودودة وهي تجيب: «لعلك إذن رأيتني في مدريد. أنا آسفة لعدم تذكري إياك».

اعتبرت ما قالته إجابة دبلوماسية. كانت تعرف حق المعرفة لماذا أسأل.

كان لديهما سيارة، وبها سيقطعان الطريق الطويل إلى ڤونا بوينت على الطرف الجنوبي الغربي من الجزيرة. عرضا أن يوصلاني إلى ماراڤو. شكرت عرضهما وقلت إني أفضل قطع مسافة الميلين ونصف سيراً.

بعد أن تجاوزتُ قرية نيوساوا أدركتُ امرأة قاتمةَ الضفائر ترتدي لباساً رياضياً، وتحمل حقيبة من القنّب. إنها لورا تلبس بنطالاً فضفاضاً من الخاكي وكنزة تلتصق بجسدها وقبعة واقية من الشمس. كانت غارقة في العرق والوسخ بعد أن صعدت مشياً إلى أعلى قمة دي ڤو، ثاني أعلى قمة في تاڤوني، ويبلغ ارتفاعها 3800 قدم. كانت مرهقة جداً. ومع ذلك ابتسمت لي ابتسامة عريضة حين حاذيتُها، وكان أول تعليق صدر عنها: «لقد رأيتُها!».

تقافزتْ كطفل مرة على هذه الساق ومرة على الأخرى، وكان وجهها مشرقاً كأنه وجه مهتدٍ جديد إلى الإيمان. تساءلتُ في سري عما إذا كانت قد رأت النور الإلهي بالذات؟ أم لعلها رأت عُلّيقة مشتعلة؟

قالت: «إنها مذهلة حقاً. رأيتُها على الجبل بعد شروق الشمس مباشرة».

حتى تلك اللحظة لم أكن أعرف أين كانت أصلاً. لكنها مضت تقول: «رأيتُ اليمامة البرتقالية!».

«هل أنت واثقة؟»

«كل الثقة».

«على قمة دي فو؟»

أومأت برأسها أن نعم، وأضافت وهي تكاد تلهث: «و.. التقطتُ لها صورة... بكاميرتي المقرِّبة».

الآن اتضح كل شيء، وإذا كان ما قالته صحيحاً فإنه إنجاز عظيم فعلاً. لم تكن اليمامة البرتقالية التي تكتنفها الأساطير نادرة الوجود فحسب، بل لم يسبق أن تمَّ تصويرها أبداً فيما سمعت.

قلت: «من الوارد جداً أن تكوني أول من فعل ذلك».

«أعرف».

«وقد تكونين الأخيرة أيضاً».

«أعرف».

«طيب، يجب أن ترسلي لي نسخة عن الصورة»، قلتُ بحسد.

ردّت بأن هزت يدي، فأوّلتُ ردها هذا على أنه وعد. هذا يعني أنْ أعطيها عنواني، وهو ما حاذرته دائماً حين أكون خارج بلدي.

بدأنا المشي ثانية. قلتُ: «كان عليكِ أن تطلبي مني الذهاب معك».

ضحكتْ: «لم يخطر لي ذلك على بال! غادرتَ الطاولة متعجلاً بالأمس وأويتَ إلى سريركَ».

شرحت لورا كيف استيقظت عند انبلاج الفجر حين كان الظلام لا يزال مخيماً. كانت قد رتبت في اليوم السابق موعداً مع سيارة تُقِلُّها إلى قرية ويريكي، ثم انطلقت صاعدة مسافة الأميال الأربعة قبل ساعة كاملة من طلوع الشمس، مسلحة بسكين من النوع الذي يُحمل في الأدغال وبمصباح كهربائي

يُثبّت على الرأس. أتت إلى الجزيرة أصلاً لرؤية اليمامة البرتقالية، وهذا ما سعتْ إلى تحقيقه هذا الصباح.

أطلّتْ من قمة دي ڤو على بحيرة تاجيموشيا الممتدة على فوهة البركان الخامد في وسط الجزيرة. البحيرة طافحة بالنباتات الطافية، وهي المكان الوحيد الذي تنمو فيه زهرة فيجي القومية، زهرة التاجيموشيا أو ميدنيلا ووترهاوسي، وهي زهرة حمراء قانية ذات بتلات بيضاء.

«هل تعرف كيف ظهرت زهرة التاجيموشيا إلى الوجود؟»، سألت لورا بينما كنا نتابع سيرنا على الطريق المغبر، متجنبين طوال الوقت علاجيم القصب المستوية بالأرض.

هززتُ رأسي نافياً، فروتْ لي أسطورة التاجيموشيا. في سالف الدهر والأوان عاشت في تاڤوني أميرة. قرر أبوها، وهو شيخ القبيلة، تزويجها من رجل اختاره لها. غير أن الأميرة كانت تحب رجلاً آخر، وبسبب شعورها باليأس هربت من قريتها إلى الجبال. ولما كانت مرهقة جداً فقد نامت على شاطئ البحيرة الكبيرة. كانت تبكي بمرارة في نومها، وخلال أحلامها كانت دموعها تتدحرج على خديها وتتحول إلى زهور حمراء جميلة. كانت تلك أوائل أزهار التاجيموشيا، وهذه الكلمة تعني «البكاء أثناء النوم».

اعتبرتُ ما روته لي مجرد قصة رومانسية، لولا أنها قالت: «حصل لي الشيء نفسه بالضبط».

«تبكين أثناء نومك؟»

هزت رأسها نافية: «أعني زواجاً لا رأي لي فيه»

«كنت متزوجة؟»

بإيماءة سريعة من رأسها قالت نعم.

«لكن هناك نسخة أخرى عن أسطورة التاجيموشيا».

وهنا روتْ لي القصة الأخرى. كانت هناك فتاة من تاڤوني لا تطيع أمها، فكانت تلعب حين يجب أن تعمل. فجأة غضبت المرأة من ابنتها وأخذت

تضربها بإضمامة من جريد النخل، ثم قالت لها أن تنقلع فلا تُريها وجهها ثانية. هربت الفتاة باكية كسيرة القلب حتى وصلت إلى أبعد ما استطاعت. في أعماق الغابة جاءَت إلى شجرة لبلاب تغطيها العرائش. تسلقت العرائش فعلقت بها ولم تستطع تخليص نفسها. بكت كثيراً، والدموع التي سالت على وجهها تحولت إلى دم سقط على العرائش وتكونت منه أجمل الأزهار. في النهاية أفلحت الفتاة في تخليص نفسها وعادت إلى البيت. كان غضب أمها قد هدأ عندئذ، وانتهت القصة نهاية سعيدة. لكن الناس في تافوني يعتقدون أن هذه الزهرة النادرة تكوّنت من دموع الفتاة.

قلتُ متخابثاً: «هل حدث لك هذا أيضاً؟».

أومأت برأسها إيجاباً دونما أثر للسخرية.

«علقتِ بالعرائش؟»

هزت رأسها نفياً: «نبذتني أمي».

ثم توقفت والتفتت نحوي: «سأُطلعك على سرٍ يا فرانك».

«ماذا؟»

«كنت طفلة لا يريدها أهلها».

جال في خلدي أن هذا ينطبق على نصف سكان العالم أيضاً.

لم أستطع إلّا أن ألحظ أن دمعة انبجست من العين الخضراء. اقتربتُ منها وأسندتُ رأسها إلى صدري. لبثنا في هذا الموقف لحظات ثم رفعتُ رأسها ونظرتُ في عينها. مرّرتُ إصبعي على شفتيها، وحين لمستْهُ بلسانها انحنيت وقبّلتُها. ضممتها إليَّ بقوة ولم أتركها حتى أمرتني غرائزي الطبيعية بإطلاقها.

سرنا مجدداً على الطريق، وهنا حان دوري لرواية بعض الأساطير التي سمعتها في جزر أوقيانيا. هناك مثلاً عدد لا يحصى من الحكايات التحذيرية التي تُركِّز كلها على ضرورة عدم اقتراب المرأة من أبو بريص، وإلّا فقد تلد واحداً منها. حكيتُ لها أيضاً الحكاية المأساوية لڤيرانا.

كانت ڤيرانا امرأة جميلة أفسدها كثرة الخُطّاب إلى درجة أنها لم تعد قادرة على الاختيار بينهم. فكانت لاتكف عن ندب حظها لأنها لا تجد ما

يكفي من الوقت لتقرر أيهم تريد. في أحد الأيام اشترت إكسيراً سحرياً من أحد المشعوذين. شرح لها المشعوذ أنها ستعيش إلى الأبد إن شربت نصف كمية الإكسير، وعندئذ سيكون لديها متسع من الوقت للعثور على الرجل الذي تريد العيش معه. وكل ما يلزمها حين تلتقي الرجل المناسب هو أن تعطيه ما بقي من المادة السحرية، وسيعيش بدوره حياة أبدية. شربت ڤيرانا حصتها من الإكسير وعاشت سنيناً طوالاً من دون تستقر على رجل محدد. مئة عام مضت وڤيرانا لاتزال شابة وجميلة كعهدها دائماً. لكن الزمن كان يمضي، وصعوبة اختيار رجلٍ تزداد أكثر وأكثر. أدركتْ أن الإكسير السحري زاد، ولم يُنْقِص، من صعوبة القرار بالنسبة لها. هنا لم تعد المشكلة كثرة عدد الرجال المرشحين فقط، بل أيضاً اتساع ما لديها من وقت كي تقوم بالاختيار. حرية الاختيار الأبدية هذه لم تُسهِّل عليها الاختيار. ومع ذلك حُكِمَ عليها بأن تحيا على الأرض الأبدية كلها لا مجرَّد عمرٍ واحد. لاتزال ڤيرانا تجول العالم حتى اليوم. حين يقع رجل في حب امرأة لاتستطيع اتخاذ قرارها، عليه أن يكون حذراً لأنه ربما يكون وقع في حب ڤيرانا المتشددة والباردة المشاعر. خسر كثيرون من الرجال قلوبهم وشبابهم من أجل ڤيرانا، لكن أحداً منهم لن يظفر بها أبداً.

رفعت لورا ناظريها نحوي: «أوه، يا لها من قصة حزينة!»

«نعم، إنها لقصة حزينة»، ردّدتُ وراءها.

لمَّا وصلنا إلى شاطئ الأمير تشارلز نزلنا نتمشى على الرمل. خلعنا أحذيتنا وأخذنا نجمع الأصداف ونتبادلها، ثم وقفنا نرمق بإعجاب نجم بحر ذا لون أزرق غامق. اعتقدت لورا أنه من النوع الذي أعطى اسمه لِصفٍّ النجميات لأنه يشبه نجمةً بالفعل. في ظنها أن هناك حكاية أسطورية عن نجمة سقطت من السماء وتحوّلت إلى نجم البحر. إن لم يكن الأمر كذلك، نستطيع دوماً اختراع أسطورة من هذا النوع. لن يفوت وقت اختراع الأساطير أبداً.

لم يكن هناك الكثير من المايا أو الوهم الكوني عند لورا ذلك اليوم. بدا كأن أقسام عقلها مختلفة اختلاف لوني عينيها، وتخيلتُ أنا أن عينها الخضراء هي التي رأت اليمامة ذات الصدر البرتقالي وأن عينها البنية هي التي قرأت

الفلسفة الهندية. ولا بد أن العين الخضراء هي التي اكتشفت نجم البحر الأزرق، وأن العين البنية هي التي كانت مهتمة بجدارة الفرد الإنساني.

بينما ارتقينا المنحدر الشديد نحو بستان النخل أخبرتني أن هناك حفلة كبيرة في ماراڤو ذلك المساء، وسيحضرها أكثر من مئة ضيف من الجزيرة. ستكون الحفلة من النوع الذي يسمونه **غونوسيد**، أي وليمة يدفع فيها كل من الضيوف ثمن طعامه على أن يخصص الربح لإحدى القضايا الاجتماعية؛ وسيخصص المال في هذه المناسبة لمساعدة أطفال القرية الفقراء في دفع أقساطهم المدرسية. كان نزلاء ماراڤو مدعوين طبعاً إلى الحفلة.

قالت لورا: «يجب أن تجلس بقربي».

بعد بضع ساعات وجدت نفسي أشارك لورا وماريو وجون طاولة واحدة. كانت جميع الطاولات الصغيرة مشغولة، ومايزال متوقعاً وصول ساهرين آخرين فيما بعد.

وصل بيل، الأمريكي الظريف، إلى المطعم لحظة سارعت لورا إلى تقديم المكان الشاغر الوحيد على طاولتنا إلى البحار الإيطالي. وهكذا لم يكتشف أن لا مكان له على طاولتنا فحسب، بل ووجد نفسه بين أناس لم يلتق بهم من قبل أبداً. سرعان ما انقلبت هذه النقمة إلى نعمة حين وجد بيل أنه يشترك في الطاولة مع كابينا الذائع الصيت، والمنحدر أصلاً من هاواي، إضافة إلى روبرتا زوجته، وشخص ثالث ممتع الصحبة يدعى هارڤي ستولز.

كان نجم تلك الأمسية هو كابينا: رجلٌ متين البنية، ذو وجهٍ عضلي لوّحته الشمس وعظمين وجنيين بارزين وأسنان كبيرة بيضاء. كابينا هذا صياد سمك شهير في أعماق البحار، وقد فاز في الثالثة والعشرين من عمره، بالجائزة الأولى من مسابقة الجائزة الكبرى في لاهينا، حيث استطاع أن يرفع إلى متن قاربه سمكة مارلين يزيد وزنها على 545 كيلوغراماً. هو الآن في أواسط أربعينياته، تقاعد من عمله كصياد سمك، وأقام في تاڤوني حيث يقوم برحلات

صيد سياحية في مضائق سوموزومو مستخدماً زورقه المتطور تقنياً **(ماكيرا)**. صباح ذلك اليوم بالذات اصطاد كابينا كل الأسماك التي كنا نأكلها في الأمسية؛ تلك الأسماك هي مساهمته في الغونوسيد. كان كاي، طباخ منتجع ماراڤو، موجوداً أيضاً، وهو الذي أشرف على تنظيف وإعداد السمك. قدّمَنا بيل خلال العشاء إلى كابينا وروبيرتا وهارڤي، والأخير يعمل رئيساً للملاحين في ماكيرا. وجدنا أنفسنا مُنجرّين، دونما رغبة منا، إلى المناقشات التقنية التي قد تفتن مهندس بترول وصياد سمك في أعماق البحار.

جلس خوسيه وآنا في الطرف البعيد من المطعم برفقة مارك وإيڤلين. بدا الإسبانيان راغبين في مشاركة الثنائي الأمريكي طاولتهما. لعلهما أرادا التملص من الآخرين.

بعد الوجبة التأمت جوقة مغنين صغيرة وفرقة موسيقية. كان بعض المؤدين يعملون في ماراڤو، مثل سيبو وساي وستيني وهم بستانيون، إضافة إلى إنسي الساقي، ثم كاي وڤير وهما من أهل القرية؛ لكن كان هناك موسيقيون من القرى الأخرى أيضاً. بمرافقة القيثارات والأكلولات غنّوا أغانيَ مغوية متعددة الأصوات عن زهرة تاجيموشيا، عن ماراڤو، وعن كل من سافر فوق الغيوم قادماً من أقاصي الأرض لزيارة الجزيرة. أدّوا أيضاً بضع ميكات. والميكة رقصة شعبية فيجية تُروى فيها الأساطير الفيجية القديمة جلوساً باستخدام مزيج من الغناء والمحاكاة المبالغ فيها وحركات نشطةٍ للأذرع.

بعد الرقصات الشعبية قَدِمَ جوشن كيس إلى طاولتنا ودعانا إلى طقس الكاڤا. الكاڤا أو الياكونا مشروب مُسكر يُصنع من جذور نبات ذي تأثير تخديري معتدل ينتمي إلى عائلة الفلفل. قُدِّم لنا الكاڤا في وعاء خشبي كبير وتناولناه في كؤوس من جوز الهند. كان جون قد جرب الكاڤا قبلنا فرفض الدعوة، لكن لورا قرأت في كتاب «الكوكب الوحيد» أن رفض الدعوة إلى الكاڤا يعتبر وقاحة، أو تصرفاً غير لائق. سرعان ما كنا، لورا وماريو وأنا، نجلس على الأرض أمام وعاء الكاڤا. وكلما قُدِّم لأحدنا كأس من تلك المادة، كانت تنطلق أصوات التصفيق وتعلو صرخة بكلمة «بولا».

لم يكن الكافا طيب الطعم. كان منظره يشبه ماءً موحلاً، وكذا كان طعمه إلى حدٍّ ما. شعرت بعد كأسين ببعض الخدر حول شفتيَّ، وبعد ثلاثٍ كنت أكثر استرخاء لكني ناعس أيضاً. أذكر أني لاحظت بيل وهو يدور دونما مراعاة للأصول حول المجتمعين على الكافا؛ وفي إحدى دوراته قال للورا إن الكافا كومة من الزبل لا أكثر ولا أقل، وإنه شيء لا يجدر بفتاة مهذبة أن تتناوله.

حدقت لورا في عينيَّ، وأظنها هذه المرة نظرت إليَّ بعينها البنية.

سألتني: «ما طعمه؟».

كدتُ أقول إن له طعم خمسة مليغرامات من الڤاليوم لا أكثر ولا أقل.

قالت: «أتشعر أن الوهم ينهار؟».

قلت مازحاً: «أدنى انهيار. ثمة عالم واحد فحسب».

«ثمة وعي واحد فحسب، بورروشا...»

قلتُ: «هذه كيمياء حيوية. إنها «دينٌ فوري»».

لست أدري إن فهمتْ ما عنيتُ، لكنها قالت: «وكذا هو الوعي اليومي أيضاً. مجرد كيمياء حيوية. وهو يجعلنا نؤمن بالوهم المادي، بالبراكريتي».

«إنها كلمة ظريفة».

«معناها قريب من معنى **المايا**. من حسن الحظ أن بعض المواد الكيماوية يمكن أن تخدر أجزاء الدماغ التي تجعلنا نؤمن بوهم العالم».

خطر ببالي أن الأجزاء المقصودة هي التلفيفان أو الثلاثة الزائدة من المخ، لكن لا أظنني قلت ذلك بصوت عالٍ.

استفاضت لورا كثيراً في الكلام؛ ومع أني لا أستطيع استعادة مضمون كلامها سطراً بسطر، أذكر أنها أسرّت لي أن فلسفة السامخيا هي الأقرب إلى قلبها بعد الڤيدانتا.

لاحظتُ أن للكافا مفعولاً مُدِراً قوياً، وأن تأثيره متساوٍ على كلا الجنسين لأن لورا هي أوّل من قال إنها بحاجة إلى الذهاب إلى المرحاض. رأينا نحن

الاثنان من الطرافة بمكان أن تحتاج روح العالم إلى التبول حالما تجد طريق العودة إلى ذاتها.

بعد هنيهة كنا نتحلّق مجدداً حول الطاولة حيث يجلس جون وأمامه كأس من البيرة. كان يعتقد أن اللطف يقتضي بأن يساهم أحد النزلاء الضيوف في الحفلة.

قال: «تعلمون أن آنا راقصة فلامنكو شهيرة. كنت أتابع شبكة الإنترنت، وعرفتُ، رغم أن إسبانيتي ليست طليقة، أنها أعظم نجمة فلامنكو في مدينة إشبيلية حالياً، «لا إستريلا دو سِفيلا»، أي نجمة إشبيلية».

لا أعرف إن كان الكافا قد شوش إحساسي بالزمن، لكن بدا لي أن لحظة واحدة مرت قبل أن نجد أنفسنا عند طاولة الإسبانيين. لورا هي التي قدّمت طلبنا: أيمكن لآنا أن تفكر في تقديم دور من الفلامنكو؟ لن يكون ذلك تجربة مثيرة لنا جميعاً، بل أيضاً نوع من تقديم الشكر للراقصين الفيجيين.

«الجواب هو لا»، قال خوسيه.

«لا إستريلا دو سِفيلا..» تجرأ جون على القول.

«قلت إن الجواب هو لا»، قال الإسباني مزمجراً.

ارتسمت على وجه آنا ملامح الشخص الجريح المحاصر. لكن ما السبب في ذلك؟ لماذا ضايقها إلى هذه الدرجة طلب ودي لرقصة فلامنكو؟ أم أن خوسيه أزعجها برفضه الفظ بدلاً منها؟ لن أكتشف الجواب على هذه الأسئلة إلّا بعد عدة أشهر.

عدنا إلى طاولتنا نجرجر أذيال الخيبة. خلال برهة بدأت مجموعات ثنائية بالرقص. لم يكن هناك فارق كبير عن الرقص في الفنادق الريفية في النرويج. فثمة مُغنٍّ منفرد يؤدي أشهر الأغنيات العالمية. وبالجملة كل شيء يشبه الكاروكي الغربي. تجمع عدد كبير من القرويين على حلبة الرقص، ولم يكن هناك أدنى شك في أن أمسية الغونوسيد نجحت نجاحاً باهراً. كذلك لم تغب العلامات الأولى للعراك بين الرجال عن المشهد، بل جعلته أشبه بأمسية صيفية

محمومة في تونسبرغ. الفرق الوحيد هو أن النور يضيء الأمسية كلها هناك، بينما كان الظلام دامساً في تافوني.

حول الطاولة كنا جون وماريو ولورا وأنا. ثم جلب مارك وإيفلين كرسييهما لأن طاولتهما أُخليتْ لإفساح المكان للرقص. أما آنا وخوسيه فقد اتخذا مكانيهما على الأرض أمام وعاء الكافا. وسرعان ما جاء بيل حاملاً زجاجات النبيذ الأحمر كعادته.

قال: «على حسابي!».

دنا الوقت من منتصف الليل وهنا التفتت لورا نحوي وقالت «هيا بنا!».

لم يكن لدي اعتراض على اقتراحها، كنت لاأزال دائخاً بعض الشيء من تأثير الماء الطيني المخدِّر. لقد قضيت يوماً مجهداً، ولم يعد هناك من سبب لإطالة بقائي وسط ركام الإنسانية الصاخب ذاك. إلى ذلك، يُنتظر أن أبدأ، صباح اليوم التالي، برحلة العودة إلى بلدي في الركن المقابل من الكرة الأرضية. نهضنا وشكرنا الجميع على الأمسية اللطيفة.

سأل بيل: «هل أنتما ذاهبان؟».

ردّت لورا: «أي، نحن ذاهبان».

«إلى أين؟»

يا له من سؤال غريب، قلت لنفسي. وفوق ذلك لم يكن له بَعدُ من جواب. أحياناً كل ما تعرفينه هو أنك ذاهبة، دون أدنى فكرة عن وجهتك. هل كنا سنتمشى في بستان النخل؟ أم نغطس في البحر عند شاطئ الأمير تشارلز؟ أم نكتفي بكأس من الشراب في كوخ لورا أو كوخي؟ أياً يكن الجواب، فهو ليس من شأن بيل. كان لطيفاً منه أن يواظب على شراء النبيذ لنا. فالرجل الذي عمل مع رِد أدير وأنقذ أبوللو 13 من الكارثة الفضائية، قادرٌ على تحمّل كلفة الخمر. لكن ليس له أن يعتقد أنه قادر على شراء أصدقاء بماله، وخاصة على شراء لورا.

قالت: «نحن ذاهبان لنرى مجموعة أعشاب فرانك المجففة».

«حسناً. أرى أن لا تذهبي»، رد بيل.

«حسناً. أرى أنه لا علاقة لك بذلك»، ردتْ لورا سريعاً.

قالت ذلك بأسلوب المزاح الودي لا بأسلوب النقد.

قال بيل مصراً: «يمكنكما الاستمرار بالحديث هنا».

«سنتحدث حيثما نريد»، أعلنت لورا. وفي تلك اللحظة ظننتها ستنفجر ضاحكة من جرأة الرجل.

لكن الأمريكي تابع: «الخمر موجود هنا. وبالمناسبة فهو من نوع ريوجا الممتاز».

«نحتاج فقط إلى زجاجة واحدة»، قالت لورا، وأرفقت كلامها بخطف إحدى الزجاجات، ثم مضت مبتعدة في بستان النخل.

«سجّلها على حسابي»، قلتُ جارياً خلفها.

بعد هنيهة وجدنا نفسينا جالسين على شرفتي. كان بيل على صواب بخصوص خمر ريوجا الجيد. وكان الهواء الاستوائي الحار كأنه احتكاك ثوب شفاف بالجسد.

بدأتْ الكلام: «إنه لشخص حقيقي ذلك الرجل».

هزت رأسها: «إنه عادي، عادي جداً..»

«التقيتما في مطار نادي؟»

«دعنا لا ننشغل به يا فرانك. ليس بالشخص الظريف».

«إنه بالتأكيد طليق اللسان».

فكّرتْ لحظة ثم قالت: «بيل هو أبي».

وضعت كأسي وصفّرتُ مندهشاً: «طبعاً هو كذلك. كم كنتُ أبلهاً».

لم تُعلّق على ما قلت، لكنها أدارت وجهها بسرعة فوجدتُني أحدق في عين خضراء، لست أدري ما الذي جعلني أتخيل أنها ولدت بعينين خضراوين، وأن إحداهما تحوّلت إلى البني بينما هي تكبر. لعل العين الأخرى تجازف الآن بمصير مماثل.

أزعجني أني لم أدرك أن بيل ولورا أب وابنته يقضيان عطلتهما في أوقيانيا. لذلك إذن كانت تجلس وحيدة وتقرأ بتركيز «الكوكب الوحيد». لذلك جلس هو على طاولتها في الأمسية الأولى. ولهذا كان سخياً في الخمر، ونجح في تهدئتها بمجرد وضع يده في حفرة عنقها، ولهذا أسقطته في المسبح، ولهذا جلس على كرسيها واستخدم منشفتها، ولهذا أيضاً سكبت إبريقاً من الماء على رأسه حين لم يستطع إخفاء نفاد صبره من سماع محاضرتها حول مايا والروح العالمية. هذا هو السبب أيضاً في أنه حذّرها من الكافا، وهو بالتأكيد أيضاً سبب محاولته منعها من الذهاب معي.

«أهو الشخص الذي زوّجك؟»

«هو الذي رتب كل شيء. لقد نظم حياتي كلها منذ أن كنت فتاة صغيرة. ثم وجد لي رجل أعمال واسع الثراء، واحد من أصحابه في الواقع. من أجلي؛ فعل ذلك من أجلي. وكنت فتاة طيبة. ثم فستان زفاف أبيض ومئتان وستون مدعواً، معظمهم من الشركة التي يعمل فيها».

«ظننت أن هذه الأشياء قد انقرضت».

«كنت فتاة طيبة. ولم أرد أن أخيب أمل بابا».

«حتى لو كنتِ طفلاً نبذه أهله».

«لم يكن لي أم أبداً، أب فحسب».

«ألم تقولي إن أمك رفضتك، تماماً مثل تاجيموشيا؟»

«لذلك لم يكن لي أم أبداً».

«لكنها على قيد الحياة».

أومأت برأسها إيجاباً.

«تعيش مع أبيك؟».

أومأت ثانية.

«منذ متى انفصلتما أنت وزوجك؟»

«منذ أسبوعين».

«منذ أسبوعين انفصلتما؟»

«منذ أسبوعين تركتُه. انتقلتُ إلى أستراليا، ثم لحقني بابا إلى أديلايدي. رأى أن علينا أن نقوم بالرحلة معاً».

«يريد منك أن تعودي إلى زوجك؟»

«أكيد. لقد باعني له».

«ووالدك هو الذي أعطاك المنحة! هو المؤسسة الراعية لعملك؟»

أومأت أن نعم.

«هل أنت شغوفة به؟»

رفعت كأسها وأخذت رشفة خمر منه. ثم قالت بنبرة توكيد: «جداً جداً».

أخذتْ رشفة أخرى ثم، مع ابتسامة لا تكاد تلحظ، أضافت شيئاً جعلني أدرك كم تحب أباها: «لكنه أحمق جداً. إنه حمار حقيقي».

كنت قد توصلت إلى أنّ بيل ولورا يمثلان حالة مرضيّة جدية من حالات الحماية المفرطة والتثبّت العاطفي على الأب وعقدة إلكترا حقيقية. وهكذا إذن فإن صورة المروّض والنمر ملائمة في وصف حالتهما.

تحدثنا، ونحن نشرب نبيذ الريوجا، عن روح العالم. طوال الوقت ثبّتتْ عليّ عينها البنية. خمنتُ أنها ليست راسخة الاقتناع بالتزامها البيئي ولا بمفاهيمها الفلسفية الشمولية. كانت على كل حال أحادية النظرة، موالية لمذهب فلسفي إطلاقي ذي عين واحدة. وهي رغم طريقتها الأُحادية تلك فتاة حسّية طليقة الروح، فتاة تسحرها الطيور النادرة والأساطير القديمة ونجوم البحر الزرقاء. تحدّثني عينها الخضراء وعينها البنية، كل عين بطريقتها، وجعلت أفكاري تتزاحم في رأسي.

حين انتهت زجاجة الخمر دخلنا إلى الكوخ. ثم..، طيّب، قضت لورا الليلة معي.

في وقت سابق، وبينما كنت أجلب كأسين من الثلاجة، لمحت غوردون على الجدار. وحين كانت لورا في الحمام، اقتربتُ منه ونظرتُ بقسوةٍ في عينيه، وقلت: «هذه الليلة تُبقي فمك مغلقاً، مفهوم؟ لدي الليلة إجازة منك».

لم ألمس زجاجة الجن، وما ذلك إلا لكي أتجنب استفزاز غوردون.

لعلكِ تتساءلين لماذا أقول لك كل هذا عن لورا. حسناً، عليك ألّا تنسي أنك أنتِ التي قلتِ إنه ما عاد ثمة رباط بيننا. وكنتُ أنا الذي اقترحت أن نسمح لأنفسنا بمرور سنة على انفصالنا قبل أن نقيم علاقات جديدة.

بعد تلك الآفاق الفكرية العميقة التي فرضها عليّ غوردون، كان رائعاً أن أستطيع تسليم نفسي إلى كائن إنساني آخر. لم أكن قادراً على تحمل قضاء ليلة أخرى بصحبة غوردون. والحقيقة أني كنت على وشك أن أحدثك عن شيء له علاقة بذلك في سلمنكا حين بدأتِ بضحك عاصف حين أشرتُ أنا إلى آنا وخوسيه وأخبرتُك أني كنت معهما في فيجي.

حين استيقظت صباح اليوم التالي، كانت لورا قد ذهبت، ولم أرها بعد ذلك أبداً. سمعت أثناء وجبة الفطور أنها وبيل قد غادرا في ذلك الصباح متجهين إلى تونغا. كنت، على كل حال، قد أعطيتها عنواني البريدي وبريدي الالكتروني، وقبل بضعة أيام من سفري إلى سلمنكا، تلقيت منها صورة أنيقة لنوعٍ نادرٍ، برتقالي الصدر، من اليمام. عليّ أن أعترف أني احتفظ بالصورة على مكتبي، حتى وأنا هنا في فندق بالِس. أخبرتني الرسالة المرفقة أن لورا عادت إلى زوجها رجل الأعمال، والسبب الذي أوردته تبريراً لذلك هو أنه صار شخصاً آخر تماماً، حتى إنه بدأ يأخذ دروساً في المذهب الفلسفي الهندي بهاغاڤادجيتا.

كنت مغادراً في الساعة الثانية على متن الطائرة المتوجهة من مانئي إلى نادي، وفي الثامنة والنصف مساء سأتابع سفري إلى لوس أنجلس على طائرة تابعة للخطوط الجوية النيوزيلاندية. بدأت بحزم أمتعتي قبل الذهاب لتناول الفطور. بالطبع، لم يتأخر غوردون في إثبات حضوره مجدداً. حسناً، ربما فعل ذلك لأني سمحت لنفسي بجرعة صغيرة من الجن الذي امتنعت عن تناوله

مساء الليلة السابقة. كان يجلس في المكان ذاته الذي رأيته فيه أمس حين أويت إلى السرير.

افتتح الحديث قائلاً: «ها أنت ترى».

كنت أعرف تماماً ما يفكر به، وقد كرهت من كل قلبي تصوُّر أنه ربما راقبنا طوال الليل بحدقتيه المفتوحتين من مُستَقَرِّهِ على الجدار. لم يكن متمتعاً برؤية ليلية متميزة فحسب، بل كان أيضاً غير قادر خَلْقِيّاً على إغلاق عينيه عن أي شيء. بالرغم من كل ذلك قلت: «أيمكنك أن تكون أكثر تحديداً؟»

«أنتم جميعاً مثلنا».

«لم أقل أبداً أننا لسنا كذلك. لقد أبقيت أوراقي مكشوفة على الطاولة طوال الوقت، وشدّدت على أني مجرد فقاري لا أكثر. كنت واضحاً كل الوضوح في هذه النقطة. أنا رئيسي هرم».

«أعني هل تعرفها جيداً؟».

«كان عليّ أن أعرفها».

«أليست متزوجة؟».

«لكن زواجها خطأ مؤسف».

قال: «نوعك بارع في اختلاق الأعذار».

«كلام فارغ».

«نوعك بارع في إخفاء الحقائق بصورة عامة».

«أظننا كنا نتحدث عن العكس».

«لكنك تعرف ما أقوله».

«أعرف كل شيء تقوله».

«ما يُفرّقكم عنا حقاً هو أن كل ما تفعلونه تقريباً نوعٌ من التنكّر».

«أقترح لكي يكون هذا الحديث معقولاً أن توضح ما تعنيه».

«بيد أن هذا القناع الخارجي مجرد محاولةٍ لتمويه بدائيتكم. ولدتم عراة مثلنا، ولن تعيشوا على الأرض أطول كثيراً مما نعيش قبل أن تستدعيكم إليها من جديد».

«لستَ مضطراً إلى الغوص في التفاصيل».

«ستُعجنون ثانية في رحم الأرض كي تصبحوا غذاء للديدان والصراصير».

«أظن أني آخر من يحتاج إلى هذا التذكير».

«لكنكم، أيها الناس، لا تفعلون شيئاً إلا محاولة نسيان هذا الأمر بكثرة الكلام».

«هذا لا ينطبق عليّ».

«ألستم حمقى حين تسمون أنفسكم «قروداً عارية»».

«بلى».

«أعني أنكم أكثر حيوانات الأرض أقنعة. ترتدون كل شيء من ملابس السهرة والأطقم البيضاء إلى الألقاب الطريفة والمرايا الباذخة فوق المواقد. هذا دون أن أذكر شهادات الدبلوم والأوسمة، الأخلاقيات وأصول اللياقة، الطقوس والشعائر. أتحدث عن كل مظاهر الزينة، هذه الطبقة السميكة الخادعة من الزينة التي تسمونها ثقافة أو «حضارة»، كل ما هو غير طبيعي».

«أصبت في هذه النقطة».

«أظنك سمعت بثياب الإمبراطور الجديدة؟».

«لاتحاول أن تكون خفيف الدم».

«حتى الوزغات قادرة على أن ترى أن كل شيء تزوير واحتيال. ما نقوله

نحن هو أنكم عراة بالطبع، عراة مثلنا تماماً. أما أنتم فلا تكلّون من الكلام ومن التظاهر والتصنُّع ياسيد. ورغم ذلك، وتحت كل هذا الزخرف، تدق الساعة البيولوجية دقاتها بلا رحمة، تدق وتدق إلى أن يسكن العالم كله فجأة».

«أنت أيضاً لا تنقصك الثرثرة».

«تقولون: في ظل الظروف السائدة، وتضيفون: في كل الأحوال في هذه المرحلة من الزمن، مهم بالنسبة لنا أن نشدد على أنه، وإن تكن بعض العناصر الفنية عند بيكاسو الشاب موجودة أيضاً عند بيكاسو الناضج، فإن هناك، في مرحلته هذه، الكثير مما يذكر بشونبرغ، ثم أليس مخجلاً ألّا يتمكن بوتشيني أبداً من إكمال عمله المسمى **توراندوت**، وهو حقاً أحسن ما ألّفه من أوبرات، وهل تعلم، بالمناسبة، أن ڤيردي دوّن **تراڤياتا** خلال بضعة أسابيع فقط، بالمقارنة مع بوتشيني أكاد أعتبر تراڤياتا موسيقا خفيفة...».

لقد نجح في تلخيص أسلوبي.

قاطعته قائلاً: «نحن نُولد في ثقافة، لكننا محرومون منها. لسنا مجرد ضيوف على الأرض. نحن أيضاً ضيوف في غُرَفٍ تسمى باخ وموزارت، شكسبير ودستويفسكي، دانتي وشانكارا. ندخل الحياة لكننا محرومون من دخول العصور القديمة والقرون الوسطى، محرومون من عصر النهضة ومرحلة الروكوكو، من المرحلتين الرومانسية والحديثة. في هذه النقطة نحن مختلفون بوضوح عن الوزغات، لأنه يبدو لي أنه ليس ثمة جامعات لبني بريص حتى اليوم، وبالتأكيد ما من كلية محددة للأبوبريصيات».

«لا تكن لئيماً».

«عندما نموت لا نخسر الكون كله فقط، على ما في هذه الخسارة بذاتها من إيلام، لكننا أيضاً نودع آلاف الأرواح البشرية التي عرفناها. هذا إن كان ثمة آلاف من الأرواح البشرية، أعني إن لم نكن جميعاً وجوهاً من روح عالمية واحدة، الروح ذاتها.»

«شكراً، آمل بإخلاص أن لا تكون قد انقلبت أنت أيضاً إلى واحد من أولئك الذين يركزون كل فكرهم في أمر واحد مثل لورا. هل هذا الهوس شيء ينتقل بالعدوى؟ أعني هل ينتقل عن طريق الجنس؟ كل ما أحاول قوله، من جانبي هو أننا أكثر انسجاماً مع محيطنا. نحن راضون بما نحن: طبيعيون، طبيعيون تماماً، نأكل البعوض، نخرأ، ونتكاثر. ونفعل ذلك كلّه بسرور تام، لا يُسيِّر حياتنا الذهب الذي يغري الحمقى، ولا الهراء الثقافي. ولا نبدأ بإلقاء المواعظ عن كنوز الفن أو الطباق الموسيقي، لمجرد أننا اقتربنا من سن التقاعد، وليس لدينا أحفاد».

«سبق أن قلتُ إنك كثير الكلام. وأحياناً تكاد تكون غنائياً».

«كل ما تقوله عني يرتدُّ عليك ياسيد».

«كنت أتساءل عما إذا كان الشعراء يشربون لأنهم شعراء، أم يصيرون شعراء لأنهم يشربون».

«الشيء الأساسي هو أنهم يُفرِطون في التفكير. ألا يمكن التوقف عن التفكير؟ أعني ألا تستطيع إغلاق صنبور عقلك؟»

«لا، ليس الأمر سهلاً. لقد حُكِمَ على الكائن البشري أن يفكر بشيء ما طوال حياته. قد يمكننا، في حدود ضيقة، السيطرة على أفكارنا، لكننا لا نستطيع لجم عملية التفكير ذاتها. للقيام بذلك علينا أن نعتزل في إحدى مدارس التأمل، مع ما في ذلك من أنظمة تقييدية بلهاء وشبه دينية. نحن لا نجد السكينة حتى في الليل. إننا خاضعون لكل ما قد يأتي في الأحلام. لا يقتصر الأمر على أننا نعيش في مجتمع صاخب، باحث عن اللذة، بل إن الطبيعة شكّلت لنا حلبة للدراما النفسية أثناء النوم».

«غرقتَ في نومك في النهاية، لكن الرئيسية الأنثى لم تنم. يؤسفني أن أعبر عن الأمر بهذه الفظاظة، لكنها رحلت ما إن غفوتَ أنت».

«لستُ ألومها».

«أتستطيع تذكر ما حلمت به الليلة الماضية؟»

«نعم، أستطيع ذلك في الواقع. حلمت أني لم أستطع تذكر ما إذا كان

عمري ستة عشر عاماً أم أربعة وعشرين، وهذا الأمر أقلقني، أقلقني أن لا أتذكر كم أبلغ من العمر. في النهاية قررتُ أنه ما من فارق حقيقي سواء كان عمري ستة عشر أم أربعة وعشرين، لأن حياتي كلها لاتزال أمامي في الحالين. ثم استيقظتُ فجأة ووجدت أني قريب من الأربعين عاماً».

«وهكذا نسيتَ إمّا ستة عشر عاماً وإمّا أربعة وعشرين من عمرك، نسيت أنك في الأربعين، أليس هذا ما تعنيه؟»

«كفى، انتهينا»، كان هذا كل ما قلته.

كان يتأكّلني الندم لأنه كشف سقطتي مرة أخرى. كان عليَّ أن أترك هذه الأفكار الوزغية بسلام بعد الليلة التي قضيتها مع لورا. نعم، كان في وسعي الاستغناء عن تلك الجرعة من الشراب.

سألته: «ألا تعتقد باحتمال وجود عنصر مصالحة مع الحياة في لقاء عاشقين؟».

«في ماذا؟»

«يصعب شرح الأمر. يساورني الشك في وجود الحب في حياة الوزغات. لعل الحب شيء خاص بالكائنات البشرية، أو على الأقل بالرئيسات العليا».

«لاأعرف إن كان ما شهدتُه الليلة الماضية يستحق وصفه «بالعليا» من أي شيء».

«أعني أن الشيء الوحيد القادر على التغلب على التلفيفين أو الثلاثة النافلة، وبالتالي على كبت الوعي بالموت، هو الحب. لعل له مفعول الجن ذاته أو الكافا من الناحية الانفعالية، كل ما يتميز به أنه أطول مدىً وأقوى أثراً».

«لعلك مصيب في ذلك. الحب أفيون الناس».

«ما أرمي إليه هو الحقيقة البسيطة، حقيقة أن وجود شخصين معاً مختلف تماماً عن وجود واحد بمفرده».

«زدتني علماً. أهذا نوع من الرياضيات الدقيقة».

«لا».

«اتفقنا أيضاً على أنها متزوجة. إذن فعددنا ثلاثة سلفاً».

«لورا منفصلة عن زوجها».

«ألست منفصلاً عن زوجتك أيضاً؟».

«بلى».

«إذن فنحن أربعة. أما من مشاركين آخرين في هذه الثنوية؟»

«لم نعد أنا وڤيرا نعيش معاً».

«وإذن فقد قطعت كل صلةٍ بها أخيراً؟ ألم تقل إنك ستحسم أمرك معها ما إن تعود من رحلاتك المديدة في المحيط الهادي؟ هل نسيت هذ الوعد الذي قطعته مع نفسك؟».

«لا، لا».

«لكن الآن انتهى أمر ڤيرا!»

«ليس هذا ما قلتُه»

«لم تقل؟ ألم تقل إنه من الآن فصاعداً لم يعد في رأسك متسع إلا لمهووسة مبتذلة تعاني من تثبيتٍ على الأب، ولها ضفائر قاتمة اللون، وعينان إحداهما خضراء والأخرى بنية؟»

«لا».

«إذن فشبهتي في مكانها تماماً».

«وما هي؟»

«أنت مُتَهتِّكٌ مثلنا تماماً».

«هراء. أنت متسرِّع في استنتاجك».

«يجب أن تعرف نفسك إن كنت ترغب في العودة إلى ڤيرا».

«ليس الأمر بهذه البساطة. العواطف الإنسانية أسمى قليلاً من الغرائز الزواحفية. لا يمكن إخضاعها لمنطق ثنائي، منطق هذا أو ذاك».

«إذن دعني أحاول مساعدتك. رائع أن يجد المرء من يتحدث معه. ما رأيك؟»

«أفضِّل ألّا أردَّ على هذا السؤال».

«إن قُدِّر لك أن تختار بين ڤيرا ولورا الآن، من ستختار؟»

«طوال ما بقي من عمري؟»

«طوال ما بقي من عمرك. أم أن شروطك المثالية أخذت تتراخى شيئاً فشيئاً».

«ڤيرا أو لورا؟»

«نعم، هيا. الخيار لك أيها السيد!».

«كانت لورا هوىً عابراً في عطلة».

«وڤيرا؟»

«سأرى ڤيرا في مؤتمر في سلمنكا».

«لعلها ستكون هوىً عابراً في مؤتمر، وهذا أكثر هيبة من علاقة عابرة في عطلة».

كنت أتحرك في أرجاء الغرفة حازماً أمتعتي أثناء حديثي مع غوردون. هنا ارتطمت قبضتي بالحقيبة السفرية التي أغلقتها لتوي. كرهت نفسي لأني تناولت جرعة من الجن. كنت أعرف حق المعرفة إلى أين تؤدي تلك الجرعة.

قلتُ: «كفى! أنا ذاهب الآن للفطور».

«وسأجلس هنا وانتظر. لدي متسع من الوقت».

«سأغادر خلال ساعتين...»

«طريف. ها هو ذا الرجل يحاول الهرب من نفسه».

«أنا ذاهب إلى بلدي على أية حال».

«وسأكون أنا بين أمتعتك. لا أذكر فعلاً إن كنتُ قدمت لك نفسي. ألم أقل لك إني توأم حسّ اللياقة لديك؟»

«أنا واثق أنك لم تقل».

«الإخوة التوائم من أمثالي لا يقر لهم قرار ياسيد. إنهم في حركة دائمة مثل ظل رجل يحاول الهرب من نفسه».

على الفطور صادفت الإنكليزي والإسبانيين. أخبرني جون أن لورا وبيل غادرا، واكتفيت من ناحيتي بالقول إني أعرف ذلك. لا ريب أن جون قد خمّن أنهما أب وابنة، وخاصة بعد أن شهد تصرف بيل حين انسحبنا أنا ولورا. لكن أحداً لم يُشِرْ إلى ذلك، ومن حسن الحظ أن جون وفّر علينا خفة الدم البريطانية فلم يُلْمِح إلى زجاجة الريوجا التي اشتركنا بها، أنا ولورا، على شرفتي.

كان الإسبانيان في مزاج ألطف بكثير مما كانا في اليوم السابق. ولعل لذلك علاقة بمغادرتي. ضحكا وألقيا نُكتاً. وسرعان ما شرعا بقص نوادر طريفة من حفلة الأمس التي لم يغادراها حتى الثانية فجراً. قرّرت الخوض في حديث جدي معهما للمرة الأخيرة قبل سفري، عليّ أن أتكلم معهما بالإسبانية هذه المرة. وليكن ما يكون.

غير أنه لم يُقدَّر لذلك أن يحدث. فبينما انجذب انتباه خوسيه إلى شيء آخر لحظة من الوقت، لاحظتُ فجأة أن وجه آنا أخذ يمتقع. وضعتْ كأس البيض الذي كانت تحمله بيدها في الطبق أمامها؛ كان لون بشرتها شاحباً ورمادياً، ثم انكبَّ وجهها على الطاولة، مسبباً انقلاب فنجان القهوة. وثبَ خوسيه على قدميه واقفاً.

«آنا!» صرخ بنبرةٍ تمزق القلب، كأنها صرخة رودولفو وهو ينادي ميمي في المشهد الأخير من أوبرا **لابوهيمي**.

أجلَسَها من جديد في كرسيها، وضربها بلطف على وجهها، ثم ضربها مرة أخرى بقوة أكبر.

«آنا! آنا!»

بعد لحظات عاد اللون إلى بشرتها، ثم أخذت تبكي. مالتْ نحو خوسيه ثم جرجرت نفسها مستندة إليه نحو بستان النخيل. وكما في مشهدٍ مُصوَّر يُعرض بالحركة البطيئة، تهاديا بين أشجار النخل متجهين إلى كوخهما.

كانت تلك آخر مرة أراهما في فيجي. وبعد ساعات حين كنت أنهي حجزي في غرفة الاستقبال في المنتجع، كان جون يكتب على إحدى الطاولات. سألته إن كان يعرف شيئاً عن الإسبانيين فأخبرني أن طبيباً قد أتى، وأن آنا أحسن الآن حالاً.

«هل تناولتْ كثيراً من الكافا؟»، قلتُ محاولاً تفسير ما جرى لها.

«ربما»، كان كل ما قاله جون.

قَدِمَ أحدهم وأخبرني أن السيارة بانتظاري.

سألني الإنكليزي: «إلى أين أنت ذاهب؟».

قلت: «إلى بلدي». وشرحت له المحطات التي سأمر بها بين نادي وأوسلو.

«ألن تذهب إذن إلى المؤتمر في سلمنكا خلال بضعة أشهر من الآن!».

«ومن ثَمَّ؟» قلتُ، لأني لم أفهم سبب طرحه للسؤال.

«ماذا عن ڤيرا؟»

اكتفيت بهز كتفي، فقال: «ستذهب إلى سلمنكا مروراً بمدريد طبعاً؟»

«بالطبع، بالطبع».

كان إلحاحه المفاجئ شيئاً استثنائياً.

«وإذا مررتَ بمدريد، ألن تقوم بجولة في أرجاء متحف ألبرادو؟»

بدا مع هذا السؤال الأخير أن الحديث يأخذ منعطفاً غريباً. ثم تذكرتُ أني ذكرتُ أمامه شيئاً عن شغفي بالفن، وأن في مدريد أعظم مجموعة من الأعمال الفنية في العالم، وأني شغوف خاصة بمتحف ألبرادو.

قلت: «قد أفعل ذلك».

قال بإلحاح: «يجب أن تفعل ذلك، لايجوز أن تذهب إلى مدريد من دون زيارة ألبرادو».

«لم أكن أعلم أننا نشترك بهذا الولع. لِمَ لم تذكر لي ذلك قبلاً؟»

«قل لي، هل تفضل إلْ غريكو أو بوس، فيلاسكيز أو غويا؟»

شعرت أني غير مندمج في هذا الحديث الذي يكاد يكون هوسياً في اللحظات الأخيرة قبل افتراقنا، ولا سيّما أنه من المحتمل أننا لن نرى أحدنا الآخر بعد الآن أبداً. أمامي رحلتان عابرتان للقارات، وكان السائق قد انتهى من نقل حقيبتي إلى السيارة. فكرت في المداولة التي جرت مع غوردون ذلك الصباح. فكرتُ في ثياب الإمبراطور الجديدة. وفكرتُ كذلك في إغماءة آنا، وفي نجدة خوسيه العنيفة لها.

قلت: «أحب المتحف بكل ما فيه».

«إذن أرى أن عليك أن تخصص وقتاً كافياً لمشاهدة المجموعة كلها بعناية».

أشار السائق إلى الساعة. ستقلع الطائرة خلال نصف ساعة.

طلبت منه: «عِدْني أنك ستنقل أطيب تمنياتي لآنا وخوسيه».

«بكل سرور، وإذا حصل أن زرت لندن...».

«وكذلك أنت. ستجد اسمي في دفتر الهاتف إن زرتَ أوسلو. لكن عدني أن تسلم لي سلاماً حاراً عليهما. مع تمنياتي بشفاء عاجل للمريضة!»

كان السائق يطلق بوق السيارة. خلال بضع ساعات وجدتني على متن طائرة جامبو متجهة نحو هونولولو ولوس أنجلس.

آثرتِ تقسيم حزننا إلى حُزنين

انكببتُ فور عودتي إلى أوسلو على إعداد تقريري، ومنذ أسبوعين وصلت إلى سلمنكا. كنتُ على أحرٍّ من الجمر لمعرفة إن كنتِ ستحضرين، بل وأشد تلهفاً لاكتشاف إن كنتِ تعلمين بحضوري أنا أيضاً للمؤتمر. لا أعرف حتى الآن من منا حجز مقعداً قبل الآخر، لكني كنتُ قد أرسلت طلباً شَرطياً قبل أن أسافر إلى المحيط الهادي، وحين اتصلتُ من تاڤوني لتثبيت حضوري، كان اسمك موجوداً في قائمة المشاركين. ولم يُطلَب مني تقديم ورقة عن هجرة الأنواع الحية والتنوع الحيوي إلا بعد عودتي إلى أوسلو.

أمن المحتمل أنك سجلتِ اسمك في المؤتمر لكي نلتقي؟ أم أنك قررتِ الحضور لأسباب مهنية فقط، حتى لو صادفتِني فيه؟ إن كان هذا هو السبب الوحيد فلديك الفرصة لإلغاء تسجيلك. لست أدري إن كنت أشرح أفكاري بوضوح، لكن ـ كما قد تفهمين ـ لم أجرؤ على اعتبار رغبتك في رؤيتي شيئاً مسلماً به. لا تزال الرسالة القصيرة التي بعثتِها لي في تشرين الثاني ترنّ في أذني، ومازلت أذكر الحديث الهاتفي الذي جرى بعدها. كان ذلك آخر اتصال بيننا. لكنك جئتِ، ولم تكوني تعرفين بوجودي إلى أن رأيتِ البرنامج النهائي. ثم فكّرتِ بما فكرتُه أنا تماماً. حتى لو لم يعد يمكننا العيش معاً، فإننا نشترك على الأقل بحزن عميق، وإنه لشيء كتب علينا أن نستمر في الاشتراك فيه إلى الأبد. كُتِب علينا، كما قلتِ، أن نشترك في هذا الحزن فقط. مرت ثمانية أشهر منذ أن فقدنا سونيا، ونصف عام منذ أن حزمت أغراضك وغادرت سوغنسفين عائدة إلى أسرتك في برشلونة.

لا بد أنه خطر ببالك أنه قُدّر لنا، للمرة الثانية، أن نلتقي في مؤتمر علمي.

دارت الأيام دورة كاملة، وانقضت عشر سنوات تقريباً منذ أن التقينا لأول مرة في مؤتمر كبير في مدريد، وبعد بضعة شهور من ذلك المؤتمر كنا نعيش معاً في أوسلو.

لمّا لمحتك في بهو فندق غران هوتيل، تراءيت لي أكثر إشراقاً من أي يوم مضى. كنتِ شخصاً مختلفاً بالفعل عن الشخص الذي أتذكره من تلك الأسابيع الختامية الكئيبة في أوسلو. في تلك الوهلة الأولى، اكتفينا بالوقوف والنظر واحدنا إلى الآخر، ثم أشرتِ كالعادة إلى أني لم أحلق ذقني جيداً. بعد ذلك سحبْتِني إلى إحدى الزوايا، وأحاط كل منا الآخر بذراعه وبكينا. لا أعتقد أن تلك الدموع كانت من أجل سونيا فقط.

قلتِ لي إنك نِلْتِ منحة بحثية، وبسبب تلك المنحة أو لأني وجدتك جميلة جداً، افترضتُ أن في حياتك رجلاً آخر. وفي أول لحظة بالذات من لقائنا، قلتِ شيئاً كنتِ مصرة على أن أفهمه منذ البداية؛ قلتِ إنه لطيف أن تريني ثانية، لكن علينا ألّا نطرق موضوع المصالحة بيننا لأنك متأكدة تماماً أننا لن نستطيع العيش معاً، زوجاً وزوجة، من جديد. أذكر أني سلمت بما قلتِه لأني كنت سعيداً برؤيتك. قلتُ إني أنا أيضاً أدرك أن لا سبيل لعودتنا إلى الحياة الزوجية. كنت أكذب.

لست أدري إن كان عليّ أن أصف وضعنا بأنه طريق مسدود. ولكن ما الطريق المسدود إن لم يكن توافقاً تاماً بين شخصين على ألّا يسلكا مسلكاً معيناً؟ لعل تحفظي الوحيد على ذلك هو إلى أي حدّ كنّا، أنت وأنا، صادقين في نياتنا. أكان من المحتمل أن يختلف الحال لو أن أحداً منا تجرأ على إعلان اقتناعه بشيء آخر؟ إذا كان من صفة مشتركة بيننا، فلا بد أن هذه الصفة هي الكبرياء.

لن أتحدث كثيراً عن المؤتمر نفسه، مع أني لم أشكرك كما يجب على ما قدمتِه لي من مساندة حين حاول ذلك الأمريكي، داعية الليبرالية البيولوجية، إثبات عدم جدوى منع هجرة الأنواع النباتية والحيوانية؛ فلندع الطبيعة تتصرف! كما تصرّفت دائماً حسب رأيه! ثم دخلت أنتِ معمعان الجدال.

رأيتِ أن البشر جزء من الطبيعة، وأنك، بهذه الصفة، ستتصرفين. قلت إن الدكتور جيبونز، الأمريكي، لم يفهم ورقتي. واقترحتِ عليه أن يعيد دراسة منهاجه الجامعي. شدّدتِ على أن الإنسان قد علّق دور الاصطفاء الطبيعي، وأنه لم يكن ثمّة رحلات جوية، عابرة للقارات، في الحقبتين الكريتاسية والجوراسيّة، ولا رحلات بحرية بين غوندوانا ولوراسيا. أتذكرين جوابه؟ دعه يعمل، دعه يمرا

كان عدد من المشاركين في المؤتمر يعرفون حكاية زواجنا وسبب انفصالنا. لكن لا بد أن هذا العدد ارتفع كثيراً بعد دفاعك الصلب عن ورقتي. شعرنا نحن الاثنين أنه يجب أن لا نُكثر من الظهور معاً طالما لم يمضِ على انفصالنا سوى فترة وجيزة. فقد يؤدي ذلك إلى مؤتمر من القيل والقال، وهذا ما أردنا تفاديه. إذ كلما كثر ظهورنا معاً، سيكثر الكلام عنّا، وستكثر التخمينات حول ظروف الحادث الذي أودى بسونيا. أرى أننا كنّا عاقلين وتصرّفنا باتزان آنذاك، أما الآن فكل ما أريد قوله هو بضع كلمات عن آخر عصريّة وآخر أمسية قضيناهما معاً.

سبق لي أن زرتُ سلمنكا مرتين قبلاً، لكنها كانت جديدة عليك تماماً؛ وهذا ما جعلك تصرّين على أن نطوف في البلدة القديمة المتميزة بجامعتها. بقيتُ أنا في المدينة بعد رحيلك، وأعترف أني سلكتُ عصر اليوم التالي ذات الطريق الذي سلكناه معاً حين انطلقنا من ساحة المدينة، بلازا مايور، التي قلتِ إنها أقدم وأجمل بلازا مايور في أسبانيا؛ ثم انحدرنا نحو بالاسيومونتيري الذي تمتلكه الآن دوقة ألبا. ولمّا مررنا عبر الساحة الصغيرة القابعة بين قصر النهضة وإغليسيا دولا بوريسيما أخذنا نتكلم عن حوادث صغيرة من حياة سونيا. لم نتكلم كثيراً حول الأبنية القديمة ذات الحجارة الصدئية اللون التي غشّاها لونٌ وردي لطيف تحت الضوء الذهبي لعصر ذلك اليوم. لم تكن تلك القصور القديمة ذات القيمة التاريخية أكثر من خلفيةٍ لحديثٍ مكتومٍ عن ابنة لم تعد من هذا العالم.

فكرتُ وقتها أنه لولا تلك الحادثة لكنّا، أنت وأنا، نتجول في أرجاء

سلمنكا وبيننا بُنيّة في الخامسة من عمرها. كان المؤتمر سيثير اهتمامنا حتى بوجود طفل صغير يحتاج رعايتنا؛ ولم لا تحضر سونيا المؤتمر على أية حال؟

كنا سنمشي من الساحة، بين الكنيسة وقصر النهضة، صعداً نحو كازا دولا كونشاس ذي الواجهة الضخمة المكونة من خمسمئة قوقعة إسكالوب. وبالطبع كانت سونيا ستنطلق جارية بسرعة في فناء الكازا الرائع، وتبدأ بتسلق الأدراج بينما نحن في الداخل نتفرج على المكتبة وقاعة المطالعة. قد تجري بعد قليل قاطعة الشارع ثم صاعدة أدراج دير لا كليريسيا اليسوعي، وبينما نحن نقطع بلازا دو سان إيزودورو، قد ترفع رأسها وتشير إلى الأبراج العالية قبل أن نحاول نحن إقناعها بالدخول في زقاق كال دو لوس ليبروس الضيق في طريقنا نحو الجامعة القديمة. لا شك أنها كانت ستتمتع برؤية فناء دولاس إسكولاس، ولربما تسأل لمن التمثال المنتصب في الساحة. كنت ستقولين إنه تمثال فراي لويس دو ليون، وإنه، منذ زمن بعيد، كان أستاذاً في الجامعة، لكنه سجن خمس سنوات لأنه آمنَ بشيء متعارض مع تعاليم الكنيسة؛ حين عاد إلى التعليم بعد إطلاق سراحه ابتدأ محاضرته بالقول: «كما كنّا نقول البارحة...». حين تسمع سونيا ذلك، ستنفجر ضاحكة لأن سنيناً خمساً قد مرت منذ أن قال آخر كلمة لطلابه. لم يقع ذلك البارحة، خمس سنوات تعادل عمر سونيا كله، وهذا زمن طويل جداً جداً بالفعل، بطول الأبدية تقريباً؛ ولكن تلك هي المدة التي قضاها الرجل في السجن. وربما رددتِ أنت، ڤيرا، بأن سألتِ سُونيا سؤالاً آخر، وهو ما اعتدت على فعله حين كان يصعب عليها فهم شيء ما. لربما سألتِها: لماذا، في رأيك، بدأ درسه بالقول: «كما كنا نقول البارحة»، في حين أنه كان في السجن سنواتٍ خمساً؟ ولربما أجابت سونيا بأنه كان يحاول نسيان السنوات البائسة التي قضاها في السجن، أو قد تسأل سؤالاً جديداً، هذا إن لم تبدأ بالإشارة إلى المرصعات والدروع والأشكال الحيوانية المحفورة على الواجهة الرائعة للجامعة. كانت ستلمح الجمجمة التي يعلوها ضفدع قبل أن نلمحها نحن، لكن من غير المحتمل أن تخبريها أن ذلك النقش تعبير رمزي عن العلاقة بين الموت والشهوة الجنسية، وما كنت ستقولين إن تلك القطعة الفنية

وُضِعتْ حيث هي لتحذير الطلاب الشبان من التهتك الجنسي. كنت ستقولين بالأحرى إن الضفادع نشطة ومحبة للعب، بالضبط مثل بعض الناس، لكنّ يوماً سيأتي حتماً ولا يكون فيه لعب. وقبل أن ننهي، أنت وأنا، إشباع حواسنا بجمال تلك الواجهة الباذخة الغنية بالزخارف، كانت سونيا ستنطلق أمامنا نحو فناء لاإسكولاس منروس المطابق لتصاميم القرن الخامس عشر. قد نسير نحن ونتحدث، أما هي فستدخل بمبادرة شخصية منها إلى متحف الجامعة وتقف بتبجيل تحت قنطرته السماوية اللون التي ترتسم عليها كل مجموعات النجوم. قد لا تستسلم لإغرائنا لها بالدخول إلى قاعة محاضرات لويس دوليون، وهكذا ستفوتنا فرصة زيارة قاعة بارا نينفو المتميزة بسُجُفِها البلجيكي وبلوحة كارلوس الخامس التي رسمها غويا، دون أن ننسى المكتبة الشهيرة بكتبها التراثية القيّمة. لكني أظن أنها كانت ستقودنا بترفّع إلى دخول الكاتدرائيتين، ثم تطلب البوظة، وستضطر العائلة إلى الانتظار حتى اليوم التالي من أجل زيارة دير سان إستيبان المتميز بأعشاش ضخمة بَنَتْها الطيور على أعلى واجهته، وكذلك دير دو لاس دينياس ذي الأروقة الجميلة، وقصر فونسيكا بالِس الباقي منذ عصر النهضة وهو يحيط بالساحة المتميزة بأسلوبها المعماري الرائع، والتي استُخدمتْ يوماً لمصارعة الثيران.

توافقنا على أن الحديث عن سونيا عصر ذلك اليوم سيكون مفيداً لنا نحن الاثنين، وأظن أننا استطعنا الانغماس فيه دونما تحفظ لأننا كنا محاطين بحياة عدد من القرون الخوالي. كنتِ مصرّة على أن أقودك في أنحاء البلدة والجامعة القديمة، كنتِ مصرة على تلك الجولة مع أن حديثنا اقتصر على سونيا وحدها. وهكذا، بمعنى من المعاني، جاءت سونيا معنا إلى سلمنكا. لا، لم تعد سونيا حية، فيرا، ليس هذا ما أردتُ قوله، بل لا أقول إن علينا أن نتقبّل موتها؛ لكن إن كان لذكرياتنا الكثيرة عن تلك الطفلة الصغيرة أن تحتفظ بفسحة حية، برنين باقٍ، بعنصرٍ من الدوام، فإنما أنت وأنا من نستطيع إبداع ذلك كله.

حكيتِ لي عدداً من القصص الصغيرة عن ابنتي، قصصاً لم أسمعها من قبلُ أبداً. كم آلمني ذلك، وكم أسفتُ على أني لم أرافقها في كل لحظات

فرصتها الوجيزة على الأرض. لكن قصصك أنعشت لديَّ الأمل بأن أتعرف عليها أكثر مما عرفتها. كنتِ كثيراً ما تستديرين وتمسحين عينيك. رأيتك تفعلين ذلك ڤيرا، ولعلك أدركتِ أني لم أكن أدقق النظر في النقوش الناتئة حين أدرتُ وجهي نحو الواجهة القديمة للجامعة وأنت تشيرين إلى الضفدع والجمجمة. لكن استوقفني عدة مرات أثناء مشوارنا الطويل حقيقة أنك لاتزالين أم سونيا. قد يؤلمك هذا التذكير، لكنها أم سونيا الصغيرة من كنت أمشي معها بعد ظهر ذلك اليوم. لم تَعِشْ الطفلة لتتجاوز سن أربعة أعوام ونصف؛ أبوها وأمها فقط هما اللذان سيكبران بلا رحمة، سيتجاوزان الأربعين والخمسين والستين؛ لكنها سونيا ذات الأعوام الأربعة والنصف هي التي سيعيشان معها ما بقي من عمريهما. ڤيرا، كنتِ لا تزالين أمها، وكنت لا أزال أبا طفلتك.

بعد العشاء الرسمي في نهاية المؤتمر، تركنا الأجواء الاحتفالية خلفنا، وهنا، مرة أخرى أردتِ أن نتجول على أقدامنا. أتذكرين؟ كنت مُصِرّةً جداً على أن نشاهد النهر معاً. قلتِ إنك تمشّيت بمفردك على ضفتي التورمز عصر يوم وصولك. ومن فوق الجسر الروماني القديم تفرجتِ على الطيور، على التَّمّْ (السوان) والإوز. وفجأة أذهلك الجمال الشديد للمشهد حين سمعت أغنية العندليب. كان الوقت غروباً، وكانت سلمنكا تمتد خلفك كأنها جوهرة ضاربة إلى الحمرة.

كان الظلام مخيِّماً هذه المرة حين غادرنا الفندق وبدأنا النزول نحو النهر. لم تعد سونيا موضوع حديثنا هنا. كان حديثاً فاتراً في البداية، لكنني سرعان ما بدأتُ أتحدث عنكِ وعن شؤونكِ، وأنت تتحدثين عني وعن شؤوني. سألتِني الكثير من الأسئلة حول إقامتي الطويلة في أوقيانيا، ولعلّي أخبرتك ببعض ما جرى في تاڤوني. أظنّني رويتُ لك، على الأقل، وليس دون قدر من الاستهانة بالذات، كيف أني لم أجرؤ على طرد أبو بريص عن زجاجة الجن خوفاً من سقوطها على الأرض. سألتُكِ عن مشروعك البحثي، وختمتُ بالقول إنك قد تكونين أهم الخبراء الإسبان في مجال علم الإحاثة، أو على الأقل في مجال هجرات الأنواع الحية في الأزمنة قبل التاريخية. ابتسمتِ لسماع ذلك، ڤيرا،

وعلى كل حال لم تعترضي عليه. كنتِ فخورة لنيلك تلك المنحة.

وصلنا إلى النهر، وتمشّينا باتجاه الجسر الذي بُني منذ ألفي عام. لعل طيور التّم هي التي ذكّرتك بسونيا. على كل حال، أخذتِ تتذكرين حياتنا العائلية في أوسلو، وهنا بدا كأن تلك الحياة اتخذت معنىً صوفياً. تحدثتِ عن كل ما قمنا به من رحلات إلى بحيرة سوغنسفان وأوليفالستر، عن أول مرة وضعْتِ فيها لسونيا أجنحة مطّاطيّة منفوخة لتعلم السباحة على شاطئ هوك، وعن يوم قضتْ قرابة ساعة وهي تحاول اجتياز المتاهة الكبيرة في متنزّه فيجلاند. طلبتْ يومها جائزة لنجاحها في الخروج من المتاهة، ونالتْ على إنجازها قطعة كبيرة من البوظة.

تركتك تتكلمين، وأخذتُ أفكر بالعهد الذي قطعناه لبعضنا بعدم التطرّق إلى احتمال عودة الثلثين الباقيين من العائلة إلى الحياة المشتركة. أدركتُ أن طريق العودة قد لا يكون مفروشاً بالورود. ومع ذلك من الجبن ألّا نحاول طَرْقَ سبيلٍ جديدٍ. أنا نفسي كنت منقسماً بين مَيْلَيْن، ولم تكن فكرة العودة إلى حياةٍ مشتركةٍ مغريةٍ جداً بالنسبة لي. لكن بينما كنتِ تتحدثين عن خروج سونيا من المتاهة، فكرتُ أن علينا أن نحاول الوصول إلى درجة من التفاهم المشترك.

لا بد أنكِ لاحظت صمتي، لأنكِ قطعتِ كلامكِ، وسألتِني فيم كنت أفكر. وتعلمين بالخبرة أني لا أصمت متأملاً إلا حين أفكر في أمرٍ محزن. قلتُ إني أفكر بنا، فنصحتني بألا أفكر في الأمر. أشرتِ إلى أن السبب الوحيد لِحُسن سير الأمور بيننا حتى الآن هو سونيا. وأجبتُ أنا أنه بسبب سونيا إنما أفكر فينا، لكنك سرعان ما استغرقت في حكاية طويلة عن كيف كادوا يخطئون بين سونيا ووليد آخر حين أخرجوكِ من عيادة الولادة. وختمتِ حكايتك بالقول: لو حصل ذلك لما كانت طفلتي هي التي ماتت، ولكانت لا تزال هنا.

أتذكّرُ كيف حكيتِ لي، مراراً وتكراراً، عما حدث في سوغنسفين، ودائماً بتفاصيل حارقة مع أن الحادث كان سريعاً جداً في الواقع. فوق ذلك

اضطررتِ للذهاب إلى مخفر الشرطة مرتين أو ثلاثاً. منذ ذلك الوقت صار ذِكْرُ سلسلة الحوادث تلك موضوعاً مُحرّماً، شيئاً نشير إليه بكلمة «الأمر» أو «ما حصل»؛ وأشعر أننا كنا خائفين، في سلمنكا، من العودة إلى تلك المشاهد الفظيعة. كان الأمر سيشبه نكْأَ جرحٍ قديم. ما أفكر فيه هنا ليس خسارتنا الأليمة لسونيا، بل أيضاً الجراح التي تسبّب بها كل منا للآخر.

«ما حصل» هو شيء عادي وشائع جداً إلى درجة أنه يزيد، ولا يُنْقِص، من فظاعة الأمر. مررتِ لأخذ سونيا من مدرسة الألعاب، وضعتِها في السيارة، ثم شغلتِ المحرك، لكنك هنا تذكرتِ أنك نسيت خُفّها في غرفة الودائع. أطفأتِ المحرك وسحبتِ المفتاح، لكنِ نسيتِ فرملة السيارة أو وضعها في نقطة العطالة. سرعان ما عدتِ حاملةً الخُفّ. هنا فقط بدأت السيارة بالتحرك، هنا فقط لأن القدر ـ كما ثابرتِ دائماً على الإشارة ـ أراد التمتع بعرض التّحول المؤلم أمام عينيك، ولتدركي، من ثم، أنك عاجزة عن فعل أي شيء. ونعرف ماذا حدث عند المنعطف على بعد ثلاثمئة متر. نعرف ما حدث بعد ذلك بثلاثة أيام. وبصرف النظر عن أي شيء آخر قد يصيبنا، نعرف أننا لن نعود أبداً للكلام عن سلسلة الأحداث تلك.

قلتُها مراتٍ عديدة، وأقولها مرة أخرى، أقولها كتابةً هذه المرة لتحتفظي بها إلى الأبد: لم تعد المسألة مسألةَ صفح أبداً. لقد نلتِ الصفح مرات عديدة، مرات عديدة سلفاً. مضى كل ذلك وانقضى الآن، انتهى. أقِرُّ أني حمّلتُك المسؤولية أثناء الفجيعة. بل طلبتُ منك في إحدى المرات أن تحزمي أغراضك وترحلي، رغم أني وقعتُ منهاراً حين نطقتُ بهذا الطلب. ثم طلبتُ منك الصفح على حزني المدمِّر. أنتِ التي قررتِ أخيراً أن تتركيني. كنتُ قد سألتك السؤال نفسه مرات عديدة، ذات السؤال الذي طرحته عليك الشرطة: لماذا تركتِ سونيا وحدها؟ لماذا لم تفرملي السيارة؟ لماذا على الأقل لم تضعي السيارة في نقطة العطالة؟ ولماذا كان من الضروري جداً أن تأخذي الخف معك؟ نعم، لماذا، بحق الله، أردتِ أخذ ذلك الخُفّ؟

ثم هناك شيء آخر. ذهبتِ إلى هناك مباشرة بعد ختام احتفال المعهد في

نهاية العام الدراسي، وكنتِ قد تناولتِ أربع كؤوس من الشمبانيا. انطلقتِ بالسيارة متجاوزة حد السرعة. لم تُقدَّمي إلى المحكمة من أجل هذه المخالفة. والسبب الذي قدمته الشرطة لعدم محاكمتك هو أنه سبق لك أن عانيت الكثير. كانت تلك كلماتهم حرفياً. سبق لك أن عانيت الكثير. وهكذا كانت الشرطة أكثر إنسانية مما كان أقرب الناس وأعزهم عليك. إن كنت لاتزالين تلومين نفسك على ما حصل، أو من أجل لحظة شرود نسيت فيها فرملة السيارة، سأخبرك أن لديك أسباباً أكثر للومي على وضع الملح في جرحك المفتوح: فعلتُ ذلك قصداً، نكأتُ جرحك أحياناً عن سابق إصرار وتصميم.

ما أحاول قوله هو أننا تجاوزنا ذلك كله، بمعنى ما، بل وفي النهاية تصالحنا. ليس لأني لم أصفح عنك غادرتِ إلى برشلونة. لقد مضيتُ إلى حد القول إنه كان من الوارد جداً أن أكون أنا الشخص المهمل، وهذا بالتأكيد ما يمكن أن يقع فيه أي شخص في لحظة عجلة. وكم كان أداؤك جميلاً في المعهد! كان الحادث من تلك الأشياء التي تحصل أحياناً: نحسٌ فظيع يصيبُ عائلة صغيرة كأنه سقوط صاعقة.

تصالحنا تماماً فيرا. وحين حزمتِ أمتعتكِ وغادرتِ لم يكن السبب هو عدمَ نيلكِ الصفح. كنت تغادرين حزني. حزني هو الشيء الذي لم تستطيعي العيش معه. كان صعباً عليك أن تعيشي مع حزنك أنت. كنت تحملين الأسى نفسه، وإن لم يكن من السهل أن تهربي منه كما هربتِ من حزني أنا. لم تستطيعي أن تفصلي تعاستي المستمرة عن اتهاماتي السابقة لك. لكني لم أكن ذكياً خلال تلك الأسابيع، ولو كانت لدي عائلة أعود إليها في بلد آخر فلربما فعلتُ. وكان من صالحي أيضاً اقتراب موعد رحلتي الطويلة إلى أوقيانيا. كان ثمة حزن كبير في البيت، كثير من الأسى تحت سقفٍ واحدٍ، وآثرتِ أنتِ تقسيم حزننا إلى حُزنين.

وقفنا على الجسر العتيق نتابع بأنظارنا تيار الماء الدفّاق. وحين أنهيتِ حكايتك عن اليوم الذي جاءت فيه سونيا وبيدها ورقة نقدية من فئة مئة كرون، وجدتْها في جيب معطف أحد العاملين في مدرسة الألعاب، أوشكتُ

أنا على النكثِ بالعهد الذي قطعناه لبعضنا في الفندق. كنت سأقول إنه لا حاجة بنا إلى الحديث عن ذلك العهد، ولكن علينا أن نسأل أنفسنا عما إذا لم يكن يتوجب البحث عن سبيلٍ لعودتنا معاً، سبيلٍ جديدٍ بالطبع. لا حاجة بنا إلى طرق الدروب القديمة المؤلمة.

توافقنا نحن الاثنين على اعتبار الوقائع التالية لموت سونيا محتومة. ولكن هل تشير كل نهايةٍ وختامٍ إلى اتجاه واحد فقط؟ ألا يمكن أن يشير حادث راهن إلى وقتٍ مضى، ويعطي معنىً جديداً لشيء وقع سابقاً؟ أعرف أن الأسئلة التي أطرحُ أسئلة جريئة، لكن ألا يمكن أن نُحاول فِعلَ شيء يعطي معنىً لموت سونيا؟

الشيء الوحيد الذي استطعتُ سؤالك عنه على الجسر هو ما إذا كان لديكِ صديق. ولم تتح لك أدنى فرصة للإجابة لأنني، في تلك اللحظة بالذات، لمحتُ شخصين على ضفة النهر. كانا متحاضنين في مشيتهما كأنهما انصهرا في شخص واحد. استطعت رؤيتهما بوضوح لأنهما مرّا، خلال بضع لحظات، أمام المصابيح القوية التي كانت تغمر الجسر بنورها ملقية علينا ظلالاً هائلة. لكنني استطعت أن أميز امرأة بالأحمر ورجلاً بالأسود. كنت واثقاً أنهما آنا وخوسيه. سبق لي أن رأيتهما معاً، والآن كأني كنت في بستان النخل في ماراڤو. وضعتُ يداً على كتفكِ وأشرت نحوهما:

«آنا وخوسيه»، قلتُ هامساً لشدة دهشتي. رفعتِ ناظريك نحوي وعلى محيّاك ابتسامة عابثة. تساءلتُ فيما بعد عما إذا كانت تلك الابتسامة الدافئة والمتشيطنة رداً على ذِكْري لاسمين لم تسمعي بهما من قبل، أم أن لها جذوراً في السؤال الذي طرحته عليك لتوي.

كان جميلاً أن أراك تضحكين ثانية، إنه شيء لم أعهده منك منذ ذلك الصباح الذي كنت فيه منفعلة لأنك ستشاركين في مراجعات المعهد الصيفية. حكيتُ لك عن الأقوال الحكيمة التي كان يلقيها كل منهما على مسامع الآخر في تاڤوني، قلت إني تجسست عليهما حين كانا يسبحان عاريين تحت شلالات بوما، ذكرت لك أن آنا راقصة فلامنكو شهيرة، وأنها وقعت مريضة فجأة؛

لا بُدّ أني رويتُ الكثير عنهما غير ذلك. لكني واثق أني قلت لك إنهما بصاران، ولهذا يربحان دائماً في ورق اللعب. وأهم من كل ذلك، حكيتُ لكِ أيضاً أني متأكّد من أني صادفت آنا قبلاً، لكني لم أستطع تحديد مكان حدوث هذا اللقاء. غير أنك كنت تضحكين، لم تَكُفّي عن الضحك، كأنك حبستِ ضحكك زمناً طويلاً وكنتِ تنتظرين حجة لإطلاقه، كنتِ متيقنةً من أني أخدعك. في البداية اعتقدتِ أني أشرتُ إلى الثنائي لأغطي ارتباكي بعد السؤال عن وجود صديق في حياتك، أو لأغطي عدم تجرؤي على انتظار جواب عليه. ثم قلتِ إني بدأت باختلاق القصص من أجل أن أستبقيكِ قرب النهر. نظريتكِ الثالثة كانت أني حولت الانتباه فجأة إلى العاشقين تمهيداً لنكثِ عهدٍ قطعتُه. لكن كان لديك تفسير رابع، التفسير الذي تعلقتِ به أكثر من غيره، ولم تتخلي عنه طوال الأمسية. قلتِ إني بدأت بتأليف قصص غير معقولة فقط لأجعلك تضحكين. أفرحكِ الضحك كثيراً؛ كأن السعادة كانت تشع من وجهكِ وأنت تستعيدين كنزاً ظننته ضاع ولا أمل باسترجاعه. بالمناسبة لعلك ستلاحظين أن تفسيراتك الأربعة تشترك بشيء واحد: الوداعة الأنثوية مبثوثة فيها بالتساوي.

أذكر أني فكرت باللحاق بآنا وخوسيه اللذين سرعان ما غادرا ضفة النهر واتجها صوب البلدة. غير أني كنت معكِ، وقد أصبتِ بإشارتك إلى أني أردتُ استبقاءك قرب التورمز، وتحت سماء المساء الجميلة، أطول وقت ممكن. كانت تلك أمسيتنا الأخيرة معاً، وكنتُ على وشك الشروع بطرقٍ واحدٍ من أهم المواضيع في حياتي، بل كنتُ أوشِكُ على الحنث بيمين أقسمته. لكن كان ثمة شيء أخر منعني من اللحاق بهما: لم أشأ أن أنتهك، مرة أخرى، الحميمية اللطيفة التي شهدتها بين آنا وخوسيه. ثم إني لو هُرِعتُ نحوهما فجأة، لوجدتِ في تصرفي أربعة دوافع مختلفة على الأقل، ولربما انفجرت في نوبة جديدة من الضحك.

ما أجمل ضحككِ فيرا! لا بُدّ أني كنتُ مضطرباً وبدوتُ شديد الحماقة. لكن ما أجمل ضحككِ! أفلحتُ مرة واحدة فقط في اختراق عاصفة الضحك

الهادرة. فلمّا اختفى خوسه وآنا في البلدة، وكررتُ أني أعرفهما بالفعل، قلتِ: «إن هما إلا غجريان يافرانك».

بدأنا العودة إلى الفندق مشياً، وهنا صار ثمة موضوعان محرّمان: الأوّل هو آنا وخوسيه، والثاني هو فرانك وڤيرا.

صباح اليوم التالي أخذتِ القطار إلى مدريد ومنها إلى برشلونة، أمّا أنا فقد ذكرت لك أني سأقضي ليلة أخرى في سلمنكا. لم تصدّقيني، ولابد أنه كانت لديك تقديراتك الخاصة عن سبب اختياري البقاء في المدينة مدة أطول مما سبق لي أن قررتُ.

رافقتُك حتى باب غرفتك في تلك الأمسية الأخيرة. لم تمضِ سوى شهور قليلة منذ أن كنا نشترك في سرير واحد. وفي تلك اللحظة بدا لي أمراً مؤسفاً وخالياً من المعنى ألّا نشترك في ذات الغرفة. وهكذا، بمعنى ما، كنا أشد غربة عن بعضنا مما لو لم نلتق أبداً.

نمتُ حتى وقتٍ متأخر في اليوم التالي، ثم انطلقتُ إلى المدينة بحثاً عن آنا وخوسيه. في البداية تجولت عشوائياً في الشوارع وسألت في مكانين عن آنا وخوسيه، راقصة فلامنكو معروفة وإعلامي يعمل في التلفزيون. لكن بحثي كان يائساً بالطبع لعدم معرفتي بكُنيتيهما. لم أكن قد تناولتُ فطوري، فدخلتُ، إلى مقهى مزدحم يطل على ساحة المدينة، المقهى الذي سبق أن تناولنا فيه، أنت وأنا، الغداء معاً في اليوم الذي رددتِ فيه على نقد جيبونز لكلمتي في المؤتمر. طلبتُ كعكة وزجاجة بيرة، ولابد أن الحظ كان يبتسم لي لأني، بعد قليل، رأيت آنا تندفع داخل المقهى. لم تلحظْني، وحين التفتُّ حولي رأيتُ خوسيه جالساً خلف أحد الأعمدة في عمق المقهى. كان ينتظرها. ولعله بدوره لم يلحظني.

أصخت أذني، فسمعتهما يتهامسان بانفعال، لكني لم ألتقط شيئاً مما قالاه بسبب بُعْدِ مكانهما عني. قررتُ أن أذهب وأسلّم عليهما بعد إنهاء طبق العجّة. فبعد كل شيء إنها لمصادفة خارقة أن أرتطم بهما في هذا المكان البعيد جداً عن ماراڤو. لكن بعد قليل بدأت موسيقا الفلامنكو تصدح من جهاز

التسجيل، وخمنتُ أنها انطلقت تحية للراقصة. كان ثمة خليط غنائي أبحّ يغني عن الحب والخداع، عن الحياة والموت. التفتُّ ألقي نظرة نحو أعماق المقهى؛ بدا كأن جسد آنا يتحرك مع الموسيقا، وأذكر أني فكرت بأنها تمنع نفسها من القفز من مكانها والرقص على تلك النغمات الشجية.

ثم نهضتُ، لكن ليس للرقص. بذات السرعة التي دخلتُ فيها المكان ركضتُ خارجة منه. التفتتُ لحظة نحو خوسيه وصرختُ بضراعة: «أريد الذهاب إلى البيت، هل تسمع؟ أريد الذهاب إلى البيت في إشبيلية».

إذا كان من دأبي الظن أن الهيجانات الانفعالية تحدث في أحسن العائلات، فإني لم أعد قادراً على الاستمرار في هذا الظن؛ إذ ها هنا حان دور خوسيه ليندفع خارجاً من المقهى، لكنني قفزتُ واقفاً أمامه، وقلت: «خوسيه؟».

قال بدهشة: «فرانك!».

رماني بنظرة حادة، ثم رفع ذراعه كأنه يقول: «ما الذي يمكنني فعله!» أو شيئاً من هذا القبيل. لكنه كان في عجلة من أمره، وكل ما قاله وهو يمضي مسرعاً: « فرانك، يجب أن نلتقي ونتحدث! هل ستزور متحف ألبرادو يوماً؟».

هذا كل شيء، ڤيرا. تجولت في أنحاء سلمنكا بقية ذلك اليوم، لكني لم ألمح آنا وخوسيه.

«فرانك، يجب أن نلتقي ونتحدث! هل ستزور ألبرادو يوما؟» ما معنى ذلك؟ ما كل هذه الأشياء التي تتعلق بمتحف ألبرادو؟ لكن هذا الكلام ضرب وتراً معيناً لدي. فجأةً تذكرتُ آخر حديث لي مع جون في منتجع ماراڤو بلانتيشن ريزورت. أثناء وداعي له، حثني هو الآخر على زيارة ألبرادو. لكنني لا أحتاج إلى تشجيع كهذا بالتأكيد؛ فأنا أول من حدّث المؤلف الإنكليزي عن ولعي الخالص بمجموعة ذلك المتحف الفنية.

هناك أشياء معيّنة يجب التسليم بها تسليماً. لمّا غادرتُ منتجع ماراڤوا بعد إغماءة آنا المفاجئة وعدني جون بنقل تحياتي لها ولخوسيه. لا بُدّ أنه ذكر أمامهما شغفي بالفن الإسباني. أسعدهما سماع ذلك، ورغبا في سماع المزيد

عن هذا الاهتمام. ولكن لماذا متحف ألبرادو؟ لماذا ليس متحف ثيسن أو رينا صوفيا؟ ولِمَ يجب عليَّ أن أحدد من الذي أحبه أكثر: غويا أم فيلاسكيز، إلْ غريكو أم بوس؟ عليَّ تخصيص وقت كافٍ للنظر بعناية إلى أعمال كل منهم كما قال جون.

باكراً صباح اليوم التالي أخذتُ القطار إلى مدريد. حين صعد القطار الهضبة جلستُ أنعمُ النظر في كل تلك الأسوار الحجرية. ذكّرني شيء ما في ذلك المكان بالمزارع الصيفية في الجبال النرويجية.

لـمّا لمحتُ الأسوار الخرافية لمدينة أفيلا، اتجهت أفكاري إلى القديسة تيريزا الأفيلية. ثم عادتْ إلى لورا في منتجع ماراڤو لأن خط تداعيات ذهني مضى من التصوّف الديني إلى عين لورا البنية؛ أعترفُ مع ذلك أن عينها الخضراء وما أظهرته نحوي من حنان هما اللذان لبثا في ذاكرتي أطول وقت. سرعان ما تبددت هذه التخيلات العذبة حين فرضتْ نفسها عليَّ، ذكرى لم أستطع محوها. أثناء زيارتي السابقة إلى سلمنكا دخلت إلى كنيسة الدير في ألبا دوتورمز حيث حُفِظتْ، بطريقة مريعة، البقايا الدنيوية للقديسة تيريزا. زرت أحد ذراعيها خلف باب يقع إلى اليسار من غرفة المقدسات، وقلْبها خلف باب إلى اليمين. وفي رواق مركز القديسة تيريزا تأملتُ أيضاً الإصبع الشاهدة للقديس يوحنا الصليبي، الصوفي الإسباني الكبير. كان كلاهما من أصحاب الأفكار والرؤى العظيمة، وها هما الآن يستلقيان مرتاحين. قلت لنفسي: «يرتاحان قِطَعاً».

لـمّا وصلت محطة شامارتين في مدريد ركبتُ قطاراً آخرَ إلى آخِر الخط في أتوشا. مشيتُ من هناك إلى فندق هوتل بالس وحجزت فيه لمدة غير محددة. أحسستُ أني لن أستطيع العودة إلى النرويج قبل أن أستجمع نفسي. ثم إن من الصعب أن أبرح إسبانيا وأنا أعرف أنكِ هناك في برشلونة. في بلدي ما من أحد أفكر فيه إلا نفسي، أي، بعبارة أخرى، لا أحد.

بيليس بيرينيس

كنت لغزاً غامضاً لنفسي، فلم أزر ألبرادو، إلا بعد مرور أسبوعين على وصولي إلى مدريد. شعرت أنه قد بُولِغ كثيراً، وكثيراً جداً، في شأن تعليقِ عارضٍ عبّرت فيه عن استمتاعي بالتجوال في صالات العرض الضخمة في مدريد. ولم يكن ليسرّني أن يُملى عليَّ أي شيء، دعي عنكِ أن أُقاد من أنفي. على كل حال زرتُ متحفيْ ثيسن ورينا صوفيا خلال ذينك الأسبوعين. لم أكن قد زُرتُ أياً منهما منذ سنين.

كنت قد جلبت معي كثيراً من المواد الأولية التي بنيتُ عليها التقرير الذي قدمته في سلمنكا. وفي فندق بالِس ثابرت على العمل في التقرير الذي كان قد استهلك مني بضعة أشهر حتى ذلك الوقت. انتهزت الفرصة أيضاً لزيارة عدد من الزملاء في جامعة كومبلوتنس، كما قضيت صباحات عديدة أقرأ في المكتبة الوطنية، وقمت بزيارتي الأولى لحديقة الحيوان في كازا دو كامبو.

زرت أيضاً، في أُمسيتين مختلفتين، حانتي فلامنكو، ولم يكن قصدي رؤية آنا ترقص، لكن بأمل أن أرى اسميهما في ملصق أو كتيّب إعلاني. كنت أعرف أنه يتعيّن عليَّ أن ألتقيهما عاجلاً أم آجلاً، لكنني لسبب ما لم أشأ البدء باقتفاء أثرهما، على الأقل ليس الآن. فضّلت بدلاً من ذلك الطواف في أرجاء مدريد. ولكن ما الذي يمنع أن أصطدم بإعلاميٍّ تلفزيوني صباح يوم من أيام عمله تحت قبة الروتندا في فندق بالِس؟

لا يكفي راتب شهر مدة طويلة في بالِس. ولم يكن سبب بقائي في ذلك المكان النخبوي مجرد الوفاء لعادة قديمة، ولا حتى لأن لنا فيه ذكريات خاصة؛ بقيت فيه لأنه الفندق الوحيد في المدينة الذي يوفر فرصة، ولو ضئيلة، لاحتمال

أن تسألي عني. يجب أن أعترف أني أَمِلْتُ، بعدما جرى في تلك الأمسية الأخيرة في سلمنكا، أن تحاولي الاتصال بي في أوسلو. فإن لم تعثري عليَّ في البيت، فقد تتصلين بالمعهد بالرغم مما قد يسببه لك هذا الاتصال الأخير من ضيقٍ وألم. وهناك سوف يخبرونك أني في مدريد. بعد أسبوعي الأوّل هنا، حرصت أن يعرف أمين سر المعهد اسم الفندق الذي أقيم فيه.

فجأة صحوتُ مما أعتبره الآن تبلّداً مديداً. فجأة ذات صباح بغتني الشعور بشدة بلاهتي، شعور ممضٌّ بأني تركت الأيام تنزلق من دون فعل شيء. كان قد طُلب مني بإلحاح شديد أن أذهب إلى ألبرادو، لا لكي أهيم على وجهي من غرفة إلى أخرى فيه، بل لأبحث عن شيء محدد. صدر هذا الطلب عن الإنكليزي تلميحاً، لكن خوسيه عبر عنه بما يشبه التوسل. طبيعي إذن أن ألبرادو مفتاح لشيء آخر، وليس مجرد صدى لثرثرتي البليدة في ماراڤو عن كونه متحفاً باذخاً: في غرفة النوم لدينا لوحة لونية، وفوق الموقد علقنا مرآة باروكية...

طرأ ذلك الخاطر على بالي يوم الأربعاء، أي قبل يومين بالضبط من كتابتي لهذا الكلام. خطوت بعزم حول بلازا كانوڤاس دل كاستيلو، أو «نبتونو»، حسبما تسمى الساحة هنا بسبب نافورتها ومنحوتة نبتون. بينما كنت أشق طريقي نحو مدخل ألبرادو، نظرت إلى تمثال غويا الذي أطَّرهُ من خلفه فندق ريتز الفخم. وهنا، في تلك اللحظة، بدأت أشعر بالدفء.

ابتدأت من الطابق الأرضي، أنظر، متمهلاً، إلى الزوار، بين كثير من الأشياء الأخرى. سرعان ما أخذت بالتدقيق في «إلْ جاردين دولاس دوليسياس»، أو «حديقة المباهج الدنيوية»، تلك اللوحة الثرية بالتفاصيل التي رسمها هييرونيموس بوس. إذا طُلبَ مني اختيار لوحة واحدة تلخص مشاعري حيال الحياة ومكانة الإنسان بوصفه واحداً من الفقاريات، فاللوحة المختارة هي هذه. ففضلاً عن أكثر من مئة رسم إنساني جذاب في اللوحة، حشد الرسام فيها أيضاً عدداً معادلاً على الأقل من الحيوانات الفقارية. ولو كنت ألعب لعبة التداعي اللفظي بين الكلمات، وطُلبَ مني ذكر ما تثيره كلمة «خيال» من

تداعٍ، لقلت على الفور بوس. وإذا كانت الكلمة بوس، سأقول «حديقة المباهج الدنيوية». أما إذا كانت الكلمة المفتاح «حديقة المباهج الدنيوية»، فسأرد فوراً بكلمة «هشة». أما إذا سمح لي بالتعليق عليهما بجملة كاملة أو بمقال قصير فسأشير إلى كم هي الحياة رائعة وغامضة، ولكن آه، كم هي سهلة العطب ورقيقة أيضاً.

وقفتُ أمام «حديقة المباهج الدنيوية» نصف ساعة على الأقل، ولم تكن هذه زمناً يُذكر، فاللوحة تستحق أسبوعاً على الأقل. درست بعضاً من التفاصيل الدقيقة في اللوحة، لكنني اضطررتُ، بين حين وآخر، إلى إفساح المكان للآخرين كي يتفرجوا. وعلى حين غرة، فيرا، على حين غرة سمعت صوتاً مألوفاً خلفي.

«مليارات من السنين تلزم لخلق إنسان. ولا تلزم إلا بضع ثوانٍ لموته»، قال الصوت.

ببطء التفتُّ نحو خوسيه. أحسست على الفور أن هذه الكلمات لم تكن تعليقاً على لوحة عمرها خمسمئة عام، بل هي إعلان عن موت آنا.

آنا ميتة، آنا التي لم تكشف أين رأيتها قبلاً، آنا التي لم تقبل أن ترقص الفلامنكو، آنا التي أصيبت بإغماءة مباغتة على طاولة الفطور، وآنا، آنا التي قبل أيام فقط غادرت المقهى في سلمنكا وهي تصرخ أنها تريد العودة إلى البيت في إشبيلية.

ليس القول الحكيم الذي أطلقه خوسيه هو وحده الذي أعلمني بموت آنا. كنت أحدق في الوجه الشاحب المرهق الذي ذهب بعيداً، بعيداً جداً، ولم يكد - حين رأيته - يشرع بالبحث عن طريق العودة. التمعت في ذهني ذكرى بصرية: خوسيه وهو يلقي عليَّ نظرة مرتاعة، ويهتف: «فرانك، يجب أن نلتقي ونتحدث. هل ستمر إلى ألبرادو يوماً؟». الآن، تفحّص اللوحة، وأشار إلى عاشقين مُعلّبين في كرة زجاجية أسفل ويسار الرسم. بانفعال وغضب همس: «السعادة سريعة العطب كالزجاج».

لم أستطع نطق كلمة واحدة، لكنني رأيت سيماء وجهه المستسلم، وأظن

أني هززت رأسي، تعبيراً عن الصدمة مرة، وعن التعاطف مرة أخرى. غير أني كنت أشعر بدفء متزايد. قادني خوسيه نحو مجموعة غويا، وفجأة كنا نقف أمام لوحتي «الماخا العارية» و«الماخا الكاسية». كدت أسقط مغشيّاً عليّ. لا بُدّ أن خوسيه لحظ ذلك لأنه أحكم فجأة قبضته على ذراعي. إنها آنا!

إنها آنا، ڤيرا! هنا إذن سبق لي أن رأيتها، ورأيتها لمرات عديدة أيضاً. كنت قد تساءلت هل رأيتها في فيلم أم التقيتها في حلم. بلغ بي الأمر أن تخيلت أني ربما التقيتها في عالم آخر. لكن ها هي ذي. ها هي ذي آنا تستلقي على كرسي طويل في مرسم غويا، ها هي ذي معلقة على جدار في ألبرادو، كاسية وعارية، وحولها السواح في طوافهم الدائري.

بينما كان خوسيه يمسك بذراعي، انتقلتُ بذاكرتي إلى شلالات بوما في تاڤوني حيث اختلستُ نظرة إلى جسد آنا العاري. أدركتُ، من ذلك المشهد، أني أعرف وجهها وحده، وها قد فهمت الآن سبب ذلك. فآنا أنحل وأرشق بكثير من ماخا غويا، ولعلّي لذلك لم أربط بينهما، ولم أهتد إلى تذكر المكان الذي رأيت فيه آنا. لكنني حتى حين رأيت آنا كاسية بثوبها الأحمر طرقت بالي فكرتان في الوقت نفسه: الأولى هي أني التقيتها قبلاً، أما الثانية فتقول إن هناك شيئاً ما ليس في مكانه.

بدأت أشياء كثيرة تتضح الآن. كان جون قد تطرق إلى ذكر الإنترنت، وما كان ليصعب عليه أن يسجل بعض التفاصيل عن رائعة غويا. ثم إنه أوحى إليّ بضرورة زيارة ألبرادو. ولكن لِمَ لم يُعلمني بكل شيء هناك وحينها؟

ها نحن، خوسيه وأنا، نقف أمامها. رجعنا بضع خطوات إلى الوراء للنظر إليها. كنتُ مشدوهاً، كنت مقهوراً، كنت مرتاعاً. لو لم تكن اللوحةُ قد رُسِمتْ قبل أكثر من قرنين، لأقسمت أن آنا هي الموديل فيها، أو، على الأقل، رأسها.

وثمة شيء آخر أيضاً. لم تكن آنا مسرورة من كشف سرّها، أما خوسيه فكان كارهاً لذلك بشكل واضح: «هناك كثير من النساء من ذوات الشعر القاتم

في إسبانيا. هذه مجرد حقيقة واقعة يا فرانك، تجدهن حتى في مدريد». كان ردّه هذا محفوراً في ذهني. أما، وأنا أقف هنا، فبوسعي تخيل مدى الإزعاج الذي يسببه التعرف المستمر على آنا. لا بُدّ أنه قاسٍ عليها أن تنادى كأنها امرأة عاشت في إسبانيا قبل قرنين من الزمن.

سارت الأمور سيراً محتوماً حين وضع جون سبوك إصبعه على جبين آنا وقال: «وهذه الروح اسمها مايا!» كان يفكر بفلسفة الفيدانتا، بسراب العالم، بالوهم وبخداع الحواس، لكن لعل ماخا غويا كانت في باله أيضاً. ألم يصف آنا بأنها «عمل فني رائع»؟ الحقيقة أني وقفت هناك في ألبرادو شاهداً على أكبر تضليل وقعتُ فيه في حياتي.

بغتتني فكرة مريعة: لماذا أصيبت آنا بتلك الهجمة المفاجئة في ماراڤو؟ ولماذا ماتت بعدها بعدة شهور؟ أهناك علاقة ما بين شبهها بـ ماخا غويا وموتها وهي في ميعة الصبا؟

«إنها تشبهها شبهاً مطلقاً».

هز خوسيه رأسه، وقال: «إنها هي».

«لكن هذا مستحيل»

«إنه مستحيل بالطبع. لكنها هي آنا».

وقفنا طويلاً في مؤخر الغرفة نتحدث بهدوء.

سأل خوسيه: «أتعرف تاريخ اللوحتين؟»

قلت: «لا».

كنت لاأزال في حالة صدمة. أما خوسيه فاستطرد: «ما من أحدٍ آخر يعرف تاريخهما معرفة دقيقة، لكن هناك معلومات قليلة عنهما».

نافد الصبر قلت: «وما هذه المعلومات؟».

«ذُكرتْ الماخا العارية لأول مرة من قبل أغوستين سين برموديز والنقّاش بيدرو غونزاليس سبولبيدا، وقد وصفا اللوحة عام 1800 حين كانت معلقة في مقصورة خاصة في قصر مانويل غودوي، ومعها كانت ثمة تخطيطات

كلاسيكية معينة لنساء عاريات، وهي بالتحديد «ڤينوس وكيوبيد» لڤيلاسكيز، ورسمة إيطالية لڤينوس تنحدر من القرن السادس عشر. كانت هاتان اللوحتان هديتين إلى غودوي من دوقة ألبا».

«كان لدى غودوي ميل خاص نحو العاريات؟».

«يمكنك قول ذلك. في هذه المقصورة بالذات كانت لديه نسخة من لوحة ڤينوس لتيشيان. لكن لوحات النساء العاريات كانت محظورة في ذلك الوقت، أمّا الرسوم التي أضفى عليها القِدمُ المثاليةَ، والتي تصور شخصيات أسطورية ـ مثل ڤينوس ـ فقد كانت مقبولة، إلى حد ما، أكثر مما هي **الماخا العارية**».

«لماذا؟».

«كما ترى، لا شبه بين **ماخا** غويا وشخصية أسطورية. إنها امرأة حية، حية جداً من اللحم والدم، وقد رسمت طبعاً من موديل حي؛ ولأنها كذلك، كانت هذه اللوحة أقوى إيحاء، أو أشد انحطاطاً إن شئت، من ڤينوس تيشيان أو ڤيلاسكيز مثلاً. لقد اعتُبِرتْ رسماً إباحياً داعراً».

«فهمت».

«فكّر كل من كارلوس الثالث وكارلوس الرابع بتدمير اللوحات المشابهة في المجموعة الفنية الملكية. لكن غودوي مُنِح امتيازاً خاصاً يبيح له الاحتفاظ بلوحاته، على أن يبقيها في مقصوراته الخاصة».

«هل كانت لديه **الماخا الكاسية** أيضاً؟».

أومأ خوسيه أن نعم.

«من المرجح أن **الماخا الكاسية** رُسمتْ بعد **الماخا العارية**، لأن الكاسية ذُكِرتْ لأول مرة في دليل فني يعود إلى عام 1808 ، دليل رسمه الرسام الفرنسي فريد ريك كيليه الذي كان عميلاً لجوزف بونابرت(*). في هذا

(*) جوزيف بونابرت: الأخ الأكبر لنابليون بونابرت، نصّبه الأخير ملكاً على إسبانيا بين عامي 1808 و 1813 . م.

الدليل، ولأول مرة، ذكر اسم **الماخا الكاسية** بالارتباط مع اسم **الماخا العارية**».

هنا اضطر خوسيه لتخفيض صوته متفادياً أن يسمع المارّون ما يقوله.

«أتعرف ما هي **ماخا**؟(*)» رسم غويا عدداً من الماخات».

«امرأة قروية؟» اقترحتُ كإجابة.

«هي بالأحرى فتاة ريفية، امرأة فاتنة زاهية الملابس. المعادل الذكري لها يدعى ماخو».

«هل كانت آنا تدعى **ماخا**؟».

هز رأسه مؤكداً.

«آنا غجرية، جيتانا بالإسبانية. على كل حال من المشكوك فيه أن يكون غويا قد سمى لوحتيه **ماخا**. لمّا صادر فرديناند الثالث أملاك غودوي عام 1813 ، وصف دليل فني موضوعَيْ اللوحتين بأنه «جيتانتان»، أي غجريتان، وهذا مختلف إلى حد ما عن **ماخا**. في عام 1808 أيضاً وُصفت المرأتان في اللوحتين بأنهما غجريتان. هنا يجب ألّا ننسى أنه لم تكن قد مرت آنذاك أكثر من عدة سنين على رسم اللوحتين. كان الرسام لايزال حياً وقتها، ولابد أن تاريخ ذلك كله سبق هربهُ من إسبانيا إلى فرنسا. أُشيرَ إلى المرأة باسم **ماخا** أول مرة في عام 1815 ، وهو الاسم الذي التصق باللوحتين منذ ذلك الوقت».

وقف خوسيه لحظة، لكنني أشرتُ إليه أن يتابع. لم أتبيَّن المغزى الهام لكون المرأة في اللوحتين **ماخا** أو جيتانا. لن يغير ذلك من حقيقة أن غويا رسم في الواقع وجهاً قبل قرنين كاملين من رؤية ذلك الوجه للنور.

مضى خوسيه يقول: «في آذار 1815 استُدْعِيَ غويا إلى محكمة التفتيش بسبب اللوحتين. سُئِلَ إن كان هو من رسمهما، وعن دافعه لفعل ذلك، وبتكليفٍ ممن؟ ولأية غاية؟ لم تتم الإجابة عن هذه الأسئلة أبداً، وحتى اليوم لا أحد يعرف يقيناً من كلّف الرسام وموّل إنجاز اللوحتين.

نقص حجم الحشد حول الماختين، فعدتُ إليهما أُلقي نظرة مدققة أخرى.

(*) الماخا: تعني الحلوة، الجميلة، الفاتنة... الناشر.

قلتُ: «ليس من الصعب اكتشاف سبب دراستك المدققة لتاريخ هاتين اللوحتين...».

«كما ذكرت لك، ثمة مبرر قوي للاعتقاد بأن النسخة العارية رسمت أولاً. كانت كلا اللوحتين معلقتين في قصر غودوي، ولم يكن هو ذاته حصيناً كل الحصانة إزاء محاكم التفتيش. من الوارد أن **الماخا الكاسية** رسمت لكي تُعَلّق فوق صورة العارية. وثمة مقدار معقول من الأدلة يوحي أن اللوحتين رُتِّبتا بهذا الشكل كنوع من التسلية المازحة. كانوا يكشفون النسخة الكاسية أولاً، ثم باستخدام وسيلة ميكانيكية، يُظْهِرون المرأة العارية أمام الأنظار المتابعة. إن تعرية النساء من ثيابهن رياضة قديمة جداً بالفعل».

عادت بي الذاكرة مجدداً إلى شلالات بوما. هناك اختلست، من دون قصد، نظرة إلى جسد آنا عبر الأصابع التي كانت تغطي عيني.

استطرد خوسيه: «من عام 1836 حتى 1901 كانت اللوحتان معلقتين في أكاديمية سان فرناندو، مع أن العارية منهما لم تعرض البتة علناً. ومنذ عام 1901 وضعتا في ألبرادو، لكن، حتى في هذا المتحف، عُرِضت **الماخا العارية** في غرفة مستقلة لا يسمح بدخولها إلا لعددٍ محدود من الناس».

كنت متعجلاً لمعرفة المزيد، لأني، مع كل ما قاله، كنت أفكر في آنا فقط.

سألته: «هل تعرف من كانت موديل اللوحتين؟»

رفع حاجبيه، وقال: «أو الموديلين».

نظرت إلى اللوحتين ثانية، وقلت: «لكنهما متشابهتان تماماً».

«اقتربْ منهما أكثر، وتفحَّصْهما بعناية قبل أن تصدر حكماً».

امتثلتُ لما طلب. ربما نُفِّذت «**الماخا الكاسية**» بشيء من التعجل وبدرجة أقل من العناية بالمقارنة مع العارية. يبدو الرسم هنا أشد صلفاً وأغنى تلويناً من رسم العارية. إذا كانت «**الماخا العارية**» قد رُسِمتْ أولاً، فلعل غويا أنتج متعجلاً نسخة كاسية ليغطي النسخة العارية. بيد أن المرأة ذاتها في اللوحتين، كلاهما آنا، حتى لو اقتصر الأمر على رأس آنا، على وجهها وشعرها. وهنا

مربط الفرس بالطبع. تبيّن تلك اللحظة بوضوح أن غويا رسم جسداً عارياً لامرأة ما، ثم أضاف رأس امرأة أخرى للجسد العاري. بقليل من الصبر يمكن لأي كان أن يرى أن الشكل الأنثوي مكوّن من قسمين، جسد ورأس، وهذا واضح بشكل خاص في المرأة العارية.

رأس آنا هو ما كنت أنظر إليه، أما الجسد فليس جسد آنا. بدا وكأن رأس آنا قد طُعِّم على الجسد العاري.

عدت إلى خوسيه، وقلت: «استخدم غويا موديلين. واحداً للجسد وآخر للرأس».

أومأ موافقاً، لكن من دون أن يبتسم. ليس الأمر طرفة بالنسبة لخوسيه. قال: «يفترض أن الموديل العاري امرأة محترمة، لذلك بالطبع لايمكن لغويا أن يرسم وجهها».

وهكذا استبدل به وجه آنا، قلت لنفسي.

سألت خوسيه: «وهل تعرف أي شيء عن هذه المرأة المحترمة؟».

«هناك عدة نظريات في هذا الشأن. تقول إحدى النظريات الشائعة إن غويا رسم اللوحة بتكليف من غودوي الذي كان محظيّ الملكة، وأن الموديل - المرأة العارية - هي عشيقته بيبيتا تودو. إذا صحّت هذه النظرية فإن إخفاء هوية الموديل يكتسب أهمية زائدة. لكن هناك نظرية أخرى».

«إليّ بها!».

«نعرف أن دوقة ألبا كانت على علاقة وثيقة بغويا في إحدى الفترات، وأنه بين عامي 1796 و 1797 ، أي في الفترة التي رسمت فيها **الماخا العارية** كان غويا يعيش في دارتها الريفية في سانلوكار دوبارميدا قرب مصب نهر غوادالكويفير. منذ السنة الأولى من القرن التاسع عشر ترددت إشاعة قوية بأن دوقة ألبا هي موديل الماخا العارية. قد تكون هذه الإشاعة انبثقت من معرفة مباشرة؛ وكلما كانت الإشاعة أقدم، كان احتمال صحتها أقوى».

قلت: «مفهوم، هذا صحيح».

«إذا فحصنا اللوحات الأخرى التي رسمها غويا للدوقة، مثلاً صورتها

المعروفة التي تنحدر من عام 1797 ، أو رسمة الدوقة وهي ترتب شعرها ـ تنحدر الرسمة أيضاً من عام 1796 أو 1797 ـ نجد أنه ما من شيء في شخصية الدوقة يستبعد احتمال جلوسها موديلاً لـ **الماخا العارية**».

«أكانت بينهما علاقة جنسية؟».

«هذا غير معروف، مع أن هناك الكثير مما يوحي بأن غويا ما كان ليرفض علاقة كهذه. في رسالة كتبها عام 1795 يتحدث عن الدوقة تزوره في مرسمه لأخذ زينتها. ثم يضيف: «سرني ذلك أكثر مما سرني رسمها على لوحة». في الرسم الزيتي الذي صنعه لها في سانلوكار، نراها ترتدي الأسود وتضع نقاباً على وجهها، وفي أصابعها خاتمان يحملان النقش «ألبا ـ غويا». علاوة على ذلك، تُصوِّر اللوحةُ الدوقةَ وهي تشير، بحزمٍ وسلطان، إلى الرمل الذي طُبِعتْ عليه كلمتا «غويا وحده». كانت دوقة ألبا امرأة جميلة وجذابة بلا ريب، وقد ترمّلت حين مات دوق ألبا ـ الأكبر منها سناً بكثير ـ في إشبيلية في 9 حزيران 1796».

«لم ـ إذن ـ لا تكون العلاقة بينهما علاقة جنسية؟!».

«كانت لوحة الدوقة في حوزة غويا شخصياً، لذلك قد يكون الباعث إلى رسمها استيهاماً أو تفكيراً رغبياً أكثر مما هو علاقة واقعية. ومع أن الدوقة كانت متحررة جداً، فإني أفترض أنها ما كانت لتحبّذ أن تُرْسَم بهذه الصورة المترفّعة. إلى ذلك، هل من الوارد لحسناء في الرابعة والثلاثين أن تقع في غرام رجل متداعٍ في الخمسين، رجلٍ كان فوق ذلك أصمَّ لا يسمع شيئاً؟».

«نعم، كان مصاباً بهذا المرض...».

«ومع ذلك، ما من شيء يستبعد احتمال أن تكون الدوقة هي موديل **الماخا العارية**. إن حقيقة أن غويا رسمها مراتٍ عديدة توحي أنه كان متمتعاً بحرية شبه تامة في الغدو والرواح، متى شاء، ضمن دائرتها الخاصة. غير أن الطبيعة الحقيقية لعلاقة غويا والدوقة لن تُعرَفَ أبداً، ولم تعد، على كل حال، شيئاً يستحق الاهتمام. يكفي أنهما كانا صديقين حميمين لبعض الوقت».

أثناء الدقائق المنقضية اكتفيت بالتحديق في وجه المرأة. لم أستطع إبعاد آنا من ذهني.

قلتُ: «تكلمنا حتى الآن عمن كانت صاحبة هذا الجسد أصلاً. لكن لم نقل شيئاً عمن قد تكون موديلاً لهذا الوجه».

لستُ، ولا يمكنني أن أكون، متأكداً من أني لمحتُ بصيص ابتسامة على وجهه وهو يقول: «هذه قصة طويلة، بل معقدة، لكنها، أكثر من ذلك، قصة يصعب فهمها. هل نمضي؟».

وافقتُ بإشارة من رأسي.

«هل رأيتَ ما يكفي؟».

اقتربتُ من اللوحتين مرة أخيرة. نظرت في وجه آنا: له ذات التعابير التي طالما رأيتها في تاڤوني، الشفتان الرقيقتان المزمومتان، والعينان السودوان وهما تنظران إليّ شزراً.

رافقتُ خوسيه خارج جناح مجموعة غويا. نزلنا الدرج إلى الطابق الأرضي ثم خرجنا إلى ساحة بلازا دوموريلو. عبر الساحة سار نحو مدخل الحديقة النباتية. استخرج من جيبه قطعة 200 بيزو لشراء بطاقة دخول، ففعلت مثله. اكتفيت بمطاردته في مشيته السريعة.

أخذنا نتمشى في الحديقة النباتية حيث هاجمتنا سمفونية من روائح النباتات والأشجار التي كانت، في بداية أيار، في أوج إزهارها. كانت الطيور أيضاً في ذروة انهماكها بالزقزقة إلى درجة أنه من المستحيل تمييز تغريد طير من آخر.

في البداية كان خوسيه يتقدمني بخطوتين، لكني أدركته بعد حين.

«أحبّت آنا هذه الواحة»، قال من دون أن يلتفت نحوي. «كانت تُصِرّ، كلما أتينا إلى مدريد، على زيارتها مرة واحدة في اليوم على الأقل ومهما يكن الفصل. فإذا كان لدي اجتماع ما، قد تقضي نصف اليوم هنا بمفردها. وإذا بدأ اجتماعي في العاشرة، قد تمر ساعات قبل أن آتي وآخذها للغداء. كانت دائماً

تكتشف شيئاً جديداً، وكان البحث عنها في الحديقة النباتية لعبة اعتدنا على لعبها. أين سأعثر عليها اليوم؟ كم من الوقت سيمر وأنا أتعقبها؟ وأهم من كل ذلك، ما الأخبار الجديدة التي ستنقلها لي عن اكتشافاتها؟ أحياناً، كانت، إذا لمحتني قبل أن أراها، تتسلى بالاختباء مني، أو حتى بالسير خلفي، وأنا أجول باحثاً عنها. شيئاً فشيئاً تعلمتُ أسماء الأشجار والشجيرات، وفي النهاية عرفتُ على أي أنواع الأشجار يبني كل طير من الطيور عشه.

«لكنكما كنتما مقيمين أساساً في إشبيلية؟».

أشار موافقاً، ثم هز رأسه وقال: «قبل سبع سنوات أو ثمانيةٍ بدأتُ العمل في مسلسل تلفزيوني عن تاريخ الغجر في الأندلس. أردت التوصل إلى شيء جديد عن تطور ثقافة الفلامنكو في ذلك الأتون العريق الذي انصهرت فيه تراثات إيبيرية وإغريقية ورومانية وسلتية وعربية ويهودية، وبالطبع مسيحية. هكذا التقيتُ بآنا في إشبيلية. كانت راقصة فلامنكو بارزة، و **بيلاورا** محترمة مذ كانت في السادسة عشرة من عمرها. بعد بضعة أسابيع من ذلك اللقاء لم نكن لنفترق أبداً، ومنذ ذلك الوقت لم نقضِ ليلة واحدة بعيداً عن بعضنا».

كنت لا أزال مذهولاً من الشبه الخارق بين آنا و**ماخا** غويا إلى درجة أنني لم أكد أستوعب ما يقوله. لكنه استطرد من دون أن ينظر إليّ.

«كان اسمها آنا ماريا. هكذا كان يُسَجّل في الإعلانات، وهكذا كان يناديها الجميع في عائلتها. أما أنا فأدعوها آنا من باب التّحبُّب».

«ولها كنية بالطبع؟».

أومأ برأسه مؤكداً كأنه كان ينتظر هذا السؤال.

قال: «مايا».

«ماذا قلت؟».

«اسمها الكامل آنا ماريا مايا».

صمتُّ كأني أصِبتُ بالبكم. لم تكن آنا تشبه **ماخا** غويا حتى في أدق التفاصيل فحسب، بل كانت تدعى مايا أيضاً. وجدتُني ثانية في تاڤوني حيث وضع جون سبوك إصبعه على حاجب آنا، وأعلن، بطريقته التي يستحيل

تقليدها، أنه نجح في اكتشاف أن كنية آنا هي مايا. وقتها لم يستلطف خوسيه تصرفه.

قلت: «هذا مستحيل».

أومأ مؤكداً كلامه مرة أخرى.

«ليس هذا الاسم نادراً في أوساط فناني الفلامنكو الأندلسيين. أشهرهم طبعاً هو بيلاور ماريو مايا. غير أن ابنته بيلين مايا تحظى بسمعة طيبة أيضاً، وكذلك ابن أخيه خوان أندرِس مايا. غالباً ما تسمى سلالة راقصي الفلامنكو هؤلاء «آل مايا». أما آنا فهي من أسرة مايا أخرى، أو على الأقل من فرع آخر للأسرة نفسها».

«هل لهذا الاسم معنى؟».

«مايا هو اسم أحد الأعشاب من عائلة كومبوزيتا، وهو ذاته المارغريتا أو بيليس بيرينيس، لا أعرف بالضبط كيف اكتسبت هذه الزهرة اللطيفة اسم مايا في الإسبانية؛ لعل هذا الاسم تحريف لاسم شهر أيار أو مايو. في بعض الأقطار تسمى المارغريتا أيضاً زهرة أيار. ولابد أن اسمها اللاتيني، بيليس بيرينيس، يشير إلى إزهارها طوال العام تقريباً(*). علاوة على ذلك، تعني مايا بالإسبانية فتاة شابة أو ملكة جمال أو امرأة متنكرة أو ترتدي قناعاً».

قلتُ: «لها معنى الكلمة الأخرى نفسه تقريباً، عملياً لها معنى كلمة ماخا نفسه».

«بالضبط. ولكلا الكلمتين أصل هندوأوروبي واحد. تجد الجذر نفسه في اسم الشهر مايو أو في اسم الإلهة الزومانية مايا، وفي كل مشتقات كلمة ماغنوس (عظيم)، أو مايور كما في بلازا مايور أي ساحة المدينة، وفي مشتقات الكلمة الإغريقية ميغاس (كبير)، وفي عدد من الكلمات الهندوأوروبية التي تقابل كلمة مَتْش (كثير) الإنكليزية كالكلمة السنسكريتية ماها مثلاً».

«ومثل ماهاتمان، أي روح العالم؟».

(*) كلمة بيرينيس تعني باللاتينية: طوال العام. م.

وافق بإشارة من رأسه. فقلتُ: «هذا ما أسهبت لورا في الحديث عنه في ماراقو. تكلمت عن غايا ومايا، وهنا في إسبانيا نجِدُنا أمام غويا وماخا. يبدو كأن هناك رابطة ما بين هذه الكلمات».

«كل الأشياء مترابطة»، قال خوسيه. وشعرت حين قال هذه الكلمات أني أسمع صوت لورا.

لم يكن قد نظر إليّ حتى تلك اللحظة. ولـمّا انعطفنا حول إحدى النوافير المرمرية قال: «كانت آنا ماريا الابنة الصغرى لعائلة غجرية محترمة عاشت في ناحية تريانا، التابعة لمدينة إشبيلية، منذ أوائل القرن التاسع عشر؛ ولايزال أبواها الفقيران يعيشان هناك، وكذلك اثنان من أجدادها. يُعتقد أن فرعاً من عائلتها انحدر من إلْ بلانيتا (الكوكب)، مُغنّي الكانتي جوندو الشهير، ومؤسس ما أصبح بعدئذ الأسلوب الغنائي المميز لمدرسة تريانا. إلْ بلانيتا من مواليد قادش، وقد عاش من عام 1785 حتى 1860 . من المحتمل أن هذا الاسم التصق به لأنه كان يُعتقدُ بأنه يؤمن بتأثير النجوم والكواكب. وهناك بالفعل الكثير من الإشارات إلى الأجرام السماوية في أغانيه. قد يشير اسمه أيضاً إلى كونه «جوالاً» أو «نجماً جائلاً». وصل إلْ بلانيتا إلى إشبيلية في وقت باكر من القرن التاسع عشر، وعمل في مصاهر تريانا، حيث كان يعمل الكثير من الغجر في ذلك الوقت. حسب عائلتها، إلْ بلانيتا هو الجد السابع لآنا، وإن لم أستطع أن أجد برهاناً على ذلك خارج تراث عائلتها الباطني. لكن بعد سبعة أجيال لا بُدّ أن ذريته تبلغ الآن المئات عدداً، وربما الألوف. فَلِمَ لا تكون آنا واحدة منهم؟».

«استمر في حديثك!».

«خلال بضعة أسابيع فقط توثقت العلاقة بيننا بقوة، بل بقوة شديدة وغير معتادة. عرّفتني آنا على تقاليد عائلية لم أجدها رائعة فحسب، بل وفكرت بالإفادة منها في إنجاز مسلسل تلفزيوني بدأت العمل فيه. بالمناسبة لم ينجز هذا العمل أبداً».

«لماذا؟».

«أنا نفسي صرت غجرياً أندلسياً، أو على الأقل أفيسيونادو، أي عاشقاً

مخلصاً لأسرار ثقافة الفلامنكو ومريداً مبتدئاً في مدرستها. شعرت أن من غير اللائق أن أصنع مسلسلاً عن هذه العائلة التقليدية التي أصبحتُ منها بعد أن قبلتني نسيباً لها. أخذت أعرف المزيد عنهم، فكما ألمحت قبل قليل، ثمة وجوه أسرارية لا يجوز إفشاؤها لهذه التقاليد العائلية. إذا كان هناك شيء واحد يُنسب لغجر الأندلس، شيء واحد احتفظوا به طوال أكثر من خمسة قرون، فهذا الشيء هو أسرارهم. طوال فترات مديدة كان عليهم الاختباء من محاكم التفتيش. كان في عائلة آنا حكاية خاصة تتوارث من جيل إلى جيل، حكاية لاتُصدّق ترجع بداياتها إلى إلْ بلانيتا، ولها علاقة أيضاً بموت جدّ جدّ آنا بعد شجار اندلع عام 1894 . السؤال المطروح هو: هل يمكن لهذه الحكاية ـ سمِّها أسطورة إن شئت ـ أن تلقي أي ضوء على ما وقع لآنا. كانت بالفعل تلقي بظلال كثيفة على حياتها».

«هذا مدهش فعلاً».

توقف في الممر المفروش بالحصى ونظر مباشرة في عيني: «علي أن أخبرك أولاً بما وقع لها».

أخذنا في المشي من جديد.

«بعد سنتين من تعرّفي آنا، شُخِّصت لديها آفة قلبية. لم يكن من السهل إجراء عملية جراحية لها، أو على الأقل ليس من دون خطر كبير على حياتها. كانت الإصابة من النوع الذي يمكن لها أن تتعايش معه بقية حياتها حتى من دون تعديل في سير حياتها اليومية. لكن خلال السنوات التالية كانت تتعرض، بين وقتٍ وآخر، لمشاكل في جهاز الدوران إلى درجة أن وجهها يمتقع. لم تكن هذه الحالة تدوم أكثر من دقيقة أو دقيقتين، ورأى الأطباء أنها ليست نذير خطر شديد. غير أنها كانت مرعبة لآنا، ولي أنا بالطبع. أصيبت بأول نكسة صحية حقيقية منذ أقل من سنة حيث وقعت على خشبة المسرح ونُقلتْ إلى المشفى. لم يكفّ الأطباء عن طمأنتنا، لكنهم هذه المرة قالوا إن عليها أن تعتزل الفلامنكو. إنه رقص يتطلب طاقة كبيرة كما تعلم. وفي الوقت نفسه نصحوها ألّا تحمل جنيناً. ولست أدري أي الضربتين هي الأمضى».

«كيف تعاملتْ مع ذلك كله؟».

أصدر صوتاً يعبر عن ازدرائه لتلك النصائح، وقال: «بشكل سيء. الفلامنكو هو روح آنا بالذات. وكانت تريد أطفالاً أيضاً، حتى إنها كانت تشتري ثياب أطفال حين ترى منها ما يعجبها».

«لذلك ذهبتما إلى فيجي؟».

ترك السؤال معلقاً في الهواء.

«ثم صادف أن التقينا أنا وأنت في سلمنكا. كنا، آنا وأنا، نعيش في مدريد، لكننا قضينا بضعة أيام في سلمنكا في ضيافة عائلتي. فجأة صدحت موسيقا الفلامنكو في المقهى في بلازا مايور، إنها موسيقا فرقةٍ كانت آنا قد عملت معها قبل سنوات في إشبيلية. رأيتُ كيف أخذت الموسيقا تستولي على جسدها. بدأت تضرب بيديها على الطاولة وتطقطق بأصابعها، فاضطررتُ إلى أن أطلب منها أن تتوقف عن ذلك. قلتُ إن عليها ألّا تعذب نفسها من غير طائل. إنما هنا وقفتْ وقالتْ إنها تريد العودة إلى البيت في إشبيلية. كنت أخشى ألّا أستطيع منعها من الرقص، لكننا ذهبنا إلى إشبيلية، وأقمنا بضعة أيام عند أبويها في تريانا. لم نكن قد ذهبنا إلى هناك طوال ستة أشهر، وخلال يومين قمنا بجولات طويلة في متنزّه ماريا لويزا بارك، في ميدان بلازا دو إسبانيا، في حدائق الكازار، في الحي اليهودي القديم في سانتا كروز؛ بيْدَ أنها لم تقبل الذهاب معي إلى ميدان بلازا سانتا كروز نفسه، المكان الذي كانت قد رقصت فيه، كل ليلة، خلال بضع السنوات الفائتة، وهو أيضاً المكان الذي أُخذت منه في سيارة الإسعاف آخر مرة رقصت فيها. لم تنبس بكلمة عن المكان، ولا عن مشكلتها القلبية أو الفلامنكو، لكن كلما اقتربنا من الميدان المتميز بصليبه الحديدي باقياً بعد أن دَرَستْ كنيسة قديمة كانت هناك، كانت تجذبني نحو زقاق يقود إلى اتجاه آخر».

وصلنا إلى الطرف الأدنى من الحديقة النباتية حيث يشكل سياج مشجر الحد الفاصل بينها وبين شارع كلوديو مويانو ذي الصف الطويل من دكاكين الكتب المستعملة، والتي اشتريتِ من أحدها، قبل بضع سنوات، ترجمة قديمة

لكتاب هامسون: «فيكتوريا». اتخذ خوسيه مجلسه على حافة النافورة المرمرية، وفعلت أنا مثله.

واصل كلامه: «أحببنا نحن الاثنين حدائق الكازار. أنا الذي جئت بآنا إلى هذه الحدائق، لأنها، وإن ترعرعت في إشبيلية، لم تطأ قدماها المكان قبل أن آخذها إليه. منذ ذلك الوقت صارت الحدائق ملاذاً خاصاً لآنا في إشبيلية، وكنا نتمشى فيها مرتين في الأسبوع على الأقل. ثم، حسناً، في اليوم الثالث من زيارتنا للمدينة كنا نتجول في الحدائق كما فعلنا كثيراً في الماضي. كانت الحدائق والمرافق الملحقة بها تشكل عالماً بذاته بالنسبة لنا، وقلنا مازحين في ذلك اليوم إننا قد نحبس أنفسنا في حدائق الكازار، ونقضي ما بقي من حياتنا فيها. ربما كان يجب ألّا نقول ذلك. يجب ألّا نقول ذلك!».

قلت بسرعة: «ثم ماذا؟ ثم ماذا حدث؟».

«كنا نجلس على أحد المقاعد قرب المقهى حين لمحت آنا فجأة قزماً. أشارت أولاً نحو بورتا دو مارشينا، وقالت إنها سبق أن رأت هذا القزم يُتْلِع رأسه من الغاليريا دل غروتسكو (معرض الغرائب). «التقط صورة لي»، قالت ذلك وكأنه، وحده، إهانة مهلكة. صباح اليوم التالي رأينا نحن الاثنين الشخص الضئيل يختلس النظرات نحونا من إحدى فتحات الجدار الطويل الذي يقسّم حدائق الكازار إلى قسمين، القسم القديم والقسم الجديد. كان يطقطق بآلة تصويره نحونا مرة أخرى. هتفت آنا: «إنه هو! إنه القزم صاحب الأجراس المجلجلة!».

قاطعتُه بالقول: «ولكن من هو؟ أي قزم؟».

لم يجب عن سؤالي، اكتفى بمتابعة روايته.

«وثبت آنا من مقعدها وهُرعت خلف القزم. كنا قد لمحناه مرة أخرى تحت بورتا دومارشينا. حاولت منعها في البداية لكني لم ألبث أن انخرطت بدوري في المطاردة، لأني كنت قد سمعت آنا تتحدث عن قزم معين منذ أن تعرفت عليها. طاردتِ القزم أولاً نحو جهة اليسار، عبر البوابة الحديدية وبمحاذاة البركة التي ينتصب عليها تمثال ميركوري، ثم نزولاً على الدرج إلى حديقة الرقص، ثم

نزولاً أيضاً إلى حديقة السيدات بمحاذاة نافورة نبتون، فعبر البوابة الكبيرة وحول جناح كارلوس الخامس، إلى داخل المتاهة بكل أسيجتها المرتفعة ثلاثة أقدام، وخارجها مرة أخرى، وعلى امتداد غاليريا دي غروتسكو، ثم نحو اليمين عبر بورتا دل بريڤيليجيو وأخيراً نزولاً نحو حديقة الشعراء. كان كلٌّ من آنا والقزم يجري أسرع مني، هذا عدا أنه كانت تعوقني احتجاجات العديد من المارة الذين اعتقدوا أن آنا تضطهد قزماً مسكيناً، مع أن العكس هو الصحيح. فآنا لم تجرِ وراءه إلا لوضع حد لتحرشاته. في حديقة الشعراء خرّت على الأرض وراء السياج المشجر الذي يحيط بالبركة الدنيا، أي على مسافة لا تبعد رمية حجر من بلازا سانتا كروز؛ خرّت هناك لأنه لم يعد يفصلها إلا جدار مرتفع عن تابلاو الفلامنكو «لوس غاللوس» الذي كانت هي البايلاورا فيه لوقت طويل. التمَّ حشد كبير من الناس حولها قبل أن أتمكن من الوصول إليها. كانت واعية، غير أن وجهها أزرق، وكانت تعبُّ الهواء وتلهث لهاثاً شديداً. رفعتُها نحو النافورة المرمرية الواقعة بين البركتين، وتركت الماء يبلّلها بضع دقائق من أجل تبريد جسدها المحموم. صرختُ بأعلى صوتي إنها مصابة بمرض قلبي، وخلال وقت قصير قدم مرافقو سيارة إسعاف ومعهم النقالة».

لبث خوسيه لحظات طويلة ونظرته تتجاوز حديقة مدريد النباتية نحو البعيد. لم يكن هناك أحدٌ في مجالنا البصري، غير أننا سمعنا الطيور تغرد، تغرد بصوت عالٍ حتى ليكاد تغريدها يغطي ضجيج السيارات القادم من بازيو دل برادو. كأن للطيور أيضاً أغنية تغنيها على روح صديقتها الميتة.

تساءلتُ: «ولكن ماذا جرى للقزم؟».

«لم ينتبه إليه أحد. اختفى كأن الأرض انشقت وابتلعته».

«وآنا؟».

«أعطوها بضع حقنٍ في المشفى، وخلال ما تلا من ساعات تحسنت قليلاً، لكنها لم تفارق سريرها أبداً. قال الأطباء إنهم سيجرون لها عملية جراحية حين يعود نبضها طبيعياً، لكنه لم يعد. مضى بالكاد أسبوع على

وفاتها، ويوم الجمعة هناك قداس على راحة نفسها في كنيسة القديسة آنا في تريانا».

صعّد ناظريه نحوي، وقال: «لطيف أن تتمكن من الحضور».

«سأحضر بالطبع».

«جيد».

«ولكن ماذا قالت آنا حين كانت في المشفى؟ أكانت واعية طوال إقامتها هناك؟».

«كانت حادة الذهن أكثر من أي وقت مضى. حدثتني عن أشياء كثيرة لم أسمع بها قبلاً، عن القزم، عن إلْ بلانيتا، وعن جدّ جدِّها الذي قُتِلَ في شجار، إضافة إلى الكثير عن أسرار الفلامنكو. كان آخر ما قالته قبل أن يتوقف قلبها عن الخفقان: «يستغرق خلق إنسان مليارات السنين، ولا يحتاج موته إلا لبضع ثوانٍ». كانت تلك كلماتي، كلمات عبّرت فيها عن انفعالاتي أنا إزاء الحياة، لكنها تأثرت بهذه الانفعالات بقدر ما تأثرتُ أنا بالفلامنكو وصرتُ مريداً من مريديه. كانت كلمات آنا الأخيرة هذه وداعاً وإعلاناً عن الحب في الوقت ذاته».

لم تسنح لي فرصة لسؤاله عما يعنيه بذلك، إذ نهض هنا متعجلاً وأخذ بالسير نحو باب الخروج من الحديقة النباتية. تبعتُه أنا ماشياً خلفه.

لم أستطع أثناء حديثه عن آنا نزع تينك اللوحتين في ألبرادو من مخيلتي. أهناك صلة بين ما أخبرني به عن القزم الذي طاردته آنا في حدائق الكازار وبين شبهها الخارق مع ماخا غويا؟

«حين التقيتَ آنا أول مرة قبل سنين طويلة...».

غير أنه أدرك القصد من كلامي، فاستبقني بالقول: «لا، لم يخطر ببالي غويا. أظن أن رد فعلي كان شبيهاً تماماً برد فعلك أنت. كنت متأكداً أني التقيت آنا قبلاً، بيد أن ذلك الإحساس قد لا يُعبّر إلا عن حبي الشديد لها».

«لعل لدينا آلية دفاعية من نوعٍ ما تمنعنا من إقامة صلة بين شخصٍ التقيناه

في الحياة الواقعية وبين شخصٍ آخر عاش قبل مئتين من السنين».

اكتفى بهز كتفيه. فتساءلت: «وماذا تظن الآن؟».

ارتسمت على وجهه تعابير مميزة في حدتها، وقال: «لم تكونا متشابهتين فحسب. لقد صارتا بالتدريج متماثلتين تماماً. مُذ كانت آنا مراهقة تعيّن عليها، أكثر فأكثر، أن تعيش تحت وطأة هذا الشبه، وانتهى بها الأمر في إشبيلية إلى أن تُلّقب بـ «نينيا دل برادو»».

قلت: «أكثر فأكثر؟».

«غدت أكثر فأكثر شبهاً بجيتانا غويا».

وضعت يدي على فمي كي لا أصرخ، وتابع خوسيه:

«ثم ماتت حين صارت مطابقة تماماً لموديل الفنان. اكتمل العمل عندئذٍ، ولم تعش يوماً واحداً بعد اكتماله».

«لكن كيف تفسر هذا الشبه الغريب؟».

«هناك عدة تفسيرات واردة. أو بعبارة أدق يمكن للمرء أن يشير إلى تفاسير متنوعة تشترك جميعاً في استحالتها».

«أريد سماعها جميعاً».

التفتَ نحو اليمين، باتجاه الجناح، وقال: «قد تكون الجدة السابعة لآنا هي التي كانت موديلاً لرأس العارية...».

«حقاً؟».

«لكن ما احتمال أن تكون على شبه تام مع إحدى حفيداتها؟ أو بالعكس طبعاً: ما أرجحية أن تطابق امرأة مطابقة تامة شكل جدتها السابعة؟ أنت عالِم أحياء. هل هذا ممكن؟».

هززت رأسي نافياً: «ليس بعد سبعة أجيال. إذا كان والد آنا قد تحدّر من ذات الجدة السابعة تلك ـ وهذا غير محتمل ـ فقد توجد درجة من التشابه في بعض الملامح، لكن ليس إلى حد التطابق. ثمة احتمال أكبر في الفوز بالجائزة الكبرى في اليانصيب سبع مرات متتالية. أمرٌ كهذا لا يحصل في الواقع!».

عليَّ هنا: «لابد أن الأمر إذن مصادفة مذهلة. آنا وجيتانا غويا متماثلتان تماماً بكل بساطة، وتماثلهما حقيقة واقعة كما نعلم».

هززت رأسي مرة أخرى معبراً عن عدم الاقتناع بفكرة المصادفة.

«ما من فردين متماثلين تماماً في الواقع. هذه فكرة انتهينا منها. ألديك نظريات أخرى؟».

«نعم، نظريات كثيرة، وقد فكرت فيها جميعاً بعناية شديدة».

لم أتمكن من تصوّر الاحتمالات الباقية، لكنه حينئذٍ قال: «تقول النظرية الأبسط: إن آنا نفسها هي موديل اللوحة التي فحصتها بعناية في المتحف».

«لكن عمر اللوحة قرنان».

«هذا ما يقولونه».

تردد لحظة، ثم أضاف: «كان عليّ أن أجبر نفسي على تقدير كل احتمال، سواء كان وارداً أم غير وارد. في المجرّد، يُحتمل أن يكون عمر آنا الحقيقي قرنين حين ماتت».

نظرت إلى وجهه الشاحب. لو لم ألتقِ بآنا قبل أسبوعين لاشتبهتُ في أن خوسيه غير متوازن نفسياً، أو هو، على الأقل، فاسد القدرة على الحكم تماماً.

قلت: «أهذه نكتة؟».

«لست ألقي النكت. هذا مع شعوري أن تقديراتي واهية الأساس، أوهى حتى مما قد تتخيل. كنتُ الوحيد الذي جلس مع آنا على ذلك المقعد في حدائق الكازار يوم أصبحت مطابقة تماماً لجيتانا غويا. في ذلك الصباح حتى شعرها كان مُسرَّحاً مثل تسريحة المرأة في اللوحة، وحتى زينتها كانت الزينة نفسها. هل تفهم؟».

«أظن ذلك».

«تقول الخبرة إنه من غير المعقول أن تكون آنا هي موديل الأستاذ العجوز، لكن هذا غير مستحيل من الناحية المنطقية».

«لابد أن لديك نظريات أخرى مادامت افتراضاتك على هذه الدرجة من التساهل؟».

لمس جبينه وتنحنح مرتين قبل أن يجيب: «إذا صح أن جيتانا غويا قد رُسِمتْ عند نهاية القرن الثامن عشر، فمن الممكن أن تكون آنا قد صيغت على شاكلة اللوحة».

«كيف «صِيغتْ»؟».

«إني أُنسّق أفكاري فحسب. تعرف بالطبع قصة بيغماليون؟».

«تعني ما ورد في كتاب «التناسخ» لأوفيد: وقع بيغماليون في حب تمثال امرأة جميلة من صُنْعه. عندئذ أشفقت عليه أفروديت وبثّتْ الحياة في التمثال. ألديك نظريات أخرى؟».

توقف لحظة ثم تطلّع نحوي بنظرة ذاهلة: «إنهما متماثلتان كل التماثل في المظهر بحيث قد يحسبهما الناس توأمين».

«بكل تأكيد»، قلتُ، مع أني لم أعرف تماماً إلامَ يرمي.

أضاف: «أترى أنه من المستحيل بإطلاقٍ تَخَيُّل رجل عاش قبل قرنين من الآن، ويشبهني شبهاً مطلقاً حتى في بصمات الأصابع؟».

«لا، ليس هذا مستحيلاً. أعطني عدداً من الخلايا الحية وجهاز تجميد جيداً، وستتمكن من صنع نسخة منك خلال قرنين. عليَّ فقط أن ألفت نظرك إلى أنك لن تجد كثيراً من السرور في «ولادتك الجديدة» هذه».

لم أدرك أهمية التعليق الذي أدليتُ به.

«إذن من الوارد أن عينة نسيجية أُخِذتْ من موديل غويا، وأن تلك العينة - بطريقة خارقة ما - حُفظت لمدة قرنين قبل أن تُدْخَل المادة الوراثية لإحدى خلاياها في خلية بَيضيّة خالية من المورّثات قبل قرابة ثلاثين سنة من الآن».

شعرتُ برعشة باردة تستولي على جسمي، تماماً كما حصل حين سمعت آنا وخوسيه يتحدثان عن خلق الإنسان وعدم شعور آدم بالدهشة حين كانا يتمشيان في بستان النخل في ماراكو.

قلت: «أعرف ما تعنيه. وهو شيء محتمل بالطبع. لكن تقدماً كبيراً

حصل في معارفنا في مجال علم الأحياء المجهري والمعالجات الخاصة بالإخصاب في السنوات الثلاثين الأخيرة».

استنتج خوسيه: «ما قلتُه غير وارد إذن».

«نعم، غير وارد على الإطلاق. يحسن بنا أن نتمسك بفكر المصادفة المحض رغم أنها، بدورها، مزعجة جداً. تتضمن فكرة المصادفة شيئاً أرفضه: تشق الطبيعة طرقاً متعددة للوصول إلى الغاية نفسها تماماً. غير أن الطبيعة لا تعمل على هذه الشاكلة. فهي لا تقفز قفزات مفاجئة لا غاية لها».

«تناقشنا في هذا الموضوع قبلاً».

«ما الذي تناقشنا فيه قبلاً؟».

«غائية الطبيعة، الهدف الذي عليها إنجازه، الهدف الذي تأمل أن تُظْهره أو تَعْرِضُه. تناقشنا أيضاً فيما إذا كان يمكن لشيء يحدث الآن أن يكون عَرَضِيَّ الصلة بحدثٍ وقع في الماضي».

جرى النقاش الذي يشير إليه خوسيه في «القمة الاستوائية» التي نظّمها جون سبوك. حدثت أشياء كثيرة منذ ذلك الوقت. وهنا خطر ببالي أمرٌ آخر. قلت: «ربما نرتكب خطأً بافتراض أن غويا استخدم موديلاً حياً للوجه. كان عليه أن يرسم وجهاً، أي وجه، على الجسد العاري لإخفاء الهوية الحقيقية للموديل. إنها محض عملية تمويه».

ابتسم خوسيه بعناد لأنه فكر في هذا الأمر أيضاً. وقال: «ثم ماذا؟».

«ربما إذن بمحض المصادفة ظهرت امرأة بعد قرنين تشبه تماماً الصورة التي تخيلها الفنان».

هز رأسه بيأس: «عدنا عملياً إلى بغماليون. أي إن الرب نفخ نَفَسَ الحياة في الصورة التي تخيلها غويا يوماً».

«قلتُ بوضوحٍ تامٍّ إن الأمر مصادفة. لكني أسلّم لك بالطبع أنها مصادفة استثنائية».

«إذن فالمصادفة احتمال وراد. ولكن ماذا إذا كان غويا قد تمكّنَ من لمحِ

الخطة الإلهية بالذات؟ أعني، هل يمكن لفنان راءٍ مثل غويا أن يكون بصّاراً؟».

كنا قد وصلنا إلى التمثال النصفي لكارلوس لينوس(*). هنا سألته:

«ألديك نظريات أخرى؟ أم كانت تلك كل ما لديك؟».

نكّس رأسه علامة استسلام، واعترف: «نعم، فرغَ جرابي، أفْلَسْتُ».

صفن لحظات قبل أن يضيف: «لكن هناك تفسير مختلف تماماً، تفسير تؤمن به آنا وعائلتها. على كل حال، هم غجر منذ أجيال. أما أنا فصرت غجرياً منذ سنوات فقط».

ألقى نظرة على ساعته، وبالضبط حين كنت على وشك أن أسمع تصورات آنا عن شبهها التام بامرأة عاشت على هذا الكوكب قبل مئتي عام، قال: «لسوء الحظ، عليّ أن أذهب. إني متأخر منذ الآن ربع ساعة عن موعد هام».

شعرت أني خُدعتُ، ولابد أنه أحس بشعوري هذا لأنه، وهو يلتفت نحوي ويضع يداً على كتفي، قال: «هناك الكثير مما يحتاج مني إلى تنظيم. بعض التزاماتي ثقيلة، وبعضها الآخر لطيف. كان الطواف في ألبرادو بحثاً عنك واحداً من الالتزامات اللطيفة. لكن ثمة أعباء أخرى عليّ التفكير بها».

قال ذلك، وهُرِع نحو مخرج الحديقة.

بقي لدي الكثير بلا إجابة. لم أعرف من هو القزم الذي شاهداه في إشبيلية. لم أطّلع على رأي آنا حول نظيرتها الغريبة في لوحة غويا. لم أتعرف على المزيد عن إلْ بلانيتا، أو عن جدِّ جدِّ آنا. كنت أيضاً بحاجة إلى إلقاء بعض الضوء على الحِكَم الغريبة التي كان خوسيه وآنا يلقيانها أثناء تجوالهما في الجزيرة. ثم إننا لم نحدد موعد لقاء لاحق. أم لعله خَلُص، بطريقة ما، إلى أني مقيم في فندق بالِس؟ أتُراني ذكرتُ ذلك أمامه؟

(*) عالم نبات إسباني. م.

الشيء الوحيد الذي أستطيع الاعتماد عليه هو قداسٌ في كنيسة سانتا آنا في إشبيلية يوم الجمعة القادم. هناك، مرة أخرى، ثمة ذلك التشابه المحنق في الأسماء.

بينما كنت واقفاً هناك، وشعور بالخذلان يسيطر عليّ، خطر ببالي فجأة أن أطلب منكِ مرافقتي إلى إشبيلية نهاية ذلك الأسبوع. أنت مدينة لي بذلك بعد ضحكاتك الصاخبة التي جلجلت حين ميّزتُ آنا وخوسيه على ضفة التورمز. على الأقل، يمكن أن تسدي لي خدمة بمصاحبتي إلى قداس يهمني حضوره كثيراً.

كم ضحكتِ، ڤيرا! بيدَ أن الطريق قصير بين الضحك والدموع لأن السعادة هشة كالزجاج. إن كان ثمة من يعرف ذلك، فلا بد أنه نحن الاثنين.

رفعت ناظري نحو تمثال لينوس. لعله هو الذي عمّد زهرة المارغريتا باسم بيليس بيرينيس. على الأقل، حاول أن يستزيد قليلاً من فهم هذا العالم الخارق، الذي يقضي كل منا رحلته العابرة فيه.

في طريق عودتي إلى الفندق رجعتُ إلى ألبرادو، وإلى مجموعة لوحات غويا. كان لزاماً عليَّ أن أتأمل بدقة، مرة أخرى، كيف بدت آنا ماريا مايا حين طاردت القزم في حدائق الكازار. لم تتغير «لا نينيا دل ألبرادو» كثيراً في الأشهر التالية لتعرفي عليها في تاڤوني. كنت بالكاد قد لمحتُها حين هُرِعت خارجة من المقهى في سلمنكا. لكن القزم، لكن القزم، التقط لها بالفعل صورة في غاليريا دل غروتسكو.

لماذا فعل ذلك؟

تناولتُ شيئاً من الطعام في أحد البارات، ثم تسكعت في الشوارع قبل أن أعود إلى الفندق. لمّا وصلتُ أخيراً إلى غرفتي، مضيتُ إلى النافذة ونظرتُ إلى نبتونو خلف الريتز، وإلى مبنى ألبرادو في الجانب الآخر من البازيو دل برادو. هناك لوحتان لآنا ماريا مايا معلّقتان في داخله.

في تلك اللحظة قررتُ أن أفعل كل ما في وسعي كي تجيئي إلى إشبيلية. ولأضمن قدومك، كان عليّ أولاً أن أروي لك كل هذه السيرة الطويلة التي لا أزال أعمل فيها منذ أكثر من ثمانٍ وأربعين ساعة؛ أُسجّلها، أولاً بأول، في ذاكرة حاسوبي هنا في الفندق.

جلستُ إلى مكتبي، شغلتُ الجهاز، نظرتُ إلى التقويم: 5 أيار 1998؛ ثم بدأتُ كتابة النص فقرة فقرة. أول شيء فعلته هو رسم تخطيط أولي لما رأيتُ وخبرتُ في أوقيانيا من تشرين الثاني إلى كانون الثاني؛ كتبتُ لك عن الرحلة من نادي إلى ماتثي، ورسمتُ صورة وجيزة لتاڤوني ولمنتجع ماراڤو بلانتيشن ريزورت، ثم وصفتُ لك أول لقاء لي مع آنا وخوسيه. ابتدأت رسالتي قبل التقائي بخوسيه في رتيرو بارك بيوم واحد؛ قبل، أيضاً، أن أسمع ما وقع لـ إلْ بلانتيا في مرسيليا في صيف عام 1842 ، وكذلك قبل أن أعرف ما حدث على رصيف الميناء في قادش في أحد أيام شتاء 1790 .

الساعة الآن، وأنا أكتب إليك، هي الرابعة بعد الظهر من يوم الأربعاء 7 أيار، ولن يمضي وقت طويل قبل أن أسافر بالقطار إلى إشبيلية. ثمة حزمة من الصّور الفوتوغرافية أمامي، وليست مواضيع الصور هي الأمر الأشدّ إثارةً للدهشة، بل ما كتبته آنا على قفا كل منها. لديَّ أيضاً تقرير غريب عن أسباب شدة الشبه بين آنا وصورة عمرها مئتا عام.

انقضى يومان على عودتي إلى الفندق بعد جولتنا، أنا وخوسيه، في الحديقة النباتية، وفي هذين اليومين ازداد إصراري على أن أرسل هذا السِّفر إليك. لا أستطيع المجازفة باحتمال عدم العثور عليك. يجب أن تأتي، ببساطة متناهية يجب عليك أن تأتي معي غداً إلى إشبيلية. آمل ألا تنتهي من هذه الرسالة إلا وقد حسمت أمرك وقررت السفر معي. قررتُ، هذه اللحظة بالذات، أن أهاتفك؛ أي إن هذه الرسالة الطويلة ستُسجّل أيضاً محاولتي الاتصال بك قبل أن أرسل إليكِ بالبريد الإلكتروني كل ما كتبتُه. عليك أن تنتقي كلماتك بحرص. فخلال ساعات فقط ستجدينها مكتوبة أمامك على شاشة حاسوبك.

أجلس الآن إلى مكتبي، التقط سماعة الهاتف وأدق رقمك في برشلونة...

لا أذكر طبعاً كل كلمة تبادلناها، لكن إليك ما تذكرته من حديثنا.

«ڤيرا تتكلم».

«هذا أنا».

«فرانك؟».

«ماتت آنا».

«أعرف».

«ماذا قلتِ؟».

«أعرف أن آنا ماتت».

«لكنك لا تعرفين آنا، هل تعرفينها؟».

«لا، في الحقيقة لم أعرفها قط».

«لكنك تعرفين أنها ماتت؟».

«ما هذا الأمر كله فرانك؟».

«كيف تعرفين أنها ماتت؟».

«لا أفهمك. لا أعرف فعلاً لم تثير كل هذا».

«وأنا أيضاً لا أعرف... أعني أني لا أعرف ما تعنينه بـ«كل هذا»».

«هيا، قل ما لديك!».

«أنا وحيد في غرفة فندق، أقيم هنا منذ حوالي أسبوعين. أريد فقط أن أتحدث إليك، أنا محتاج إلى أن أخبر أحداً بأن آنا ماتت».

«ألم تعطه رقم هاتفي؟».

«من هو؟».

«سمّى نفسه خوسيه».

«ماذا؟».

«اتصل للتو رجل، وقال إنه التقاك في رتيرو بارك، قال أيضاً إنه أعطاك هدية لنا نحن الاثنين».

«هو قال ذلك؟».
«ثم قال إن آنا ماتت».
«قال لكِ ذلك؟».
«ألم تكن تعرف أنه اتصل؟»
«لا!»
«ماذا عن هذه «الهدية» إذن؟».
«صحيح أنه أعطاني شيئاً ما هدية، وأنها لنا نحن الاثنين».
«اسمع، سأضع السماعة الآن...».
«ألو؟».
«سأضع السماعة إن لم تقل لي ما الذي قصده بـ«الهدية»».
«لا أدري لماذا أنت عدوانية هكذا».
«لست عدوانية».
«غاضبة إذن».
«لست كذلك أيضاً. سألتك فقط ما هذه «الهدية»».
«إنها صور فوتوغرافية. وهناك أيضاً مانيفِستو».
«ماني... ماذا؟».
«مانيفِستو».
«جميل. طيب، استمر في أكاذيبك يا فرانك».
«حقاً لا أعرف أنه اتصل بك».
«يجب أن تعرف على الأقل أنك أعطيتَه رقم هاتفي».
«لم أعطه أي شيء البتة».
«طيب، هل أعطيته اسمي!».
«هذا ممكن جداً».
«قلتَ: مانيفِستو؟».
«لكني لم أتصل بك للحديث عن المانيفِستو».
«لم اتصلتَ إذن؟ تعرف أني مشغولة جداً».

«هل تذكرين كم ضحكتِ؟... لم لا تقولين شيئاً».

«فرانك، كانت ليلة لطيفة. اسمع، أنا آسفة لكوني غاضبة. أعني غضبي قبل قليل. من الطبيعي أن أظن أنك أنت من دفعه للاتصال بي، وللحديث عن هدية لكلينا. هل تفهم؟ ثم بعد نصف ساعة، تتصل أنت».

«لم أكن أعرف على الإطلاق أنه أتصل بك».

«أتذكّر أني ضحكت. طبعاً ظننت أنك اخترعت القصة كلها. كلا الأمرين معتادٌ منك».

«كلا الأمرين؟!!!».

«أعني تلفيق القصص، والتعرف على أناس مثل ذاك الذي اتصل بي وحدثني عن هدية ما».

«انتهينا من الأمر الثاني. وإلا فسأضع أنا السماعة...».

«ألو؟».

«إني مقيم هنا أكتب إليك ليل نهار».

«عنا؟».

«عن آنا وخوسيه».

«أرسل ما كتبتَ إليّ. سأقرأه بالطبع».

«لكن لم يعد ثمة الكثير من الوقت. هل ستسجلين الليلة شيئاً من الإنترنت؟ مازلتُ محتاجاً إلى بضع ساعات من الكتابة».

«سأفعل بكل تأكيد».

«في هذه الرسالة الطويلة سأطلب منك أن تسدي لي خدمة، حتى لو كانت آخر شيء على الإطلاق تفعلينه من أجلي».

«وما هذا الشيء الهام جداً؟».

«إن أخبرتك الآن سترفضين طلبي».

«أخبرني أولاً ما هو».

«أريد منك أن تأتي معي إلى قداس يقام غداً مساءً في إشبيلية على راحة نفس آنا».

«سبق لك أن طلبتَ مني ذلك».

«هل هذا صحيح؟».

«الرجل الذي اتصل بي طلب حضوري. عملياً اعتبر أنك أنت الذي طلبتَ ذلك».

«هل طلب منك أن تأتي إلى إشبيلية؟».

«أتعني أنك لاتعرف بذلك؟».

«بلى! أعني لا. لا أعرف عن ذلك شيئاً. لا بُدّ أنه أخذ رقمك من الدليل».

«قلتُ له إن يوم الجمعة ليس مناسباً لي. فرانك، لم أكن أعرفها».

«تعرفينني أنا».

«لست أنت الذي مات لحسن الحظ».

«أذكر أنه كان هناك عدد كبير من الناس في مأتم سونيا من دون سابق معرفة بها».

«هذا أمر مختلف تماماً».

«ليس مختلفاً إن أخبرتُك أن آنا كانت صديقة حميمة لي».

«أدركتُ ذلك. لكننا لم نعد نعيش معاً».

«هل ستحضرين مأتم أمي؟».

«أظنك الآن صرت شنيعاً».

«لن نتجادل حول أيّنا أشنع من الآخر».

«لستُ أجادل حقاً. انتهيتُ من كل ذلك. فرانك لقد ودّعنا بعضنا. متى ستدرك ذلك؟».

«ألك علاقة برجل آخر؟».

«سألتَني عن ذلك على الجسر. ثم أخذتَ تقص عليّ كل تلك القصص المجنونة».

«ألك علاقة برجل؟».

«لا أرى بأي حق تسألني هذا السؤال».

«ها أنت تنقصين من قَدْرك الآن. كل ما أسأله هو: هل لديك عشيق؟».

«لا».

«ماذا؟».

«لن أتزوج ثانية».

«لِمَ أنت واثقة من ذلك إلى هذا الحد؟».

«لكن بالطبع لدي عدد كبير من الأصدقاء. وآمل أن لديك أصدقاء كثيرين أيضاً».

«ليسوا كثيرين في إسبانيا. لذا سيعني قدومك إلى إشبيلية الكثير لي. طبعاً سأدفع كل نفقات مجيئك».

«لا أعرف، فرانك، لا أعرف حقاً».

«طيب، لنترك هذه المسألة الآن. لكن عديني أنك ستقرئين ما أرسله لك الليلة».

«قلت لك إني سأفعل. سأتدبّر وقتاً لقراءته».

«جميل. وسنرى عندئذٍ إن كنت ستغيرين رأيك».

«ما كل هذا الأمر الذي تكتب لي عنه؟ أهو ما كنت تحدثني عنه على الجسر؟».

«جزئياً، لكني لم أكن أعرف شيئاً تقريباً آنذاك».

«إنك تثير فضولي. ألا يمكن أن تقدم لي نبذة عن الموضوع؟».

«لا، هذا مستحيل تماماً. أريد أن تطّلعي على القضية كلها دفعة واحدة. كل شيء أو لاشيء».

«إذن سأنتظر حتى هذا المساء».

«سيكون أمامكِ لغزٌ، وعليكِ أن تتأملي فيه ملياً».

«لغز؟».

«كيف يمكن لشخصٍ يعيش اليوم أن يكون شبيهاً كل الشبه بشخص عاش قبل مئتي عام؟».

«لا أدري. على كل حال ما من أحد يعرف تماماً كيف كانت أشكال الناس قبل مئتي عامٍ من الآن».

«هناك الكثير من الرسوم لهم».

«لكن ما من شخصين متماثلين تماماً يا فرانك. أظنك درست علم الوراثة؟».

«قلت لك إنه لغز».

«هل كنت تشرب؟».

«لا تبدئي بذلك الشعار مجدداً».

«لا أظن الكحول يناسبك إلى هذا الحد».

«هل تعرفين بم تذكرينني؟».

«سألتُك إن كنت تشرب».

«تذكرينني بأبو بريص».

«إلزمْ حدودك!».

«أعني أبو بريص محدداً».

«هل تشكو من مشاكل عصبية في الوقت الراهن؟».

«هل تؤمنين بالأقزام؟».

«هل أؤمن بالأقزام؟!!».

«تناسيْ الموضوع. القداس في تريانا، كنيسة القديسة آنا، في السابعة مساءً».

«سنرى. لكني سأقرأ ما كتبتَ».

«أنا أقيم في فندق بالِس».

«أنت مجنون. أنا سعيدة أنه لم يعد هناك حساب مصرفي مشترك بيننا».

«ما كنت لأكتب أو لأتصل لولا أني لأزال مهتماً بكِ».

«وما كنت لأسمح لهذا الاتصال السخيف أن يستمر طويلاً لولا أن لدي الشعور نفسه إلى حدٍ ما».

«إلى اللقاء، ڤيرا».

«إلى اللقاء. هل تعرف أن

ك أهبل فعلاً؟ لكن متى لم تكن أهبلاً على كل حال؟».

القزم والصورة السحرية

صباح الأربعاء وصلتُ إلى ألبرادو بعد التاسعة بقليل، أي بعد فتح صالة العرض أبوابَها بدقائق. ذهبت إلى هناك على أمل أن أجد خوسيه، فنحن لم نتفق على موعد حين افترقنا. ستكون الفرصة التالية للقائي به في كنيسة القديسة آنا في إشبيلية. لكن لاشك أنه سيكون ثمة الكثير من الناس عندئذٍ.

عرّجتُ، مرة أخرى، على «حديقة المباهج الدنيوية»، وانتظرت هناك بعض الوقت، لأني التقيت خوسيه عندها في اليوم السابق. صعدتُ بعد ذلك إلى الطابق الأول، وسرعان ما وجدتُني أمام لوحتي الماخا. وقفت طويلاً أحدق في عيني آنا. كانت ترد النظر إليّ من دون أن يطرف لها جفن، وهذا ما بثَّ الرهبة في قلبي. لكن ما كان ليفاجئني لو أنها غمزت لي بإحدى عينيها.

غادرت صالة العرض بعد ساعة، وسرت في جادة فيليب الرابع، ثم عبر جادة ألفونسو السابع المزدحمة نحو متنزّه رتيرو بارك. كانت كل المروج العشبية في المتنزّه مغطاة بزهرة نوار بألوانها الصفراء والبيضاء والحمراء، ومعها زهرة المارغريتا أو بيليس بيرينيس. قضيت بعض الوقت أتجول في ذلك المنتزه الفسيح متفرجاً على الأطفال في أزيائهم المدرسية الموحّدة، على أزواجٍ من الطلّاب، وعلى المتقاعدين وأعدادٍ من الأجداد والجدات يقودون صغاراً بدؤوا يدرجون، والكثير من هؤلاء يحمل طعاماً للسناجب. ثمة تعارض كبير بين الاستثنائية الفعلية للحياة اليومية وبين عادية وابتذال تعامل المنخرطين في هذه الحياة معها. عاد إلى ذاكرتي كلام سمعته من آنا أو خوسيه في تافوني: «ها هم الجنُّ يعيشون حكاية الجنيات، لكنهم عُمْي عنها. أتكون حكاية الجنيات حكاية

جنيات حقيقية لو استطاعت رؤية نفسها؟ أتكون الحياة اليومية معجزة لو أنها مضت تفسّر نفسها على الدوام؟».

عزمت على العودة ثانية إلى ألبرادو، غير أني جلست في البداية على مقعد في أعلى البارتير المتميز بمساطبه المنسقة وشجيراته المشذبة. على حين غرة نبت خوسيه أمامي. بدا كأن أحداً دلّه على طريق جولاتي اليومية في رتيرو بارك.

جلس قربي على المقعد وبقينا هناك ساعتين. كان يمسك بجريدةٍ وبمغلفٍ أصفر كبير. قال إنه سيأخذ قطار الظهيرة إلى إشبيلية، وأكّدتُ له من جانبي أني سأحضر القداس يوم الجمعة. لم أذكر له أي شيء عن أملي المكنون بأن تحضري القداس. لكن لعلي ذكرتُ اسمك في فيجي؛ وإن لم أذكر كنيتك له، فلا شك أني ذكرتها للإنكليزي الذي بقي في ماراثو بعد أن غادرتُها أنا.

لبث خوسيه دقيقتين من دون أن يتكلم. لم يكن ذاوي الوجه فحسب، بل اتخذ كيانه كلّه شكل طيف أو يكاد. أتذكر أن أفكاري عادت هنا إلى أورفيوس وهو راجع من العالم السفلي من دون حبيبته يوريديس.

أنا من كسر الصمت أخيراً. قلتُ: «لابد أنها أيام عصيبة بالنسبة لك».

اشتد إحكام قبضته على ما في يديه، وأردفتُ أنا: «فكرتُ مجدداً في الشبه المذهل بين آنا والمرأة في لوحة غويا. أحاول إقناع نفسي بأن الأمر مصادفة خارقة».

أومأ برأسه متعجلاً. لاح لي كأنه ينسق أفكاره قبل أن يجيب.

«لكنك قلت لي إن لدى آنا وعائلتها تفسيراً مختلفاً تماماً، أليس كذلك؟».

أومأ ثانية، وقال: «تفسيرهم يتعلق بحكاية قديمة. وإن شئت رأيي فهي مجرد سالفة. ابتدأ الأمر كله بشيء وقع لـ إلّ بلانيتا في فرنسا».

قلتُ بإلحاح: «تابع، أرجوك أن تتابع!».

«يقال إنه في ربيع 1842 انطلق حاجاً من قادش إلى ضريح القديسين

المريميين البحريين في جزيرة كاماراغو بين مصبّي نهر الرون. في السادس والعشرين من أيار ذلك العام أُفيدَ أنه وصل إلى مرسيليا حيث عمل في تحميل السفن وتفريغها لفترة قصيرة، بقصد أن يعود إلى قادش ما أن يتوفر لديه المال الكافي. بعد أسابيع قليلة من عمله عاش تجربة توارثتها الأجيال منذ ذلك الوقت حتى يومنا هذا. وهي، بالمناسبة، قصةٌ رُوِيت لي منذ بداية تعرُّفي إلى آنا وعائلتها. قد يلزم أن أوضح، منذ البداية، أن ما سأرويه لك هو قصة متعددة التنويعات حتى في عائلة مايا ذاتها. فما سنتعامل معه هو تراث شفهي، بل يكاد يكون حلقة كاملة من الأساطير. لم أستطع قط العثور على وثائق مكتوبة عن هذا التراث الأندلسي، ولا أية موادّ عنه حتى بالنسبة للسنوات الأخيرة. لكن يقال إن هناك تراثاً سويسرياً مستقلاً بالكامل ينحدر من الفترة ذاتها. سأروي لك القصة بإيجاز، وبالتالي سأركز على الوقائع الأساسية فحسب».

«تابع!».

«ذات عصرٍ في بداية حزيران عام 1842 ، كان إلْ بلانيتا واقفاً على رصيف الميناء في مرسيليا بانتظار الصعود إلى ظهر مركب شراعي راسٍ لتفريغ حمولته. بدا كأن المركب، وهو نرويجي بالمناسبة، قد مر بظروف مناخية عصيبة أثناء رحلته البحرية. وحتى قبل أن ينصبوا سلم التفريغ، تسلق رجلٌ ضئيلٌ الحاجزَ وقفز إلى الشاطئ. جرى بعد ذلك بين مقاصير الرصيف واختفى عن الأنظار».

«رجل ضئيل؟!».

«كان قزماً يرتدي ملابس مهرج، أحد مهرجي البلاط. أما الزي الذي يكتسيه فهو بنفسجي اللون، وعلى رأسه قلنسوة خضراء وحمراء تتفرع عنها أذنا حمار. كان كل من ردائه وقلنسوته مغطىً بأجراس صغيرة جلجلت بصوت عالٍ حين اندفع مختفياً بين المقاصير. وهكذا رآه عدد كبير من الناس الذين كانوا على الرصيف، وطُرحتْ بعض الاستفسارات على بحارة المركب للسؤال عن هويته؟».

«وماذا قالوا؟».

«كان المركب قادماً من خليج المكسيك، وفي مكانٍ ما جنوبي برمودا، التقطوا القزم وبحاراً ألمانياً من زورقٍ مكشوف. قال البحار إنهما كانا على متن السفينة الشراعية ماريّا، السفينة التي تحطمت قبل عدة أيام، وإن من المحتمل أن يكونا هما الناجيين الوحيدين من الحادث».

«لم يضف شيئاً آخر؟».

«كان البحار الألماني رجلاً صموتاً، وعانوا مشاكل كبيرة في التفاهم معه لأنه لم يكن يجيد الإسبانية أو الفرنسية، ثم إنه سرعان ما اختفى هو الآخر عن الأنظار. تقول إحدى الروايات إنه استقر فيما بعد في إحدى القرى الجبلية السويسرية حيث عمل خبازاً».

«ألم يُرَ أي منهما بعد ذلك؟».

«بلى بالنسبة للقزم. كان إلْ بلانيتا يعيش حياة صعبة بين المستودعات على رصيف الميناء. كل ما كان يريده هو العودة إلى موطنه قادش حالما يُؤمِّن ما يكفيه من مال. لمّا انتهى من تفريغ المركب، انصرف لينال قسطاً من النوم، لكنه شعر بوجود شخص ما مختبئ بين بعض براميل الخمر الفارغة. كان الشخص يبكي بحرقة. دنا إلْ بلانيتا من مصدر الصوت فوجد القزم البائس هناك».

«وماذا قال القزم؟».

«لم يكن يتكلم إلا الألمانية، وكانت هذه اللغة غير مفهومة للغجري القادم من قادش بقدر ما هي الإسبانية بالنسبة للرجل الضئيل. لكن واحدة على الأقل من القصص التي تتحدث عن لقاء إلْ بلانيتا والقزم تشير إلى أن الأخير كان يحاول إخفاء شيء ما».

«إخفاء ماذا؟».

«حُلّة المهرج. بدا شديد الحرص على إخفاء حلّته بقدر ما يحاول سجين هارب إخفاء لباس السجن الذي يرتديه. لم يكن يريد أن يعرفه أحد، وخاصة كمهرج. يُحكى أن إلْ بلانيتا أعاره معطفاً قصيراً، وبعد ذلك ضاعت آثار القزم في مرسيليا».

«ألم يره إلْ بلانيتا ثانية؟».

«الروايات المتوارثة منقسمة حول هذه النقطة. تقول بعضها إن إلْ بلانيتا والقزم عاشا معاً بين أكواخ رصيف ميناء مرسيليا عدة أيام، وإن القزم حاول في إحدى الأماسي أن يروي قصته بلغة الإشارات وباستخدام بعض الرسوم».

«الرسوم؟!!».

«رسم رزمة من ورق اللعب، رزمة من النوع الفرنسي، أي الكبة والديناري والسباتي والبستوني. ويُفترَض، من ثم، أنه ألقى، بالألمانية، مقاطع شعرية قصيرة حول كل من الأوراق الاثنتين والخمسين في الرزمة. تمكن إلْ بلانيتا من حفظ بعض هذه الأشعار رغم كونها بلغة غريبة. في الرسم الوحيد الباقي لـ إل بلانيتا، وهو نقش على صفيحة نحاسية حفره د. ف. لامير، يبدو الغجري، في اعتقاد كثير من الناس، كأنه يقلد جوكراً أو مهرج بلاط. ما هو أكيد على كل حال هو أنه عاد إلى إشبيلية بقصة القزم الغامض، وأن القصة كانت معروفة جيداً حين وقع جدّ جد آنا ضحية مصيره الغريب في حزيران 1894 ، أي بعد ذلك باثنين وخمسين عاماً».

«قبل مئة وأربع سنوات».

«نعم، هذا صحيح. كان اسم جدّ جدّ آنا مانويل، ومثل جدّ جدّه هو، كان كانتاور (مُغنياً) محترماً يعيش في تريانا، أو في إلْ باريوجيتانو، وهو الاسم الذي اكتسبته تريانا وعرفت به بالتدريج. عاش مانويل في العصر الذهبي للفلامنكو، العصر الذي ترافق بازدهار مقاهي لوس كافيس كانتانتس (المقاهي الغنائية) في إشبيلية. وصار هو الآخر شخصية أسطورية في العائلة، وأطلِق عليه لقب إلْ سوليتاريو أي المتوحّد، أو مانويل إلْ سوليتاريو. ولعل الاسم ارتبط به لأنه اعتبر وحيداً أو خارجياً أو ذاهلاً، وربما أيضاً لأنه شخص انعزالي جداً. كان موضوع الكثير من أغانيه هو عزلة الإنسان. ويقال إنه كان ماهراً في لعب الورق وشغوفاً بلعبة السوليتير. كان أيضاً مضيفاً متعدد المواهب، بارعاً في قراءة الحظ بورق اللعب. ولعل شيئاً يتعلق بالورق هو الذي...».

قطع خوسيه كلامه بغتة كما لو أنه ينوي إفشاء سرٍ هام.

«ماذا عن الورق؟» سألته محاولاً دفعه إلى الكلام من جديد.

«لعل من الأفضل أن أبدأ من نقطة أخرى».

«لايهم من أين تبدأ بشرط أن يتضح الأمر كله في النهاية».

«في إحدى أماسي صيف 1894 تمشّى مانويل إلْ سوليتاريو نحو ضفة نهر غوادالكويڤير. لم يكن ثمة ما هو غير معتاد في مشواره، فقد تعود السير في ذلك الجانب من إشبيلية بعد أن ينهي غناءه المسائي في (كافيه كانتانتي)، المقهى الغنائي لسلڤيريو فرانكونتي. كانت أم سلڤيريو من أصل غجري عريق، مع أن سلڤيريو نفسه اعتُبِر غير غجري أو **بايو** من قبل غجر إشبيلية؛ وأن يغني واحد من هؤلاء البايو أغاني غجرية هو شيء جديد تماماً....».

استوقفتُه وكررتُ كلماته الأولى: «في إحدى أماسي صيف 1894 انحدر مانويل نحو ضفة غوادالكويڤير».

«ويقال إنه رأى في تلك الأمسية شخصاً غريب الشكل، يتجول، في الظلام، على حافة النهر من جهة تريانا، أي بين جسري بونتي دوتريانا وبونتي سان تلمو، وعلى بُعْدٍ لا يزيد رمية حجر عن كنيسة سانتا آنا. قد تتاح لي الفرصة لأُريكَ تلك البقعة في وقت ما بعد نهاية الأسبوع. فلا تزال بتيس المتميزة بإطلالاتها الجميلة على حلبتي مصارعة الثيران التوري دِل أورو ولا جيرالدا، الواقعتين وراء النهر، لاتزال مكاناً يستحق التسكع فيه في العصائر. أُفيد، على كل حال، أن الشخص المتجول في الظلام كان قزماً».

«قزم آخر؟».

«يجب أن تتذكر هنا أن مانويل كان مطلعاً على القصة القديمة عن لقاء إلْ بلانيتا مع القزم في مرسيليا...».

«لكن من الواضح أنه لم ير القزم ذاته».

لبث خوسيه لحظة يحدق فيما وراء إلْ بارتير. ثم قال بصوت خافت كأنه يوجه الكلام إلى نفسه: «لا، لا يمكن أن يكون ذات القزم».

«وإلا لكان مسناً جداً حينذاك».

هز خوسيه رأسه: «لم يكن مسناً. وقف مانويل في مكانه ينظر إليه، وأخذ بالتفكير ـ حسب جدّة آنا ـ بزيارة إلْ بلانيتا إلى مرسيليا. هنا دعاه القزم إليه بإشارة من سبابته اليسرى، ذات الإشارة التي صوّرها النقش النحاسي لـ إلْ بلانيتا. نزل مانويل نحو القزم الذي كان يرتدي حلة بسيطة من النوع الشائع في أوساط الغجر تلك الأيام. قال القزم: «يبدو أنك تقوم بنزهة»، وبهذه الجملة ابتدأ حديث ممتع بين القزم ومانويل إلْ سوليتاريو».

«هذا القزم يجيد الإسبانية؟».

«بل وكان يتحدث بلهجة أندلسية، لكن أيضاً بطريقة تكشف بوضوح أنه ليس من مواليد إشبيلية أو الأندلس أو أي مكان آخر في شبه الجزيرة الإيبيرية».

«وعمّ تحدثا؟».

«لاتتوقع معرفة الكثير عن ذلك. تَذكّرْ أن هذا اللقاء وقع منذ أكثر من قرن مضى، وعليّ أن أشدد أيضاً على أني سمعت روايات عديدة مختلفة عن ذلك الحديث. هذا مع العلم أن كلمة «حديث» ليست كلمة مناسبة لوصف ما دار بينهما. ما أعنيه هو رواية القزم عن أصوله. سمعتُ هذه القصة من ابنة عم لآنا ومن إحدى قريباتها، لكني، حتى اليوم، لم أسمع ذات الرواية مرتين».

«إذن اختر واحدة منها! أو اروها لي جميعاً».

«سأدمجها معاً. وستتضمن روايتي المقتضبة النقاط التي تتفق عليها مختلف الروايات. لا نملك كل وقت العالم على أية حال».

أردت طبعاً أن أسمع أكثر ما يمكن، وكنت قلقاً من أن يدركه الوقت كما سبق أن حصل في الحديقة النباتية. كان الإسباني الشاحب الوجه، ذو الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين أحجية لا تني تزداد غموضاً بالنسبة لي. ولم أكن أعرف إلى أي حدٍ يجب أن أثق به. إن كان يحاول العبث بي فسأوقفه عند حده قبل أن يجعل مني أضحوكة.

قلت: «استمرا».

«عرّف القزم نفسه على أنه ذات القزم الذي أعطاه إلْ بلانيتا معطفاً قبل اثنين وخمسين عاماً. ومنذ البداية ظهر أنه يعرف أنه يتحدث إلى حفيد إلْ بلانيتا. فضلاً عن ذلك، فتح كيساً وأخرج منه معطفاً قديماً أعطاه لمانويل إثباتاً، فيما يبدو، لصدقه. وبينما كان يفتح الكيس سمع مانويل أصوات أجراس مكتومة».

«لكن هذا القزم لم يكن مسناً!».

هز خوسيه رأسه، وقال: «كان في ريعان شبابه».

«ابتدأتُ أرى صلة هذه القصة بآنا. ولكن ما الذي قاله القزم؟».

«قال إن المركب الشراعي الذي أتى به إلى مرسيليا كان قد التقطه فعلاً من زورق مفتوح في وسط المدى الرحب للمحيط جنوبي برمودا، وإن بحاراً ألمانياً كان معه في الزورق. لكنهما لم يُلتقطا بعد غرق سفينة».

«لِمَ، إذن، كان في زورق مفتوح وسط المحيط؟».

«قَدِمَ القزم من جزيرة بركانية غمرتها مياه المحيط فجأة. أما البحار الألماني فلبث في الجزيرة بضعة أيام فقط قبل أن يغمرها الماء. لجأ إليها بعد تحطم سفينته، وهي مركب شراعي يسمى ماريّا».

«ومن أين أتى القزم أصلاً؟».

«كان القزم قد وصل إلى الجزيرة برفقة بحار آخر بعد غرق سفينة في عام 1790. بقي في الجزيرة اثنين وخمسين عاماً بالتمام والكمال قبل أن تتشقق أرضها بأخاديد عميقة، وتغمرها في النهاية أمواج المحيط».

هنا انطلقت مني ضحكة هازئة، وقلت: «فهمت. إذن فقد قدم القزم إلى الجزيرة في المحيط الأطلسي قبل مئة وأربع سنوات من لقائه بمانويل في إشبيلية. وكان مع ذلك لايزال في ريعان الصبا!».

لكنني لم ألمح ولو ظل ابتسامة على وجه خوسيه؛ بالعكس في الواقع، فقد

مضى في حديثه بكل جدية: «بعد اثنتين وخمسين سنة أخرى، أي في ليلة حزيرانية عام 1946 ، شوهد القزم مجدداً في ساحة بلازا ڤيرجن دو لوس ريس خارج الكاتدرائية في إشبيلية. أقسم عم والد آنا أنه رآه هناك. وبتأثير لاجيرالدا والجدران العالية المحيطة بالكازار، تتميز ساحة بلازا ڤيرجن دولوس ريس بأصداء عالية لأي صوت ينطلق فيها؛ وهكذا سمع الرجل جلجلة أجراس قوية بينما كان المهرج الضئيل يندفع عبر الساحة باتجاه أرشيڤو دو إندياس وبورتا دوجيريس».

كان لايزال يتحدث بكل جدية، لكن، للحظة، خطر لي أنه يضحك عليّ. لعل خوسيه فَقَدَ عقله، أو لعله دجّال على الأقل، المحتمل إذن ألّا تكون آنا قد ماتت.

«قد تقول لي الآن إن القزم ذاته هو الذي طاردته آنا في حدائق الكازار؟».

رفع سبابته اليسرى إلى فمه وهز رأسه: «لكن هذا ما ظنته آنا، كانت مقتنعة بأنه القزم نفسه. كان أول ما قالته حين لحقتُها في حديقة الشعراء: «لقد سمعت الأجراس!» كررت هذه الجملة مراراً قبل أن تموت. نحن الآن في عام 1998 ، أي بعد عام 1946 باثنين وخمسين عاماً بالتمام والكمال».

قمت بحساب السنوات فوجدت أن قصة القزم تتكرر كل اثنين وخمسين عاماً.

قلت ساخراً: «علينا إذن أن ننتظر لنرى ما يحدث عام 2050 . لكن بالطبع أنت شخصياً لا تؤمن بكل هذه القصص».

وكأنه لم يكن راغباً في تقديم إجابة مباشرة على سؤالي، اكتفى بتكرار هذه الجملة: «كانت آنا تؤمن بكل كلمة في هذه القصة. طوال عمرها كانت تخشى ما قد يحصل في إشبيلية هذه السنة».

«قلتَ إن مانويل مات بعد شجار؟».

«بعد عامين من لقائه القزم في إشبيلية، كان مانويل يلعب الورق مع بعض أصدقائه ويربح كل دور في اللعبة. أحبَّ أن يثبتَ أنه ساحر ذو مواهب خاصة

تمكّنه من الفوز دائماً، ثم أخذ يروي الحكايات عن القزم منذ أن غرقت الجزيرة إلى لقائه مع إلْ بلانيتا، إلى لقائه الشخصي به على ضفة نهر غوادالكويڤير».

«هل قال شيئاً لم تقله أنت في روايتك؟».

«ذكر أصل القزم أيضاً...».

«إيه؟».

«... وكان هذا الجانب من روايته هو الذي أطلق شجاراً مشؤوماً في تريانا. أكدت الشرطة أن رجلاً اسمه مانويل قد ضُرِبَ حتى الموت في تريانا في ذلك الوقت. إننا نتعاطى مع واقعة تاريخية، وهذا يصح على الأقل على الشجار».

«تابع!».

«قلتُ لك إن القزم قَدِمَ إلى الجزيرة بعد غرق سفينة عام 1790 . هذا صحيح جزئياً فقط».

ضحكتُ إذ سمعت ذلك، وقلت: «إما أن يأتي المرء إلى الجزيرة عام 1790 أو لا يأتي. لا يمكنه أن يأتي أو لا يأتي جزئياً».

«تمهل. إنما أحاول أن أروي لك قصة قديمة، القصة التي حكاها القزم لمانويل إل سوليتاريو. بعد غرق سفينة عام 1790 ، وصل أحد البحارة إلى الجزيرة. كان البحار ألمانياً، والشيء الوحيد الذي كان يحمله في جيب قميصه حين زحف إلى الشاطئ هو رزمة من ورق اللعب. عاش في وحدةٍ تامةٍ اثنين وخمسين عاماً، ولم تؤنسه في وحدته إلّا رزمة الورق. كانت رزمة جميلة ومتقنة الصنع، وعلى كل ورقة منها صورة شخص بالطول الكامل، لكن أولئك الشخوص كانوا أشبه بشخصيات حكايات الجنيات: فهم قصار القامة ويشبهون الجن الصغار في قصص الجنيات».

قلت مقترحاً: «لربما يشبهون الناس المرسومين في «حديقة المباهج الدنيوية»».

«ماذا قلت؟».

كررتُ اقتراحي، فأجاب: «هذا ممكن، لكن الناس عراة في لوحة بوس. أما بنو الجن المرسومون على أوراق اللعب فكانوا يرتدون حُللاً من أبهى حُلل عصر التنوير الفرنسي. ويبدو أن القزم كان يرتدي زياً بنفسجياً وقلنسوة لها أذنا حمار. وعلى لباسه علقت أجراس صغيرة تدندن عند أدنى حركة يأتيها».

«لست أدري إذا...».

«شغل البحار الناجي أيامه بلعب السوليتير، تماماً مثلما فعل نابليون في منفاه في جزيرة القديسة هيلانة. بعد حينٍ أخذ يحلم بالشخوص المرسومين على الورق، فقد كانوا ـ على كل حال ـ رفقته الوحيدة طوال تلك السنين المديدة. حلم أحلاماً نابضةً بالحياة بتلك المخلوقات الجنيّة الشبيهة بالإنسان إلى درجة أنه صار يتخيل رؤيتهم أثناء النهار أيضاً. تراءى له أنهم يطوفون حوله مثل كائنات أثيرية. هكذا صار يُجري أحاديث طويلة معهم، رغم أنه ـ في الواقع ـ كان البحار المتوحِّد هو من يحدث نفسه. لكن ذات يوم...».

«نعم، ذات يوم؟».

«... ذات يوم، وفي تلك الجزيرة الكاريبية التي لاذ بها بعد غرق سفينته، نجح بنو الجن الصغار في الخروج من مخيلة البحار إلى العالم الواقعي. أفلحوا في اقتحام البوابة الفاصلة بين الفضاء الخلاق ضمن وعي البحار والفضاء المخلوق تحت قبة السماء. وهكذا طلعوا، واحداً بعد واحدٍ، كأنهم قفزوا من حاجب البحار؛ وبعد شهور قليلة اكتملت كل مخلوقات رزمة الورق. كان آخر القادمين هو الجوكر؛ إنه ما قد تعتبره فكرة متأخرة. لم يعد البحار وحيداً، إذ سرعان ما كان يعيش في قرية محاطاً باثنين وخمسين جنياً حياً، إضافة إلى المهرج الضئيل، أي الجوكر.

«كان البحار يُهلْوِس. لقد أفقدته سنين الوحدة في الجزيرة عقله. لا أرى في ذلك ما يصعب فهمه».

«سأل البحار نفسه إن كان ذلك كله مجرد هلوسة. لكن في عام 1842 وصل البحار الشاب إلى الجزيرة بعد غرق السفينة ماريّا. الشيء الغريب هو أنه رأى، هو الآخر، الاثنين وخمسين جنياً في الجزيرة. لكنه لاحظ أيضاً أنه لم يكن لدى بني الجن الصغار أولئك أدنى فكرة عمن يكونون أو من أين قَدِموا. كانوا يعيشون في الجزيرة فحسب؛ وبالنسبة لهم مثلما هو الأمر بالنسبة لمعظم القرويين، كان العالم الذي يعيشون فيه غير لافت للنظر. الاستثناء الوحيد من ذلك هو الجوكر. لم يكن يشبه الجن الآخرين. لقد نجح في اختراق حجاب الوهم، وفهم، في النهاية، من هو ومن أين أتى. أدرك أنه جاء إلى العالم بطريقة خارقة، وأن مجيئه يشكل جانباً من جوانب مغامرة عصية على التفسير. كان الوجود معجزة هائلة بالنسبة للجوكر. أو، إن عبّرنا عن الأمر بكلماته هو، كما أوردها مانويل إلْ سوليتاريو: «فجأة تجد نفسك في العالم، وترى سماءً وأرضاً». أما بنو الجن الآخرون فقد اعتبروا وجودهم والسماء والأرض أشياء مسلماً بها ما إن برزوا إلى الوجود. كان الجوكر مختلفاً، إنه الطارئ الغريب الذي رأى ما عَمِي عنه الآخرون. أو بعبارته هو: «ينسل الجوكر قلقاً بين الجن كأنه جاسوس في حكاية جنيات. يتوصل إلى استنتاجاته، لكنه لا يجد أحداً يعلنها أمامه. وحده الجوكر هو ما يرى. وحده الجوكر يرى ما هو».

«ثم قلتَ شيئاً عن غرق الجزيرة في البحر؟».

نظر إليّ خوسيه بعينيه الزرقاوين. اضطرتني نظرته إلى أن أصرف من ذهني تصور أن كل ما رواه لي محض اختلاق.

«غرق البحار العجوز والاثنان وخمسون جنياً مع الجزيرة. وحدهما البحار الشاب والجوكر أفلحا في الابتعاد عن الجزيرة في زورق ذي مجاذيف. لكن لايزال ثمة ما يجب أن تعرفه إن شئت أن تفهم ما وقع بعد ذلك».

ألقيت نظرة إلى ساعتي. وقلت: «إليّ بها!».

لكن لحظات عديدة مرت قبل أن يقول: «لم يطرأ أدنى تغيّر على الجوكر

أو على الجن الصغار طوال السنين التي عاشوها برفقة البحار. هرم البحّار نفسه، لكن لم تظهر ولو ثنية واحدة، أو بقعة وسخ واحدة، على الحلل الزاهية للجن الصغار. والسبب في ذلك أنهم أرواح. لم يكونوا من لحم ودم مثل الفانين العاديين».

«وماذا عن الشجار؟».

«كان مانويل إلْ سوليتاريو يربح دائماً في الورق. وحين سُئِل عن السبب قال إنه تعلم بعض الحيل على يد ذات القزم الذي التقاه إلْ بلانيتا في مرسيليا. بمجرد قوله ذلك انقض عليه أحد اللاعبين باللكمات. كان هذا اللاعب قد خسر خسارة ثقيلة، وكان ثملاً لكثرة ما شرب من المانزيلا. وبعد بضعة أيام مات مانويل من الجروح التي أُصيب بها، وخلّف وراءه امرأة وطفلين، ولداً وبنتاً. يعتقد بعض الناس أن مانويل لم يكتسب لقب سوليتاريو إلا بعد أن روى حكاية البحار ورزمة الورق السحرية. فكلمة سوليتاريو لا تعني «المتوحّد» فقط، بل «الناسك» أيضاً. ثم إن سوليتاريو هي المقابل الإسباني لكلمة سوليتير، كما في قولنا hacer un solitario».

لا أدري هل عليّ أن أصفّق أم أكتفي بالقول: «ثم عاشوا بعد ذلك بسعادة وهناء».

«ما من داعٍ للأنين. ألم تقل أنت نفسك إنك مذهول من درجة شبه آنا مع ماخا غويا؟».

نسيتُ أن كل ما رواه لي يتعلق بآنا، بل وبذلك الجانب من اللغز الذي شهدته بنفسي في ألبرادو. قلتُ: «كنت ستحكي لي عن تفسير آنا وعائلتها لذلك الشبه العجيب».

«أما وقد سمعت ما سمعت عن المهرج الصغير وهو يدخل ويخرج دورياً من القصة، فلعلك تستطيع أن تخمن العلاقة بين آنا وماخا غويا. لقد سمعتَ أن القزم التقط صورة لآنا قبل بضعة أيام فقط في حدائق الكازار... عليّ أن ألتحق بالقطار بعد قليل».

«انتظر لحظة. ذهب القزم إلى مرسيليا عام 1842 ، والتقى مانويل في تريانا عام 1894 ، وركض عبر ساحة بلازا ڤيرجن دو لوس ريس عام 1946 . واعتقدتْ آنا أنه هو القزم ذاته الذي ظهر مجدداً في حدائق الكازار عام 1998».

«نعم، هكذا تسير القصة».

«لكن لا يمكن أن يكون القزم قد التقى غويا، فهو لم يرى آنا إلا بعد وقت طويل من رسم ذلك الرجل العظيم لـ **ماخا العارية والكاسية**».

«علينا أن نتناول الوقائع بالترتيب، واحدة واحدة».

«طيب، هيا! وعدتَني أن تتضح القصة كلها في النهاية».

«كان البحار الذي أتى برزمة الورق السحرية إلى الجزيرة قد أبحر من قادش في أوائل سنة 1790 على متن سفينة شراعية إسبانية تدعى آنا، وهذا اسم شائع نسبياً وقتها للمراكب. أقلعت آنا إلى ڤيراكوزة في المكسيك، وفي رحلة عودتها إلى قادش غرقت بحمولة كبيرة من الفضة. تفحصتُ السجّلات القديمة وأضابير السفن ووجدتُ مصير السفينة مطابقاً للواقع التاريخي».

«تأكدتَ من أن السفينة المسماة آنا غرقتْ فعلاً بحمولة كبيرة من الفضة عام 1790 ، وأنها كانت قادمة إلى قادش؟»

«نعم، لكن السجلات تقول إن المركب غرق بكل من كان عليه، ولم تُتَداول شائعات عن ناجين منه».

«بمعنى ما لم ينجُ أحد بالفعل. ذلك أن البحار الذي لجأ إلى الجزيرة غرق معها بعد اثنين وخمسين عاماً، ولم يعد قط إلى عالم الحضارة».

«يسرّني أنك تتابع روايتي باهتمام. حين انطلق البحار من قادش عام 1790 كان يحمل معه رزمة من ورق اللعب. لا أعرف إن كان عليّ أن أدخل في تفاصيل القصة المتوارثة عن رزمة الورق الغريبة تلك، أو بالأحرى عن كيفية حصول البحار عليها».

بإلحاح قلت: «آ، نعم. أحب أن أسمع هذا الجانب أيضاً».

«قبل أن تُبْحِر من قادش عام 1790 رست آنا التي كانت قادمة من سان

لوكار دو باراميدا على رصيف الميناء لبعض الوقت. وهناك تزاحمت جماعة الغجر المعتادة تبيع كل شيء للبحارة الذين يتهيؤون لعبور المحيط، من البرتقال والزيتون إلى السيكار، ومن علب القدْح إلى أوراق اللعب. يقال إن بحارنا اشترى رزمة ورق غريبة من طفل غجري في الخامسة أو السادسة من عمره اسمه أنطونيو. هذا الأنطونيو هو الذي صار، بعد ذلك بزمن طويل، المغني الشهير إلْ بلانيتا».

«أكان في ذلك العمر فعلاً وقتها؟».

«ولد إلْ بلانيتا في قادش نحو عام 1785 . يمكنك أن تتحقق من ذلك من إحدى الموسوعات».

هتفت: «إنها قصة صعبة التصديق. لاشك أنهم عصبة مبدعة أولئك الغجر».

«في ذلك الوقت كان ثمة قزم أيضاً على الرصيف. ومع أن وجوده ليس أمراً هاماً بحد ذاته، إلا أن الموروث المتداول يصر على وجود أجراسٍ تحت ثيابه العادية مثل المهرجين تماماً».

ألقيتُ نظرة متفحصة إلى وجهه الشاحب، وقلت: «أظن أنه يجب حذف هذه النقطة الأخيرة من القصة».

«لماذا؟».

«لأن القزم موجود في لعبة الورق! إنه في جيب البحار. لا يمكن أن يكون على رصيف الميناء مراقباً السفن وهي تقلع. وعلاوة على ذلك...».

فجأة شعرتُ كمن ضربته الصاعقة فقطعت كلامي.

«وعلاوة على ذلك؟!!» كرر خوسيه.

«حتى لو كنا مستعدين لقبول أن القزم الخارج من رزمة الورق السحرية لم يتقدم في العمر، مثل الفانين الآخرين، لأنه روح وليس من لحم ودم...».

«نعم؟».

«رغم ذلك لا يمكنه أن ينتقل إلى الوراء في الزمن. قلتَ إنه لم يصل إلى أوروبا حتى عام 1842».

التمعت عينا خوسيه الزرقاوان، وتساءل: «ألا يمكن لكائن أثيري أن ينتقل إلى الوراء في الزمن؟».

«بلى، ذهنياً يمكن لكائن روحاني أن ينتقل إلى الماضي».

هز خوسيه رأسه، وعلى وجهه تعبير عن التقدير لما قلتُ.

«إنك تقترب من الإصابة. لكن لايزال ثمة منعطف صغير في الحكاية، سمِّه عطفة ملحمية إن شئت. فهذه القصص تُصِرُّ على أن القزم استيهام من نوعٍ ما، والاستيهام لا يهرم كما نهرم نحن. لذلك بالذات يمكن أن يكون القزم قديماً إلى هذه الدرجة. أشرنا أيضاً إلى أن القزم يمكن أن يتحرك نحو الماضي، لكنه لا يمكن أن يعود إلى زمن أسبق من زمن توهُّمه هو بالذات، أعني من زمن حبل المخيلة به. لذلك أيضاً ما من أقاصيص حول «الأمير الصغير» و «أليس في بلاد العجائب» قبل أن يكتبهما سانت أكزوبري ولويس كارول، رغم وفرة الإشارات والإحالات المرجعية إليهما منذ ذلك الوقت».

«ظننت أن القزم «حَبِلَتْ به مخيلة» بحار في الطرف الآخر من المحيط، أو تم التوهم به، على الأقل، بعد أن أقلعت السفينة آنا».

كان خوسيه جاهزاً للرد على هذا الاعتراض: «انبثق الجوكر من رزمة من ورق اللعب صُنِعتْ في فرنسا أواخر ثمانينيات القرن الثامن عشر. منذ ذلك الوقت لمحه دائماً شخص واحد على الأقل في العالم القديم. إلى تلك النقطة من الماضي فقط يستطيع العودة. إلى ذلك...».

«تابع، تابع!».

«يقول الناس إنهم رأوه على أرصفة ميناء قادش في ذلك اليوم الشتوي من عام 1790 ، لكن آثاره تتوقف عند ذلك الحد الزمني. ما من إشارات إليه تسبق تلك الرؤية. ما من أثر له قبل ذلك اليوم».

«وكانت آنا تؤمن بكل ذلك؟».

هنا هز خوسيه رأسه بالنفي: «كانت تعرف كل القصص حول إلْ بلانيتا ومانويل إلْ سوليتاريو وعم أبيها الذي مات قبل بضع سنوات من الآن. ولن أقول إنها كانت تؤمن بكل هذه القصص. أحياناً كانت تشعر بالخجل من كل هذه «السوالف الغجرية» التي رضعتها مع حليب أمها، ولا سيما أن الغجر هم الاسم الآخر للخداع والغش. لكنها كانت على اقتناع بأنها طاردت القزم ذا الأجراس المجلجلة نفسه في حدائق الكازار. كانت تقول: «لقد سمعت الأجراس». لذلك اندفعت تجري خلفه. كأنها بذلك كانت تحاول إنقاذ شرف عائلتها وإبعاد تهمة الكذب عنها».

«وماذا عن ماخا غويا؟».

«سنصل إلى هذه النقطة. لكن، الآن، بينما كان الجوكر على رصيف ميناء قادش واقفاً يتابع السفينة آنا وهي تقلع، كان في جيبه شيء عجيب، شيء قيل إنه استخدمه مرات عديدة لحماية نفسه من الشبان السكارى الذين كانوا يتجمهرون حوله بسبب قزامته».

«وما تراه هذا الشيء؟».

«إنه صورة صغيرة لامرأة شابة».

«آه!».

«إنها صورة صغيرة جداً، استخدمت في تصويرها تقنية غير معروفة. لم تكن نقشاً على صفيحة نحاسية، ولا لوحة زيتية من نوع ما، وكان سطحها أملس كالحرير. فوق ذلك، كانت تلك الصورة الخارقة أمينة ومطابقة تماماً للواقع إلى درجة أن القزم اعتُبِر عبقرية فنية ذات قدرات فائقة للطبيعة. كانت الصورة واقعية جداً، كأنك ترى موضوعها بعينك المجردة».

عدت بذهني إلى ألبرادو حيث ثمة لوحتان لامرأة كانت جالسة على أحد المقاعد في حدائق الكازار قبل بضع ساعات فقط من موتها. وهناك جاء قزم والتقط صورة لها.

«أعرف عن أي صورة تتحدث. لكن هذه الصورة التقطت منذ بضعة أيام فقط».

«نعم، هي كذلك بالنسبة لنا. أما بالنسبة للواقفين على رصيف ميناء قادش فهي أحدث عهداً بكثير».

«ماذا تعني؟».

«هي بالنسبة لهم آتية من مستقبل بعيد. لهذا السبب اعتبروها صورة سحرية. قالوا إنها من عمل الشيطان حتماً».

«وهل كان ثمة بالفعل حكايات عن قزم لديه صورة، على هذه الدرجة من الكمال، لامرأة جميلة؟»

«نعم، كان ثمة حكايات فعلاً، قصص يصعب تصديقها، تخيلات غجرية. قليل منها حظيت بالتصديق. ومع ذلك تميزت تلك الحكايات برونقها. وكانت القصة عن «القزم والصورة السحرية» واحدة من هذه الحكايات. هذا رغم أننا الآن فقط ندرك قيمة تلك الأسطورة القديمة عن القزم والصورة السحرية، وما ذلك إلا لأن القصة أقدم بكثير من فن التصوير الفوتوغرافي».

«وماذا بشأن غويا؟».

«كان معبود غويا العظيم هو فنان القرن السابع عشر ڤيلاسكيز، وهو من إشبيلية، وصار فيما بعد رسام بلاط فيليب الخامس. رسم ذلك المعلم العجوز عدداً من الأقزام والمهرجين ممن كان يعج بهم البلاط آنذاك. فقد كان من مألوف القصر الملكي أن يستعين بخدمات هذا الصنف من البشر في تلك الأيام».

«حقاً؟».

«لذلك حين صادف غويا ذلك المهرج الضئيل في سانلوكار دوباراميدا في ربيع 1797 ، حاول أن يُدْخله بالقوة إلى مرسمه ليرسمه في لوحة».

«لكن القزم رفض؟».

«لم يكفّ القزم عن الصراخ والزعيق، وحاول المقاومة قدر إمكانه، لكن الرسام العظيم كان أصمّ كالحجر كما تعلم، فلم يسمع ما كان القزم يقوله. فقط حين أبرز القزم الصورة الأحجية لآنا ماريا مايا أطلقه الفنان لأنه لم يكن

قد رأى ما يشبهها قبلاً. كان قد أوشك على الانتهاء من لوحة «**الماخا العارية**»، فأضاف لها وجه آنا كي يخفي الهوية الحقيقية للموديل».

كنا نجلس على مقعد مستطيل مزدوج له مسند مشترك للجالسين من جهتنا ومن الجهة المعاكسة. هنا جاء رجل عجوز وجلس على المقعد من الجهة الأخرى. انتظر خوسيه برهة قبل أن يكمل كلامه، ثم استطرد بصوت خافت: «صَعُب على آنا دائماً أن تتماهى مع امرأة في لوحة، وكان عبء هذا التماهي شديداً في بعض الأحيان. غير أنه لا يصعب عليك أن تتخيل أن هذا العبء كان أثقل على امرأة ـ موديلٍ حية في أيام غويا. كانت المرأة الغجرية التي تسمح أن ترسم عارية في تلك الأيام تجازف بحياتها».

لبثتُ بضع لحظات غارقاً في تفكير عميق، ثم سألت خوسيه: «هل هناك حقاً تراث غجري يتحدث عن غويا والقزم والصورة السحرية؟».

نظر خوسيه نحوي، وللمرة الأولى كان طيف ابتسامة يتلامح على وجهه. وعلى غير توقع مني هزّ رأسه نافياً: «تتحدث القصص المتوارثة فقط عن وجود قزم بأجراس مجلجلة على رصيف ميناء قادش حين أقلعت السفينة آنا، وتقول إن القزم أظهر صورة غنية بالتفاصيل ومطابقة للواقع إلى درجة أنها أذهلت من شاهدوها. كان أحد أولئك الشهود المشاهدين أنطونيو الصغير الذي صار فيما بعد الجد السابع لآنا. وهكذا ثمة مبرر قوي لافتراض وجود صورة آنا في الأندلس منذ 1790 ، أي قبل سنوات عديدة من قيام غويا برسم الجيتانا أو **الماخا العارية**. أعتقد أن هذا كافٍ».

هنا بالضبط نظر إلى الساعة، وقال إن عليه أن يسارع إلى محطة القطار. اقترحتُ أن أرافقه عبر رتيرو بارك.

تحركنا ببطء من بازيو باراغواي إلى ساحة بلازا هندوراس في وسط المنتزه الكبير. كان خوسيه يُحكم قبضته على جريدة ومغلف أصغر. لم يخطر لي ببال أنه سيعطيني ما يحمله. بينما كنا نمشي فكرتُ في كل ما رواه لي عن

غرق السفينتين، عن إلْ بلانيتا، عن مانويل إلْ سوليتاريو والمهرج الضئيل الذي كان يطلع في كل مكان.

إذن فقد كان القزم يقف على رصيف الميناء في قادش عام 1790 في وداع سفينة متجهة إلى المكسيك، وفي جيبه صورة صغيرة لامرأة غجرية. بدا كأن فناناً نجح في رسم تلك الصورة كما رأتها عيناه بالضبط في إحدى الحدائق أو المتنزهات الكبيرة. فألوان الصورة وتفاصيلها أوضح مما يمكن رسمه على أنعم قماش حريري. ولكن أي نوع من التقنية الفنية استخدمه ذلك الفنان مادامت سماكة الورق لاتتجاوز ملمتراً واحداً؟ فهي ليست لوحة مرسومة بالألوان المائية، ولا هي لوحة زيتية، ولا يمكن كذلك أن تكون صفيحة نحاسية ملونة. لعل الشيء المفاجئ في تلك الصورة الصغيرة هو سطحها الصقيل اللماع كأنها مسحت بالشمع أو الراتنج. على رصيف الميناء أيضاً جرى طفل غجري لا يتجاوز الخامسة أو السادسة من عمره. إنه الجد السابع للمرأة صاحبة الصورة، هو أيضاً من سيأتي، بعد سنين عديدة، بأسلوب غناء الفلامنكو إلى إشبيلية. هو أيضاً من سيلتقي، بعد ما ينوف على خمسين عاماً بقليل، القزم في مرسيليا. لن يتذكر أنه رأى ذلك القزم ذاته قبلاً، لكن لعل القزم تذكّر. وعلى متن السفينة المبحرة من قادش، وبينما كان طاقمها يرفع الأشرعة، التفت أحد البحارة ولوح للقزم الذي يقف على الرصيف. عندما يفتح البحار رزمة الورق بعد الإبحار بأسابيع، وبعد غرق السفينة، سينظر إلى ذلك الرسم، وسيتفحصه بإمعان مراراً وتكراراً في السنين اللاحقة. لكن هل سيخطر له على بالٍ أن الرسم هو للقزم ذاته الذي رآه على الحاجز حين أقلع من قادش؟

قال خوسيه: «منذ نعومة أظفارها سمعت آنا هذه الحكاية عن القزم على رصيف قادش، عن القزم الذي قفز من مركب في مرسيليا، عن القزم الذي التقى بمانويل إلْ سوليتاريو في تريانا، وعن القزم الذي جرى سريعاً في ساحة بلازا ڤيرجن دو لوس ريس، وأجراسه تصلصل، كأنه موسيقيٌّ جوال يعزف على آلات متعددة».

«بالطبع هي لم تسمع أي حكايات عن مرور القزم في حدائق الكازار؟».

هز رأسه نافياً وهو غارق في التفكير: «لكنها أضحت في السنوات الأخيرة مهمومة بما قد يحدث عام 1998 . من بين تلك القصص كلها كانت القصة الأثيرة على قلب آنا هي التي تتحدث عن كيف نجا القزم بجلده بأن أظهر صورة سحرية لامرأة شابة. تخيلت آنا أنها، ولابد، صورة فوتوغرافية، رغم أن حادثة الرصيف وقعت قبل زمن التصوير الفوتوغرافي بسنين طويلة. ثم هناك أمر آخر، أمر مختلف تماماً...».

«ما هو؟».

«منذ أيام مراهقتها كانت آنا ماريا تسمع أنها تشبه إحدى لوحات غويا. كانت فخورة بذلك، ومثل أية صبية في سنها اعتبرت هذا الكلام نوعاً من الإطراء، وإن كان يُخْجِلها أحياناً أنها تشبه العارية. لكنها بالتدريج غدت أكثر شبهاً بالمرأة الغجرية المرسومة في اللوحة، وفي النهاية لم يعد هذا الشبه يبالي بنوع زينتها أو بكيفية تسريح شعرها. انتهى بها الأمر إلى أن أصبحت هي «لا نينيا دل ألبرادو» ولم يعد ثمة أحد يفرّق واحدتهما عن الأخرى».

«انتظرْ لحظة. ثمة تفصيل مهمّ قلّلتَ من شأنه».

«وما هو؟».

«إذا استطاعت آنا تبديل شكلها بتغيير زينتها أو قصة شعرها، يبقى مظهرها، مع ذلك، غير مختلف، ولو مثقال ذرة، عن وجه لوحة غويا؟».

«ولم لا؟».

«لأن لوحة غويا ستبدو مختلفة عندئذٍ».

فكر لحظة ثم قال: «أنت محق طبعاً. لكن القدر لا يسمح لنفسه أن يُنقّح أو يُبَدّل. إنه مجرد أثرٍ لقوة الواقع. ولعل عليّ أن أضيف... آه، لست أدري».

«ما الذي يدفعك إلى التردد؟».

«ذلك الصباح الذي طاردت فيه آنا القزم في حدائق الكازار، هو الصباح الوحيد، الذي استخدمت فيه آنا الحمرة مذ عرفتها؛ هذا عدا مناسبات عارضة أثناء الرقص».

توقفت عن المشي فوراً. وبعد لحظة قلت: «هذا بالضبط ما كان ينقص! لم يكن لآنا خدّان أحمران».

ألقى عليّ نظرة منذهلة، فأردفت: «لو استخدمت آنا الحمرة في فيجي، لحزرتُ فوراً أنها تشبه لوحة غويا».

أخذنا في المشي من جديد.

قال: «لكن لماذا وضعت الحمرة ذلك اليوم؟ هل يمكنك فهم ذلك؟ جعلتها الحمرة أشد شبهاً مما هي أصلاً بالمرأة في اللوحة القديمة، لا بل جعلتها هي في الواقع».

علقت على ذلك بالقول: «هناك ما يسمى «حين يؤون الأوان». وعلى كل حال يشبه سؤالك السؤال عن أيهما أسبق، الدجاجة أم البيضة؟».

«وثمة ما يُسمّى مشي المرء بنفسه إلى حتفه».

«ألم يحصل أبداً أن ربطت آنا شبهها بـ ماخا غويا مع القصص التي تتحدث عن القزم واللوحة السحرية في قادش؟».

«شيئاً فشيئاً صارت تربط. كان أحد أعمامها هو أول من خطر بباله أن الصورة الكاملة لدى القزم صورة فوتوغرافية حديثة ملونة. لكنها، في هذه الحالة، يجب أن تكون صورة امرأة عاشت بعد وقت طويل من أول ظهور للصورة السحرية على رصيف ميناء قادش. الصورة الفوتوغرافية لا تكذب أبداً، إن موضوعها حيٌّ على الدوام. ومنذ ذلك الوقت صار هذا واحداً من عناصر الحكاية ذاتها. وإذا كان هناك شيء تعرفه أسرة آنا كلها، فهذا الشيء هو أن القزم لا يهرم مثلنا نحن بنو الموتى. أما أن يكون القزم قادراً على السفر نحو الماضي فهذا عنصر طارئ ومستجد. في السنوات الأخيرة كثرت التخمينات حول مَنْ مِن بنات أحد أحفاد إلْ بلانيتا الكثُر هي المرأة المصورة، ولعله أُلْمِح أيضاً إلى أن الصورة ستلتقط في عام 1998 . وهكذا أخذ الناس من جديد يترصدون مشاهدة الأقزام».

«وحين كبرت آنا وصارت شديدة الشبه بلوحة غويا...».

بإيماءة من رأسه رد خوسيه إيجاباً: «نعم، اعتقد بعضهم أن الدائرة قد اكتملت، وبرزت إلى الوجود قصص جديدة تماماً تدور حول كيف باع القزم الصورة السحرية إلى الفنان الكبير. تؤكد واحدة من هذه القصص أن رأس الموديل الحقيقية قد قُطِع من قِبل أفراد أسرتها لأنها سمحت بأن تُرسم عارية. وفقاً لهذه الحكاية، وُضِع الرأس المقطوع على أحد التلال تشهيراً بالفاعلة. ولم يُقَل شيء من ذلك علناً، وخاصة على مسمع من آنا».

«لكن كانت تساورها الشكوك؟».

«كانت تُبعِدُ الشكوك عن بالها، وأحياناً كانت تضحك ساخرة من الأمر كله. لكن نعم، كانت لديها شكوكها. فالحقيقة أنه يصعب احتمال هذه الدرجة من الشبه مع موديل غويا. أحياناً كان يصعب إقناعها بالخروج من البيت، وفي مدريد خاصة أكثر مما في إشبيلية. ففي مدريد يقف الناس ويشيرون إليها، بل وقد يحس بعضهم بالصدمة. لست واثقاً، لكن قد يكون هذا أحد أسباب حبها للحديقة النباتية. فهناك يمكن لآنا، التي تحمل وصمة لاتمّحي، أن تختفي عن أنظار الناس. كانت مثل من يحمل وحمة ولادية كبيرة على وجهه».

قلت: «هذا دون أن نتحدث عمّا كتبه عليها القدر».

هنا شوّهت خلْجةٌ عنيفة ملامح الوجه الشاحب.

«وهناك المزيد أيضاً. ثمة نبوءة عمرها أكثر من نصف قرن تقول إن الفتاة صاحبة الصورة السحرية ستموت ما أن تبلغ عمر ماخا غويا، لكن...».

تردد برهة، فأشرت له أن يتابع.

«لن تموت إلا إن منحت نفسها لأحد الرجال. وسيكون موتها هو العقاب المستحق على ما ألحقته بنفسها من عار حين سمحت بأن تُرسم عارية. لقد سبق لها أن منحت نفسها للعديد من الرجال، حسبما تقول النبوءة، ولم تعد بالتالي امرأة جديرة بالاحترام. لذا سوف يؤدبها القدر إن حاولت التمتع بالحب مرة أخرى».

التفتُّ نحوه، وقلت: «هذا حكم غير معقول، ناهيك أنه غير منصف. فليست المرأة في الصورة الفوتوغرافية هي التي سمحت بأن ترسم عارية. أليس غويا هو الذي رسم رأسها على الجسد العاري لامرأة أخرى؟».

حرك رأسه من جانب إلى آخر كأنه يقدر قيمة تعليقي: «ليس القدر منصفاً ولا هو غير منصف. إنه مقدور فحسب. القدر هو ما هو. لذا فهو محق على الدوام».

من جديد عادت أفكاري إلى مشكلة آنا القلبية.

«أشرت آنفاً إلى أن آنا ماتت حين غدت مثل المرأة في لوحة غويا تماماً، أي لأن الشبه تم واكتمل بينهما. لكن ألا يمكن القول إن موديل غويا هي بديلة آنا في ذلك الوقت، مادامت صورة الأصل لم تلتقط إلا قبل ساعاتٍ من موت آنا؟».

«النتيجة ذاتها في الحالين. إنها مسألة البيضة والدجاجة، لغز لن يحل أبداً مهما يكن الطرف الذي نبتدئ منه. لكن حين التقط القزم تلك الصورة المشؤومة لآنا، التقتْ قصة القزم وصورته السحرية بقصة شبه آنا لـ ماخا غويا. هنا اكتملت الدائرة. قد يمكن القول إن كل ذلك الدغل من الأساطير التي تتحدث عن القزم ابتدأ في حدائق الكازار، وهناك انتهى أيضاً».

قمتُ بمحاولة أخرى: «لم أقل إني أصدق هذه الحكايات، ولعلك أنت أيضاً لا تصدق...».

لوّح بيده أَنْ أكمِلْ، وقال: «سَلْ ما تريد».

«كانت آنا تشكو من علة قلبية، ولم يكن لها بالتالي أن ترقص أو تحمل. ومع ذلك طاردت القزم في حدائق الكازار، وهذا الإجهاد المفرط هو الذي تسبّب بوفاتها. أليست تلك المطاردة في الحدائق مجهدة لها مثل رقص الفلامنكو تماماً؟».

«تلك المطاردة هي رقصة الموت. ولكن لماذا لاحقت القزم؟ لأنه التقط لها صورة. ما كان أحد غير آنا لينطلق في إثر القزم لمجرد أنه طقطق بكاميرته.

لاتنسَ أن الصورة التي التقطها لاحقت آنا طوال حياتها. لقد عاشت عمرها معها».

لم نكفّ عن التوقف بين خطوة وأخرى مُذ تركنا المقعد قرب إلْ بارتير، وكلما مررنا ببعض العابرين كان خوسيه يحرص على تخفيض صوته. واصلنا المشي قليلاً قبل أن يضيف أي منا شيئاً. كنت أنا أول من تكلّم: «قلتَ إن القزم رسم لإل بلانيتا رزمة من الورق، وأنه ألقى مقاطع شعرية قصيرة حول كل ورقة في الرزمة».

كان خوسيه قد سرّع من مشيته. قال: «حفظ إلْ بلانيتا بعضاً من هذه المقاطع رغم أنه لم يفهم من لغتها شيئاً، بل كتبها بالتدوين الصوتي على قطعة من الورق. قيل إن هذه الورقة كانت في حوزة عائلة آنا حتى أيام مانويل إلْ سوليتاريو».

«ثم؟».

«وحين التقى القزم بمانويل في تريانا، أخرج معطفاً قديماً كان قد استعاره من إلْ بلانتيا وصفحات من الورق كُتبتْ عليها كل المقاطع الشعرية الاثنين وخمسين، وبالإسبانية هذه المرة. ويُعتَقد أن مانويل إلْ سوليتاريو اكتشف فيما بعد أن تلك الأشعار الألمانية التي خطّها إلْ بلانيتا كانت مطابقة تماماً لبعض الأشعار التي أعطاه إياها القزم».

«غير أن هذه الأشعار ضاعت؟».

أومأ خوسيه برأسه إيماءَة خفيفة.

قال: «هنا ابتدأ طريقانا يتقاطعان».

في الوهلة الأولى لم أفهم ما عناه. لكني لم ألبث أن عدت بذاكرتي إلى تاڤوني. كنت جالساً على شرفة كوخي في مارافو حين سمعت أصواتاً آتية من بستان النخل. قلتُ: «ليست تجربة المخلوق شيئاً يداني ذلك الشعور الغامر الذي يبعثه خلق المرء لنفسه من العدم، والوقوف، من ثم، منتصباً على قدميه هو».

اتسعت عيناه، وهتف «رائع! لستَ مدهش الذاكرة فحسب، لكنك تتحدثُ بإسبانية مقبولة أيضاً».

كززتُ على شفتي. انتبهت لحظتها فقط إلى أننا كنا نتحدث الإسبانية طوال الوقت، وهو ما فعلناه أيضاً حين التقينا مصادفة في سلمنكا.

سألته: «هل كشفتماني أنتما الاثنين؟».

ضحك وقال: «منذ البداية تقريباً. لكن لنعد إلى موضوعنا، واسمح لي أن أنطلق من زاوية مختلفة هذه المرة. كانت المقاطع الشعرية الاثنان والخمسون التي أعطاها القزم، قبل اختفائه، لمانويل في حوزة عائلة آنا منذ ذلك الوقت. عبر السنين، تسربت بعض عباراتها إلى غنائيات الفلامنكو، وغُنِّيت في طول إسبانيا وعرضها. كانت آنا على إلفة مع تلك الفقرات منذ طفولتها».

«هل تلك النصوص هي التي كنتما...».

قطع جملتي قبل أن تكتمل: «لكل ورقة من الرزمة مقطع شعري. وكثيراً ما كنا، آنا وأنا، نلعب الورق مع أصدقائنا. كنا شريكين دائماً، وحين حفظتُ أنا أيضاً تلك النصوص، صارت لدينا لغة سرية تحدد هوية كل ورقة من الأوراق».

«كنتما تغشان في اللعبة؟».

«نعم، أحياناً. بدمدمة جملتين غير مترابطتين كان كل منا يعرف ما بيد الآخر من أوراق».

«هذا أقبح ما سمعتُ في حياتي. لقد كان الإيطالي على حق إذن؟».

«ليس تماماً. فسّرَ ماريو انتصاراتنا المتكررة تفسيراً تنجيمياً. قال إننا بصّاران».

«لكن الأمر في الواقع خداع بخداع».

لم يعلق على ذلك. تابع كلامه: «اعتدنا قضاء سهراتنا في لعب الورق مع الأصدقاء، وخاصة بعد أن مُنعتْ آنا من الرقص. كانت تَسْعَدُ مثل طفل حين تربح. أما وأن الرقص لم يعد وارداً، فقد شعرتُ أنها تستحق الفوز في ألعاب الورق. لم أستطع حرمانها من هذه المتعة الصغيرة، خاصة وأني أجد نفسي أنا

أيضاً مندمجاً في اللعبة. ليس لدينا أطفال، لكننا نستمتع كالأطفال في لعبتنا، ونشترك بلغة سرية لا يفهمها أحد غيرنا».

«ألم يكتشف أحد غشكما!».

«اضطررنا إلى إدخال تعديلات مستمرة. لم نكن نستخدم المقاطع ذاتها لفترات طويلة. هذا، إضافة إلى شيء آخر، يعني أننا كنا، على الدوام، نعدّل الأشعار القديمة، أو نبتكر أشعاراً جديدة تماماً».

«وما هو ذلك الشيء الآخر؟».

«منذ أن شُخّصتْ آفة آنا القلبية، تعيّن علينا، نحن الاثنين، أن نتكيّف مع وقائع الحياة. كانت كل ثانية نقضيها معاً هدية من السماء. ثم حين مُنِعت آنا من رقص الفلامنكو، ونُصحت أيضاً ألّا تحمل، تحوّل رهاننا إلى البحث عن معنى الحياة بالذات».

«هل وجدت آنا معنى جديداً للحياة؟».

«لم تعتنق الجلوس في البيت وحياكة الثياب إن كان هذا ما تعنيه؛ منعتها طبيعتها الاندفاعية من فِعْلِ ذلك. لكن كنا لانزال معاً، واشتركنا نحن الاثنين في إحساس قوي ومميز بالحياة. حاول الأطباء طمأنتنا، لكن حين تقول لبايلاورا فلامنكو شهيرة أن تكف فجأة عن الرقص، فكأنك تضعها على هامش الحياة. وهذا ما شعرت به آنا ماريا، بل ما شعرنا به نحن الاثنين، مع فارق واحد هام: كانت آنا تؤمن أن هذه الحياة ليست الحياة الوحيدة. كانت تؤمن إيماناً راسخاً بوجود حياة أخرى. أما ما كنا نشترك فيه فهو شعور حاد بأعجوبة الحياة، وكنا نتسلى بالعثور على كلمات وتعابير جديدة لوصف ما نفكر به وما نعيشه. وهكذا وَسّعنا الأقوال المأثورة القديمة التي كانت مرتبطة بكل ورقة من أوراق اللعب. احتفظنا ببعضٍ من صيغ القزم، وتخلينا عن بعضها الآخر. بهذه الطريقة أبدعنا المانيفِستو الخاص بنا عن الحياة. وربما يجب أن أضيف أننا أردنا إبداع شيء قد يكتب له البقاء بعدنا. أردنا من المانيفِستو أن يكون كتابنا المقدّس، عهدنا الروحي».

«إذن فقد كنتما تبتكران تلك المأثورات طوال الوقت؟».

«نعم، دائماً وكل يوم. كان المانيفِستو، بياننا، في تجدد مستمر، إنه ثمرة عملية انبثاق متواصلة. لم نكف أبداً عن إبداع حِكَمٍ جديدة واستخدامها مكان الحكم القديمة».

«هذا عمل... مجنون».

هز رأسه رافضاً.

«حاشا أن يكون كذلك. بل هو ليس بالعمل غير المألوف كما قد يبدو للوهلة الأولى. لقد اعتاد غجر الأندلس على التقاط عبارات حِكَمية قصيرة حول الحياة والموت والحب. منذ أيام إلْ بلانيتا تألّفت أغاني الفلامنكو بهذه الطريقة».

هنا ألقيت هذا المقطع: «إن كان ثمة إله فهو ليس عظيم البراعة في عدم ترك اثرٍ يدلُّ عليه؛ إنه، اكثر من اي شيء آخر، استاذٌ في الإخفاء. ليس العالم شيئاً يعرض نفسه للناظرين. فالسموات لاتزال تحتفظ باسرارها. وهناك نميمةٌ تدور بين النجوم...».

اضطررت إلى التوقف هنا لأني لم أعد أتذكر شيئاً مما كان آنا وخوسيه يقولانه في بستان النخل في ماراڤو في أمسيتي الأولى هناك. لكن خوسيه تدخل مكملاً وأنهى المقطع: «لكن احداً لم ينس الانفجار الكبير بعد. منذ ذلك الوقت دانت السيادة للصمت، واخذت الأشياء كلها تتباعد. لازال المرء يصادف قمراً، او نيزكاً. لكن ليس لك ان تتوقع ترحيباً ودياً منها. إذ لا بطاقات زيارة تُطبع في الفضاء».

صفَّقت له بصمت، ثم سألته: «أظن أن الحديث عن «الانفجار العظيم» ليس مأخوذاً من المقطع الذي تلاه القزم حين التقى إلْ بلانيتا في مرسيليا».

«لم لا؟».

«لم تُبتكر نظرية الانفجار الكبير ولا اسمه إلا بعد وقت طويل من أواسط القرن التاسع عشر».

هنا ابتسم ابتسامة العارف: «أعتقد أن ذلك المحتال الماكر يستطيع أن يُهرّب شذرات من كل شيء عبر القرون. بالنسبة لي يمثل القزم كفاح الإنسان المستمر من أجل تطوير فهمه لمغزى هذا العالم ومعناه. إنه لمصدر للعزاء، فيما أعتقد، أن نعرف بوجود مُمثّل لنا يستطيع السفر عبر القرون حاملاً الرسائل والمعلومات».

حدّقتُ فيه فاغر الفم. وبسرعة أضاف: «لكنك محق. في مانيفستو القزم نجد الجملتين الأوليَيْن فقط: «إن كان ثمة إله فهو ليس عظيم البراعة في عدم ترك أثرٍ يدلُّ عليه؛ إنه، أكثر من أي شيء آخر، استاذٌ في الإخفاء».

اجتزنا ساحة هندوراس، وكنا ننحدر عبر بازيو دولاريبوبليكا دوكوبا.

قلت: «لعله آن الأوان لتلخيص كل ما جرى».

«هيّا، لخص!».

«حين وصلتُ إلى تاڤوني في ذلك اليوم من أيام كانون الثاني، كان أول ما فعلتُه هو الجلوس على الشرفة. فجأة رأيت شخصين ملتصقين يسيران عبر بستان النخل. كانا يقفان بين وقت وآخر لإلقاء بعض المقاطع الغريبة على مسامع بعضهما باللغة الإسبانية. أصختُ أذني لسماع ما يقولان. لم تكونا تعلمان بوجودي على الشرفة، أليس كذلك؟».

افترّتْ شفتاه عن ابتسامة، وقال: «أَسَرَّ لنا جون بأن ذلك النزيل النرويجي الجديد قد يصلح طرفاً في لعبة البريدج. كان رجل هولندي قد غادر ذلك الصباح، وكان هو وماريو يلعبان ضدنا خلال الأيام السابقة لوصولك. أعلمنا جون بموقع كوخك، وقال إنه لمحك على الشرفة».

«لكن لم تكونا تعلمان أني أتحدث الإسبانية؟».

«لا، لم نكن نعرف وقتها. لكن الإسبانية ليست لغة أقلية. نصف سكان العالم يتحدثون الإسبانية».

«هذا كلام لا تُعْوِزه المبالغة. أُقِرُّ لك بأن نصف فن العالم إسباني، أما أكثر من ذلك فلا».

تراءى لي لبضع لحظات أن تعبيراً من الاستمتاع تلامح على تلك السحنة الشاحبة. قلتُ: «ثم التقيتكما عند الشاطئ».

«وحدثتنا عما جاء بك إلى ذلك القسم من العالم. أثار كلامك فضولنا، وبما أننا كنا على الدوام بصدد تأليف حِكَم جديدة للمانيفِستو، فقد خطر لنا أن نستعير بعض المنظورات الوجودية من عالم أحياء تطوري. وزاد من إغراء هذه الاستعارة أنك اخترت أن تكلمنا بالإنكليزية طوال الوقت، وإن كان من الواضح أنك تتكلم الإسبانية أيضاً».

«من الواضح؟».

«أهم ما يميز الممثل هو أن يتقمّص الدور الذي يمثله».

«وهذا ما لم أنجح فيه؟».

«فضحتَ نفسك قبل أن تغادر الشاطئ. لم يكن لدى آنا ولا لدي أنا ساعة يد، ومع ذلك سألتُ آنا عن الوقت بالإسبانية. نظرتَ فوراً إلى ساعتك وقلت إنها الثانية عشرة والربع».

شُدِهتُ تماماً. أما خوسيه فأضاف: «بالطبع لم يكن هذا كافياً لإقناعنا أنك تفهم الإسبانية. لكنك ستوفر لنا عدداً من الأمثلة المشابهة التي تكشف ضعف تقمصك للدور. هناك مبدأ يقول إن الكذاب يحتاج إلى ذاكرة قوية. عليك أن تتذكر أننا، آنا وأنا، لسنا ماهرين في لعب الورق فحسب، لكننا خبيران أيضاً في التظاهر وانتحال الأدوار».

«لِمَ لم تكشِفا خداعي؟».

«ارتأت آنا أن من المثير وجود.. طيب».

«وجود ماذا؟».

«وجود جمهور مستمع لما نقول، إن جاز لي التعبير. كنا فخورين بالمانيفِستو الذي كنا نضعه معاً، أو بالأحرى، كنا لا نكف عن تأليفه وتشذيبه. كان ممتعاً لنا أن نبدو غامضين».

«حسناً، لقد أفلحتما في ذلك».

«أردنا أيضاً أن ندفعك إلى عرض نظريتك في التطور. من أجل ذلك كان علينا أن نبدو شخصين غريبين وطريفين. إنه نوع من الطُعْم...».

«نظرية التطوّر ليست نظريتي أنا».

«نعم بالتأكيد. توافقنا، أنا وآنا، على أن العلم الطبيعي قد يتكشف عن نقطة عمياء تماماً في نظرياته».

«استنتجتُ ذلك. وما هذه النقطة العمياء في رأيك؟».

«تناولنا هذا الموضوع قبلاً. العلم أعمى عن كل سياق. أعمى عن معاني الحياة في كل اتجاه. لم يكن الانفجار العظيم حادثاً اعتباطياً».

«اعذرني، لكني لم أفهم إلامَ ترمي».

«هذا لأنك لا ترى أن العالم لغز».

«آ، بلى. أعرف ذلك حق المعرفة. لكن كل ما أراه هو أننا نتحدث عن أحجية، عن أحجية لا يستطيع أي منا حلها».

«من الممكن أن نرى معنى فيما لا يستطيع المرء فهمه».

«لكن ألا تقوم أنت بنسبةِ مقصد حيث ليس ثمة مقصد؟».

التمعت عيناه، وقال: «عد إلى الحقبة الديڤونية، ما الذي تراه؟».

كان ذهني مشوشاً بعد كل ما سمعت إلى درجة أني وقعت مباشرة في الفخ. قلت: «أرى أوائل البرمائيات».

حرك رأسه مستحسناً ما سمع، وقال: «الآن فقط يمكن لنا أن نرى مغزى ما وقع آنذاك. لو أننا كنا شهوداً على الحياة قبل أربعمئة مليون عام، لاعتبرنا ما نراه استعراضاً وحشياً للّامعنى. بيد أن للّغز محوره الزمني، ومع مجيء الوعي الإنساني، بانت الحياة في الحقبة الديڤونية حافلة بالمعنى. هذا المعنى هو مُبتدأنا، بل هو مُبتدأ فكرة الحياة في العصر الديڤوني ذاته. لولا شراغيف الضفادع لما وُجِدَ أي وعي بالحياة على الأرض، لا الآن ولا في المستقبل. على المرء ألّا يكرّم أبويه فقط، عليه أن يكرم أطفاله أيضاً».

«الإنسان إذن مقياس كل الأشياء؟».

«لم أقل ذلك. لكن وعينا الآن هو الذي يحدد ما هو ذو معنى بالنسبة لعقلنا. لقد بدا خلق النظام الشمسي عملية شنيعة حين كان الخلق يجري. لكن هذه العملية استهلال فحسب».

«استهلال؟».

«نعم، استهلال. والمفارقة هي أننا قادرون الآن على إعطاء هذا الاستهلال حقه رغم أننا لم نظهر إلا بعده بوقت مديد مديد. وهكذا ترى أن تاريخ النظام الشمسي يعض على ذيله هو».

«مثل قصة **ماخا غويا**؟ ابتدأت في حدائق الكازار قبل أيام معدودة من الآن، وانتهت هناك أيضاً».

«يمكن أن يقال الشيء نفسه عن الكون كله. لم يسمع هدير الانفجار العظيم إلا بعد خمسة عشر مليار عام من وقوعه».

تابعت السير وأنا أهز رأسي. قلتُ: «إنها لطريقة غريبة في النظر إلى الأشياء».

«لكن نحن الاثنين «نذكر» فعلاً ما وقع قبل خمسة عشر مليار عام وإن لم نظهر إلا بعد انقضاء هذه المليارات الخمسة عشر من السنين. وهكذا صحا الكون أخيراً، ومتأخراً جداً، على وعي ذاته، صحا متأخراً مثلما يتأخر قصف صاعقة بعيدة عن التماع البرق في السماء».

حاولتُ أن أضحك، لكن الضحكة علقت في حلقي. علّقتُ قائلاً: «ها أنت تصير حكيماً بعد أن وقعت الواقعة».

تطلع في عيني بنظرة مشرقة. وقال: «حتى النظر الراجع هو نوع من الحكمة. نعم قد يكون النظر إلى الوراء تصرفاً حكيماً. ففي النهاية نحن ماضينا نحن، أكثر مما نحن مستقبلنا».

«يمكن لي أن أفهم فكرة أن شيئاً يحصل هنا والآن يكتسب معناه على ضوء وقائع المستقبل».

«هذا إن كان ثمة «قبل» و«بعد» أصلاً. ما قد نراه في الفضاء الخارجي

السحيق، أي أيضاً قبل مليارات من السنين من حاضرنا، هو أيضاً سبب الوقائع الراهنة. إن الكون دجاجة وبيضة معاً، معاً وفي الوقت نفسه».

«مثل آنا، أو مثل الصورة التي التقطها القزم لها».

لم يُعلّق على ما قلت، لكنه قال: «لا نعرف إلى أين نحن ماضون. كل ما نعرفه هو أننا انطلقنا في رحلة طويلة. ولن نكتشف سبب قيامنا بهذه الرحلة الكبرى قبل أن نبلغ المحطة الأخيرة، حتى لو امتدت رحلتنا أجيالاً وأجيالاً. وهكذا نجد أنفسنا على الدوام في حالة جنينية. فالكثير مما لانرى اليوم له أي معنى، قد ينكشف هدفه على مفترق الطرق التالي. وحتى الحادثة الأكثر خلواً من المعنى، قد تتكشف عن كونها حادثة أساسية. أعني: من كان ليشغل باله بصبي غجري يبيع رزمة من الورق إلى بحار شاب؟!!».

توقفتُ فجأة، وقد خامرني للمرة الأولى شعور بالريبة حيال هذا الموقف كله. ألم يكن ما سمعته من خوسيه هو الآراء ذاتها التي عبر عنها الإنكليزي في تاڤوني؟ ألم يكن الإنكليزي هو الذي وصف الحقبة الديڤونية بأنها «الحالة الجنينية للعقل؟»؟ ألا يزال خوسيه على اتصال معه؟ هل هما متواطئان في مؤامرة كبيرة، ليس في فيجي فحسب، ولكن هنا أيضاً؟ لم أعد قادراً على تفريق أفكار أحدهما عن أفكار الآخر.

وصلنا إلى كال دو ألفونسو الثاني عشر، ونظرنا كلانا إلى الساعة. كانت الثانية عشرة إلا ربعاً.

رافقتُه الطريق كله إلى المحطة.

قلتُ: «في نهاية إقامتنا في فيجي أضعناكما أنت وآنا. ابتعدتما عنا ابتعاداً تاماً».

«نعم، لأن البعض بدؤوا يتحدثون عمن تشبه آنا. ابتعدنا أيضاً حين أخذوا يلحون عليها لِترقص الفلامنكو. لا أظنك تعلم كم كانت تحب أن ترقص».

«ثم انهارت أثناء الفطور، واكتفيت أنت بصفعة على وجهها؟».

تنحنح مرتين قبل أن يجيب: «لطالما شعرت برعبٍ شديدٍ حين كانت تأتيها النوبة».

«أفهم ذلك جيداً»..

وصلنا إلى مدخل محطة قطار إيڤ تماماً، وهنا أكدتُ له مجدداً أننا سنلتقي في إشبيلية خلال يومين. إنما في هذه اللحظة سلمني المغلف الأصفر.

«هذا لك ولڤيرا».

«لڤيرا؟»

«نعم، لكما معاً».

إذن فهو يتواصل مع جون. لا شك في ذلك الآن. فأنا لم أتحدث عنك بالتفصيل إلا إلى جون.

«ترى ماذا في هذا المغلف لڤيرا؟».

نظر في عيني بثبات، وقال باندهاش صادق: «ألم تفهم بعد؟».

اكتفيت بهز رأسي تعبيراً عن النفي.

«إنه هدية، لكنه عبء أيضاً. شيءٌ يجب أن يشترك فيه اثنان. ليس من المناسب لرجل في مثل سنك أن يحمل هذا العبء وحده».

ألقى نظرة أخرى نحو الساعة، ثم جرى لاحقاً بقطاره.

فتحت المغلف في طريق عودتي إلى الفندق. في داخله مجموعة ضخمة من الصور التي التقطتها آنا في تاڤوني. لم أنظر إلى قفا الصور إلا بعد أن وصلت إلى غرفتي في الفندق. هناك فقط اكتشفتُ مقاطع مكتوبة خلف كل صورة. إنه المانيفِستو، ڤيرا. هذا ما ينبغي أن يشترك فيه اثنان. إنه المانيفِستو الذي لا يناسب رجلاً في مثل عمري أن يحمل عبئه بمفرده.

لا منطق حيث تتلاطم الأهواء

هكذا تنتهي الرسالة إلى ڤيرا. كانت قد أُرسِلتْ في البريد الالكتروني في وقت متأخر من مساء الأربعاء، السابع من أيار عام 1998 . وكان أن انقضت سنة كاملة على إرسالها قبل أن أتمكن من الحصول على نسخة منها.

وعدتُ القارئ أن أضيف ملحقاً شاملاً لها، وأنا ملتزم بوعدي، لكن يجب أن نعرف في البداية كيف ردّت ڤيرا على رسالة فرانك. نستطيع معرفة ردها لأن فرانك أرسل لها بريداً الكترونياً آخر بعد أن قرأت رسالته الطويلة، واتصلت به - أخيراً - في الفندق.

ها أنذا في هذه الأمسية الصيفية في كرويدن، وأمامي على المكتب ذلك السِّفر الطويل. أشعر أنه سيكون إهمالاً لا يغتفر من قِبَلي إن لم أذكر لكم أني التقيت فرانك في فندق هوتيل بالِس في تشرين الثاني من ذلك العام نفسه، أي بعد ستة أشهر من إقامة فرانك فيه أثناء كتابته الرسالة إلى ڤيرا. استعادت ذاكرتي بوضوح تام درجة توتره وهو يُقلِّب في ذهنه احتمالات لقائه بها في سلمنكا. ولمَّا التقيته في تشرين الثاني، لم تكن لدي أدنى فكرة حول ما إذا كانا قد التقيا، أو عما تمخض عن لقائهما إن كان قد حصل. لم يكن بيني وبين النرويجي أي نوعٍ من الاتصال مذ ودعنا بعضنا في فيجي.

أيكون فرانك وڤيرا قد عادا إلى العيش معاً؟ أم أن فرانك هنا في مدريد في زيارة عابرة فحسب، زيارة لا علاقة لها بڤيرا على الإطلاق؟

جلست تحت قبة الروتندا أشرب الشاي وأقضم البسكوت، وأصغي، مثلما فعل فرانك في مناسبة، سابقة، إلى انسياب نغماتٍ عذبة، معزوفة على الهارْب، من «الحسناء النائمة» لتشايكوفسكي. من طاولتي التي لاتبعد كثيراً

عن البار لمحت النرويجي فجأة وهو يشق طريقه داخل الروتندا. شعرت بالسرور إزاء هذه المصادفة الرائعة: مصادفة اللقاء مع فرانك هنا في بالِس، بعيداً عن فيجي وعن لندن معاً. كان يمكن أن أصادفه في أوسلو، ولا سيما أني كنت في زيارة قصيرة لها قبل أسابيع خلت. لكن أن ألتقيَهُ هنا!

كانت أوسلو مدينة رائعة، والشيء الذي أسعدني خاصة هو أن مدينة فرانك تلك عاصمة أوروبية حديثة، ومع ذلك لا يبتعد المرء إلا مئات الأمتار عنها حتى يجد نفسه في ريف لم تَطَلْه يد التخريب. كنت قد قطعت شوطاً طويلاً من المشي نحو كوخٍ ريفيٍّ في الغابة يسمى أوليفالستر، ومن هناك إلى فروغنرستر، من دون أن أصادف ولو بشرياً واحداً على طريقي.

كنت كمن ضُبِط بالجرم المشهود حين رأيت فرانك في بالِس. تملكتني الدهشة لرؤيته إلى درجة أني لم أنهض فوراً للترحيب به. كان من الواضح، علاوة على ذلك، أنه يبحث عن شخصٍ آخر في الروتندا. لكنه سرعان ما لاحظ وجودي وشق طريقه نحو طاولتي.

هتف: «جون، يا لها من مفاجأة!».

جلس معي بضع دقائق قبل أن تكتشفَ مكانَهُ المرأةُ التي قَدِمَ للقائها. كنت واثقاً أنها ليست ڤيرا. لكن انقضت ساعة كاملة قبل أن أتيقن من ذلك. كانت قد ارتسمت في خيالي صورة واضحة عن ڤيرا بناء على اعتبارات خاصة بي، وإن لم أكن قد لمحت، حتى ذلك الوقت، شعرة واحدة من رأسها. قد يبدو ما أقوله غامضاً، لكنني سأشرحه بالتفصيل في الملحق.

أخبرني فرانك وقتها أنه باقٍ بضعة أيام أخرى في الفندق، فاتفقنا على أن نحتسي البيرة معاً مساء ذلك اليوم.

قال: «أود أن نتحادث. ما أسهل أن تنسى أوقاتاً كهذه!».

ما إن مضى داخلاً إلى المطعم حتى أخذ تعليقه الأخير يعتمل في داخلي، وعلى الفور وضعت خطة بارعة. كل ما عليَّ القيام به هو إجراء مكالمتين هاتفيتين استراتيجيتين، إحداهما أشد جرأة من الأخرى. السؤال المطروح هو هل سأتمكن فعلاً من تنفيذ هذه الخطة؟ بل أكثر من ذلك، هل سأستطيع جرّ فرانك

إلى المساهمة فيها؟ كنت مدركاً - وكم هو مؤلم هذا الإدراك - أني قد أتسبب في لخبطة مزعجة لا أورّط فيها نفسي فحسب، بل وأورِّط الآخرين الذين لا بد أن يصيبهم رذاذ خطتي.

لن أقول إن مصادفات كهذه من «صنع» القدر، أو هي مشيئة إرادة متعالية ما، لكنها فرصة لن تسنح لي مرة أخرى، ولن أدعها، إذن، تفلت مني. كنت في وضع دقيق، لكن يتعين عليَّ أن أوضّح فوراً أني ما كنت لأجد رسالة فرانك أمامي هنا في كرويدن لو أني لم أنتهز تلك الفرصة التي سنحت بعد ظهيرة ذلك اليوم في مدريد.

حسناً، خشبة المسرح جاهزة يا فرانك. لقد خَطَطْتُ رسالة أخرى إلى ڤيرا، ولم يبق بعد هذه الرسالة إلا المشهد الأخير. لا مراسلات أخرى بعد هذا المكتوب الأخير. ومع ذلك سيتعين على واحد منا أن يصف ما حدث في إشبيلية. أظن أنه يجدر بي أن أتولى أنا هذا الواجب، وهذا ما سأفعله في الملحق.

ڤيرا الغالية،

بعد رسالة طويلة سابقة، إليك تحية أخرى مني.

غادرتُ محطة القطار وبيدي مغلف كبير أصفر. عدت إلى غرفتي في الفندق في وقت باكر من عصر ذلك اليوم. كان ذهني مزدحماً بكل ما ينبغي عليَّ أن أخبرك به. قررت ألّا أبرح غرفتي قبل أن أدوِّن كل شيء على الورق، فأنا بحاجة إلى كل دقيقة، من الآن حتى مساء الخميس. وأرجو أن يكفيك الوقت لقراءة ما كتبته لك قبل سفرك المأمول إلى إشبيلية.

شغّلت حاسوبي الشخصي، وقبل أن أجلس على المكتب، فتحتُ المغلف ونظرت إلى كل تلك الصور التي أُخذتْ في فيجي. ثمة ثلاث عشرة صورة من شاطئ الأمير تشارلز، ثلاثة عشر من خط تعاقب الأيام، ثلاثة عشر

من شلالات بوما، وثلاثة عشر من بستان النخل في ماراڤو. لا بُدّ أن تناظر أعداد الصور هو الذي دفعني إلى قلبِ واحدة منها.

تحت رمز تسعة الكبّة نجد التالي: بعد دهور من تحوّل الشمس إلى عملاق أحمر لاتزال تُلتقط إشارات لاسلكية في السديم النجمي. هل ارتديت قميصك يا انطونيو؟ تعال إلى ماما فوراً! لم يبق إلّا اربعة اسابيع على عيد الميلاد.

قلبتُ الصورة التالية، إنها ثلاثةُ الاسباتي: هنا والآن، الصوت الناطق هو صوت ورثة البرمائيات. ينطلق من حنجرة ابناء عمومة العظاءات البرية، المقيمة في الدغل الإسفلتي. السؤال الذي يطرحه ورثة الفقاريات ذات الفرو، هو: هل ثمة عقل يسمو على هذه الشرنقة، عديمة الحياء، التي تتوسع وتتوسع في كل اتجاه.

كان نبضي يتسارع. على ظهر الصورة الثالثة، خمسة البستوني، نقرأ: يصحو الجوكر داخل قرص عضوي مُدمّج مستقرٍ على الوسادة. يشعر أنه يحاول الحبو نحو شاطئ يوم جديد خارجاً من تيار ساخن من هلوسات نصف مهضومة. اية طاقة نووية تلهب النار في أدمغة بني الجن؟ ما الذي يجعل ألعاب الوعي النارية تنزُّ؟ اية قوة ذرية تشد خلايا الدماغ والروح وتربطهما معاً.

تابعت تقليب الصور الاثنتين والخمسين جميعاً. إنها المانيفِستو، ڤيرا، المانيفِستو كله بين يدي، وهو لنا نحن الاثنين. جلست فوراً وتابعت كتابة تلك الرسالة الطويلة إليك. كتبت وكتبت، ولم أنتزع نفسي من المكتب إلا لبضع ساعات من النوم، لكأس من الشاي تحت القبة، ولمشوار سريع من المشي نحو رتيرو بارك حين جاؤوا ينظفون الغرفة. ثم أرسلت لك الكل بالبريد الالكتروني مساء الخميس، وأرفقت معه نسخة من المانيفِستو. كتبتُ لك أني عمدت إلى ترتيب النصوص في أربعة أعمدة تمثل الأنواع الأربعة في ورق اللعب، ورتبتها سباتي ثم ديناري فكبة فبستوني. لكن بعد أن أرسلت لك مكتوبي الطويل، خطرت لي طريقة أخرى في تنظيم عرض المانيفِستو، طريقة أحسن بكثير من هذه، لكننا سنعود إلى هذا الموضوع حين نلتقي.

أرفقتُ أيضاً ملحوظة وجيزة أطلب منك فيها أن تهاتفيني إلى الفندق حالما تنتهين من قراءة الرسالة كلها. وقد اتصلتِ بي فعلاً عند منتصف الليل.

لم أكن قد أويت إلى السرير؛ بقيتُ في غرفتي تلك الأمسية كلها، مع أن النزول إلى البار بعد انحباس دام ستاً وثلاثين ساعة كان سيجدد قواي. تمشيت جيئة وذهاباً بين الحمام وغرفة النوم، وإن شئت الصدق، كانت زجاجتا الجن الصغيرتان قد فرغتا حين، أخيراً، اتصلتِ، وكذا حصل لزجاجة فودكا صغيرة أيضاً.

كان أول ما قلتِه عبر الهاتف: «أنت شيطان يا فرانك، هل تعرف ذلك؟».

«هل قرأتِها كلها».

«نعم، كل كلمة فيها. أنت شيطان فعلاً».

«ولم تقولين هذا؟».

«من هما آنا وخوسيه؟».

«كنت تظنين أني اخترعتهما اختراعاً؟».

«لا، ليس تماماً. ظننت أنك تتآمر».

«أتآمر؟ كيف؟».

«هناك شيء لم أخبرك به في سلمنكا».

«أظن أن هناك الكثير مما لم نخبر به بعضنا في سلمنكا».

«مثل ماذا؟».

«قولي أنت أولاً».

«لماذا؟».

«أنت التي بادرتِ إلى القول إن هناك شيئاً لم تخبريني به في سلمنكا».

«لستُ واثقة تماماً أنك متواطئ في الأمر».

«لا أعرف ما الذي تحومين حوله. أنا ذاهب إلى قداس وفاةٍ غداً، ڤيرا. هل ستأتين؟».

«نعم، فرانك. أنا قادمة إلى إشبيلية. والويل لك إن لم تحضر. ستُقْلِع طائرتي في العاشرة والنصف».

«يسرّني جداً سماع ذلك».

«لكني أشعر كأني خُدِعتُ».

«ماذا تعنين؟».

«اتصل مرة أخرى».

«من؟».

«ذاك الخوسيه».

«أوه، هذا بائخ، نعم هذا بائخ فعلاً. ماذا قال؟».

«ما تقوله أنت. يقول دائماً ما تقوله أنت. وهنا القضية كلها. سألني ثانية إن كنت سأحضر القداس. وكان متأكداً هذه المرة أنك أنت أيضاً ستحضر».

«قال لي إن المانيفِستو لنا نحن الاثنين. من الواضح أن لديه أسبابه لقول ذلك».

«أي أسباب؟».

«لستُ أدري ڤيرا، حقاً لست أدري».

«لستَ أنت الذي طلب منه أن يتصل؟».

«أتظنين ذلك حقاً؟».

«لكنك مشترك في المؤامرة في سلمنكا؟».

«ليس لدي أدنى فكرة عما تتحدثين».

«لم تفهم لِمَ كنت أضحك. دعنا نبدأ من هناك».

«إنك تثيرين فضولي».

«أوه، أنا حقاً لا أعلم...».

«هيا تكلمي، انطقي هذه الجوهرة. أنا متلهف جداً لرؤيتك».

«سبق لي أن التقيتُ آنا وخوسيه... فرانك؟ هل تسمعني؟».

«هل التقيتِهما قبلاً؟!».

«ولم تكن تعرف ذلك؟!».

«لكن في آخر مكالمة لنا قلتِ إنك لن تذهبي إلى القداس لأنك لا تعرفين آنا».

«أنا أصدِّقك فرانك، أنا أصدقك».

«أنت تصدقينني أنا؟!!».

«طلبا مني أن أكتم الأمر. أصرّا إصراراً شديداً على ألّا تعرف أني تحدثت معهما».

«كُرمى للمسيح، متى التقيتم؟ وأين؟».

«في سلمنكا. تمهل قليلاً. في ذاتِ الأمسية التي تمشينا فيها نحو النهر... جاءا إلى الفندق بعد ظهر ذلك اليوم، دخلا إلى غرفة الاستقبال وسألاني هل أنا ڤيرا».

«كيف عرفا أنك هي؟».

«آه، طيب، فرانك. آه، طيب».

«أي نوع من الإجابة هذا؟».

«كنا تغدينا، أنت وأنا، في المقهى في ساحة بلازا مايور، المكان نفسه الذي التقيتَ بهما فيه في اليوم التالي. شاهدانا هناك، ثم جاءا إلى الفندق ليتأكدا أني أنا ڤيرا».

«هكذا كانا تماماً في فيجي: ثنائي غريب، مع ولع خاص بتدبير المكائد... ولكن هل يخطر ببالِك أنّ هذا وقع قبل أيام قلائل من موت آنا».

«أفكر في ذلك، لا أكف عن التفكير فيه».

«وقلتِ لهما إنك ڤيرا؟».

«وهنا قالا إنهما كانا معك في فيجي. ثم طلبا مني أن أسدي لهما معروفاً... هل تسمعني؟».

«كلّي آذان صاغية».

«اعتقدا أنه من العجيب بمكان أن يجداك في سلمنكا، وقالا إنهما يريدان تدبير مقلب طريف لك. طلبا مني أن أرافقك في جولة إلى النهر، وهناك سيظهران ضمن المشهد لكي تراهما. لكن قطعا عليّ عهداً بأن لا أنبس ببنت شفة عن هذا التدبير. أوحيا لي أن الموقف سيسوء كثيراً إن أنت عرفت بما يُدبَّر. لذا فقد وفيت بعهدي...».

«هذا أسوأ شيء سمعته في حياتي تقريباً».

«لم تكن على علمٍ بأي شيء؟».

«لا، إطلاقاً».

«كانا لطيفين جداً بالمناسبة. هناك شيء آخر: كان أول ما خطر ببالي حين دخلا إلى ردهة الاستقبال أن آنا شبيهة بـ **ماخا** غويا إلى درجة لاتصدق».

«لكنك لم تقولي لي شيئاً عن هذه النقطة».

«لا».

«إذن كنت تقلّبين الأمر في ذهنك من دون أن تتفوهي بكلمة».

«كنت قد قطعت لهما عهداً».

«وعند النهر لم تتركي لي فرصة لقول كلمة واحدة. لم أستطع إخبارك بشيء».

«اكتفيتُ بالضحك. كادت خاصرتي تتمزق لشدة ما ضحكتُ. ولم يكن بوسعي قول أي شيء».

«بل قلتِ إنك ظننتِ أني ألفّق قصصاً لاستبقائك هناك».

«أما أنت فقد أُسقِط في يدك. تحدثتَ بلا توقف، لكن لعلّي فعلت خيراً بعدم الإصغاء لكلامك».

«لماذا؟».

«لأنك ما كنت ستكتبه عندئذٍ».

«وما حكمك الآن؟».

«مذهل... غير أني لا أصدق من الأمر شيئاً. لا أزال كما كنت في سلمنكا: لامبالية».

«ما الذي لا تصدقينه؟».

«أوافق أنها تشبه «الماخا العارية»». لكني لا أصدق شيئاً عن أولئك المهرجين الذين يتقافزون، حضوراً وغياباً، عبر العصور. وأنت أيضاً لاتصدّق ذلك؟!».

«مهما يكن من أمر فأنا أصدق أنها ماتت في إشبيلية».

«تصدِّق؟!».

«وأنت، ألا تصدقين؟».

«سأترك للغد حسم هذا الأمر».

«شهدت بأم عيني النوبة التي أصابتها في تاڤوني. ورأيت كم كانت هائجة في سلمنكا. رأيت كم كان خوسيه منهاراً في ألبرادو. أعني أن المرء لا يُلَفِّق خبر وفاة زوجته».

«لا، ربما لا يكذب في ذلك...».

«قطعاً، لا يمكن أن يكذب هنا».

«لم أتأثر بما كتبتَه عن أنثى الرئيسات الأسترالية. لربما كان عليك أن توفر على نفسك عناء الكتابة عنها يا فرانك».

«كنت وحيداً بالمطلق. هذا ما حاولت قوله. أنا وحيد وموحش القلب».

«لم أعن ما فهمتَ».

«... ما فهمتُ؟».

«لا أدين الأمر أخلاقياً إن كان هذا ما تقصده. كل ما أعنيه هو أن تلك اللورا لا تعني لي شيئاً».

«لا تزعجي نفسك بهذا الموضوع».

«ألم تجدها صبيانية إلى درجة لا تطاق؟».

«بالتأكيد. أحياناً أشعر أني صبياني بدوري».

«لم أحبّها على كل حال. يخيل إليّ أنها شخص مُنفِّر».

«لقد عبّرتُ عن ذلك في رسالتي».

«لا أفهم سبب كتابتك عنها. هل كنت تحاول إثارة غيرتي؟».

«حقاً لا. لكني أفتقدك بالطبع».

«أما المانيفستو فقد أعجبني».

«هو لنا نحن الاثنين».

«ها هو أمامي. انتظر لحظة... أحببتُ جداً هذه الفقرة: امتد نسيج الأسرار العائلية العنكبوتي من التشكيلات المجهرية في الحساء البدائي إلى السمكة البصارة مفصصة الزعانف والبرمائيات الراقية. بعناية حُمِلت عصا السبق من قبل الزواحف ذات الدم الحار، ثم البروزيميات البهلوانية، ثم القرود المتجهمة شبه الإنسانية. هل ثمة إدراك ذاتي كامن يترصد، من مكمنه في أدمغة الزواحف، فرصة الظهور؟ أما استطاع اي شبيه بالإنسان غريب الأطوار، وهو في خدر النعاس، تحصيلَ إلماعةٍ عن الخطة الإلهية بالذات؟».

«آه، نعم، إنهما يسرقان أفكار الغير كأنهما طائرا عقعق».

«لاتكن متبجّحاً إلى هذه الدرجة... والآن ما رأيك بهذه القطعة:

في كرة العين نِزَاعٌ بين الخلق والانعكاس. ما كرتا البصر ثنائيتا الاتجاه إلا بابان سحريان دوّاران تلتقي عبرهما الروح الخالقة بالروح المخلوقة. إن العين التي تشرف على الكون من علٍ هي عين الكون ذاته».

«نسيتُ هذه القطعة».

«لابد أنهما شخصان استثنائيان».

«هذا ما خطر ببالي منذ أول لحظة لمحتهما».

«لكني بالطبع لا أؤيد هذه الأفكار».

«هل تقصدين أفكاراً محددة بينها؟».

«لم تنس مسؤولياتك المهنية، يا فرانك، أليس كذلك؟ أعني أن هذا الكلام مجرد هراء من وجهة النظر العلمية».

«لم أعد متأكداً من ذلك».

«هل تعتقد أن شيئاً يحدث اليوم يؤثر على أحداثٍ وقعت في الماضي البعيد؟ هل صرت من المؤمنين بالتنجيم والقوى الخفية؟».

«قطعاً لا. لكنني أشعر الآن أن للحياة معنى».

«أنت تفاجئني».

«لا يمكن أن يكون الشبه المطلق بين شخص يعيش اليوم وآخر عاش في ماضٍ بعيد مجرد مصادفة».

«أعود إلى القول إنك تفاجئني».

«ما من شيء أدعى للشعور بالمفاجأة من وجود العالم بذاته. قيرا، نحن أحياء! هذا أمر لا يصدّق!».

«أسلم لك بهذه النقطة طبعاً».

«ولكن أما كنا نجزم بصواب المعتقد الجامد الذي يقول إن وجود العالم ذاته هو مجرد واحدة من المصادفات الشنيعة؟ وأنه لا «معنى» لهذا الوجود إطلاقاً؟».

«ها أنت تحلّق في سماء التجريد وتبتعد عن الفكر العلمي».

«أعتقد أن هناك قصداً وراء العالم».

«هل أصبحت متديناً؟».

«يمكنك قول ذلك. لكن من دون إيمان بعقيدة دينية معينة. إلى ذلك يتنامى لديَّ الشعور بوجود مقصدٍ يحكم حياتي والعالم من حولي».

«هذا، بحد ذاته، مشكلة كبيرة. ولكن هل تستطيع تحديد هذا «المقصد» بدقة؟».

«لست أمزح، ڤيرا. نحن نعلم كيف تطورت الحياة عبر مليارات السنين، رغم أن مؤسسة علم الطبيعة لا تملُّ من نعت جهد الخلق الجبار هذا بأنه سلسلة طويلة من عمليات فيزيائية وكيميائية حيوية، عملياتٍ عمياء بقدر ما هي عشوائية وخالية من المعنى. كل ما هنالك هو أني لم أعد أرى الأمر بهذه الطريقة».

«ما عليك إذن إلا أن تعيد تأهيل نفسك لتصبح كاهناً أو دجالاً».

«حسناً، أصغي إذن إلى التالي: الإنسان عملية كيميائية حيوية معقدة، تدوم ثمانين أو تسعين عاماً في أحسن الأحوال، وهو في العمق مجرد مستودع زائف تتّخذ منه جزئيات كبيرة ساحة لصراعها من أجل التكاثر. الهدف الوحيد الذي يمكن عزوه لحياة الإنسان هو ذاك الهدف الذي يُنْجز في كل خلية حية بمفردها، أي التكاثر الجماعي للمورثات ولا شيء غيره. ليس «الإنسان» إذن أكثر من آلة لبقاء المورثات. الهدف الحقيقي هو المورثة الفردة، وليس العضوية ككل. هدف الوجود هو بقاء المورثات، وليس بقاء ما تتحكّم به المورثات. الهدف هو البيضة وليس الدجاجة، لأن الدجاجة مجرد نتاج للبيضة. الهدف أخيراً هو الخلية التناسلية المتمثلة في البيضة. ما الذي يمنعنا إذنْ من وضعكِ في قن!».

«أظن أنك مُجْهد بعض الشيء، وسأعتبر ما قلته خلاصة ختامية مقبولة».

«لاتفعلي. خلال خمسين عاماً سيسخر معظم الناس من الفكرة السائدة الآن عن العالم. نحن من جيل علماء الحياة المدانين جميعاً بقياس الخُلْف: يبرهنون على صحة شيء بإبطال نقيضه».

«وما معنى الوجود إذن؟».

«قلت إني لاأدري. كل ما أقوله هو إن الكون ليس خالياً من المعنى. إن تطور الحياة عملية مذهلة إلى درجة أن أغرب وأتم وأحدث أساطير الخلق لا تحيط بوصفها».

«أنت غريب، غريب جداً».

«هل تقرّين أن لك روحاً؟».

«لا أعرف. لا أعرف إن كنت سأستخدم هذه الكلمة».

«لكنك توافقين على أنك كائن واعٍ؟».

«بالطبع. سيكون كلامي متناقضاً إن قلت إني لست كذلك».

«أنتِ إذن على وعي بالكون...».

«وعلى وعي بنفسي. أنا أفكر، إذن أنا موجودة».

«لا بأس أن نعود إلى الوراء، أعني إلى ديكارت، لأنه بدءاً منه انحرف تفكيرنا عن سواء السبيل. ثمة مادة ـ حسب ديكارت ـ وثمة وعي للمادة. أعتقد الآن أن الوعي مكوّن جوهري لصميم طبيعة الكون بحيث يستحيل أن يكون مجرد نتاج جانبي».

«لكن المادة وُجِدت أولاً».

«هذا وارد جداً».

«لم أرَ حتى اليوم وعياً يتظاهر مادياً، لكني رأيت العكس».

«لحظة. تريدين أن تري وعياً يتظاهر مادياً؟».

«نعم».

«ماذا عن العالم، ڤيرا، ماذا عن العالم كله؟».

«لعلك مصيب في هذه النقطة، لكنك لم تعد تتحدث كعالِم».

«على أية حال، قد يجدر بنا أن نتحدث عن شيء غير العلم. بالنسبة لي الوعي مكوّن جوهري لطبيعة الكون أكثر مما هي النجوم كلها والنيازك كلها معاً».

«لكن المادة وُجِدت قبل الوعي. هذا مبدأ حاكم في مناقشاتٍ من هذا النوع».

«قد يكون الأمر كذلك كما أسلفتُ. لكن يتضح لي، أكثر فأكثر، أن المادة وُجِدت وهي حُبلى بالوعي. إن الوعي وجه شامل من وجوه الواقع بدرجة لا تقل عن التفاعلات النووية في النجوم».

«لست أعرف حقاً. من الواضح أنك فكرت بهذا الأمر أكثر مني بكثير».

«الدم يسبق الحب».

«ماذا تقول؟».

«يجب أن يتدفق الدم في العروق قبل أن نستطيع حب بعضنا. هذا لا يعني أن الدم أهم من الحب».

«ربما هذه أيضاً قضية بيضة ودجاجة».

«كيف؟».

«لولا الدم لما كان الحب. ولولا الحب لما كان الدم».

«نعم، هذا ما عنيتُه».

«ستتحدث عن ذلك طويلاً في إشبيلية. اقتربت الساعة الآن من الثالثة فجراً».

«أريد فقط أن أقول إني انتهيت من النزعة الاختزالية المغالية التي جثمت على صدر القرن العشرين مثل كابوس. آن الأوان لاستقبال ألفية جديدة».

«وكل ما أقوله أنا هو أنك مغرقٌ في الغموض. ما من قاعدة يُبنى عليها العلم الطبيعي غير قوى الطبيعة».

«ها! لكننا مع ذلك نصدر أحكاماً تتجاوز بكثير ما يمكن أن نستنتجه من تفاعل القوى ـ العناصر الأربعة».

«ألديك مثال محدد؟».

«ليست الشمس مجرد نجم، والأرض ليست مجرد كوكب، والإنسان ليس مجرد حيوان، وليس الحيوان مجرد تراب، وليس التراب مجرد حمم بركانية، وآنا ليست ميتة».

«وما معنى هذه العبارة الأخيرة؟».

«لا أعرف. فُهْتُ بها فحسب، إنها تناسب سياق الجملة تماماً».

«مناسبة للإيقاع فقط، آ؟».

«نعم، فقط لأنها تناسب الإيقاع».

«أحببتُ أيضاً هذه القطعة من المانيفِستو:

الجوكر موجود نصف وجود فحسب في عالم الجن. يعلم أنه سيذهب، لذا فقد دفع مستحقاته. يعلم انه سيذهب، لذا فهو منذ الآن نصف ذاهب. لقد جاء من كل ما هو كائن وها هو الآن ذاهب إلى لامكان. ما أن يصل، لن يستطيع حتى أن يحلم بالعودة. إنه ميممٌ صوب ارضٍ لا وجود فيها حتى للنوم».

«إذن فأنت أكيدة أن أرض اللاشيء هذه موجودة فعلاً؟».

«نعم لسوء الحظ. إنها موجودة بقدر ما يمكننا القول إن «اللاشيء» موجود».

«هذا سبب إضافي هام للقائنا. إن حيواتنا قصيرة جداً».

«لن أختلف معك في هذه النقطة».

«أعتقد أن هذا هو كل ما يدور حوله المانيفِستو».

«أما أنا فأظنه يقول إننا جزء من شيء هائل».

«سأراك في مطار إشبيلية».

«هل حجزتَ في أحد الفنادق؟».

«حجزتُ في فندق دونيا ماريا. إنه يطل على ساحة بلازا ڤيرجن دو لوس ريس، وهذه تقع أمام لاجيرالدا والكاتدرائية».

«هل حجزت لي أيضاً؟».

«نعم. احتسبتُ مجيئك بعد أن أفرطتُ في تملّقكِ؟».

«تملّقي؟».

«ربما يتعين عليَّ أن أقول بعد أن بالغتُ في إطرائك. هل طبعتِ المانيفِستو؟».

«طبعتُ نسخة فور استلامي له. أكره القراءة من شاشة الحاسوب».

«وأنا أيضاً».

«عرفت الآن لماذا قلتَ إني أُذكِّرك بأبو بريص. لقد شُغِفت بغوردون».

«أتصور هذا».

«أنتَ بحاجة إلى من يؤنِّبك».

«لكن لستِ أنتِ التي تشبهين غوردون، غوردون هو الذي يشبهك. السبب والنتيجة ڤيرا!»

«طريف جداً... إذن فقد حجزت غرفتين؟».

«حجزت مرتين».

«ماذا يعني ذلك؟».

«حجزت غرفة وغرفتين... ألو؟».

«لقد أزبّج علي».

«لماذا؟».

«أنت سيء التدبير، وتفكيرك غير متماسك منطقياً أيضاً».

«هل لك أن توضحي ما تقصدين؟».

«لا يمكن للمرء أن يحجز غرفة وغرفتين. لقد حجزت اثنتين في هذه الحالة».

«لا منطق حيث تتضارب الأهواء. لذلك لا يجدي المنطق في حسم النزاعات، بل في مختلف العمليات على العموم. ڤيرا، إنه أداة لا روح فيها».

«لكن بأي شيء يختلف ما تقوله عن الوصول «جزئياً» إلى جزيرة مهجورة. الغدو والرواح شيء ينجزه المرء كاملاً. يتعيّن عليك أن تفكر في ذلك، ينبغي أن تفكر في ذلك، فرانك».

«لم أعد واثقاً من ذلك الآن. بمعنى ما وصل القزم إلى الجزيرة مع البحار؛ بمعنى آخر، لم يظهر القزم في الجزيرة إلا في وقت لاحق».

«أظن أننا لا نتحدث عن الموضوع نفسه. أنا هي الجزيرة المهجورة».

«ڤيرا؟».

«لكننا سنرى بعضنا غداً».

«وسرعان ما نكتشف كيف نرى بعضنا».

«هل هذه حكمة عميقة؟».

«لعل هناك سماء أخرى فوق هذه السماء».

«وهل هذه حكمة أعمق؟».

«لا أعرف، ولم يعد لدي دليل لفهم ما أقول. كأن شخصاً آخر يضع الكلمات على لساني».

«هذا يسمى تنصلاً من المسؤولية».

«غير أني كنت أفكر في شيء قالته آنا في فيجي».

«وما ذاك؟».

«قالت: «ثمة ما يتجاوز ما هو موجود»».

«يا إلهي، نعم، هذا صحيح. انتظر ثا...».

«ماذا تفعلين؟».

«قلت لك انتظر، إني أبحث في الأوراق أمامي.... «ستظنون أنكم في مأتم، لكنكم ستكونون في الحقيقة شهوداً على ميلاد جديد»، هذا ما قالته آنا. هل تظن أنها تبصر المستقبل؟».

«قلت إني لا أعرف. كل ما أعرفه هو أني مسافر في قطار إيف في الثامنة صباحاً».

«تفحصتُ لوحة غويا من جديد. لقد جعلتني آنا أقفز من مكاني حين رأيتُها في سلمنكا»

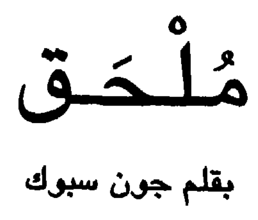
«لعل ذلك مفيد لكِ بعض الفائدة».

«ما الذي لعله يفيدني!».

«أن تقفزي من مكانك».

«وداعاً الآن».

«إلى اللقاء!».



بقلم جون سبوك



كثيراً ما أجفل عند وقوع بصري على الصورة الكبيرة الملونة لشيلا، الصورة المؤطرة بالأسود والمعلقة فوق مكتبي. وضعتُ الصورة في ذلك المكان منذ أن التقطتُها لها، أمام قاعة مدينة كرويدن، قبل عدة سنواتٍ من الآن. لا بُدّ أنها نظرتْ مباشرة إلى العدسة لحظة التقاط الصورة، لأن نظرتها تبدو مثبتة عليّ. أشعر أحياناً كأنها تعمّدتْ أن تحرسني بعينيها في حال تجرأ الموت وخطفها.

كان النظر إلى صور الراحلين الملونة تجربة مربكة لي على الدوام. تخيلْ، إذن، الصدمة التي أحس بها قرويو الأندلس قبل مئتي عام من الآن، وهم يرون، قبالة أعينهم، صورة امرأة غجرية جميلة في حدائق الكازار.

رغم انقضاء ثلاث سنوات على موت شيلا، مازال يَصْعبُ عليَّ التسليم بأني لن أراها ثانية. ترى لماذا يجب أن أُسلّم بأن شملنا لن يلتئم من جديد؟ أنا على يقين أننا سنلتقي، حتى لو لم يتجاوز هذا الاحتمال واحداً بالمئة. لقد اخترق العالم، بمجرد وجوده بالذات، حدود اللامحتمل. إذا كان هذا العالم موجوداً، فلِمَ لا يكون ثمة عالم آخر فيما بعد؟

قد يجيب فرانك: لأننا من لحم ودم كما هي الضفادع والخفافيش. طيب، نعم، أوافق على ذلك، وإذا كان ثمة ما يزعجني في اللحم والدم فهو دورتي الدموية. أنا رئيسيٌّ هرم. ولكن، ألستُ كائناً روحانياً أيضاً.

لم أتقبل أبداً فكرة أن الروح الإنسانية مجرد ظاهرة سريالية ذات أساس بروتيني، مثلها مثل عنق الزرافة أو خرطوم الفيل؛ فالوَعْي يؤهلني لسبر أغوار الكون كله. ولم أعد أيضاً مقتنعاً بأن الروح مجرد إفراز كيميائي حيوي.

نعلم أن هناك مجرات أخرى. ولعل هناك أيضاً أكواناً أخرى حسبما يعتقد عدد من الفلكيين. لِمَ، إذن، لا يكون الارتقاء من مستوى للواقع إلى مستوى آخر محتملاً، مثلما هو الارتقاء في الزمان والمكان؟

أو بعبارة أخرى: لِمَ يعتبر الارتقاء من سويةٍ إلى سوية أسمى شيء يستحيل التفكير فيه؟ يمكن للإنسان أن يصحو من حلم.

لانعرف ماهية هذا العالم. ويُخيّل إليّ أن من السهل أن تخدعنا قيود مستوى الواقع الذي نجد أنفسنا الآن فيه. أمّا آنا فلم تمت.

لمّا وصلتُ إلى تاڤوني للمشاركة في برنامج تلفزيوني عن مستقبل الإنسان، كانت سنوات قد انقضت دون أن أكتب ولو راوية واحدة. استحالت عليّ الكتابة حين كانت شيلا مريضة، ولم أقدر على البدء بشيء جديد في السنوات التالية لوفاتها. لستُ ممن يستطيعون الاهتمام بأكثر من فكرة واحدة في وقت واحد. وكم هي غريبة قوة ارتباط رجل في مثل سني بامرأته! وكم هو مريع ضعف العزيمة الذي تسببه هذه الخسارة؟

كنتُ بحاجة إلى التقاء أناسٍ آخرين كي أعاود الكتابة؛ في تاڤوني، صادفتُ عدداً من الناس المختلفين كل الاختلاف عمن عرفتُ وأَلِفْتُ في كرويدن. نعم كنت بحاجة إلى أفكار ومفاهيم جديدة تحفزني على العمل من جديد. لَعلّي لهذا السبب دعوتُ نزلاء ماراڤو إلى القمة الاستوائية.

اعتدتُ أن أبني رواياتي على خلفيات واقعية. لم أكن قطعاً محدود الخيال يوماً، لكن تعيَّن عليّ، بين وقت وآخر، أن أجتهد وأصارع لابتكار شخصيات أدبية حية.

كنتُ، حتى قبل أن ألتقي فرانك، قد اخترتُ آنا وخوسيه من أجل روايتي القادمة. كانت آنا أطول من خوسيه بدرجة ملحوظة، ذات شعر قاتم وعينين سوداوين، وتتحرك كأنها إلهة. أما خوسيه فهو أكبر منها سناً، أزرق العينين،

وفاتح البشرة أكثر مما هو معتاد من الإسبان. قدّما نفسيهما على أنهما عاملان في التلفزيون، لكن خوسيه ذكر مرة أن آنا كانت راقصة فلامنكو معروفة. أما أنا فقد أوفدتني هيئة الإذاعة البريطانية إلى الجزيرة، لأقف على خط تعاقب الأيام، وأتلو كلمات مُحكمة حول الأخلاقيات العالمية ومستقبل الأرض. والظاهر أن الإسبانيين قَدِما إلى الجزيرة لصنع فيلم وثائقي مشابه لإحدى أقنية التلفزيون الإسبانية. صادف أن تلاقينا مرتين عند خط الطول 180 درجة. كان ثمة حشد واسع من أطقم التلفزيون في الجزيرة منذ ذلك الوقت، رغم أن الاحتفال بالألفية لن يحصل قبل عامين من الآن.

هناك أسباب كثيرة لتعلّقي بالإسبانيين. فعندما يكونان بمفردهما، أو بالأحرى حين يتظاهران أنهما بمفردهما، كانا يلقيان صِيَغاً كلامية غريبة على مسامع بعضهما. ذكّراني بالناس الذي يتحدثون إلى أنفسهم وهم يتجولون، لأنه ـ رغم كونهما اثنين لا واحداً ـ لم يكن ثمة ما يشير إلى أن ما يقوله أحدهما شيء غير مألوف للآخر. ورغم أني لا أتكلم الإسبانية، كنتُ مشدوداً جداً لدمدماتهما، هذا قبل أن يأتي فرانك ويُدهش للأمر نفسه. الفارق الجوهري بيننا، هو أن فرانك كان يفهم ما يقولان. أما أنا فقد أثار اهتمامي شكلُ كلامهما لا مضمونه. ومنذ العشاء الأوّل في تافوني، اكتشفتُ أن فرانك يتلصص على الإسبانيين. حين استعار مني قلماً، لبّيتُ طلبه لمسرّتي أنا، لا خدمة له فحسب. ويخيّل إليّ أني حفّزت، بطريقة ما، اهتمامه بهما، من دون أن يخطر له ذلك على بال.

ثمة شيء آخر، شيء دفعني إلى الاهتمام بالإسبانيين، لا بل إلى ملاحقتهما: منذ البداية خامرني شعور بأني رأيتُ آنا قبلاً. ثم حين وصل فرانك، وقال إنه يشعر كأنه يعرف آنا، قمتُ بتحريات شخصية حول الموضوع. ولن أنكر أني شعرتُ بصدمة حقيقية حين اكتشفتُ أخيراً سر إلفتها. أذهلني الأمر، ومنذ ذلك الوقت، صرت أنظر إلى آنا على ضوء جديد تماماً.

قررت ألّا أستعجل الأمور، لا، ولن أقول شيئاً لفرانك أيضاً. فلن تزيده معرفة الحقيقة إلا اضطراباً. اكتفيت بإعطائه، حين كان يغادر ماراڤو، إشارة قد

يستدِلُّ منها على الحقيقة. سأنتظر وأرى. هذا هو الموضوع الذي أردتُ أن آخذه معي في طريق عودتي.

لم أحبَّ أبداً الحديث عما أعمل، وخاصة قبل أن أشرع بفعل الكتابة. كنت أخشى أن تُقْتَل الفكرة كلاماً إن أصبحت موضوعاً لدردشات العشاء في تلك الجزيرة الفيجية.

عند وصوله إلى تاڤوني، كان فرانك قد أنهى شهرين كاملين في جزر جنوب المحيط الهادي. أدين له بكل ما أعرفه تقريباً عن ذلك الجزء من العالم. وكلما ازدادت معرفتي به، ازداد اقتناعي بأنه هو الراوي المناسب في الرواية التي أنوي كتابتها. أظن أن كلاً منا قد شدّ من أزر الآخر بالرغم من فارق السن الكبير بيننا. قد أُلفِتُ النظر هنا إلى أن الحلم الذي رواه فرانك لغوردون استعاره، في الواقع، مني. إنه أنا الذي رأى حلماً مزعجاً في إحدى ليالي ماراڤو: حلمتُ أني لا أتذكر إن كان عمري ثمانية عشر أم ثمانية وعشرين عاماً. ثم صحوتُ لأجد أني لست ابن الأربعين الحزين مثل فرانك، بل منكوباً بخمسةٍ وستين عاماً. نهضت على الفور من سريري، ووقفتُ أمام المرآة الكبيرة في غرفة النوم. أنا هو الرئيسي الهرم.

ما من إنسانين متماثلين، وثمة بالطبع تنوع واسع من الخصائص الإنسانية. ومع ذلك، أرى، في الواقع، نموذجين فقط من بني البشر. يتكون الصنف الأول، أي الأكثرية الساحقة، من أولئك القانعين بالعيش سبعين أو ثمانين أو تسعين عاماً. أما تبريراتهم لهذه القناعة فهي عديدة ومتنوعة. فبعد ثمانين أو تسعين عاماً - يقول بعضهم - سيكونون قد خلّفوا وراءهم حياة مديدة غنية بأحداثها ووقائعها، وسيكون الوقت قد حان لالتماس الراحة، فيستلقون على ظهورهم، مستسلمين للموت، بعد أن يكونوا قد امتلؤوا بالسنين. ويرى غيرهم أنهم لايريدون أن يهرموا ويصبحوا عالة على الغير. وتصر مجموعة ثالثة على

أن الرغبة في العيش أكثر من ثمانين أو تسعين عاماً، ليست بالأمر المناسب، مادامت الطبيعة لم تجهزنا لعمرٍ أطول من ذلك. وهناك فئة أخيرة، لعلها الفئة الأكبر ضمن هذا الصنف، وهؤلاء لن يترددوا في البقاء على قيد الحياة مئات أو ألوفاً من السنين إذا أتاحت لهم الطبيعة ذلك. حسناً، جميل! جيد، وفي انسجام تام مع الطبيعة. لكن ثمة صنف مختلف تماماً من البشر: عدد صغيرٌ من الأفراد ممن يرغبون في البقاء إلى الأبد. لا يستطيع هؤلاء الناس أن يفهموا كيف يمكن للحياة أن تستمر بعدهم. فرانك واحد من هؤلاء، ولذا تصاعد اهتمامي به منذ اللحظة الأولى. انتماؤه إلى هذا الصنف، على كل حال، هو الشرط اللازم لاختياري له راوياً في روايتي.

لم أشعر يوماً بالقرب من أولئك الخوّارين الذين يتراجعون أمام فكرة الحياة الأبدية على الأرض. لما كنت شاباً، كان الموقف من هذه الفكرة هو أول شيء أحاول معرفته عمن ألتقيهم لأول مرة. كنتُ أسأل: إن كان لك الخيار، هل ستفضل العيش إلى الأبد؟ أم أنك تقبّلتَ فكرة زوالك يوماً ما؟ بهذه الطريقة، أجريتُ نوعاً من سبر المواقف. والنتيجة التي توصلتُ إليها هي أن الأكثرية الساحقة تريد الموت. حسناً، جميل! لطيفٌ أن الطبيعة منسجمة مع ذاتها.

لكن ليس صحيحاً دائماً أن من يلتذّون بالحياة أكثر من غيرهم هم الأقل استعداداً للتخلي عنها. العكس هو الصحيح. فغالباً ما يُبدي من يمتع نفسه بأطايب الحياة اهتماماً ضئيلاً بالنهاية المحتومة. قد يبدو هذا الموقف متناقضاً، لكنه ليس كذلك إن نظرنا إليه عن كثب. فالناس الذين يرفضون الاستسلام لتناهي الحياة، يجدون أنفسهم، سلفاً، في أرض متنازع عليها. ولأنهم يدركون أنهم ذاهبون، عما قريب، إلى غير رجعة، فقد قطعوا سلفاً نصف شوط الذهاب. لا يهم هنا إن كان لايزال أمامهم خمس سنوات أو خمسون. إنما في هذه النقطة يختلفون عن كل من تقبّلوا شرط الفناء، هذا بالطبع إن لم يكن الفناء فورياً. فمن يريد العيش إلى الأبد، ليس أول من يسارع إلى شق طريقه نحو حلبة الرقص، ليس ممن نسميهم «أهل الحياة». فملوك حلبة الرقص هؤلاء

منغمسون في رقصة الحياة إلى درجة أنهم لن يسمحوا لفكرة انتهاء الرقصة المحتوم أن تعكر عليهم صفوهم.

في رسالته إلى ڤيرا، يتحدث فرانك عن رحلته القصيرة بالطائرة من ڤيتي ليڤو إلى تاڤوني. وأظن أن ما قاله يوضح من أي النمطين هو. انقضى بعض الوقت قبل أن تتاح لي فرصة قراءة الأفكار التي كانت تتنازعه أول صباح له في الجزيرة. ومع ذلك، أظن أني كونتُ فكرة عن نوعية تفكيره منذ ذلك الوقت، وستتسع الفكرة بقدر ما تنامت معرفتي به في اليومين التاليين. فرانك واحد من تلك السلالة النادرة من الناس، أولئك الذين يعتصرهم الأسى بسبب ضآلة فُرَص البقاء والشجاعة الوجودية.

يختتم فرانك وصفه للرحلة من نادي بالقول إنها «أثارت فيَّ شعوراً لا ينمحي بأني مجرد فقاري سهل العطب في ظهيرة حياته». فكرتُ، حين قرأتُ هذا الكلام، أن من حقه قول هذا؛ وما ذلك لمجرد أني أتعرف على الشعور ذاته في نفسي. يكمن الفرق بيننا، وهو فرق هام في رأيي، في أني أكبر فرانك بنحو ثلاثين عاماً، أي إني في مثل سن ربان الطائرة.

بينما أنا منكبٌّ هنا على مكتبي في كرويدن، تُمِضُّني بين وقت وآخر إصابة بالتهاب العصب الوركي. لذا لستُ في حاجة إلى أن أكون خبيراً في الفقاريات لكي أعرف أني صاحب هيكل عظمي معتل. أُعالَجُ الآن أيضاً من آلام الذبحة الصدرية، وأنا مُدرك أن كل دقيقة أعيشها هي مكسب إضافي. يشبه الحال شخصاً يعيش وقد شُدِّد مسدس إلى صدغه. فكأن كل ما بقي لي من وقت في درب التبانة قد كُتِبَ له أن ينقضي على متن علبة كبريت طائرة متداعية الآلات. وليت لي صديقة تساعدني على قراءة الخريطة في المرحلة الختامية من رحلتي.

مرت ثلاث سنوات منذ أن ماتت شيلا، وأكثر من ثلاث سنوات منذ أن كانت تدخل الغرفة وتداعب رقبتي بيدها. عرفنا بعضنا، شيلا وأنا، أكثر من أربعين عاماً قبل أن تمضي في رحلتها الأخيرة. وما كنت لأخوض في هذه

القضايا الخاصة، لولا أني أريد إبراز سبب ما أظهرتُ من عزيمة، حين التقيتُ فرانك في مدريد قبل قرابة عامٍ من الآن.

حين قَدِم الإسبانيان إلى الفطور، يوم جئت بفرانك من المطار، ذكرتُ لهما أن نرويجياً وصل في الطائرة الصباحية، وأن معظم النرويجيين لاعبو ورق يُحسب لهم ألف حساب. أشرت أيضاً إلى أن لمهارتهم في لعب الورق علاقة بفصل الشتاء الطويل لديهم. اكتشفتُ أنهم لعبوا الورق ليلة الأمس من أجل خاطر آنا. وعلى كل حال، كانت تحب تأمين خصوم في اللعبة. كان رجل هولندي لعب معهما قد غادر الجزيرة ذلك الصباح. فمن سيحل مكانه حول طاولة البريدج؟ ليس أنا على أية حال، فأنا لا ألعب الورق، ولاأملك أدنى رغبة لتعلم اللعب.

ارتبطت رزم ورق اللعب عندي مع شيلا. كانت تقضي أماسيَ بأكملها تلعب السوليتير، بينما أكون أنا منكبّاً على عملي في العلّيّة. لطالما أسعدها أن أنزل إليها بعد أن أنهي عملي. ولكي أدغدغ شعورها بتقدير الذات كنت أجلس قربها، وأتابع ما تفعله حتى ينتهي الشوط. وكانت، إذا أحبّت إغاظتي، تطلب مني أن أخلط لها الورق من أجل شوط آخر. هنا فقط كانت ترفع ناظريها نحوي.

كنت قد حددت الكوخ الذي تم تخصيصه لفرانك. وحين خَلَتْ ردهة الاستقبال من الناس، انتهزتُ الفرصة، ونقلتُ عنوانه وتاريخ ميلاده ومكان صدور جواز سفره: أوسلو. بعد قليل أخبرتُ الإسبانيين في أي بيور يقيم النرويجي، قلتُ لهما أيضاً إني لمحته على شرفة كوخه، وإني أظن أنه يشعر بالوحدة. قلت ذلك بقصد فعل الخير.

إنما أحاول أن أبين للقارئ أن بعض ما حصل في ماراڤو، في أيام كانون الثاني تلك، لم يحصل من تلقاء ذاته. ومع ذلك، لا أقول إني كنت أتسلى لحسابي الخاص. الأصحُّ أني سيّرتُ بعض الأمور من وراء الكواليس، وسرّعت

عملية تعارف كان يمكن، لولا ذلك، أن تستغرق أسبوعاً كاملاً.

أنا الذي سرّب لآنا وخوسيه أن فرانك قد يشغل مكان الهولندي في لعبة الورق. هذا أولاً، وقد فعلته من أجل خاطر آنا. وثانياً أنا الذي أشار لهما، بعد الإفطار، إلى موقع كوخ النرويجي. اقترحتُ عليهما، ثالثاً، أن نحاول دفع عالم الأحياء التطوري إلى أن يحدثنا عن وضع علمه اليوم، أي بعد قرابة 150 عاماً من أصل الأنواع لداروين. رأيتُ أن هذه فرصة لا يجوز أن تُهدر. في الليلة السابقة، توافقنا، خوسيه وأنا، على نظرية ذكية تنص على أن الإنسان الحديث يشكو من عَوَزٍ شديد إلى ما ارتأينا أن نسميه «التخيل المعرفي».

إذا قُيِّض للرسالة إلى ڤيرا ـ بما فيها الملحق ـ أن تنتهي في كبسولة زمنية توضع على خط تعاقب الأيام، سأجد نفسي متَّهماً طوال ألف عام بتلك الحيل، وسيكون مكان محاكمتي قد شُيّد واكتمل. غير أن تلك الاتهامات ستكون قد سقطت بالتقادم، بما فيها تلك المتعلقة بما فعلتُه في إشبيلية بعد عام من حيلي في تاڤوني. إذْ لمَّا تكتملْ قصة آنا وخوسيه، ولا كذلك حكاية فرانك وڤيرا.

قد ألتمس بعض العزاء من حقيقة أن كل ما نفعله، كائناً ما يكون، سرعان ما يسقط في النسيان. وأنت يا من يقرأ هذا خلال ألف عام، أتوجه إليك برجاء واحد: ألّا تغرق قصة آنا في جلبة بداية ألفية جديدة.

قرأت، قبل بعض الوقت، في **الديلي تلغراف** عن «نصب الألفية» الذي سيشاد في تاڤوني. مقابل خمسمئة دولار يمكن لكل راغب أن يخطَّ تحياته للألفية الرابعة، ويضعها في كبسولة زجاجية. وستوضع الكبسولة في جوف في قرميدة، تُخْتم وتُستخدَم في بناء النصب. خلال الألفية القادمة ستتولى مؤسسةٌ خاصة العنايةَ بالجدار، وستتعهد بأن تفتح كبسولتك الزمنية عام 3000 .

ستنقضي أعوام ألف، وعندها ستُقرأ قصة آنا ماريا مايا حيث يقطع خط الطول 180 درجة تاڤوني. كلما حاولت تكوين صورة ذهنية عن الواقفين على خط تعاقب الأيام بعد ألف عام، اقتحمت خيالي صورة قزم يعتلي قمة النصب، ويقرأ هذه السطور.

تبتدئ الرسالة إلى ڤيرا بصورة غنية بالتفاصيل، يرسمها فرانك عن الجزيرة التي قَدِمَ إليها. يصعب عليَّ أن أفهم كيف تدبر الوقت لكتابتها. أعني أنه مقيم في غرفة فندق في مدريد، وأمامه يومان فحسب لإخبار ڤيرا بقصة آنا وخوسيه، ومع ذلك يُبدِّد الوقت في أحاديث مسهبة عن الضفادع والخفافيش!

لا أعرف شيئاً عن سعة هذه الكبسولات الزمنية التي يشتريها المرء بخمسمئة دولار، كل ما أعرفه أنها يمكن أن تُحْشر في جوف قرميدة. فإذا لم تتسع رسالتي المُكَبْسَلة إلى المستقبل لكل ما كتبه فرانك، فسأشق منها صفحات متناثرة. من ناحية أخرى، حين تُقرأ الرسالة إلى ڤيرا في تاڤوني يوم 1 كانون الثاني عام 3000 ـ وسأفعل كل ما بوسعي لتأمين وصولها إلى ذلك اليوم ـ ستتاح لأحفادنا فرصة تكوين فكرة شاملة عن أحوال «الجزيرة الجنة» قبل ألف سنة. يا للحمقى المساكين! لربما سيشعرون بالكراهية نحونا. أشك أن تبقى اليمامة البرتقالية لتقوم بطيرانها الصباحي فوق بحيرة تاجيموشيا. أشك أن يبقى شيء من الغابات المطيرة. لهذا، لم أمزق بعد شيئاً من الصفحات التي كتبها فرانك عن الحياة الطبيعية في تاڤوني. لكن إن لم يكن من الأسوأ بدٌّ، فسأتدبر أمري بوضع قرص حاسوبي في القرميدة المختومة. لكن هل سيكون هذا القرص ملائماً تكنولوجياً بعد ألف سنة من الآن؟ لكي يكون البريد مضموناً، سأتدبر وضع نسخة مطبوعة من المانيفِستو في الكبسولة، فهي لن تشغل حيزاً كبيراً.

بين وقت وآخر، وفي المناسبات النادرة التي ساءَلتُ فيها نفسي عما كان يمكن أن يحدث لو أن ڤيرا تلقت، فعلاً، تلك الرسالة من فرانك، أشعر بخلجة في عمودي الفقري. ومع ذلك، سأعمل على أن تقرأها ڤيرا حين أنتهي من إضافة الملحق لها. قد تساعدها قراءَة الكل على فهم ما حصل في إشبيلية. فإذا أصرّت على أن تتاح قصة آنا لجميع الناس، فقد يتعين عليّ عندئذٍ التخلي عن فكرة الكبسولة الزمنية. إذ لاجدوى من وضع نص مكتوب، لمدة ألف سنة، في كبسولة زمنية، إن كان هذا النص مُتداولاً بين الناس أصلاً. فمن حق البشرية وحدها أن تقرر ما الذي يُورّث لذريتنا من بعدنا، وما الذي يُتعهَّد به للنسيان. إن خطى الإنسان مصحوبة على الدوام بأصداء أصوات كثيرة، أصوات

لاتحصى عداً. وَلَـكُنّا في وضع لا يطاقُ لو أننا نسمع أصوات الأجيال السابقة جميعاً، لو شكلت كل تلك الأصوات خلفية لفظية هائلة لأفعالنا.

كنت أنا من ابتدأ الحديث مع فرانك عن الوزغات. افترضتُ أن نفوري منها، أو على الأقل نفوري من التّماس الجسدي معها، أثناء النوم مثلاً، أكبر من نفوره هو. تصورتُ أن فرانك الذي قدم نفسه خبيراً في مخلوقات كهذه، قد يطيّب الخاطر ببضع كلمات عن التعايش السلمي بين الإنسان والزواحف، حتى لو كان الإنسان إنكليزياً نَكِداً مثلي. بدلاً من ذلك، تكوّن لدي انطباع بأنه كان يُفضِّل غرفته خالية من الوزغات، رغم أنه لم يكشف عن سبب هذا التفضيل. ذكر لي أنه رأى أبو بريصاً واحداً فقط، وأنه كان حريصاً على إقفال الباب وراءه كيلا يدخل البعوض إلى الغرفة، وهذا ما لم أشغل بالي به على الإطلاق. أبو بريص الذي تحدث عنه فرانك هو الذي سُمِّي غوردون تيمّناً باسم المشروب الكحولي اللندني الشهير والعزيز على قلبي، العزيز جداً إلى درجة أن شيلا لم تكف يوماً عن التذمر منه. وحتى اليوم، لا أزال، حين أرفع غطاء تلك المادة ـ خاصة غطاء زجاجة جديدة ـ أشعر كأن شيلا تراقبني.

لم يكن فرانك مجرد رجل يبهظه الأسى بسبب ضآلة فُرص البقاء والشجاعة الوجودية؛ كان، أيضاً، رجلاً يسمع، دائماً، أصواتاً في رأسه.

أنا بدوري أسمع أصواتاً تطن في رأسي، خاصة مذ ماتت شيلا. هكذا استطعت عقد أحاديث مطولة معها، ولست متأكداً كم من هذه الأحاديث جرت بصوتٍ عالٍ، وكم منها جرى في ذهني فقط. لكنني أعرف أني أتحدث بصوت عالٍ أحياناً، وأنها ترد عليّ بصوت الغياب.

وحتى حين كانت شيلا على قيد الحياة، كان الحديث معها شفافاً الشفافية كلها. كنت أعرف، حين أعبّر عن رأيي في أمر ما، ما ستقوله؛ لم أكن أعرف مضمون رأيها حول هذه القضية أو تلك فحسب، بل كنت أعرفه كلمة كلمة. كنا نعرف بعضنا معرفة مطلقة لاتترك مكاناً لمفاجأة.

أعتقد أن كل شخص يتميز بطرق خاصة في التعبير، ولعل اختيارنا لبعض العبارات هو من الخصائص الشخصية جداً لكل منا؛ من العبارات المميزة مثلاً «يعني بالضبط»، «طبعاً، بطبيعة الحال»، «أنا قصدي يعني»، «كان هذا رأيي دائماً»، «إن دل هذا على شيء»، وما إليها. حين أكون بين الناس، كثيراً ما تقر في ذهني نُتَفٌ من جُملٍ خاصة بشيلا، فتبقيها قريبة مني بطريقة ما. وحين كان يستفزني شيء قالته شيلا، كنت أرد عليها بصوتٍ عالٍ، وخاصة حين أعرف سلفاً أنها ستقول شيئاً يثير أعصابي. على هذا الصعيد، لم تتغير حياتي تغيراً حاداً بعد وفاتها. الآن، ومهما بدا ذلك غريباً في مثل سني، أفتقد جسدها. أما ما بقي من حياتنا المشتركة فقد ظل سليماً لم يُمس؛ وما ذلك لمجرد أننا لانزال نتجاذب أطراف الحديث، بل بفضل ذكرياتنا الكثيرة المشتركة، ولشيلا موقعها المركزي في تلك الذكريات بالطبع. أحياناً أشتاق حتى إلى طلبها أن أخلط لها الورق.

كانت شيلا تلعب السوليتير دائماً. ولمّا كانت صبية، كان لعب الورق هو إحدى الميزات التي جعلتني أقع في حبها. في السنوات التالية، كرهتُها أحياناً بسبب هذه الميزة بالضبط. كرهتُ جلوسها ساعات أمام الموقد، وهي تبدد أمسية كاملة في لعب السوليتير. أذكر أني قلت لها مرة إن لعب الورق تزجية حمقاء للوقت. لشدّ ما جرحها وآذى مشاعرها هذا الكلام! أحياناً كنت أغضب إذ أجدها تُنقّل الأوراق كي يفتح الفأل. ومع ذلك أفتقدها الآن ـ الآن وقد ذهبت ـ وأشتاق إلى ذات الشيء الذي اعتدت أن أكرهها بسببه. وهكذا استدارت الحلقة، الحلقة غير المفرغة، وتَمّتْ. كم من السهل أن تحب إنساناً بعيداً لاتطاله عينك، أكثر من إنسان قريب يستحيل عليك الابتعاد عنه!

اتهمني أحد الجيران مرتين بالتحدث إلى نفسي. هو جار ساذج يسهل خداعه. يسرني أنه لم يسمع، حتى الآن، ما تقوله شيلا. لكن سيأتي يوم لن أستطيع فيه استبقاء كلمات شيلا لي وحدي. أعلم أني أزداد هرماً. أعلم أيضاً أني، منذ الآن، أُبدي درجة مما قد أسميه بالسّلس اللفظي. قد ينفلت هذا السلس ويتحول إلى إسهال.

ليس ثمة ما أخجل منه مادامت الأصوات تبقى حبيسة رأسي. لم أشعر قط بالذنب تجاه شيلا لأني لم أكف عن التحدث إليها يوماً. لكن هذا بالذات ما قد يقودني إلى سوء المآل. تركتْ شيلا خلفها طنين كلماتها: «جون، الشاي جاهز. هل ستأتي فوراً؟» «هل يعقل أن ترتدي هذا الطقم؟ قلتُ لك أن تأخذه إلى الغسّالة منذ شهرين». «أقترحُ أن ندعو جيرمي ومارغريت ذات مساء. لم يزورانا منذ عصور!».

لن أتعمق في التعليق على وصف فرانك للقمة الاستوائية التي أدرتُها بجسارة مخجلة. أظن أنه رسم صورة إجمالية صحيحة لسير أحاديثنا. ثمة نقطة هامة واحدة من رواية فرانك تحتاج مني إلى شيء من التلوين.

يقول فرانك إن آنا لخصت مفهومها للواقع في ثلاث نقاط. فقد قالت أولاً: «ثمة واقع يسمو على الواقع الذي نعيش فيه. لن أموت حين أموت. ستعتقدون جميعاً أني ميتة، لكني لن أكون كذلك. سرعان ما سنلتقي ثانية في مكان آخر». ثم قالت: «ستظنون أنكم في مأتم، لكن ستكونون في الحقيقة شهوداً على ميلاد جديد». وأخيراً قالت: «ثمة ما يسمو على ما نحن فيه. ما نحن هنا إلا أطياف عابرة».

لقد عبّرت آنا عن معانٍ من هذا النوع بالفعل. لن أجادل في ذلك، رغم أنه يستحيل أن أتذكر، حرفياً، الكلمات التي قيلت منذ أكثر من سنة. لكن شاءت الظروف أن أضطر إلى لفت النظر إلى أن صديقنا الطيب فرانك يبالغ في إبراز الربط بين نظرة آنا الثنوية للحياة، وبين حياتها هي وموتها هي ودفنها هي. استخدمتْ تعابير عامة جداً حين عبرت عن إيمانها بواقع يسمو على هذا الواقع، ووجودٍ تالٍ لحياتنا الحاضرة. جاء كلامها تعليقاً على موضوع تطرقنا إليه، لورا وأنا. أذكر ذلك لأني لم أنسَ أنها قالت: «ربما نلتقي ثانيّة في مكان آخر ونتذكر جلستنا هذه كحلم».

لو لم ألتقِ فرانك في مدريد بعد ذلك ببضعة أشهر، لما تعين عليّ أن أُخْضِعَ الرسالة إلى ڤيرا إلى تدقيقاتي هذه. غير أنه قُيّض لكلمات آنا أن تحوز

أهمية تفوق ما كان في مقدور أي منا أن يخمن. أعتقد أيضاً، وفي هذه النقطة أشترك مع فرانك، أنها بالغت في المقارنة بين المأتم والميلاد. عدا ما سبق، لا أؤكد إلا أن خوسيه سفح دمعة حين كانت آنا تتكلم، ولا أظن سبب الدمعة وقوع شيء ما في عينه. تساءلتُ فيما بعد عن الصلة المحتملة بين دموع خوسيه والهجمة التي أصيبت بها آنا بعد القمة بيوم ونصف.

فرانك صادق في قوله إني انسحبت بعد أن غادر الإسبانيان، من ثمّ لا أعرف كم بقي هو بعدي. لكن لدي ما يبرّر الاعتقاد بأنه استسلم لإغواء الموقف الصوفي للورا تجاه الطبيعة، وهذا ما يبدو واضحاً من حديثه الليلي مع غوردون. يبدو لي أنه كان يعيش صراعاً داخلياً لتحرير نفسه من نظرة شديدة الميكانيكية إلى العالم. ولهذا لعل الآفاق العذبة التي كانت تُسَوِّقها تلك المرأة الشابة ذات الضفائر القاتمة والعينين مختلفتي الألوان، لعلّها مثّلت له إغراءً مرغوباً.

يروي فرانك في رسالته كيف غادر السهرة في الأمسية السابقة لرحيله. أذكر أني تابعت بعيني فرانك ولورا إلى أن جلسا على الشرفة. وقد يتعين عليَّ، من باب التزام الأمانة، أن أوضح أني لا أعرف ما حدث بعد ذلك؛ لا أعرف إلا ما ذكره فرانك في الرسالة إلى ڤيرا.

بدأت رحلة العودة بعد سفر فرانك بيوم، لكني، خلافاً له، سافرتُ غرباً نحو سيدني ومنها إلى سنغافورة فبانكوك قبل العودة إلى لندن. أتاحت لي هذه الرحلات الطويلة أول فرصة لوضع ما رأيته في ماراڤو ضمن منظورٍ متماسك.

ثم يجب أن أذكر المرة الثانية التي أصيبت آنا فيها بإغماءة مفاجئة بعد رحيل النرويجي. وقعت الواقعة في بستان النخل أمام المسبح بعد إبلاغي تحيات فرانك لهما مباشرة. استغرقت الهجمة دقيقتين، ومرة أخرى كان رد فعل خوسيه هو الهلع: قرص ذراعها وهتف باسمها مرات عديدة، وحاول رفع ساقيها وسندهما على جذع إحدى شجرات النخل. على الجذع لافتة تحذّر بوضوح من سقوط جوز الهند.

نقلتُ لهما قلق فرانك حول صحة آنا، وقلتُ إنه يرجو لها شفاء عاجلاً.

قلتُ أيضاً بضع كلمات عن حُبّه للفن الإسباني، وعن اعتباره ألبرادو أعظم مجموعة من أعمال الفن في العالم. ولعلي أضفتُ تعليقاً وجيزاً عن كون غويا هو الأقرب بين كبار الفنانين الإسبان إلى قلب النرويجي. لكنني لم أحظَ برد الفعل الذي توقعتُ. بدلاً منه غَضِبَ خوسيه، وقال: «لابأس، ولكن هل تمانع في تركنا بسلام لبعض الوقت؟».

بدت آنا أكثر تفهماً لمبادرتي في الحديث عن غويا، مع أنها هي التي وقعت على العشب قرب المسبح بعد ذلك بربع ساعة. اكتفيت أثناء العشاء بإيماءتين نحوهما، وكان عدد من النزلاء الجدد قد وصلوا إلى المنتجع.

لايقول فرانك شيئاً عما فعله في أوسلو في الفترة الممتدة حتى نهاية نيسان. إن كان قد قضاها في سوغنسڤين، فلا بد أن ارتقاء التل الأخير في طريق عودته من الجامعة كان مؤلماً. أما إذا كان يستخدم سيارة فلا يمكن أن يتجنب المرور، وربما بضع مرات في اليوم، في البقعة نفسها التي وقع فيها الحادث. لو كنتُ في مكانه لغيّرتُ المنزل لهذا السبب وحده. اعتدتُ في كرويدن، أن أسلك طرقاً جانبية طويلة، متفادياً السير أمام المشفى الذي قضت فيه شيلا أيامها الأخيرة.

نشترك، أنا وفرانك، بموقف التسليم إزاء الحياة. لكنني أشعر بالاستياء لأنه وڤيرا لايتبادلان الكلام. لقد فقدا طفلاً، لكن ذاك الطفل كان يخصهما، هما الاثنين، يوماً.

لم نرزق بأطفال أنا وشيلا، رغم أننا بذلنا جهدنا طوال سنين. كان لديها السوليتير، ولديّ أنا رواياتي.

بيّنتُ لكم، فيما سبق، أن معظم ما وصفه فرانك في فيجي مبني على حوادث واقعية.

إن كان لدي فلسفة أدبية فهي تقوم على التالي: أبني أعمالي على

حوادث واقعية قدر المستطاع. غير أنه ليس في وسع المرء نبش المعطيات عن كل شيء. وإنما في هذه المساحات الرمادية، التي لاتسعفها المعطيات الواقعية، يمسك الخيال بالزمام ويمضي طليقاً. أما فيما يخص القضايا التاريخية ـ مثل موديلات غويا، مجموعة مانويل غودوي الفنية، أو رواد فن الفلامنكو ـ فالحدود القاسرة هنا هي حدود معطيات البحث التاريخي. ويجب أن أضيف، من ناحية أخرى، أنه من المباح للروائي أن يكشف عن مصدر لمّا يكتشفه المؤرخون المحترفون بعد. ليس هذا فحسب، بل قد يكون المؤلف الأدبي محظوظاً فيضع يده على مصادر بِكْرٍ يمكنها أن تلقي ضوءاً جديداً على الوقائع التاريخية. أُعلن في هذه المناسبة أنه تيسّرت لي بضع ضربات حظٍ من هذا النوع. وما توكيدي على هذه الحقيقة إلا لتوضيح أن معظم ما روي عما جرى في فيجي أو إسبانيا حقيقي تماماً.

وجدتُ الشبه بين آنا وماخا غويا مُحيِّراً. يقول دليل غويا الرسمي الذي يصدره متحف ألبرادو عن «**الماخا العارية**»: «هذه الصورة التي لايزال لغزها ينتظر الحل هي مثال عن الرسم المعتمد على الثقة والأمانة والسرية». يقول الدليل: «لايزال لغزها ينتظر الحل»، ولا يقول: «لن يحلّ لغزها أبداً». لكنه يستخدم تعبير الأمانة وإغفال اسم الموديل. انقضى قرنان تماماً منذ انتهى رسم اللوحة، ولايزال ثمة الكثير من الأدراج القديمة المغلقة في إسبانيا، في سان لوكار مثلاً؛ وقد يتكشف فتح هذه الأدراج عن معلومات مفيدة.

كان لقائي بفرانك في مدريد هو الذي أحدث فجوة مربكة في عملي. ففي منتصف الرواية ظهرت شخصيتها الرئيسية في فندق بالِس، أي في مسرح أحداث الرواية ذاته في الواقع. ولم أُقِم أنا في فندق النخبة الثرية ذاك إلا لأني صوّرتُ فرانك يقيم فيه أثناء كتابة رسالته الطويلة إلى ڤيرا.

في الأسبوع المنصرم، كنت متعجلاً للسفر إلى إشبيلية. أما الآن فأرى أن ذاك التعجل في غير محله. فهناك أيضاً حصل شيء غير مناسب إلى حدٍ ما لروايتي.

وجدتُني مضطراً إلى تجنب القداس ذاته، ولم يكن ذلك التجنّب ضمن

مخططي الأصلي. العكس هو الصحيح. فقد كنت متلهفاً، بعد أن ماتت آنا ماريا مايا إثر ملاحقتها للقزم، إلى وصف زمرةٍ من الغجر الحزانى.

ما الذي حدث إذن في إشبيلية؟

يحدث أحياناً أن حيواتنا، على رتابتها، استثنائية جداً إلى درجة أنه ما من خيالٍ فني يمكن أن يتفوق عليها.

لمّا نزلت إلى البار في فندق بالس، وجدتُ فرانك هناك وأمامه كأس من البيرة. كنا في أواسط تشرين الثاني، أي بعد قرابة عام من تعارفنا في فيجي. وكانت الصورةُ التي كوّنتها عنه في المطار الصغير لاتزال نضرةً في ذاكرتي، حين أخذته مع الأمريكيين إلى المنتجع: صورة رجل ميالٍ إلى الاكتئاب.

ها قد مرت ستة أشهر منذ أن أقام في فندق هوتل بالِس يكتب رسالته الطويلة إلى ڤيرا، أو - إن شئنا الوضوح - منذ أن تخيلتُه مقيماً في الفندق، يكتب رسالته الطويلة إلى ڤيرا، بعد أن التقاها في مؤتمرٍ في سلمنكا. فقد صار من الضروري أن نفصل بين القصتين من الآن فصاعداً. في تشرين الثاني 1998، كنتُ قد قطعتُ شوطاً لابأس به في كتابة الرسالة، لكنها لم تكن قد اكتملت بعدُ.

لم أضع في حسباني احتمال اللقاء بفرانك في الفندق نفسه. كنت أعرف أنه يعيش في أوسلو؛ وحتى لو كانت لديه علاقات إسبانية، فإن احتمال مصادفته في مدريد مستبعد تماماً. ولم يكن فرانك هو من أشار عليّ بالإقامة في فندق بالِس؛ إنها نصيحة كريس بات، أمين المكتبة الجديدة في كرويدن.

ابتسم النرويجي مرحّباً حين جلستُ، ثم سحب من جيبه الداخلي قلم بيلوت أسود، وقال: «نسيتُ أن أعيده لك، ها هو ذا، تفضل!».

ضحكتُ، لكن ضحكتي كانت ذات حدين، لأني أنا الذي يجب أن أشكره في الواقع.

علّقتُ: «قلت لك أن تحتفظ به»، لكنني أخذت القلم رغم ذلك. فقد

اكتسب عندي قيمة عاطفية معينة. سألته: «كيف يسير العمل في تقريرك العلمي؟».

«لابأس، يكاد يكون جاهزاً. وماذا عن روايتك؟».

«لابأس أيضاً».

«هل أنت في عطلة في إسبانيا؟».

لم يأتني السؤال على غير توقع بالطبع.

«ليس تماماً».

«لعلك تقوم ببحثٍ ما؟».

«بمعنى ما، نعم».

«تكتب عن شأنٍ إسباني ما؟».

وضعت إصبعاً على شفتي، وقلت: «لا أتحدث أبداً عما أقوم بكتابته. وأنت؟».

«لا مانع عندي من الحديث عن التقرير».

«أعني ما الذي تفعله في مدريد؟».

ولمّا لم يجب مباشرة، أضفتُ: «هل أنت في زيارة إلى فيرا؟».

«فيرا تعيش في برشلونة».

«آه، نعم. أظن أنك ذكرت لي ذلك قبلاً. هل التقيتها في المؤتمر في سلمنكا؟».

بإيماءة سريعة قال نعم.

«غير أنكما لم تتواصلا كثيراً؟».

«سنرى»، كان كل ما قاله.

«نعم، سنرى»، كررتُ كلمته، ثم تساءلتُ: «لم تكن هي التي تناولتَ معها الغداء عصر هذا اليوم، أليس كذلك؟».

هز رأسه نافياً. كان من الواضح أنه يقلّب في ذهنه ما كنا نتحدث عنه.

«تناولتُ الغداء مع صديقة قديمة من أيام الجامعة. لقد درست فترة من عمري في مدريد».

«وأنت هنا الآن في فترة راحة قصيرة؟».

أخذ يتلوّى متبرماً في كرسيه، لكنه قال: «ارتجلتُ لنفسي عطلة نهاية أسبوع طويلة. قضيت هنا سنوات عديدة حين كنت صبياً. كان أبي مراسلاً صحافياً عمل أربع سنوات في إسبانيا. ثمة ما يجذبني على الدوام إلى هذا البلد».

«ربما تساهم ڤيرا في الجذب أيضاً؟ ألن تتواصل معها؟».

كان قد سايرني حتى هذه النقطة، لكنه توقف هنا. ابتسم وقال: «ألا ترى أن الأمر أصبح أشبه باستجواب؟».

آ، نعم. لقد اتخذ شكل استجواب حقاً. لكن عليّ أن أستكشف موطئ قدمي. عليّ أيضاً، إن استطعت، أن أكتشف إن كان في جدولِهِ يوم بلا عمل. سلكتُ طريقاً غير مباشر:

«هل زرت متحف ألبرادو؟».

هنا أشرق وجهه، ولا أظن أن السبب الوحيد لذلك هو تغيير الموضوع. قال: «الواقع أني كنت أفكر في زيارته غداً. يمكن أن نذهب معاً إن كان لديك وقت. ثمة صورتان سيسرني أن أريكهما».

صورتان إذن! سألته: «لغويا أم فيلاسكيز؟».

بدا كأنه يفشي سراً حين قال: «لغويا».

«وما هما هاتان الصورتان بالتحديد؟».

ألقى نظرة مباشرة في عيني، ورأيت حدقتيه تتوسعان انفعالاً. قال: «يجب أن تراهما. أعتقد أني سأستمتع برؤية وجهك حين تكتشفهما».

ارتسمت على وجهه تعابير تقارب الفخر كأن مأثرة اكتشاف ما سيكشف عنه هي مأثرته هو. ثم فجأة بدا عليه الاحتراس: «أم لعلك تعرف ما أشير إليه؟».

بالطبع لم أكن خالي الذهن من أية فكرة عن الصورتين اللتين يريد أن يريني إياهما في ألبرادو. حين كنا في تاڤوني، أنا الذي كان سبّاقاً إلى الإشارة إليهما. تمكنتُ هناك من استعارة حاسوب ومودم من جوشن كيس، وخلال

دقائق فقط وجدت أمامي صوراً واضحة لأهم أعمال غويا. حين ظهرت الصورتان على شاشة الحاسوب، بلغ من ذهولي أني أوشكت أن أندفع بلباسي الداخلي عبر بستان النخل، وأصرخُ: «أوريكا!»(*) لكنني أمسكت نفسي، وبدلاً من الخروج مع صيحة النصر تلك، بحثتُ في صفحات الشبكة عن معلومات حول الفلامنكو في إشبيلية. لم يمض وقت طويل حتى اكتشفتُ أن آنا راقصة فلامنكو معروفة، وأن اسمها آنا ماريا مايا. بعد ذلك أخذت الأمور تسير من تلقاء نفسها. أليس من الغريب مثلاً أن تبدأ لورا بالحديث عن المفهوم الهندي القديم للمايا في ذات اليوم الذي اكتشفتُ فيه أنا أن مايا هي كنية آنا؟ ثم إني استسلمت لإغراء وضع إصبعي على جبينها وتسميتها باسمها. بل ذهبت أبعد من ذلك حين وصفتها بأنها «عمل فني رائع». وكانت النتيجة كما وصفها فرانك تماماً في رسالته إلى ڤيرا. لا بُدّ أن آنا التي كانت تشبه ماخا غويا شبهاً مطلقاً قد فُطِمت على النظر المستمر إلى تلك الصورة، ولعله لهذا السبب ردّ خوسيه بحدة حين كشفتُ عن اسمها. منذ تلك الواقعة ثابرا على الابتعاد عنا. ثم أصيبتْ آنا بنوبتها الأولى، ولحِقتها نوبة ثانية بعد رحيل فرانك. ابتدأتُ وقتها أتساءل عما إذا كانت مصابة بمرض خطير.

قلت متظاهراً إني لا أعرف عمّ يتحدث: «ثمة عدد كبير من أعمال غويا في ألبرادو».

تنفس فرانك الصعداء، وقال: «أعتقد أنك ستصاب بالذهول».

تواصل حديثنا برهة. كنا نلف وندور حول الموضوع، وليته كان ذات الموضوع! قررتُ أخيراً أن أطرق موضوعي مباشرة. قلتُ: «أنا ذاهب غداً إلى إشبيلية. الحقيقة أني عدت منها قبل أسبوع من الآن. لكني سأذهب مرة أخرى غداً، وأقضي فيها عطلة نهاية الأسبوع قبل العودة إلى إنكلترا».

«سلّم لي على أشجار البرتقال، بلّغها تحياتي».

«أعدك أني سأفعل».

(*) أوريكا: وجدتُها باليونانية. يُفترض أن أرخميدس خرج عارياً من حمامه وصرخ بهذه الكلمة حين اكتشف قانون إزاحة السوائل. (م).

لاعلم لي إن كان قد ذهب إلى هناك يوماً. لكنه قال: «لابد أن الطبيعة رائعة في الأندلس في هذا الوقت من السنة».

ممتاز! الآن بالذات يجب أن أبدأ العمل.

نظرتُ في عينيه البنيتين، وقلت: «ألا تود الذهاب معي إذن؟».

نظر إليّ باضطراب. بدا كأنه يفكر: ما موضوع كل هذا اللف والدوران؟

«ثمة شيء أحب أن تشاهده هناك».

أطلق ضحكة عالية، وسأل: «وما تُراه هذا الشيء؟».

وضعت إصبعي على شفتي مرة أخرى، وقلت: «يجب أن تراه بنفسك يا فرانك».

إذن فقد تعادلنا واحداً لواحد: كل منا يريد أن يُريَ الآخر شيئاً. نظر فرانك إلى ساعته، ومرة أخرى تململ بقلق في جلسته. قال: «لا أظنني سأذهب. لا الوقت ولا المال كافيان لدي».

شعرت أني أوقعته في الفخ. قلت: «سأتولى أنا المصاريف. هذه ليست مشكلة».

قال: «إن شئت الصدق، كنت أنوي السفر إلى أوسلو عن طريق برشلونه وما كان عليّ إلا أن أتصل بالهاتف أولاً، وتعرف كيف... تخليتُ عن الفكرة كلها في آخر لحظة».

قلت له مطمئناً: «يمكنك فعل الأمرين معاً. تقضي أولاً يوماً أو يومين في إشبيلية. ثم تطير إلى أوسلو عبر برشلونة. قد تكتسب سُمرة جذابة من شمس إشبيلية. وهذا شيء يلفت نظر الناس».

طلب النرويجي كأساً آخر من البيرة وأخذ يقلب اقتراحي في فكره. أثناء انشغاله بالتفكير رميتُ هذا التعليق بأسلوب عارض: «أعدك أنك لن تهدر وقتك. أظن أنك ستُدهش».

اتخذت ملامح وجهه تعبيراً ساخراً، تعبيراً لاشك أنه ارتسم على محياه بسبب تقليدي لكلامه قبل قليل.

«أم تُراك تعرف ما الذي أخطط له؟».

ابتسم ابتسامة عريضة، لكنه هز رأسه بالنفي. أردفتُ: «سيكون مشهداً رائعاً، وسأشعر بالدهشة إن لم يكن من أجمل ما شاهدته في حياتك كلها».

حرك كتفيه وبدا هنا، هنا بالذات، كأنه استقر على القبول.

«متى تفكر بالذهاب؟».

«غداً صباحاً. تنطلق القطارات من محطة إيف كل ساعة تقريباً، ومن ثمَّ سنتناول الغداء في القطار».

عبّر عن التردد لحظة، ثم قال: «لابأس بالفكرة. الحقيقة أني لم أذهب أبداً إلى إشبيلية. لكن بالطبع لن أرضى أن تدفع عني».

«بل سترضى. لن يكون السفر متعة فحسب، بل قد يَثْبُتُ أنه عملية بحثٍ لا تقدر بثمن».

أطلق ضحكة أخرى من تلك الضحكات الصخّابة المميزة للاسكندنافيين. وقال: «آمل ألّا أكون أنا موضوع البحث».

أشعلتُ سيكارة. وقلت: «لاتقل ذلك. قد نتجاذب أطراف الحديث حول الزواحف وما شابه، أو حول الأنواع المهددة بالانقراض في أوقيانيا. أريد أن أوسِّع معلوماتي في هذه المجالات».

«طبعاً، سَلْ ما تشاء».

بقينا في البار حتى وقت متأخر من تلك الأمسية، وتداولنا قليلاً في قضايا علم الأحياء التطوري. سمعت أيضاً خلال جلستنا تلك القصة الكاملة للحادث المأساوي الذي أودى بابنته.

بعد عدة ساعات كنا على متن القطار المتجه إلى إشبيلية. أظنني رفعت الرهان كثيراً، ويجب أن أكون أميناً وأُقِرَّ أني شعرت بوقوعي في الفخ الذي نصبته لغيري. لكن العجلة كانت تتحرك ولم يعد للتراجع من سبيل.

حين توقف القطار في قرطبة، رفع فرانك رأسه وصَفَق جبينه كأنه تذكر فجأة شيئاً.

«لم أُرِك اللوحتين!».

لكنه رفض أن يخبرني أي لوحتين يعني. ظل يكرر أن عليّ رؤيتهما بنفسي.

كنت قد حجزت ثلاث غرف في فندق دونيا ماريا. تساءل فرانك عن السبب فقلت له إن إحدى الغرف مخصصة لواحد من أصدقائي، وإنه سيأتي في المساء. لم أكن واثقاً تماماً أن الغرفة الثالثة ستلزم. قلتُ إن عليه أن ينتظر حتى المساء ليشهد ما وعدته به من تجربة لا تُنسى. أما الآن فلدينا متسع من الوقت للتجوال في المدينة.

أخذتُهُ لمشاهدة الكاتدرائية وباتيو دو لوس نارانخوس. وبينما كنا نتمشى بمحاذاة صفوف أشجار البرتقال المنسّقة، المحملة في ذلك الوقت من السنة بالثمار الناضجة، أخبرني فرانك أن لورا أرسلت له صورة فوتوغرافية، التقطتها في تاڤوني، لليمامة النادرة ذات الصدر البرتقالي. استطرفتُ هذه المعلومة، ولا سيما أنه لا يعلم أني كتبتُ عن مغامرته الغرامية القصيرة مع لورا في الجزيرة الفيجية.

ذهبنا إلى أعلى لاجيرالدا، وكانت في الأصل مئذنة، قبل أن تُعدَّل وتتحول إلى برج كنيسة. من هناك، انبسط أمامنا منظر فسيح للمدينة البيضاء الممتدة على كلا ضفتي نهر غوادالكويڤير. عبرنا ساحة بلازا ڤيرجن دو لوس ريس المتميزة بصف طويل من العربات التي تجرها الأحصنة، ثم تابعنا طريقنا نحو البرك والنوافير المنعشة في حدائق الكازار. كانت أشجار النخل منتشرة في كل مكان؛ وكم هو غريب أن نتجول، أنا وفرانك، مرة أخرى في بستان نخل. فكأننا عدنا إلى ماراڤو.

بعد أن ارتدنا القسم الأقدم من الحدائق، سرنا، عبر بوابة بورتا دِل بريڤيليجيو، وتفرجنا على حديقة الشعراء الرومانسية ببركتيها المحاطتين بسياج شجري يرتفع ثلاثة أقدام عن الأرض. توقف فرانك فجأة، وهتف وهو يشهق: «جميل... جميل جداً هذا المكان».

لمحت في عينيه دموعاً فوضعت يدي على كتفه. لعله لم يصدق وجود كل هذا الجمال. أخذ يفرك عينيه، وربما لكي يغطي انفعاله، قال: «أعتقد أني اختبرتُ الآن رؤيا سبقية: كأني رأيت هذا المشهد من قبل».

صعدنا بعد ذلك فوق السور ذي المنصة المسقوفة للوقاية من الشمس، ثم جلسنا على مقعد في الساحة المحصّاة أمام بورتا دومارتشينا. كان الجو حاراً جداً، فذهبتُ إلى المقهى، وأتيتُ بما يُشرب.

قبل مضي وقت طويل على جلستنا، حصل شيء غريب، ولعله هنا ابتدأ كل شيء بمعنى من المعاني؛ وإن يكن، بمعان أخرى، قد ابتدأ في مدرسة الحضانة في أوسلو، في المطار الصغير في تاڤوني، عند جسر نهر التورمز، بين المقاصير البائسة في ميناء مرسيليا، في باريوتريانا على الضفة الغربية من نهر غوادالكويڤير، في ميناء قادش قبل أكثر من قرن من الآن، أو في المقام الريفي لدوقة ألبا في سان لوكار دوباراميدا، هذا من دون أن نذكر ما سينبسط أمام عيوننا هذه الليلة في إشبيلية.

من أجل منظور أوسع، أو منظورٍ مناسب، كان لا بُدّ من العودة إلى الحقبة الديڤونية، حين حَبَتْ البرمائيات الأولى على الأرض الجافة بأطرافها البدائية. لَكَم كانت متقدمة تلك الأطراف الأربعة!! لكن لم لانعود إلى الانفجار الكبير قبل خمسة عشر مليار عامٍ آن خُلِق الزمان والمكان؟ في يومٍ ما، كانت بذرة كل هذه الحكايات مطوية في نواةٍ ملتزةٍ، نواةِ قوةٍ خالقةٍ غير منفجرة.

الشيء الغريب الذي حدث هو التالي. فجأة هرول قزم عبر بوابة بورتا دومارتشينا. بدا بالزي الغريب الذي يرتديه كأنه أتى لتوه من كرنڤال ما. اتخذ موقعه أمامنا، ورازنا بنظرة حازمة. بعد لحظة أخرج كاميرا والتقط بضعَ صورٍ، لي في البداية، ثم لفرانك.

قال فرانك: «هل رأيت ذلك؟»

استدار القزم على عقبيه وابتعد عنا، وبعد نصف دقيقة كان يحدِّق بنا من

إحدى كِوى المنصة. ومرة أخرى، من هناك، وجه كاميرته نحونا، والتقط صورة أو صورتين.

قال فرانك: «يا له من شخص غريب!»، وعلّقت من جانبي: «سلوكه غريب حقاً».

لكن النرويجي لم يكتف بذلك، وثب عن مقعده وانطلق ملاحقاً القزم. كنت ألمحه عبر كوى السور وهو يجري فوق بوابة بورتا دِل بريفيليجيو. وحين عاد بعد دقائق، لم يكن بوسعه إلا أن يبسط يديه قائلاً: «اختفى كأن الأرض ابتلعته».

كانت الساعة هي الرابعة والنصف، واقترب موعد إغلاق حدائق الكازار. خرجنا منها ثانية إلى ساحة بلازا ڤيرجن دو لوس ريس، ثم اتجهنا عبر الأزقة الضيقة نحو حي سانتا كروز اليهودي، حيث استرقنا النظر إلى أفنية البيوت الظليلة، وإلى الحواجز الحديدية الغريبة للشرفات. وبما أني كنت هنا قبل أسبوع واحد، فقد كان في وسعي أن أخبر فرانك أن القضبان الحديدية التي تحمي النوافذ وأفنية البيوت جميعاً تقوم بوظيفة مزدوجة. فهي في المقام الأوّل تنمي البصر الخارجي والبصيرة الداخلية، وبالتالي تضمن بناء مجتمع شفّافٍ وتحدُّ من الجريمة. من ناحية أخرى، كانت تلك الحواجز الحديدية مغلقة دائماً، وبالتالي تضمن الأمان. في الأزمنة السالفة، كانت الفتيات العذارى يجلسن خلف تلك الحواجز، بينما يقف عشاقهن في الخارج، ويتهامس الطرفان كلاماً معسولاً طوال ساعات. أما إذا بلغ الهيام مستوى مُبرّحاً، فسيتعين على العاشق أن «يأكل الحديد». شرحت له أنهم يقضون معظم النصف الدافئ من السنة في أفنية البيوت، وحين تكون الشمس حادة يضعون ظُلّة واقية منها.

تناولنا بيرة في ساحة بلازا دو لا أليانزا، وتطلعنا إلى بوغانفيلية معترشة وافرة النماء تتسلق إحدى بواباتها. نَمَتْ خلف هذه البوابة شجرة نخل شامخة، وخلف هذه لمحنا لاجيرالدا من جديد. ومثل كل الساحات في الحي، كانت هذه الساحة محاطة بصف من أشجار البرتقال.

بعد ساعة اتجهنا إلى ساحة بلازا دونيا إلڤيرا المتميزة بمقاعد السيراميك الأنيقة، ومنها دخلنا في زقاق اسمه «سوسونا». قلتُ لفرانك إني سأكشف له عن سِرِّ سانتا كروز. خرجنا من الزقاق إلى ساحة صغيرة، كانت في الأصل فناء بيت. أشرتُ إلى رقاقة من السيراميك عليها صورة جمجمة بشرية. كانت الرقاقة ضمن جدار وتحتها نافذة، وقد كُتِبَ اسم سوسونا تحت صورة الجمجمة.

سألني النرويجي: «أهذا هو سر سانتا كروز؟».

أومأت برأسي أن نعم، وقلت:

«كانت سوسونا فتاة يهودية عاشت في القرن الخامس عشر، وكانت تحب في السر شاباً مسيحياً. في أحد الأيام، سمعت سوسونا عائلتها تخطط لتمرد دموي ضد الوجهاء المسيحيين في المدينة. كان حبيب سوسونا واحداً ممن تم التخطيط لقتلهم. ذهبت إليه وحذّرته من المؤامرة. وكانت النتيجة أن أُعْدِمَ أباها، ثم هجرها حبيبها في وقت لاحق. حين ماتت سوسونا بعد حياة بائسة، أوصت بأن يُقطع رأسها ويُعرَض على واجهة منزلها تحذيراً للآخرين. بقي رأسها معلقاً هناك حتى نهاية القرن الثامن عشر، وبعد ذلك عُلِّقت رقاقة السيراميك في مكانه».

كان ثمة شجرتا برتقال في الساحة. سألني فرانك كيف أميز البرتقال الحلو من المر. قلت إني لا أعرف، فقطعَ ورقة من إحدى الشجرتين، وكشف عن وجود وريقة صغيرة تحت غشاء الورقة الأم وعلى سويقتها نفسها؛ قال إن هذا يدل على البرتقال المر.

مشينا الطريق صعداً نحو ساحة بلازا دولوس ڤينيرابلز، المكان الذي كان فيه مشفى للكهنة المتقاعدين يوماً. كان في الساحة مطعمان وشجرتا برتقال. جلسنا حول إحدى الطاولات الخارجية وتناولنا شراب المانزيلا قبل أن نطلب العشاء. ابتدأنا بطرق موضوع تطوّر الحياة مرة أخرى، وأظن أن فرانك هو الذي فتح الحديث؛ لعله فعلَ ذلك تسديداً لما أنفقتُ من مالٍ على رحلتنا إلى إشبيلية. سبق لي أن أفدتُ من كثير من القضايا التي ناقشناها تلك الليلة. وإنما هناك حدّثني عن الطواطرة في نيوزيلاندة.

حتى اللحظة، كانت مصادفتي لفرانك في مدريد مصدر بهجة صافية لا كدر فيها. لكن اللحظة الحاسمة كانت تدنو، والساعة هنا تقارب التاسعة مساءً. دفعتُ الحساب وقدتُ فرانك عبر الأزقة الضيقة نحو ساحة بلازا سانتا كروز. أريته كم كنا قريبين من الجدار العالي الذي يفصلنا عن حدائق الكازار، وخاصة عن حديقة الشعراء.

قلتُ: «لا بُدَّ أن هناك غشاوة على عينيك».

لم يفهم قصدي، فطلبت منه أن يلقي نظرة فاحصة حوله. أشار إلى الصليب الحديدي الضخم في وسط الساحة، فحكيت له كيف أحرق الفرنسيون الكنيسة القديمة التي كانت قائمة هناك، والتي أعطتْ كلاً من الساحة والحي اسميهما. قمنا بدورة ونصف حول الساحة المحيطة بالصليب الباروكي. وفجأة لمح فرانك شيئاً. نظر إليَّ وعيناه تلمعان، ثم اختفى في تابلاو الفلامنكو المسمى لوس كالوس.

«كنت منشغل الذهن تماماً بلوحتي غويا»، هَتَف وهو يضرب جبينه، وأضاف: «نسيتُ تماماً أنها من أشهر راقصات الفلامنكو في إشبيلية!».

قرصْته من كتفه مداعباً.

قال: «سنستمتع كثيراً!»، لكنني لم أكن واثقاً من أنه لن يبلع كلماته فيما بعد.

كان بار الفلامنكو شبه خالٍ إلا من مجموعة من السيَّاح اليابانيين، جلسنا إلى طاولة حجزتُها قرب حلبة الرقص، وطلبت كأسين من البراندي. لم يقل فرانك شيئاً، اكتفى برفع كأسه مترقباً ما قد أقول.

سرعان ما ابتدأ العرض. تدافع أولاً ثلاثة رجال يرتدون بناطيل سوداء وقمصاناً بيضاء، تدافعوا نازلين الدرج المنحدر من شرفة تقع على الجهة الأخرى من الغرفة. شقوا طريقهم وسط النظارة، ثم اتخذوا موقعهم على الحلبة. كان أحدهم يحمل غيتاراً، أما الآخران، فلم يكن لديهما من الأدوات إلا صوتاهما الشجيان، والإيقاع الذي يدقَّانه بأصابعهما. أخذ الأوَّل يعزف على غيتاره فيما صاحباه يصفِّقان، ويطقطقان بأصابعهما.

ثم ظهرتْ؛ ظهرتْ رشيقة ومهيبة كأنها إلهة. نزلت آنا إلى الخشبة من دَرَجٍ دائري وسط التصفيق والهتاف الحماسيين لليابانيين. من الواضح أنهم عرفوها ومن أجلها قطعوا المسافات قادمين من طوكيو وكيوتو وأوساكا. كانت آنا ترتدي فستاناً أحمر وشالاً وردياً وحذاء أحمر لماعاً. أما شعرها الأسود فقد عُقِد ليأخذ شكل ذيل الفرس وزيّن بوردة.

همس فرانك حين خطت آنا على الخشبة: «آنا!».

أومأتُ وقلتُ: «آنا ماريا مايا».

«هل هذا اسمها؟».

أومأتُ بالإيجاب.

«مايا؟».

«ششش!».

بدأت آنا ترقص. كان رقصها نشطاً طليقاً، وأشد إتقاناً وإحكاماً مما رأيتُ في الأسبوع السابق. لفت نظري التباين الحاد بين تعبير الوجه الصارم المعبر عن التركيز، وحركات اليد السائلة، هذا دون ذكر حركات الأصابع الأنيقة التي ذكّرتني برقص المعابد الهندي الذي شهدتُه يوماً في أوريسا.

تلتْ هذه الرقصة فقرات أخرى من البرنامج مع راقصين آخرين، لكن آنا ماريا مايا كانت أسطع نجوم السهرة. رقصت آنا بذراعيها ويديها، بقدميها وأصابعها، ببطنها ووركيها. كانت فخورة، كانت صارمة، كانت لعوباً وكانت تذوب رقة وأنوثة. آنا هي أكثر ما رغبتُ أن يراه فرانك في إشبيلية. أردتُ أن أريه الاحتفال الباذخ السخي لأطراف الفقاري ما بعد الحيواني المرنة. ليت البرمائي الأصلي شهد هذا الاحتفال؛ ليته شهد نسل نسله ترقص الفلامنكو في إشبيلية، تستخدم كل أطراف رباعي الأطراف، كل عضلة وكل فقرة، وكل وصلات الدماغ العصبية المنظّمة. لكن تلك البرمائيات الأولى لم تكن تعرف شيئاً عن وجهة سيرها لحظة جرجرت نفسها، في الغسق الديفوني، عبر السراخس والطحالب، نحو مواعيد حبها الدورية قرب البرك والبحيرات الغنية

بالنباتات. كنا نشهد رقصة نصر فخورة، شامخة وغنية. من حق البرمائيات البدائية والبرمائي الأوّل أن تفخر بشراغيفها التي سرعان ما عمّرت بحيرات السرخس وبُرك الزلّ؛ من حقها أن تفخر لأن بذارها لم يضع هباء. لكن ما شهدناه لم يكن مجرد رقصة نصر، كان أيضاً تباريح الموت لفقاري عابر في هذا العالم؛ إذ سرعان ما انطلقت، بصوت عميق أجش آسر للسمع، أغنية، أغنية عن الحب والموت، عن الخداع والظلم.

ثم أخذ الجميع وقتاً للراحة، بعد التصفيق والهتاف تبعتْ آنا بقية المجموعة نحو شرفة المسرح. لكن في تلك اللحظة بالذات قدم خوسيه إلى طاولتنا. كان يحمل بين ذراعيه وليداً صغيراً. اتسعَت عينا فرانك دهشة حين رآه. كان للطفل شهران أو ثلاثة من العمر. قبل أن يرحب بخوسيه كما يليق، نظر فرانك إلى الرضيع ثم إلى خوسيه، وسأل: «أهو... طفلك؟».

صدرت عن خوسيه إيماءة فخورة، وقال مبتسماً: «هذا مانويل»، ثم جلس إلى طاولتنا.

وسرعان ما وصلت آنا وانضمت لنا.

«فرانك، رائع أن نراك! يا لها من مفاجأة؟».

لبث فرانك في مكانه مُتحجِّر الملامح.

سأل: «كم عمره؟» بدا أنه وجّه السؤال إلى نفسه بقدر ما وجهه إلى الأبوين السعيدين.

أجابت آنا: «عشرة أسابيع».

أخذ عالم الأحياء يعد على أصابعه: «هل كنتما تعلمان بمجيئه في تاڤوني؟».

بقي السؤال معلقاً في الهواء، لأنه، في هذه اللحظة بالذات، دخلتْ المكان امرأة أنيقة عريضة المنكبين، وقصدتْ طاولتنا. إنها ڤيرا. كان بطنها البارز يشير إلى حملٍ بقي من أَجَله شهران.

«ڤيرا؟».

للمرة الثانية ذلك اليوم، فَرَكَ فرانك عينيه وبدا مذهولاً. لعله اختبر هنا رؤية سبقية ثانية: فقد سبق له أن رأى ڤيرا بارزة البطن.

مالت ڤيرا نحوه وضمته إليها ضمة لقاء بعد افتراق. قلتُ: «بقي اسمها في دفتري منذ أن عدتُ من فيجي. اتصلتُ بها مرتين من مدريد بعد أن التقينا عصر أمس. ارتأيت أن نجتمع نحن الخمسة، أو نحن الستة أو السبعة. الليلة الماضية فقط دعوتُها إلى إشبيلية».

كنت أعرف أن فرانك لم يرَ ڤيرا منذ لقائهما في سلمنكا. استقرت نظرته الآن على بطنها الحامل، وحين رفع نظره، لمحتُ حزناً عميقاً في وجهه. حاول، بكل طاقته، أن يحافظ على رباطة جأشه وثبات نبرته وهو يشير إلى حالة ڤيرا ويقول بصوت ذابل: «تهانينا».

بعد لحظاتٍ، استدار نحوي وألقى عليّ نظراتٍ لائمة. لم أعرف إن كان السبب دعوتي للمرشحة للأمومة إلى إشبيلية، أم كتمي سر حملها عنه.

ابتسمتْ ڤيرا بارتباك. آلمني ارتباكها قليلاً، لأني أنا الذي وضعتها في هذا المأزق. لم تتح لها حتى فرصة الرد على تهاني فرانك، فهنا عاد عازف الغيتار، ومعه مُغنّون؛ شقوا طريقهم عبر المحل ثم صعدوا إلى الخشبة. وفقط بعد أن اتخذوا مواقعهم، خطت ملكة الفلامنكو نحو الخشبة. نزلت عبر الدرج الملتف كأنها إله في آلة(*).

كانت ڤيرا تجلس بيننا، أنا وفرانك؛ نقّلتْ بصرها بيننا، ثم همستْ: «يُخَيَّل إليّ أني رأيتها قبلاً».

رغم جُرحه النفسي، لم يتمالك فرانك نفسه من الابتسام. نظر نحوي. لاشك أننا نحن الاثنين كنا نستعيد الوقت الذي قضيناه في ماراڤو، وكلٌّ منا يحاول تذكر أين رأى آنا قبلاً.

(*) إله في آلة: حيلة مسرحية في المسرح اليوناني القديم. حين تبلغ عقدة المسرحية ذروتها كانوا يُنزلون، عبر سقف المسرح، ممثلاً يأخذ دور أحد آلهة اليونان القدماء، ليقوم بحل العقدة. م.

حوّل نظره نحو ڤيرا، وهنا، هنا فقط، قال: «فكري في ألبرادو».

«في ألبرادو؟».

«أو بغويا».

اتسعت عينا ڤيرا إلى آخرهما، ثم قالت بصوت عالٍ أخشى أنه سُمع في الخشبة: «الماخا العارية!».

هززنا رأسينا بفخرٍ كأننا أصحاب الفضل في عودة موديل غويا الملفّعة بالأساطير إلى التجسّد. وهكذا، أخيراً، لم يعد ثمة من سبب ليأخذني فرانك إلى ألبرادو.

همست ڤيرا: «إنها نسخة طبق الأصل عنها!».

«ششش!» قلتُ، وبدأ الرقص من جديد.

بعد ساعة ونصف انتهى العرض. كانت الساعة، إذ ذاك، قد بلغت الواحدة والنصف صباحاً. هنا بُسِطتْ لنا طاولة طويلة في البار، وعليها مشاريب التاباس والمانزيلا. بقي آنا وخوسيه في خلفية المشهد بينما سنحت لنا الفرصة، فرانك وڤيرا وأنا، لإيضاح موقفٍ في أمسّ الحاجة إلى إيضاح. شعرتُ أني مسؤول عن نتائج الوضع الذي تسببتُ فيه، ورأيتُ أيضاً أن الجلسة تحتاج إلى من يديرها.

قلت: «أرجو ألّا تخجلا من قول أي شيء. على كل حال، أنا الوحيد الذي يعرف خلفية الوضع الذي أنتما فيه من كلا جانبيه. هذا ما يقتضيه الحال حين لا يستطيع شخصان بالغان التحدث إلى بعضهما».

كانا متوترين، كأنهما تلميذان اقتيدا إلى مكتب مدير المدرسة الصارم. لن أنكر أني استمتعت بهذا الوضع الذي وجدت نفسي فيه.

«لعلك محق فيما قلتَ»، علّق فرانك.

من جديد أشار إلى بطن ڤيرا. وأضاف:

«لم تمضِ إلا بضعة أسابيع على آخر محادثة لنا بالهاتف، وكم كانت المحادثة لطيفة! أظن أنه لم يكن ثمة ما يمنعك من إخباري بأنك حامل».

هنا أصبحت ڤيرا شديدة الجدية. قالت معترفة: «كنت جبانة. لم أجرؤ».

نظر إليّ قبل أن يحوّل عينيه نحوها من جديد:

«افترض أن للطفل أباً».

«فرانك...».

«انقضت فترة انفصالنا على كل حال، ولم يعد الأمر يعنيني. أنت حرة أن تتزوجي ثانية».

حدّقتْ فيّ مندهشة، لكني لم أشأ مساعدتها من جديد. عليهما أن يتدبرا أمرهما بنفسيهما. اكتفيتُ بإيماءة من رأسي رداً على نظرتها.

أخذتْ يد فرانك بين يديها، لكنه سحبها بسرعة. نظرتْ إليه وعيناها تتوسلان إليه أن يفهم: «فرانك، إنه طفلك أنت».

لبضع لحظات أخذ وجهه لوناً ذكرني بوجه آنا حين وقعت مغشياً عليها على طاولة الفطور في تاڤوني. ثم التهبت وجنتاه وأخذ نفساً عميقاً. كدتُ أحس بضغط دمه يرتفع، وخشيتُ، لحظة، أن يصفعها. لكنه قال: «هذا مستحيل تماماً».

هزت ڤيرا رأسها وقالت: «ألا تستطيع العد؟».

«لكن... لكنكِ تمزحين!».

هنا أشرتُ للنادل أن يأتي لفرانك بكأس آخر من البراندي لتهدأ أعصابه.

الآن، بدأتْ ڤيرا تقوم بعملها: «يستحيل أن تكون قد نسيت الليلة التي قضيناها معاً في سلمنكا. لم تكن قد شربت كثيراً من الخمر».

استدار فرانك نحوي: «أتريد حقاً أن تسمع كل هذا؟».

«نعم»، كان جوابي الوجيز.

استطردتْ ڤيرا: «لا فرانك، لم أجرؤ أن أخبرك. كنا قطعنا على نفسينا

عهداً بألّا نعود إلى العيش معاً. ثم، ثم وجدنا نفسينا أمام باب غرفتي في الفندق. فإما أن تذهب إلى غرفتك، أو تدخل معي. كنا متفقين، كل الاتفاق، على أن ليلتنا تلك، أو ما سميناه بالفاصل الموسيقي، لن يعني بداية عودتنا إلى الحياة المشتركة. لن يعني العودة لأن ما بيننا قد انتهى».

قال فرانك مُقِرّاً بصحة كلامها: «هذا ما قلناه على الأقل».

«ثم طمأنتك إلى أنه لن يكون ثمة مشكلة حمل تلك الليلة. كانت فترة الأمان من دورتي الشهرية. وحين حملتُ رغم ذلك، فكرتُ بالطبع بسونيا. كنت واثقة من أني أريد الجنين، وعلى استعداد لأن أكون أماً وحيدة. بالطبع كنت سأخبرك بالأمر بعد الولادة مباشرة. لكن كان يجب أن أنتظر لأن الأمور قد تسوء من جديد، أعني... كنت سأترك لك أن تقرر درجة ارتباطك بالطفل. وهذا ما لاأزال أنوي فعله».

لم يحاول فرانك أن يخفي بكاءه. قال: «تابعي».

«ثم اتصل بي شخص يُدعى جون سبوك، وقال إنه كان معك في فيجي، وأنكما التقيتما ثانية على غير ميعاد في مدريد. قال أيضاً إنك قد تقضي نهاية هذا الأسبوع في إشبيلية، ودعاني إلى ما سماه «عرض القرن في الفلامنكو». ولم يكن يبالغُ، فهي خارقة حقاً. قدّرتُ أن قدومي قد يتيح لي الفرصة لشرح كل شيء. جرى اتصاله البارحة عصراً، لكنه اتصل ثانية عند منتصف الليل ليؤكد أنك في الطريق إلى إشبيلية. كان قد قطع لي هاتفياً تذكرة سفر من مطار برشلونة. قال أيضاً إنك لاتزال تحبني. ووبَّخني بقسوة على الطريقة التي تصرفنا بها، نحن الاثنين، بعد الحادثة».

لـمّا لم يُحرز جواباً على الفور، قالت: «فرانك هل تسامحني؟ حملي لا يربطك بأي قيد. ولكن هل تسامحني؟».

سألها، «إلى متى ستبقين هنا؟».

«لا أعرف. التاريخ المحدد على بطاقة العودة هو الثالثة والنصف من يوم الأحد. وأنتَ؟».

«لا أعرف، ربما حتى الاثنين».

إذن لايزالان في حاجة إلى وسيط. قلتُ: «يجب أن تبقيا هنا المدة ذاتها، وبعد ذلك تقرران العودة إلى أوسلو أو برشلونة. وإلا أعيدا لي كل ما أنفقته من مصاريف».

لم نستطع الاستمرار في المناقشة، إذ دُعينا، في تلك اللحظة، إلى طاولة كبيرة محمّلة بالصحون والكؤوس، بالتاباس والمانزيلا. ومع ذلك، لمحتُ فرانك يضع راحة يده اليمنى على بطن ڤيرا المستديرة ولمحت ڤيرا تضع يدها فوق يده.

ذكّرني ما رأيته بما قالته آنا في السيارة التي عادت بهم من خط تعاقب الأيام في ماراڤو، حسب ما ورد في رسالة فرانك: «في عتمة البطون المنتفخة، تسبح دائماً ملايين من شرانق وعي جديد كلياً بالعالم. ينسرب بنو الجن العزّل واحداً فواحداً حين ينضجون ويصيرون جاهزين للتنفس. ليس في وسعهم الآن تناول طعامٍ غير الحليب الجني الحلو الذي يتدفق من برعمين طريين في لحم الجن».

خطرت لي فكرة أخرى. حين عرضنا أفكارنا في بستان النخل في ماراڤو، عبّرت آنا عن إيمانها بوجود واقع يعلو على هذا الواقع: «قد نلتقي ثانية في مكانٍ آخر، ونتذكر جلستنا هذه كأنها حلم». لعله، إذن، يحق لي أن أمنح نفسي رُخصة أدبية وأسمح لفرانك بتطريز جملتها في نسيج رسالته الطويلة إلى ڤيرا. إذ ها نحن جميعاً هنا، وآنا ليست ميتة.

شربنا كثيراً من المانزيلا تلك الليلة، واستحضرنا العديد من الذكريات عن فيجي. بيننا الآن شخص لم يكن هناك هو ڤيرا، وهي تريد سماع كل ما يريد قوله أيٌّ منا. استمتعتْ غاية الاستمتاع بما حكيناه لها عن بيل ولورا، لكنني امتنعت عن إخبارها بأن فرانك ولورا ذهبا إلى كوخه، ومعهما زجاجة من الخمر سرقاها من الحفلة.

كان خوسيه وآنا قد سافرا إلى تاڤوني لصنع فيلم وثائقي عن القرن الحادي

والعشرين، وكان مقرراً تصوير أحد المشاهد على خط تعاقب الأيام في الجزيرة. نُفِّذ البرنامج منذ زمن بعيد وأذيع، وهنا أعطى خوسيه نسخة ڤيديو منه لفرانك. ذكرتْ آنا بفخرٍ أن الفيلم الفيجي تضمن مقابلة قصيرة مع فرانك تحدث فيها عن التنوع الحيوي، وعن الخطر الذي تتعرض له المواطن البيئية في أوقيانيا.

تحدثنا، فرانك وأنا، عن شعورنا المشترك بأنه سبق أن رأينا آنا قبل لقائنا بها في تاڤوني.

ضحكتْ آنا، وقالت: «آه، أرجوك ألّا تقول ذلك!».

أخفتْ وجهها بيديها وأضافتْ: «لو تعرفون كم أسمع هذا الكلام!».

رويتُ لهم كيف بحثتُ في الإنترنت ووجدت، في بضع دقائق، صورة واضحة كالكريستال لـ ماخا غويا. كذلك نبشتُ من الإنترنت معلومات عن البيلاورا الشهيرة آنا ماريا مايا.

علّق خوسيه: «ثم وضعتَ إصبعك على جبين آنا، وكشفتَ بطريقة غير مباشرة أنك وجدتَ مادة إنترنت عنها. ربطتُ أنا هذا التصرّف مع تكاثر إشاراتكما إلى أنكما رأيتماها قبلاً، وكنت أعرف كم تكره آنا أن تُعرف، سواء كـ بيلاورا من إشبيلية أو كشبيهة لـ ماخا غويا. أذكر أيضاً أنك قلتَ عن آنا إنها «عمل فني رائع». هذا رغم أننا كنا في آخر بلاد الله في فيجي. حتى الإنترنت يمكن أن يُساء استخدامه».

عاد فرانك إلى السؤال: «هل كنتما تعرفان أن آنا حامل؟».

هزّا رأسيهما بالنفي.

«ربما كان الحمل هو سبب إغمائها على طاولة الفطور!».

خوسيه هو الذي أجاب هنا: «نعم، أدركنا ذلك فيما بعد. ارتعبتُ حين أصيبتْ آنا بتلك الهجمة. خشيتُ أنها صدمةٌ تحسسيةٌ لأن آنا كانت دوماً حساسة للسعات الحشرات. لم أستطع أن أفكر وقتها تفكيراً عقلانياً، وظننت أن صفعة قوية قد ترفع مستوى الأدرنيالين في دمها».

هكذا مضينا نتجاذب أطراف الحديث، وكانت زجاجات الخمر تفرغ وتمتلئ من جديد. ولم يسْلم فرانك من الاتهام بأنه تلصص على آنا حين كانت تسبح عارية في شلالات بوما.

قال: «إنما هناك أدركتُ أني أعرف وجهكِ فحسب. لستُ مهووساً بالتلصص على العراة».

ضحكت آنا وقالت: «ازددتُ شبهاً بـ **ماخا** غويا في الأسابيع التالية لعودتنا من فيجي».

انفضّت السهرة عند الرابعة صباحاً، وكان عليّ أن أقود فرانك وڤيرا عبر الأزقة الضيقة إلى فندق دونيا ماريا. حين صادفنا البواب الليلي، قال إنه لم يأتِ أحدٌ يطالب بالغرفة الثالثة. هنا نظر فرانك وڤيرا إلى بعضهما، ربما فكرا في مشكلة مشابهة واجهاها خارج غرفة فندق في سلمنكا قبل ثلاثة أرباع عُمْرِ حملٍ من الآن. تبادلا النظرات وقتاً، ثم انفجرا ضاحكين.

قلتُ: «أظن أن الغرف تكفينا وتزيد. ولكن هل لك أن تأتيني بزوجة؟»

كان آخر ما قلتُه لفرانك، قبل أن ندخل غرفنا، هو أن على مكتبي في كرويدن، بطاقةٌ بريدية مدعوكة الأطراف، وعليها صورة لاساغرادا فاميليا، وأن عليّ ألا أنسى إرجاعها له.

كانت شمس الضحى تغمر المدينة حين انطلقنا، كأننا عائلة واحدة، في جولة طويلة صباح اليوم التالي. التقانا آنا وخوسيه، ومعهما مانويل في عربة أطفال مخططة بالأحمر والأسود، في فندق دونيا ماريا. عبرنا ساحة بلازا ڤيرجن دولوس ريس ثم تجاوزنا الأرشيفو دو إندياس نحو بورتا جيريز، وانحدرنا بعدها نحو باسيو دولاس دوليسياس الذي يوازي نهر غوادالكويڤير مسافة قبل أن يفضي بنا إلى متنزّه ماريا لويزا بارك، وهو أكبر الواحات الخضراء في إشبيلية. كان المتنزّه في الأصل مُلْكاً للأميرة ماريا لويزا، وقد تبرعت به للمدينة

عام 1893 ، وفي وقت لاحق صار موقعاً للمعرض الإيبيري الأمريكي عام 1929 . الآن يُعتبر متنزّه ماريا لويزا، بشبكة مماشيه المتداخلة، بظلاله الصيفية وأجنحته، بكهوفه وتلاله الاصطناعية، بزهوره وجنباته، بأيكاته الظليلة وأشجاره التي لاتحصى عدّاً، يعتبر واحداً من أنضر متنزهات أوروبا وأغناها بالخضرة.

كان أكثر ما استرعى انتباهنا من بين الأجنحة هو الجناح المبنيّ على طراز فن المايا المكسيكي. شرح لنا خوسيه أن ذلك الجناح قد استُخدم كمشفى توليد بعد المعرض العالمي، وهذا ما أثار اهتمام الأم الجديدة والأم المرشحة بيننا. أشار فرانك إلى أن «مايا» كلمةٌ استخدمها الهنود الآسيويون والأمريكيون على حد سواء، دون أن يكون ثمة أية صلة ألْسُنية بينهما. قال خوسيه إن حكم فرانك ينم على قدر من الجهل، وردّ عليه بأن كلمة «فلامنكو» الإسبانية تعني أيضاً طائر الفلامنغو من دون وجود أية رابطة اشتقاقية بينهما. تحدّث آنا وخوسيه عن الحج الذي قاما به يوماً إلى القديسين المريميين البحريين حيث رقصت آنا الفلامنكو أمام جمع كبير من الغجر توافد من كل أنحاء أوروبا. وفي الكارماراغ أتيحت لهما أيضاً فرصة مشاهدة طيور الفلامنغو في دلتا نهر الرون.

مشينا نحو ساحة بلازا دو أمريكا الواقعة أمام متحف الآثار. كانت الساحة ملأى باليمام الأبيض. اشترت آنا كيساً من الحبوب لإطعام الطيور، وسرعان ما احتجبت وراء غيمة من الأجنحة الخفاقة لذرية الديناصورات. وهنا ذَكّرَ فرانك، من جديد، الصورة التي التقطتها لورا لليمامة برتقالية الصدر، المستوطنة في فيجي.

ذهبنا من ساحة بلازا دو أمريكا إلى متنزّه الساحة نفسها. تبادل خوسيه وآنا دفع عربة الطفل، أما فرانك وڤيرا فقد كان كل منهما يبدي اهتماماً بالآخر أكثر حتى مما استطاع أي منهما أن يكتشف. فقد كان فرانك يرقب ڤيرا حين توجّه بصرها نحو اتجاه آخر، ولم تكف ڤيرا عن اختلاس نظرات جانبية إليه حين تكون نظراته متجهة نحو عربة الصغير أو نحو آنا وخوسيه. الشيء الوحيد الذي تجنباه هو تبادل النظرات وجهاً لوجه.

طلبتُ من آنا وخوسيه أن يحدثانا عن جذور الفلامنكو في الأندلس. تحدثا عن إلْ بلانيتا والـ أفيسيوتادو الشهير سيرافين إستيبانيز كالديرون الملقب بـ إلْ سوليتاريو. في كتاب «قصص أندلسية» الذي ينحدر من أواسط القرن التاسع عشر خطّ إلْ سوليتاريو عدداً من الرسوم الجميلة عن أوساط الفلامنكو في إشبيلية ذلك الزمن، وليس ورود اسمه أقل تواتراً في «أنْ بيلْ إنْ تريانا»، أي «احتفال في تريانا». يستحق إلْ سوليتاريو أن يعتبر أول الفلامنكولوجيين.

«هل قلتما إلْ بلانيتا (الكوكب) وإلْ سوليتاريو (المتوحّد)؟». تساءَل فرانك.

برأسها أومأت آنا إيماءة العارف. كان فرانك لامعاً حقاً في ربط تداعيات الكلمات.

قال: «هذا يذكرني بـ لورا. واظبتُ طوال الوقت على القراءة في كتاب «الكوكب الوحيد»».

«رائع»، قال خوسيه معترفاً حين التقط الترابط.

وقفنا نتابع بأنظارنا اللوحة التي دُوِّنت عليها كل أسماء الطيور المقيمة في المتنزّه؛ وأظن أن فرانك، هنا، ذكر القزم الغريب الذي رأيناه في حدائق الكازار.

ابتسمت آنا وقالت: «إنه يعيش هناك».

«يعيش هناك؟».

«حسناً، هذا ما يقوله الناس على أقل تقدير. يطوف حول الحدائق ويلتقط صوراً للسيّاح، ثم يبيعها بسعر باهظ على مخرج الحديقة. يقولون إنه يعيش في غاليريا ديل غروتسكو. إنه يعمل في الحدائق منذ بداية الزمن الذي تطاله ذاكرتي، ولا أحد يعرف كم يبلغ عمره».

خرجنا إلى ساحة بلازا دو إسبانيا التي بنيت من أجل المعرض الإيبيري الأمريكي الكبير. كانت الساحة الشبيهة بالمنجل محاطة بأقنية عليها جسور مستلهمة من طراز مثيلاتها في مدينة البندقية، كما شُيِّد فيها مبنى ضخم هلالي الشكل لاحتضان الصناعة والحِرَف الإسبانية في المعرض الدولي. هذا المبنى

المهيب الذي يواجه الشمس ونهر غوادالكويڤير، ينفصل عن الساحة بأربعة صفوف من الأعمدة، كلٌّ منها مكون من ثلاثة عشر عموداً مزدوجاً.

قطعنا واحداً من الجسور، وقادنا خوسيه وآنا نحو صف الأعمدة الواقع على اليسار. أشارا إلى أنه تحت كل من الدرابزينات ثمة لوحات فسيفسائية توضح الحوادث المهمة في تاريخ كل واحدة من المقاطعات الإسبانية، إضافة إلى خريطة لهذه المقاطعة وشعارات النبالة الخاصة بها. أخبرنا خوسيه أن هناك خمسين مقاطعة في إسبانيا، فضلاً عن المدينتين الإسبانيتين المستقلتين ذاتياً، سبتة ومليلة، في المغرب.

قال فرانك: «المجموع اثنتان وخمسون، أي عدد الدوائر الانتخابية نفسه في مجلس النواب الفيجي».

تحولت لعبة التداعيات هذه بين فرانك وخوسيه إلى مباراة. رد خوسيه: «وعدد أوراق اللعب نفسه. هزمناكم هزيمة ساحقة في البريدج».

ليس دونما سبب يَخصُّني وجدتُ كل هذا الحديث عن المايا وأوراق اللعب الاثنتين وخمسين ممتعاً جداً. وأظنُّ أني غلبتهم جميعاً حين قلت:

«والعدد نفسه في تقويم شعب المايا القديم. كانت السنة لديهم مؤلفة من 365 يوماً، لكن هناك أيضاً سنة طقسية تتكون من 260 يوماً. وهكذا، إذا حسبنا الأرقام نجد أن تقويمهم مكون من دورات مدة كل منها اثنتان وخمسون سنة».

نظرت آنا إليّ، فشعرتُ، مرة أخرى أني أرى **ماخا** غويا.

قالت: «أنت تمزح، أليس كذلك؟».

هززت رأسي نفياً وقلتُ:

«اثنتان وخمسون سنة فلكية تساوي 18980 يوماً، فإذا قسّمتِ هذا الرقم على 260 يوماً هي أيام التقويم الاحتفالي تحصلين على 73 سنة طقسية. كانت الأيام الـ 260 تقسّم أيضاً إلى ثلاثة عشر شهراً».

أما وقد تناولنا موضوع التقاويم والدورات الزمنية، أما وأن المنبر لي، فقد

استطردتُ قائلاً: «هل تذكرون كيف بدأ التخطيط للألفية الجديدة في فيجي؟».

علق خوسيه: «لهذا السبب كنا هناك. فعدا عن رقعة ضيقة من سيبيريا، فيجي هي الموقع الوحيد الذي يُنَصِّفه خط الطول 180 درجة. إنها المكان الوحيد على الأرض الذي تستطيع أن تعبر فيه من يوم إلى آخر من دون الحاجة إلى مزلجة ثلجية».

أومأت برأسي صابراً وهو يتحدث، ثم قلت: «لكن هل سمعتم آخر الأخبار؟».

هز خوسيه رأسه نفياً فقلت: «بسبب تعقيدات خط تعاقب الأيام، التعقيدات التي تخص تحديد بداية فصل الصيف وموعد شروق الشمس، نشأت منافسة شرسة بين عددٍ من جزر المحيط الهادي حول مَن مِن بينها ستدخل عام 2000 قبل غيرها. الحقيقة أن تافوني وحدها وجزيرتين فيجيتين أخريين هي التي تقع على خط الطول 180 درجة، لكنها قدمت ساعاتها ساعة كاملة لأول مرة، لا لشيء إلا لتهزم تونغا وجزيرة ليتْلْ بيتْ الصغيرة. لكن هذا ليس كل شيء...».

قال فرانك «حسناً، تابع. آمل أنهم لايخططون لبناء فندق فخم على خط تعاقب الأيام».

«كلا، ليس بعد. غير أنهم ينوون بناء «نُصب الألفية» على خط الطول 180 ، بالضبط في المكان الذي حاورتُ فيه آنا فرانك حول الأنواع الحيوانية المهددة بالانقراض في أوقيانيا. يستطيع كل من يرغب أن يضع كبسولة داخل هذا النصب، كبسولة لن تفتح قبل 1000 سنة من الآن. يمكن لكم أن تكتبوا تحياتكم إلى الألفية الرابعة وتضعوها في وعاء زجاجي، وسيكون هذا الوعاء على قياس جوف في قرميدة تُختم وتستخدم في تشييد النصب. تكلف كل كبسولة من هذه الكبسولات خمسمئة دولار فقط، وستشرف على الجدار هيئة خاصة طوال الألف سنة القادمة. تتعهد هذه الهيئة أن تُفتح

الكبسولات في احتفال خاص في عيد رأس السنة من العام 3000م».

قال خوسيه: «لا أعرف إن كان لديّ ما أقوله للألفية الرابعة. إنها بعيدة جداً عنا. ماذا عنك أنت؟».

قلتُ: «فكرتُ في إيداع مانيفِستو من القرن العشرين؟».

تساءل خوسيه: «مانيفِستو؟ بيان سياسي؟».

نفيتُ بهزة من رأسي، وقلت: «ألّفتُ نوعاً من خلاصة للقمة الاستوائية التي عقدناها في منتجع ماراڤو بلانتيشن ريزورت. ألا ترون أننا ندين لفيجي بترك خلاصة مقتضبة فيها عما فعلناه هناك؟».

ضحكوا.

وضّحتْ آنا أن المقاطعات الإسبانية قد عُرضت حسب الترتيب الأبجدي من ألاڤا إلى ساراغوسا. وحين اقتربنا من صف الأعمدة أشارت إلى الدرابزون وكرّت عن ظهر قلب: «آلاڤا، البسيط، إليكانتي، ألمريا، أڤيلا...».

قاطعتها ڤيرا: «حُمِل بي في ألمريا، في بلدة صغيرة تدعى ڤيرا. سُمّيت أنا على اسم البلدة».

ثم هُرِعت نحو خريطة ألمريا وأشارت إلى بلدة تسمى ڤيرا.

بينما كنا نقف أمام القطعة المخصصة لمقاطعة آلاڤا، نظرتْ آنا إلى خوسيه وقالت: «أيمكنني أن أبوح لهم بسر؟».

ذكّرني سؤالها بإصرار خوسيه على منعها من الإجابة على أسئلتنا حين كنا في تاڤوني. أما الآن فقد اكتفى بهز كتفيه علامة على أنه لايمانع.

قالت «اعتدنا السير هنا كل يوم أحد. ومع مرور السنين اخترعنا قصة صغيرة لكل واحدة من المقاطعات الإسبانية. نحاول في أسفارنا تَذَكُّر كل القصص بالترتيب. فإن لم نستطع، نخترع قصصاً جديدة تماماً».

تبادلنا، فرانك وأنا، نظرات عارفة. ها قد وجدنا أخيراً تفسيراً لتلك الغمغمات الدائمة بين الإسبانيين. لم أكن، بالطبع، قد فهمت شيئاً مما يقولان،

ولهذا استخدمتُ فرانك مترجماً ووسيطاً؛ استخدمتُه في وظيفة لايزال ينعم بجهل قيامه بها.

أخذنا نسير متمهلين بمحاذاة المقاطعات الإسبانية. كان خوسيه وآنا يشيران إلى قِطَعِ الفسيفساء، ويرويان لنا حكاية جنيات صغيرة أو قصة طريفة عن كل منهما.

هنا بدأ فرانك وڤيرا يتبادلان دفع عربة مانويل. جال في خاطري أنه لولا النيزك الذي ضرب الأرض قبلِ خمسة وستين مليون عام، لوجدناهما، ربما، يدفعان عربة تحمل بيضة، بدلاً من طفلٍ؛ إذ لا بُدّ أن الديناصورات كانت ستخترع، بدورها، الدولاب في نهاية المطاف.

حين وصلنا إلى لوحة مقاطعة زامورا، وهي تقع قبالة الساحة تماماً، كانا يدفعان العربة معاً؛ ولكن حين وقفنا أمام ساراغوسا، وكان خوسيه يتحدث عن كاتدرائية نوسترا سنيورا دل بيلار الجميلة التي تزينها لوحات جصية رسمها غويا، حينها فقط قاما بالخطوة الحاسمة. فبينما كانا يعيدان العربة إلى آنا، تعانقت يداهما، ونظر كل منهما بثبات في عيني الآخر. الآن إذن اكتمل أحد نصفي الدائرة. أما النصف الآخر فهو رسالة فرانك إلى ڤيرا. لم يكن في نيتي أبداً أن أشكّل من هذين النصفين كلاً. ولم يخطر لي ببال أن ألتقي فرانك في الروتندا في فندق بالِس. أما وقد حدث اللقاء، فقد تسبب لي بكثير من وجع الرأس، لكنه ألهمني أيضاً الكثير من الأفكار الجديدة.

في نقطة ما من جولتنا سألني خوسيه عن سير عملي في الكتاب الذي بدأتُ بجمع مواده حين كنا في فيجي، وهنا من جديد رفعتُ إصبعاً إلى شفتي، وأعلنت أني لا أتحدّث أبداً عن عملي الجاري.

كرر خوسيه طلبه: «لم أسألك إلا عن سير العمل في الكتاب».

أدركتُ، وعيون الجميع مُثبّتةٌ عليّ، أن من غير اللائق أن أبقى أنا الوحيد الذي لم يزد شيئاً منذ آخر لقاء لنا، ولا سيما أن الجميع انفتحوا على بعضهم، بل إن الآخرين تمكّنوا من إنتاج مواطنين جُددٍ للعالم. قلتُ:

«يتضمن الكتاب قصة واقعية بقدر ما هي عمل من أعمال الخيال. غير أني لا أدري أي القصتين أشد غرابة من الأخرى. إنهما مثل الدجاجة والبيضة. فلولا القصة الأصلية لما أمكن للمبتكرة أن توجد، ولولا القصة المبتكرة لما أمكن التفكير في القصة الحقيقية أصلاً. ثم إنه من المستحيل أن نحدد أين تبدأ القصتان وأين تنتهيان. ليست البداية وحدها هي التي تحدد النهاية، النهاية بدورها تحدد البداية. سبق لنا أن تحدثنا عن هذه المسألة: لم يُسمع هدير الانفجار الكبير إلا بعد خمسة عشر مليار عام على وقوعه».

ألَحَّتْ ڤيرا بالسؤال: «ولكن ما هو موضوع القصتين؟».

فكّرتُ مليّاً ثم قلت: «إنهما حول الفقاريات».

اتسعت عينا فرانك دهشة، وقال: «الفقاريات؟».

أشرتُ أن نعم: «تدوران حول السينابسيدات، وخاصة حول البرعم الأخير على العسلوج، أعني الرئيسات بعد الحيوانية. أنا بالذات واحدٌ من هذه المخلوقات، وقد بلغت الآن خمساً وستين سنة من العمر. لذا ليس غريباً أن أفكر الآن أني منحدر من زبّابة صغيرة عاشت هنا قبل خمسٍ وستين مليون سنة، أو أيضاً من برمائي عاش هنا قبل 365 مليون سنة. حسناً، جميل، جيدا لكن لعلنا لانزال في طور الخادرات(*) لم نتجاوزه».

قلت ذلك، ثم انحنيت أولاً للعربة التي تحمل مانويل ثم لبطن ڤيرا.

«لمّا يَنْتهِ بعدُ سباق التتابع الوراثي الهائل هذا. سيستمر السباق يا أصدقائي، وسيبتعد عنا كثيراً ويواصل رحلته. أما معرفة مآل هذه الرحلة، فلا يزال مبكراً الأمل فيها».

هزت آنا رأسها بصمت، وانتابني شعور بأنها لن تتلهف للحصول على كتابي والتهامه ما أن يُنشر. لكن، لكنها قد تفعل ذلك أيضاً.

كانت رسالة فرانك إلى ڤيرا مرفقة بأربع مجموعات تتكون كل منها من

(*) الخادرة حسب المورد هي الحشرة في الطور الذي يعقب اليرقة (م).

ثلاثة عشرة صورة من تاڤوني، وعلى ظهر كل منها كتبتْ آنا المانيفِستو الذي كانت وخوسيه يلقيانه في تجوالهما. حاولتُ، ونحن نعبر ساحة بلازا دو إسبانيا من طرف إلى آخر، وكذلك طوال وقت فرجتنا على مقاطعات إسبانيا من آلاڤا إلى ساراغوسا، حاولت أن أستظهر ذهنياً ما علق في ذاكرتي من المانيفِستو، مرتِّباً حِكَم البيان ترتيبَ المقاطعات الإسبانية. استوقفني، وأنا أحاول التذكر، أنه تعيّن على خوسيه أن يشير إلى أن المانيفِستو حُرِّرَ لشريكين مدى الحياة. إذ يكاد الأفق الذي يبسطه المانيفِستو يفوق طاقة من لا يجد يداً أخرى تؤازره.

لم يعد فرانك قانطاً كما كانت حاله حين تحدثنا في بستان النخل في ماراڤو. يُخيَّل إليَّ أنه يتحمل الآن بيسرٍ أكبر فكرة الأبدية المفقودة. على الأقل لم يعد يندفع وحيداً نحو عتمة الليل الكوني. ها هو الآن يجد من يصحبه على ذلك الدرب الشاق. نعم، لايزال ملاكاً في ضائقة، لكن الضرورة تُعلِّم الملاك الذي فَقَدَ أجنحتَهُ أن يحب.

افترقت سبلنا عند ساحة بلازا دو إسبانيا. آنا وخوسيه ومعهم مانويل ذهبوا إلى البيت، بينما قال فرانك وڤيرا بصراحة أنهما يحتاجان إلى قضاء ما بقي من نهاية الأسبوع وحدهما.

وهكذا وجدتُ نفسي وحيداً من جديد. بيد أني شعرت برابطة حميمة تشدُّني إلى كل واحدٍ من أصدقائي الشبان أولئك، رابطة أقوى بكثير مما يمكن لأيٍّ منهم أن يتصوّر.

قبل أن أعود في قطار إيڤ إلى مدريد ومنها بالطائرة إلى غاتويك في بلدي، تمشيت نحو نهر غوادالكويڤير، ثم قطعته عبر قنطرة سان تلمو لأجد نفسي، على حين غرة، واقفاً أمام كنيسة سانتا آنا في تريانا. كانت أبواب الكنيسة مفتوحة، وفجأة تملكني، أنا هذه المرة، خاطر الرؤية السبقية.

تجمّع أثناء وقوفي في ساحة الكنيسة ذات اللون الصَّدَفي حشد من الناس يرتدون الأسود. عرفت من لباسهم أن قداساً على راحةِ نفسِ ميّتٍ سيُتلى.

وحين بدأ الناس بدخول الكنيسة دخلت معهم. لم أفهم إلا قليلاً مما قاله القس، لكن كان من الواضح أن المتوفى امرأة شابة لأني استطعت بسهولة تمييز أبويها وزوجها.

بينما كان القس يقوم بعملِهِ، بدأت أسائل نفسي من كانت هذه التي قُطِفَتْ باكراً، ولماذا أُخِذَتْ أصلاً، وهلْ أنا مسؤول بأية صورة عن وقوع ما وقع.

حين غادرنا الكنيسة، لمحتُ القزم الذي رأيته قبلاً في حدائق الكازار. وبينما كنت أمر عبر باب الكنيسة، رفع ناظريه وغمز لي. لعله عرفني من اليوم السابق. لا أذكر إن غمزتُ له بدوري، إلا أنه أشار لي بأصبعه، وسحبني جانباً عن بقية الحشد. مدّ يده إلى جيب معطفه الداخلي، ثم قلّب في رزمة صغيرة من الصور الفوتوغرافية الملوّنة وأعطاني واحدة منها. إنها صورتي وأنا أجلس في الساحة أمام بورتا دو مارشينا في حدائق الكازار. بحثتُ بسرعة في جيوبي عن بعض قطع النقد الصغيرة، لكن القزم رفض قبول المال قائلاً: «دونادا، دونادا!». شكرته شكراً جزيلاً، لكن قبل أن أنعم النظر فيه اختفى هو واختفى الحشد كله.

وقفتُ وقتاً طويلاً في الساحة أمام كنيسة سانتا آنا أنظر إلى صورتي. لم أرَ إلا ما كنت أعرفه من قبل، وما عرفته على الدوام. رأيت رئيسياً حزيناً، ولم أجد سلاماً ومصالحة في تلك النظرة المقفرة التي قابَلَتْني. وهكذا أدركتُ أخيراً أن الرواية التي أكتُبها لم تكن عن فرانك وفيرا أو عن آنا وخوسيه. إنها عن شيلا والسوليتير، وعني أنا أيضاً.

بحرَكة تكاد تكون غريزية قلبتُ الصورة التي أخذْتُها لتوّي. على قفاها كتب القزم كلاماً بالحبر الأحمر: قد يكون الإنسان الكائن الحي الوحيد في الكون كله، المتميز بوعي كوني. لذا، ليس حفظ البيئة الحية، على هذا الكوكب، مسؤولية كوكبية فحسب، إنه مسؤولية كونية. قد تهبط الظلمة من جديد يوماً. وهذه المرة لن ترفرف روح الرب فوق المياه.

المانيفستو

♣ 1 ثمة يوجد عالَم. لو تعلّق الأمر بالاحتمالات، لشارَفَ هذا الوجود على الاستحالة. لَكان ارجح بكثير لو أن المصادفة قضت ألّا يوجد شيء على الإطلاق. آنذاك، على الاقل، ما كان احدٌ ليتساءل عن سبب عدم الوجود.

♣ 2 لعينٍ غير محابية، لا يبدو العالم ظاهرة شاذة وبعيدة الاحتمال فحسب، بل هو ايضاً مصدر توتر دائم للعقل. هذا إن كان العقل موجوداً، اعني إن كان العقل غير المحابي موجوداً. هكذا يتكلم الصوت الصادر من الأعماق. هكذا يتكلم صوت الجوكر.

♣ 3 هنا والآن، الصوت الناطق هو صوت ورثة البرمائيات. ينطلق من حنجرة أبناء عمومة العظاءات البرية، المقيمة في الدغل الإسفلتي. السؤال الذي يطرحه ورثة الفقاريات ذات الفرو، هو: هل ثمة عقل يسمو على هذه الشرنقة، عديمة الحياء، التي تتوسع وتتوسع في كل اتجاه.

♣ 4 يتساءل المرء: ما فرصة انبثاق شيء ما إلى الوجود من لاشيء؟ أو بالعكس طبعاً: كم تبلغ احتمالات وجود شيء منذ الأزل؟ او ايضاً: أمن الممكن تقدير احتمالات ان تَنْفُضَ المادة الكونية، ذات صباح، نوم العصور عن اجفانها، وتصحو على الوعي بذاتها؟

♣ 5 إن كان ثمة إله فهو ليس عظيم البراعة في عدم ترك اثرٍ يدلُّ عليه؛

إنه، اكثر من اي شيء آخر، استاذٌ في الإخفاء. ليس العالم شيئاً يعرض نفسه للناظرين. فالسموات لاتزال تحتفظ باسرارها. وهناك نميمةٌ تدور بين النجوم. لكن احداً لم ينس الانفجار الكبير بعد. منذ ذلك الوقت دانت السيادة للصمت، واخذت الاشياء كلها تتباعد. لايزال المرء يصادف قمراً، او نيزكاً. لكن ليس لك ان تتوقع ترحيباً ودياً منها. إذ لا بطاقات زيارة تُطبع في الفضاء.

♣ 6 في البدء، اي منذ زمن بعيد جداً، كان الانفجار الكبير. هذا مجرد تذكير بعرض الليلة المسرحي الإضافي. لايزال في وسعك انتزاع بطاقة دخولٍ لنفسك. باختصار، يدور العرض المُعاد ويدور خالقاً نظّارة العرض انفسهم. وعلى كل حال، دون نظّارة يتحمسون، لن يكون من المعقول ان نعتبر العرض عرضاً. لاتزال المقاعد متوفرة.

♣ 7 من كان يمكن ان يتمتع بعرض الألعاب النارية الكوني حين كانت صفوف المقاعد في السموات ملأى بالجليد والنار فحسب؟ من كان يمكن ان يتخيل ان اوّل برمائي جسور لم يَخْبُ خطوة صغيرة فحسب نحو الشاطئ، بل وثب وثبة عملاقة على الطريق الطويل إلى حيث استطاعت الرئيسات ان ترى مشهد تطورها الشامل والفخور منذ بداية ذلك الطريق نفسه؟ لم يُسمع هدير الانفجار الكبير إلا بعد خمسة عشر مليار عام على وقوعه.

♣ 8 لا مجال لإنكار حقيقة ان خلق عالم كاملٍ مأثرةٌ جديرةٌ بكل تقدير. غير ان الاجدر بالاحترام هو عالم كامل قادر على خلق نفسه. والعكس بالعكس، لامجال لمقارنة تجربة المخلوق مع الإحساس الغامر الذي يولّده ابتكار المرءِ ذاتَه من العدم، ثم الانتصاب على قدميه معتمداً على نفسه فحسب.

♣ 9 يحس الجوكر انه ينمو، يشعر بذلك في ذراعيه وساقيه، يشعر انه

ليس مجرد شيء تخيّله هو نفسه. يشعر بالميناء والعاج ينبتان في فم الحيوان الشبيه بالإنسان الذي هو فمه. يشعر بخفة أضلاع الرئيسي تحت مبذله، يحس بالنبض الثابت الذي يخفق ويخفق، ضاخاً السائل الدافئ في جسده الآن.

♣ 10 ما من شيء شاذ في افتراض أن الخالق قد ارتد خطوة أو خطوتين، جافلاً، بعد ان شكّل الإنسان من التراب، ونفخ نَفَس الحياة في منخريه، مُسوّياً منه كائناً حياً. المفاجئ في هذه الحادثة هو عدم شعور آدم بالدهشة.

♣ 11 يتجول الجوكر بين الجن الصغار في إهاب أحد الرئيسات. يُنْعم النظر في يدين غريبتين هما يداه، يُمسّد خداً لا يعرفه هو خدّه، يتلمس محجره، ويعرف انه يُخفي لغز الذات المقيم، هيولى الروح، هلام الإدراك. لن يستطيع ابداً أن يدنو من جوهر الأشياء. يتصوّر بغموض انه، ولا بُدّ، دماغ مغروس. لذلك هو لم يعد هو.

♣ 12 ثمّة توقٌ يجتاح العالم. كلما ازداد شيء قوة وجبروتاً، احتدّ شعوره بعُسرِ خلاصه. من ذا الذي يصغي إلى معاناة حبة الرمل؟ من يعير اذناً إلى أشواق القملة؟ لو لم يوجد شيء، لما تاق احد إلى شيء أبداً.

♣ 13 نحمل روحاً، وتحملنا روح لانعرف عنها شيئاً. حينما ينتصب اللغز على ساقيه دون أن يجد حلاً، يحين دورنا نحن. حين تقرص صورة الحلم ذراعها هي دون أن تصحو، إنما هي نحن. إنما نحن اللغز لايحزر جوابه أحد. نحن حكاية الجنيات العالقة في أسر صورتها هي. نحن ما يهيم في كل وادٍ من دون أن يبلغ فهماً واضحاً.

♦ 1 ثمة ما يصيخ اذناً ويفتح عيناً؛ يطلع من ألسنة اللهب، يطلع من الحساء البدائي الكثيف، يطلع عبر الكهوف، ويطلع، يطلع فوق أفق السهوب.

♦ 2 لايلتف الممر السري نحو الداخل، بل نحو الخارج؛ ليس إلى داخل المتاهات بل نحو خارج المتاهات. صاعداً من البخار الهيدروجيني، صاعداً من السُّدُم الدوّارة ومن النجوم المنفجرة، صاعداً مضى الممر السري. كانت الخطوة الأخيرة شبكة من جزئيات عملاقة ذاتية الصُنع.

♦ 3 امتد نسيج الأسرار العائلية العنكبوتي من التشكيلات المجهرية في الحساء البدائي إلى السمكة البصارة مفصصة الزعانف والبرمائيات الراقية. بعناية حُمِلت عصا السبق من قبل الزواحف ذات الدم الحار، ثم البروزيميات البهلوانية، ثم القرود المتجهمة شبه الإنسانية. هل ثمة إدراك ذاتي كامن يترصد، من مكمنه في أدمغة الزواحف، فرصة الظهور؟ اما استطاع اي شبيه بالإنسان غريب الأطوار، وهو في خدر النعاس، تحصيلَ إلماعةٍ عن الخطة الإلهية بالذات؟

♦ 4 مثل سديم مسحور يرتفع المشهد الشامل، يرتفع عبر السديم، يرتفع فوق السديم. يحضن أخو النياندرتالي المحتفى به حاجِبَه، وهو يعرف انه خلف جبين الرئيسي الذي هو جبينه، تموج مادة مخية لينة؛ إنها الريان القائد للتطور، إنها الكيس الهوائي الواقي لمهرجان البروتين، الكيس الذي يفصل بين الروح والمادة.

♦ 5 يقتحم الوعي حلبة السيرك المخي لرباعي الأطراف. إنما في هذه الحلبة تُعلَن أحدث انتصارات الأنواع. إنما في الخلايا العصبية الدافئة للفقاريات ترتفع اولى سدادات الشمبانيا. أخيراً، تنجز الرئيسات ما بعد الحداثيةِ مسحها الشامل. ولا خوف عليها؛ فالكون يمسح نفسه بزاوية منفرجة.

♦ 6 فجاة ينظر الفقاري خلفه، ويرى الذيل المبهم لبني عمومته عبر التامل الاسترجاعي في ليل السنين الضوئية. الآن فقط بلغ الممر السري

نهايته، وما تلك النهاية إلا وعي الرحلة الطويلة نحو النهاية نفسها. كل ما في وسع الفقاري فعله هو صفقُ يديه، صفق الطرفين الذين يتركهما وديعة لورثة النوع.

♦ 7 الفيل، بطبيعة الحال، منزعجٌ من حقيقة أن أسلافه سلكوا فجاة زقاقاً مسدوداً لانهاية له. وفاز بالتكريم البروزيمي. قد يبدو الأمر سخيفاً، لكن البروزيمي خلافاً للفيل، لم يكن ينقصه حس الاتجاه. لاتؤدي كل الطرق إلى الجوكر.

♦ 8 من الأسماك والزواحف، ومن الزبّابة الصغيرة الحلوة كالسكر، ورث صوص الرئيسات زوجاً من العيون الجميلة ثنائية الاتجاه. الورثة البعيدون للسمكة مفصصة الزعانف يدرسون ترحال المجرات عبر الفضاء، وهم على علم بانقضاء مليارات من السنين قبل أن تبلغ عيونهم ما بلغته من كمال. لقد صُقِلت العدسات باستخدام جزيئات عملاقة. اما تركيز النظر فالفضل فيه لبروتينات عالية التكامل وحموضٍ أمينية.

♦ 9 في كرة العين نِزَاعٌ بين الخلق والانعكاس. ما كرتا البصر ثنائيتا الاتجاه إلا بابان سحريان دوّاران تلتقي عبرهما الروح الخالقة بالروح المخلوقة. إن العين التي تشرف على الكون من علٍ هي عين الكون ذاته.

♦ 10 ليس بنو الجن كائنات افتراضية، بل هم فقاريات. إنهم الظبي السمكة، بيوض الضفادع، ذرية الزواحف الطافرة. بنو الجن فقارياتٌ خماسية الاصابع، هم الورثة الشرعيون للزبّابة البدائية، للرئيسي — بلا ذيل وهو ينحدر من الاشجار، ممثلاً الصدى المكتوم للطبل البدائي.

♦ 11 لم يات الجن من الظاهر بل من الباطن. إنهم نسيج العنكبوت الذي

يستلهم التركيب المجهري لعناكب الـ DNA النشطة. ليس بنو الجن «اخيِلَة ظلٍ» ترتسم على جدار كهف. إنما هم مستعمرات خلوية عالية التمايز. ليسوا استيهامات. إنما هم حكايات جنيات، محض حكاية جنيات.

♦ 12 الكوكب الحي يُدار الآن من قبل مليارات من الثدييات العليا فائقة الذاتية. لقد نشات كلها من ذات الخليج، من بطن ذات السمكة مفصصة الزعانف. ما حصل ابداً أن كان اثنان منهما متطابقين كل التطابق. ما حصل ابداً ان حطّ اثنان من بني الجن على ذات الكوكب.

♦ 13 يقف الجوكر على الطرف الأقصى للممر السري. يعرف انه يحمل بُقْجة ورثها منذ زمن سحيق القِدم، بقجة لاتتكون من صُرَرٍ واكياسٍ، بل تتوزع حمولتها في كل خلية من خلايا جسده. يرى كيف تواظب الأرض على نشر تماثيل الـ DNA الغنية بالتفاصيل، التماثيل التي تخضع لمقاييس مجهرية وباطنية. تُرى من هو فيل هذه السنة؟ اين هي نعامة هذه السنة؟ من هو، في هذه اللحظة بالذات، اشهر رئيسي في العالم؟

♥ 1 ها هم بنو الجن ضمن حكاية الجنيات الآن، غير أنهم عُمْيٌ عنها. أتكون حكايةُ الجنيات حكاية جنيات حقيقية لو استطاعت أن ترى نفسها؟ أتكون الحياة اليومية معجزة لو أنها مضت تشرح نفسها على الدوام.

♥ 2 بنو الجن نشطاء أكثر مما هم عاقلون، خارقون للمالوف أكثر مما هم موثوقون، أشد غموضاً مما يستطيعون هم بالذات تصوّره بما اوتوهُ من فهم محدود. مثل نحلات طنانة تطير من زهرة إلى زهرة عصر

أحد أيام آب الناعسة، مثلها يتمسك جن الموسم بمساكنهم المدينية في السموات. وحده الجوكر ينأى بنفسه عن هذا المصير.

♥ 3 يدير بنو الجن مناظيرهم اللاسلكية نحو سُدُم بعيدة تقع على التخوم الخارجية لحكاية الجنيات المنطوية على ذاتها. غير انه لا يمكن فهم الأعجوبة من الداخل، وما الجن إلا أسرى الداخل. يعيش بنو الجن في دنياهم هم. إنهم أسرى الجاذبية الوجودية لهذا اللغز. إنهم ما هُم، ما لايفهمون: مجرد امتدادٍ في الزمان والمكان.

♥ 4 على ارتفاع أربعين ألف قدم، يجلس بنو عمومة الأسماك من الدرجة الخامسة مرتاحين، يُدنون ابصارهم من الأضواء المنبعثة من مسكني هانزل وغريتل. حتى لو انقطعت الكهرباء سيكون ثمة رواح وغدوٌ في الغسق. حتى لو انفجرت كل مصابيح الكهرباء سيظل ينبعث وهج من الأرض.

♥ 5 نحن في الصباح الباكر في جِنّيا، ارض الجن، ولاتزال العتمة مخيّمة، رغم أن مئة ألف ضوء باطني تشتعل بلهب خافت قبل أن تضاء المصابيح الكهربائية. أخذ بنو الجن ينفضون الأحلام الكسلى عن أعينهم، لكن خلاياهم الدماغية لاتزال تنقل افلاماً واحدتُها إلى الأخرى. يجلس الفيلم في سينما يشاهد نفسه على الشاشة.

♥ 6 يحاول بنو الجن التفكير في أمور يصعب التفكير فيها إلى درجة انهم لا يستطيعون التفكير فيها. غير أنهم لا يستطيعون الامتناع عن التفكير أيضاً. لاتقفز الصور الجارية على الشاشة إلى داخل السينما وتهاجم جهاز إسقاط الصور. وحده الجوكر يجد لنفسه طريقاً نحو صفوف المقاعد.

♥ 7 يلعب بنو الجن أدوارهم المرتجلة على مسرح الحضارة السحري. تتلبسهم أدوارهم إلى درجة أن المسرحية لن تجد لها نظارة أبداً. ما

من غرباء، ما من وجهات نظر محايدة. وحده الجوكر ينسحب خطوة إلى الوراء.

♥ 8 الجنية الام تقف امام المرآة متفحصة الشعر الأشقر الذي ينحدر كالشلال على كتفيها النحيلين. تظن انها اجمل رئيسي انثى في العالم. صغار بني الجن يَخْبون هنا وهناك على الارض، وايديهم ملأى بقطع بلاستيكية صغيرة ملونة. الجني الاب يستلقي على الديوان، راسه يختفي خلف جريدة وردية اللون. يظن ان الحياة اليومية متماسكة.

♥ 9 بعد دهور من تحوّل الشمس إلى عملاق احمر لاتزال تُلتقط إشارات لاسلكية في السديم النجمي. هل ارتديت قميصك يا انطونيو؟ تعال إلى ماما فوراً! لم يبق إلّا اربعة اسابيع على عيد الميلاد.

♥ 10 في عتمة البطون المنتفخة، تسبح دائماً ملايين من شرانق وعي جديد كلياً بالعالم. ينسرب بنو الجن العزّل واحداً فواحداً حين ينضجون ويصيرون جاهزين للتنفس. ليس في وسعهم الآن تناول طعامٍ غير الحليب الجني الحلو الذي يتدفق من برعمين طريين في لحم الجن.

♥ 11 بثوبه الأزرق الواسع، يبدو الطفل الحوْليُّ السُكّري طيباً للاكل. الجنية الأم تراقبه، وهو يتارجح جيئة وذهاباً، على لوح خشبي رُبط بحبلين متينين إلى غصن شجرة اجاص ضخمة. وهكذا تفرض رقابتها المدققة على شرارات عصر هذا اليوم المنطلقة من النار الهائلة، الخارقة، المضرمة في الهواء الطلق. تشرف على كل شيء في الحديقة الصغيرة، لكنها عمياء عن الضوء المتلالئ الذي يوحّد الحدائق كلها معاً.

♥ 12 ملكة القلوب (بنت الكبة) هي زهرة ذاتها. حين تريد تزيين غرفتها او لقاء حبيبها، تقطف نفسها. ذاك حقاً عمل بطولي. وهي تعرف انها من ارومة نادرة. ازهار التوليب تكاد تنفجر لكي تفعل مثل فعلها. زهرة الربيع ترمقها بحسد. الزنابق تحني راسها بـإذعان.

♥ 13 كما حين ينتهي تصوير المشهد، وتُقَوَّض خلفيته وتحرق، كذا نحن حين نموت: أشباح في ذاكرات نسلنا. ثم نصير أطيافاً، يا عزيزي، ثم نصير أساطير. غير أننا لانزال معاً، لانزال نحن الماضي معاً، نحن ماضٍ بعيد. تحت قبة ماضٍ غامض لاأزال أسمع صوتك.

♠ 1 ينسل الجوكر دونما هداة بين الجن كأنه جاسوس في حكاية جنيات. يتوصل إلى بعض الاستنتاجات لكنه لايجد من يرويها له. وحده الجوكر هو ما يرى. وحده الجوكر يرى ما هو.

♠ 2 ما الذي يفكر به الجن حين يُطلق سراحهم من سر النوم ويصلون مكتملي التكوين إلى يوم جديد كل الجدة؟ ماذا تقول الإحصائيات؟ الجوكر هو الذي يطرح السؤال. ينتفض من الدهشة كلما تكررت المعجزة الصغيرة. لقد حُسِبت عليه تماماً مثلما تُحْسب عليه إحدى «مَلْعناته». هكذا يحتفل بفجر الخلق. هكذا يرحب بخلق فجر اليوم.

♠ 3 يصحو الجوكر من أحلام غير مغلولة إلى الجلد والعظم. يسارع إلى قطف توت الليل قبل أن يفسده النهار من فرط النضج. إن لم يقطفه الآن فلن يقطفه أبداً، إما الآن أو أبداً، ثم إما الآن أو أبداً. يعرف الجوكر أنه لن ينهض من السرير ذاته مرّتين.

♠ 4 ما الجوكر إلا دمية آلية تتفكك إلى قطعٍ كل ليلة. عندما يصحو يجمع الأذرع والسيقان ويُركّبها لتعود الدمية كما كانت أمس. كم كان عدد الأذرع! كم عدد السيقان؟ ثم هناك الرأس، وفيه عينان وأذنان؛ يجب أن يُركّبه قبل أن ينهض.

♠ 5 يصحو الجوكر داخل قرص عضوي مُدمّج مستقرٍ على الوسادة. يشعر أنه يحاول الحبو نحو شاطئ يوم جديد خارجاً من تيار ساخن من هلوساتٍ نصف مهضومة. أية طاقة نووية تلهب النار في أدمغة

بني الجن؟ ما الذي يجعل العاب الوعي النارية تنزُّ؟ أية قوة ذرية تشد خلايا الدماغ والروح وتربطهما معاً.

♠ 6 يشعر أنه يطوف في الفضاء الخالي. لا يستطيع الاستمرار على هذه الحال. الا يستحق المرء أن يتقدم خطوة اخرى؟ يُصْدِر الجوكر إيماءات متحدية في مرآة غرفة النوم، يحاول انتزاع نظرة ثاقبة من خيال روحه. لكن كل شيء يبقى كما كان. يصر باسنانه، يقرص نفسه في المعجزة.

♠ 7 فجاة ها هو يجلس على سرج رحلته المشؤومة من الألف إلى الياء. لا يذكر انه اعتلى السرج، غير انه الآن يشعر بحصان الوجود الجامح يرمح تحته، ثم تنتهي به قوى مبهمة إلى توقف طائش.

♠ 8 الجوكر واسع الثراء في افتراضاته، إلى درجة انه يحس، في لحظة دوار، بأنه ممتلئ قوة ونشاطاً. ما عدد الأجيال التي يستطيع حسابها منذ اول انقسام خلوي؟ ما عدد الولادات التي يستطيع إحصاءها منذ اول ثديي؟ حان وقت الأرقام الكبيرة؟ اما كان قطع شوطاً من الإعداد لتأملات هذا الصباح حين اخترقت اول سمكة ذات رئة سطح المياه؟ عندئذ، على حين غرة، يشعر المهرج الصغير بدوخة مميتة. غني جداً من حيث الخلفية، لكنه بلا مستقبل. غني جداً بماضيه، لكنه لا شيء فيما بعد.

♠ 9 الجوكر ملاك في ضائقة. إن سوء فهم مهلكاً هو الذي قاده إلى اتخاذ جسد من اللحم والدم. اراد فقط أن يشارك الرئيسات قِسْمَتَها بضع ثوانٍ كونية، غير انه سحب السلم السماوي خلفه. إن لم يُعِدْه احد الآن، فستدق ساعته البيولوجية دقاتها اسرع واسرع، وسيكون قد أزف وقت العودة إلى السماء.

♠ 10 باب الخروج من حكاية الجنيات مفتوح على مصراعيه. ينبغي على

احد ما بالطبع ان يبث تقريراً من هنا، لكن ما من أحد يستقبل التقرير. الجوكر مسحوب بلا رحمة نحو التيار البارد لكل ما هو غير موجودٍ في الخارج. يحاول إخفاء دمعة، لا، بل هو يبكي الآن فعلاً. وهكذا يستأذن المهرّج الرشيق مودعاً. يعلم انه لايستطيع منازعة قدره. يعلم ان الدنيا لن تعود ثانية.

♠ 11 الجوكر موجود نصف وجود فحسب في عالم الجن. يعلم انه سيذهب، لذا فقد دفع مستحقاته. يعلم انه سيذهب، لذا فهو منذ الآن نصف ذاهب. لقد جاء من كل ما هو كائن وها هو الآن ذاهب إلى لامكان. ما إن يصل، لن يستطيع حتى ان يحلم بالعودة. إنه ميممٌ صوب ارض لا وجود فيها حتى للنوم.

♠ 12 كلما اقترب الجوكر من العدم الابدي، راى بوضوحٍ الحيوانَ الذي يقابله في المرآة، حين هو يصحو على يوم جديد. ما من شيء يواسيه في النظرة التي لاتقبل عزاء، نظرة الرئيسي التعس. يرى سمكة مسحورة، ضفدعاً مستحيلاً من صورة إلى صورة، عظاءَه مشوهة. يفكر: هي ذي نهاية العالم. إنما هنا تبلغ رحلة التطور المديدة نهايتها المفاجئة.

♠ 13 مليارات من السنين تلزم لخلق إنسان. ولا تلزم إلا بضع ثوانٍ لموته.

من إصدارات دار الكلمة

الجنس ومنابع الموت	تاليف: وليم ر. كلارك
الجنس وطبيعة الأشياء	تاليف: ن. ج. بيريل
الجنس في أديان العالم	تاليف: جفري بارندر
قوّة الأسطورة	تاليف: جوزيف كامبل
الأساطير والأحلام والدين	تحرير: جوزيف كامبل
ليالٍ هندية (رواية)	تاليف: أنطونيو تابوكي
أقاصيص شرقية	تاليف: مرغريت يورسينار
نيتشة مكافحاً ضدّ عصره	تاليف: رودولف شتاينر
مفهوم العدل في الإسلام	تاليف: د. مجيد خدّوري
أصحاب الجلالة ـ الأهرامات	تاليف: ف. زامروفسكي
أسلافنا (الفيسكونت المشطور)	تاليف: إيتالو كالفينو
موسوعة الجيب لقواعد الإنكليزية	إعداد: نورالدين البهلول
هرمس مثلث العظمة (النبي إدريس)	تاليف: لويس مينارد
شخصية المولود البكر نشأةً وبلوغاً	تاليف: كيفين ليمان



مـــايـــا

جوستين غاردر روائيٌّ نرويجيٌّ بدأ حياته مدرّساً للفلسفة وانتهى إلى كتابة الروايات الفلسفية الممزوجة بخيالٍ رحبٍ؛ طبّقت شهرته الآفاق بعد روايته الشهيرة «عالم صوفيا» التي بِيعَ منها في تسعة أعوام أكثر من 16 مليون نسخة في خمسين بلداً وحُوِّلتْ إلى فيلم سينمائي وإلى قرص مُدمج (CD Room) وإلى مقطوعة موسيقية...

تتصدى روايته الجديدة «مايا» هذه إلى طرح الأفكار الكبيرة: خَلْقُ الكون، تطوُّرُ الحياةِ على الكرة الأرضيةِ، انبثاقُ الجنس البشريِّ، طبيعة الوعي، والغاية من الوجود الإنساني.

تلك هي الأفكار التي تمتلئ بها الشخصيات عند لقائها الذي فرضته المصادفة في جزيرة فيجي. جون شبوكْ ـ في الرواية ـ روائيٌّ إنكليزي يقضي فترة حدادٍ على زوجته المتوفاة؛ والنرويجي فرانك أندرسون عالِمُ أحياءٍ تطوري فقدَ طفلته وتغرّب عن زوجته فيرا؛ أمّا آنا وخوسيه فهما زوجان نجمان إسبانيان، يستحوذ عليهما حبٌّ جارف.

تتداخل وتتشابك قصص الشخصيات وتمتزج بخيوط من الوهم والغموض والخيال بحيث يصعب أن يحدد المرء أين تنتهي قصّةٌ ما وأين تبدأ أخرى، أو ما إذا كان يمكن تصديق ما تقوله الشخصيات عن نفسها. والألغاز في الرواية كثيرة... لماذا تكون «آنا» على تلك الدرجةِ المطلقةِ من الشَّبهِ مع لوحة «ماخا» الشهيرة للرسام العالمي الإسباني (غويا)؟ وما الدلالة التي يحتويها خروج الجوكر من خلف ورق اللعب ونزوله إلى الحياة البشرية؟.....

مع تقدم الحدث في الرواية، من فيجي إلى إسبانيا، وبين الحاضر ... غِنَى الرواية وتشابكها وتعقيدها.

في رواية «مايا» هذه جدالات وحوارات وتفسيرات وحلو... لحياة الشخصيات؛ ولحياتنا أيضاً. وهي تستكشف في الوقت ذاته أفك... ورة الحب. أشكالٌ عديدة من الحب تتملّك شخصيات الرواية. إنها روا... من الجرأة والخيال، وهي تظهر مرّة أخرى تفرّد جوستين غاردر وموه...



سورية ـ دمشق ـ برامكة ـ شارع فلسطين
ص. ب: 2229 ، هاتف ـ فاكس: 2126326